

مکسیم غورکی



SUNDSVALLS STADS BIBLIOTEK



207 55 22 2281 05

HP 1122

149 82 56 0001 X2 2202 00 00 00



Hsg GORKIJ Aqasis /88

مكسيم غوركي

المؤلفات المختارة في ٦ مجلدات

المجلد ٣

أقاصيص

ترجمة المعامي سهيل ايوب



دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة المقدمة : برهان الخطيب

М. ГОРЬКИЙ

Собрание сочинений
в 6-ти томах
Т. 3

Рассказы. 1892—1906

На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار التقدم ، ١٩٨٢

© دار «رادوغا» ، ١٩٨٨

طبع في الاتحاد السوفيتي

ISBN 5-05-001726-2

ISBN 5-05-001729-7

مقدمة

عندما ظهر الى الوجود اول نتاج ادبي يحمل اسم «مكسيم غوركي» المستعار عام ١٨٩٢ ، كان لمؤلفه ، وهو عامل في مدينة نيجني نوفغورود ، من العمر آنذاك ٢٤ عاماً . الا ان هذا الكاتب كان قد افلح حتى ذلك الحين باستيعاب صنوف الخبر والمعاناة مما تحفل به الحياة عادة فيما تمثلها بالقدر الذي لم يستطع احد ممن سبقه وعاصره من الكتاب ان يضاهيه في هذا المجال . بل ومن العسير ايضاً ذكر اسم فنان كلمة آخر تمكن من الأتلاق مثله والصعود بهكذا سرعة من اوطا قاع في الحياة الى ذرى الثقافة العالمية .

سيرة حياة غوركي معروفة تماماً للجميع فلا حاجة لاعادة سردها . إلا اننا نذكر فحسب انه حاول ، قبل اعوام من بدئه نشاطه الابداعي وذيوع صيته في ارجاء المعمورة ، وهو الفتى ، ذو التسعة عشرة ربيعاً ، مساعد الخباز آنذاك في احد افران مدينة قازان ، ان يضع حداً لحياته باللجوء الى الانتحار . فاي معاناة ساقته الى هذا الفعل ؟ لربما كان مدفوعاً الى حافة ياس مقيم تحت وطأة الكدح الثقيل في قبو القرن المظلم الخائق ، الشبيه بزنزانة ، والذي انعكس فيما بعد في «كونوفالوف» و«سته وعشرون رجلاً» و«فتاة واحدة» وغيرهما من قصصه ؟ كلا ، فقد اشتغل الفتى قبل ذلك حملاً ، فلاحاً اجيراً ، ساحباً للمراكب ، وعرف منذ طفولته شظف العيش ، والعمل الشاق اليومي المرهق الصعب . لقد ابهظ كاهله امر آخر اذن .

كان الفتى قد قرأ عدداً غير قليل من الكتب دار الحديث فيها عن امكانية «تعديل النظام الاجتماعي» وان الشعب لقادر على نيل حريته . ولقد آمن غوركي الفتى بهذا ، وبسدا له ان بإمكانه الهام هذا الايمان غيره من العاملين معه في القيو - السجن . الا ان هؤلاء الزملاء انفسهم راحوا يقنعونه ، اذ نشبت في قازان الاضطرابات الطلابية (لعب الدور الرئيسي فيها صديق غوركي العظيم فيما بعد - لينين) ، للمتوجه الى الطلاب لضربهم . فلم يجد ، وهو الذي اذهله هذا الموقف فراح يعاني من ازمة روحية حادة ، ما يعينه من كلمات ليشرح لهم فظاعة هذا الامر ، واستولى اليأس عليه تماماً ، فتردد دوي الاطلاق عند الجرف العالي المطل على نهر قازان .

لو كانت الرصاصة ، الموجهة الى القلب ، قد اصابت هدفها ، لما كنا عرفنا شيئاً عن الكسي بيشكوف ، ولما كان هنالك كاتب اسمه مكسيم غوركي ، لكانت حياته انتهت مثلما العديد من الحيوانات الفتية في ذلك العهد المظلم الذي حصل بعد عقم اتجاه «الخروج الى الشعب» وانحسار المد الثوري وتفاقم نشاط الرجعية . الا ان طريق الرصاصة مسرت الى جانب القلب فاخرقت الرئة ، وفتح الفتى عينيه في المستشفى ، وعندما تاب الى رشده ، رأى اولئك الزملاء من المخبز الذين اوغلوا في جرح روحه عميقاً ، الى جانبه ، اما الآن فقد قرأ على وجوههم القلق عليه ، والتعاطف معه ، ووخز الضمير المشوب بالحب . فهم : أن ليس هؤلاء الناس اردياء انفسهم ، بل تلك الظروف التي تحيطهم وتقضي عليهم بالجهل . واذن ، من العار الوقوع في هوة اليأس ، اما الحياة فيمكن ، بل ويجب

تغييرها الى الافضل . ولكن دون ذلك معرفة احسن بالحياة ، بالناس ، بالوطن الام ، وامتلاك ناصية كلمات وافكار ومُثُل قميّنة باستنهاض الشعب للكفاح .

ومنذ ذلك الحين لم تستطع اي محن ثني ارادة غوركي وليتها ، في وقت كانت المحن والمعاناة والاختار في حياته من الوفرة ما امكنها ان تكفي مئات الناس . بين عامي ١٨٩١ - ١٨٩٢ اجتاحت ارجاء روسيا كارثة عامة شملت جل الناس ، الا وهي الجوع ، الذي طرد ملايين الفلاحين من اماكنهم في مناطق الفولغا والمحافظة الوسطى ، فساروا عوائل عوائل ، وقرى قرى ، على الطرقات والدروب متوجهين الى الجنوب . بذل ليف تولستوي ، تشيخوف ، كورولينكو ، وغيرهم من الكتاب الروس آنذاك ، الكثير من الجهد لتنظيم المساعدات المقدمة للجوع . لم يكن غوركي وقتئذ كاتباً بعد ، بل واحداً من الجائعين ، فاجتاز معهم اوكرانيا ، القرم ، القوقاز . فيما ضُرب اكثر من مرة حتى كاد يشرف على الموت ، واحتجز غير مرة في مراكز الشرطة كشخص «مشبوه» وعلى العموم فقد اصابه من الازوال ما يُصعب على المرء احياناً تصور كيف عاش هذا الانسان وسلم من الازى في نهاية المطاف . إلا ان كل هذا لم يثبط من همته ولم يدفعه الى اليأس كما حدث له من قبل ، بل العكس : أضرم فيه احساس الاحتجاج ، وامتدّ بمعين لا ينضب من الطاقة ، وما آنذاك اصبح كاتباً .

حظى غوركي الشاب عدة اعوام بالثشر في دوريات ريف الفولغا ، ورغم ان موهبته الطازجة الساطعة جذبت لها في الحال انتباه ابرز فناني الكلمة آنذاك إلا ان شهرته لم تكن

جد عريضة . إلا أن كل شيء تغير عندما صدرت عام ١٨٩٨
اوائل مجموعاته من «القصص والصور القلمية» ذوات الحجم
الصغيرة ، والتي حازت على نجاح كبير وضعه في مصاف اكبر
كتاب ذلك الوقت . اما روايته «فوما غوردبيف» التي نشرت
بعد مرور عام واحد على صدور تلك البواكير فقد استقطبت
اهتماماً عريضاً كالذي استقطبته رواية ليف تولستوي «البعث»
المنشورة في ذلك الحين ايضاً . وعندما ظهرت أثر ذلك رواية
غوركي «الاصدقاء الثلاثة» وشرع بنشاطه المسرحي (بخاصة
بعد النجاح الذي حققته دراماه الفلسفية العبقريّة «في
الحضيض») ذاع صيته وشاع فتعدى حدود البلد وتجاوز
المحيط حتى اصبح عالمياً بحق .

سرعان ما انجبت نجاحات غوركي الاولى اوائل الاساطير
عنه ، ثم اصبحت هذه الاساطير فيما بعد اكبر مما كانت
شهرته تنمو وتتسع . واعلن كثير من النقاد أن ظاهرة شعبية
الكاتب الشاب تفسر بالاهتمام الاحتفالي الذي سببته سيرته
غير المألوفة اكثر من كونها مرتبطة بقوة موهبته . ولم يكن
ذلك صحيحاً : فقد بدأت نجاحاته قبل أن تصبح وقائع حياته
معروفة ، بل ان نجاحه الادبي بالذات كان وراء نشر مقتطفات
من سيرته في نهاية التسعينات من القرن الماضي . بينما
راى كثير من النقاد ان سبب شعبية غوركي تعود الى انه
صور في اعماله اناساً لامنتهين - متشردين ، رسم مشاعرهم
وامزجتهم وطموحهم الفوضوي للشخصانية «وحريتها المطلقة» ،
وتوافقهم مع آراء فريدريك نيتشه المحترقة «للجموع» والاخلاق

وكل انواع الالتزام الاجتماعي . ولم يكن ذلك صحيحاً ايضاً ؛
فغوركي صور في اعماله المتشردين والحفاة فعلاً ، وبطريقة
ساطعة لم يضاهيه فيها احد من قبل . إلا انه لم يشاركهم
طموحاتهم الفوضوية ابداً ، وكان منذ البداية من غلاة المناوئين
للميتشوية .

لنأخذ واحدة من اوائل قصصه - «رفيقي في الطريق» .
إنها تبدو لنظرة سطحية مجرد قصة - مذكرات او مشاهد من
سيرة المؤلف ، فما فيها وصف حقيقي للقاء حقيقي تم بين
القاص وواحد من ممثلي «الفيلق الذهبي» المبرقشين (هذا ما
كانوا يطلقونه آنذاك على عالم المتشردين) : امير جورجسي
مفلس انحدر الى حضيض المجتمع ، الا انه لم يفقد كبريائه ،
ولا ثقته بخصوصيته ، وحقه في اضطهاد الآخرين : «المحق
من كان قوياً !» . ينظر القاص «رفيقي في الطريق» هذا
كضحية للحياة يستدعي العطف ، وكطفيلي يستثير المزيد من
الاحتجاج الداخلي . ولكن ، لِمَ يواصل القاص السير مع
«رفيقي في الطريق» هذا مشتغلاً اثناء ذلك قدر اثنين ولاتنين ؟
ولِمَ يسمح له ، وهو يرى عقم خطابه الموجه الى هذا
«الرفيق» لبناء حياته على اساس «التعاون المشترك» ، بالايفال
في الاتكال على الغير والاعتماد على استغلاله ؟ عندما نضع هذا
السؤال امامنا نبداً في فهم ان قصة «رفيقي في الطريق» اعمق
بكثير مما تبدو للوهلة الاولى ، وان فيها ، من ناحية الجوهر ،
حقيقة نفسية مثيرة للاهتمام ، علاوة على «التجربة» الاجتماعية -
الفلسفية . «لقد استعبدني - ، يكتب غوركي ، - فخضعت له
وامعنت في دراسته ، مراقباً كل ومضة تعبير ، محاولاً ان

اتخيل اين واستناداً الى ماذا سيستبيح هذا الشخص لنفسه ان ينطلق في فرض سلطانه على رجل آخر . . .» اراد القاص بكلمات اخرى ان يبين لنفسه : الى اي مدى يستطيع الشر والعنف ان ينموا اليه ، اذا لم يتم التصدي اليهما ؟ فاوصلته النتائج الى ان «رفيق الطريق» هذا (الذي لا عدد لأمثاله) لن يتوقف عند حد معين بنفسه ابداً «في فرض سلطانه على رجل آخر» بل ان حتى اطيب الكلمات لن تجعله من ذاتها يغير نفسه . فالمطلوب قلب جنري لكل النظام الاجتماعي الذي ينجب امثال هؤلاء «رفقاء الطريق» وبضمنهم اولئك الذين كان لهم حظ اوفى فلم ينحدروا الى حضيض المجتمع . انما مكثوا في «أعاليه» .

هنالك اناس متنوعون رسمهم غوركي في اعماله من مثلي «الحضيض» استدعوا عند الكاتب ردود فعل مختلفة ؛ على احد الخطوط يقف الانانيون ومحبو السلطة «الرفقاء في الطريق» ، وعلى آخر هنالك كونوفالوف وامثاله ، الموزع بين الاهتمام بالعمل والتشرد . ولكن حتى هؤلاء الشبيهين بكونوفالوف يقدمهم الكاتب لا باعتبارهم نماذج صالحة للحذو ، بل كـ«قرائن مادية ملموسة لجرائم» العالم القديم ، الذي يشوه الطباع البشرية ، والمواهب ، وأفضل الطموحات . لقد تعاطف غوركي مع المعاناة التراجيدية للناس ، الذين فهموا الطابع العبودي للعمل القسري ، ولكنه لم يتعاطف مع استغلالهم الشاهد على عدم المعرفة بالطريق الواقعي الصائب الى الحرية ، اي رفض فكرة العمل وكل مسؤولية امام المجتمع ، والركون الى التمرد الفوضوي ازاءه . لانه فهم ، ان التمرد الفردي لامثال

هؤلاء الناس عقيم ، وانهم باقلاعههم من شاطئ المجتمع غير قادرين على الرسو الى آخر ، فلا يكون في وسعهم ومقدورهم الا الانتهاء في توحيد مأساوي .

لقد كانت قصته «العجوز ايزرغيل» بمثابة برنامج بالنسبة الى الشاب غوركي : فالاقسام الثلاثة لهذا العمل الادبي تنير ثلاث طرق ممكنة بالنسبة لكل انسان . يتكون القسم الاول من اسطورة عن لاراً (وكما تبين العجوز الفجرية ايزرغيل ، لاراً تعني «المنبوذ ، المطرود» . الفكرة الاساسية لهذه الاسطورة ان ليس هنالك عقاب اشد بالنسبة للانسان من النبذ ، وانقطاع الصلة بالشعب . ان بطل فريدريك نيتشه المفضل «الانسان المتفوق» زرادشت يقول ان «الانسان يكون سعيداً فقط عندما يكون متوحداً» ؛ ولكن حكاية لاراً تؤكد ان التوحيد انما هو انعكس مصير يصيب المرء ، بل وحتى الموت كعقاب انما هو اهون شأناً من ذلك . بينما يصور لنا قسم الاقصوصة الختامي ، الذي هو عبارة عن اسطورة حول قلب دانكو المشتعل ، سعادة الانسان المضحي بنفسه من اجل حرية الشعب . فما الذي يفصح عنه القسم المركزي لهذه القصة الثلاثية ، المخصص لمصير ايزرغيل نفسها ؟ انه يقول ان من المستحيل على المرء اجترار ماثرة وفي نفس الوقت العيش لنفسه ، للحب لسعادته الشخصية ، اي ان يكون دانكو ولاراً في آن واحد - مستحيل ، لأن «نغم الخوف والخنوع» يأخذ في التردد آنذاك في روح الانسان القوي الشجاع ، كالذي كانته ايزرغيل نفسها في شبابه ، ومثل هذا الانسان لا يستشير لدى المقابل الانبهار كما هو الحال مع

دانكو ، ولا الكراهية كما الشأن مع لاراً ، بل الشفقة حسب .

في عام ١٩٠٠ ، على تخوم قرنين من الزمان ، صاغ غوركي عملاً أدبياً نقل فيه موضوع «العجوز ايزرغيل» من ميدانها الاسطوري الى ميدان الحياة الواقعية . انه الرواية «الاصدقاء الثلاثة» حيث يبدو القارى وكأنه يقاد ايضاً الى مفترق ثلاث طرق ، عليه ان يختار واحدة منها . عندما انشأ غوركي هذا العمل كان هو نفسه عند مشارف هذه الطريق الجديدة ، المنقذة الوحيدة . لقد اضرمت بواكير اعماله المتميزة بصدق واقعي جريء ، ونفّس عال بالنسبة لفنان ذي سيرة جد صعبة ، وتمجيد بطولى «لجنون الشجعان» ، كـل مؤشرات الفتوحات الفنية العظيمة . ولكن غوركي آنذاك لم يكن قد امتلك بعد ناصية الوعي الاشتراكي ، ولم يستوعب تماماً مهمة البروليتاريا التاريخية . فقد صور الطبقة العاملة في نتاجاته كطبقة مستغلة ، مظلومة ، مسحوقة ، معانية فقط ، وليس قوة كبرى قادرة على تحرير نفسها وكل الجماهير الكادحة . ولقد كان غوركي بحاجة الى دفعة صغيرة ليحدث الانعطاف في وعيه ، وكانت هذه الدفعة ذلك النهوض الثوري العارم الذي اجتاح البلد في بداية القرن ، والذي استجاب له الكاتب بالهام في «انشودة نذير العاصفة» . اما لقاءه بـلينين فلم يكن اقل دلالة من ذلك ، عبر مؤلفاته وافكاره في البدء ، ثم به شخصياً فيما بعد ، حيث اصبح لينين له صديقاً ومعلماً . توصل غوركي الى اللينينية بطريقة — الخاصة كفنان اقلقته القضية الانسانية عميقاً .

ولقد عالج هذه القضية ايضاً ، بسعة و ثراء في روايته «الام» المؤلفة عام ١٩٠٦ ، هذا الكتاب غير المعتاد ، ذو القدر غير المعتاد . يمكن التأكيد انه لم يحظ عمل قصصي طيلة تاريخ الادب العالمي تقريباً بمثل هذا العدد الكبير من القراء كما حظى به كتاب «الام» ولم يؤثر كتاب آخر غيره على مصائر ملايين الناس بمثل تلك القوة والمباشرة اللتين كانتا من نصيبه .

يقال عادة ان رواية «الام» تصور حياة الطبقة العاملة ، وكفاحها ضد الحكم الاستبدادي والبرجوازية ، وتنامي وعيها الثوري وبروز القادة والزعماء من وسطها ؛ كل هذا صحيح بالطبع ، إلا أنه معمم اكثر من اللازم .

تصور لنا الرواية في رأينا لا الكفاح الثوري حسب ، بل ، وايضاً ، كيف تجري التحولات داخل انسان الجماهير اثناء عملية هذا الكفاح ولهيه المطهر ، فيحيى ميلاداً ثانياً - ميلاداً روحياً . ها هنا يقص لنا كيف تنبعث روح الانسان وهي تتحرر من الخوف امام آلة القسر الصماء الفاعلة بتأثير الاستمرارية حسب ، امام «وسائلها» من المخاليق المفتقرة لكل مثال ، والتي لا يجمعها مع البشر غير مظهرها الخارجي . ان مبدا التصوير في النثر ، كما في الشعر ، وكذا في المسرح ، لم يكن ليعتبر مقبولا فيما بعد ان لم يكن يعتمد على معارضة الانسان المتحلل اجتماعياً بالانسان الاجتماعي ، والانسان الآلة بالانسان عموماً . وكان غوركي اول من استشر هذا المبدأ لتصوير كفاح الطبقة العاملة ضد النظام الرأسمالي ، فيما اكتسبت موضوعه «بعث» الانسان معنى فلسفياً عميقاً

وحيوياً في ظل هذا الامر . فاذا كان دستويفسكي ، على سبيل المثال ، يخشى ان يفاقم الكفاح الثوري في نفوس الناس مشاعر العدا ضد بعضهم البعض ، فان غوركي قد ارانا العكس : ان الكفاح الثوري وحده قمين بتطهير الانسان من كل الانانيات في داخله . واذا كان «بعث» الانسان بالنسبة لليف تولستوي يرسم على طريق تكامله الذاتي الداخلي لا غير ، والمرتبط بانقطاعه عن السياسة ، بفكرة عدم مقاومة الشر ، فان بطله «الام» تمتلك الحق في ان تهتف حالما تضع قدمها على طريق الكفاح : «لن تقتل روحي ، لأنها تبعث ا» . هنالك موضوعتان رئيسيتان في اعمال غوركي ، تكمل بعضهما بعضاً ، وتكشفان عن «سر الاسرار» لعالم مدركاته . احدهما موضوع «بعث» روح الانسان ، الذي يربط مصيره بمصير الشعب ، بالتطور الثوري للواقع . والاخرى موضوع «اندثار الشخصية» كانتقام يصيب اولئك الذين يحاولون عزل ذاتهم عن الجماهير الشعبية والاختفاء عن سبيل التاريخ الصخاب . الموضوع الاولى وجدت مكانها اللائق جداً في رواية «الام» ، اما الثانية فقد حازت على اوسع معالجة ختامية في عمله «الوداعي» الاخير ، نقصد : رباعيته الملحمية «حياة كليم سامجين» .

ولكن لغوركي موضوعة ثالثة اخرى مرتبطة ايضاً بمجمل اعماله . والافضل لتحديد ملامحها ، البدء بواحدة من بواكير قصصه «مرة في الخريف» حيث نرى لوحة عن حياة شاقصة باردة جانعة ، وفي بؤرة هذه الحياة امرأة «ساقطة» من اكثر المخلوقات نبذاً ونفياً عن المجتمع . إلا أنه يتضح فجأة ان

هذه المخلوقة قميئة ، في اللحظة الصعبة ، بمد يد الصون الى آخر على صلة بالثقافة يعد نفسه «قوة فعالة ذات نفوذ» : «واستنى ، وردت اليّ شجاعتي . . . اني لالعن الآن نفسي ثلاثاً ! كم خاطرة سخريه بدت لي في ذلك الحدث الصغير الوحيد انذاك ! - تصوروا قليلاً ! هذا انا منكم في ذلك الوقت بالضبط في مصير الانسانية بأسرها ، افكر في تنظيم جديد للهيئة الاجتماعية ، وفي الثورات السياسية وأقرأ جميع انواع الكتب الحكيمه للغاية التي كان مؤلفوها أنفسهم عاجزين عن قياس عمقها البعيد المدى . . . وهذه امرأة ساقطة تدفني الآن بجسدها ، وهي مخلوق بانس ، مسحوق ، مطارد ، لا تملك في الحياة قيمة او مكانة . ولم افكر انا أبداً في مساعدتها الى ان مدّت لي يد المساعدة ولم اكن أعرف في الحقيقة كيف اقدم لها العون لو ان فكرة هذا العون طرأت لي في بال» . هل هذا امر محزن بالنسبة الى البطل - الراوية ؟ بلى ، محزن ، مر ، مأساوي . ولكن هذا الامر نفسه ، الى جانب العديد من الوقائع الشبيهة ، يعزز في دخيلته الثقة بالحياة و ارادة الكفاح . فاذا كان للانسانية ما يزال ثمة وجود حتى في حضيض المجتمع ، حتى في حضيض روح اكثر الناس نبذا عنه ، فان ذلك يعني ان الانسانية لا تقهر ابداً . وان حكمة الحياة ، مهما كانت فظيعة رهيبه ، اعلى من حكمة الكتب .

كانت قصة «ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة» احد اعمال غوركى التي مدت جسراً ، في نهاية تسعينات القرن الماضي وبداية هذا القرن ، بين نتاجه المبكر وبين مرحلة جديدة تماماً . تحمل القصة تسمية «قصيدة» لصنفها الادبي ، اشبه

بأعمال غوغول ودستوفسكي ، التي قدّر لها ان تنقل
 مأساوية الواقع ، اكثر من شاعريته .
 امامنا مخبز قيو اشبه بزنازة ، وعماله «البهائم» ،
 «المكانن الحية» ، الكارهون لعملمهم العبودي ، اشبه بسجناء .
 سلوانهم الوحيد - الاغاني ، صنمهم الوحيد - فتاة خادمة
 فارغة ، خلعوا عليها مختلف الصفات الفضلى . وها هم
 يريدون التأكد من صلابة آلهتهم ، في لعبة رهانها روح
 انسانية . فينزل بهم آنذاك قصاص حق . انه ليس انهيار
 عالمهم الوهمي ، ولا اسوداد صورة الفتاة المذعورة المهانة
 من قبلهم في اعينهم ، فهذا ليس غير خاتمة القصة . اما خاتمة
 القصيدة فهي تأتي فيما بعد : «توهجت عينها فجأة . . .
 وهجمت علينا باستقامة وكأننا لم نكن هناك . . . وسارت
 باستقامة فخورة بجمالها» . لقد اخطأوا عندما جعلوا من الفتاة
 ذاتها مخلوقاً خيراً ، واخطأوا اكثر ، وبطريقة لا رجعة فيها ،
 عندما لم ينظروا اليها كمخلوق خير فعلاً ، اوقف كبرياؤه .
 مواصلاً التطرق لهذه الموضوعات على أن الجأ الى قصته
 الرائعة «ميلاد انسان» التي تفتتح كتاب غوركي «في ارجاء
 روسيا» . ان ما تمتاز به الام - الفلاحة هنا لا الصبر حسب ،
 انما الصمود الروحي غير المحدود ، فهي رغم سيل المصائب
 والمعاناة الذي اجتاحتها لم تفقد الثقة بمستقبل الوليد في التو
 «ساكن الارض الروسية الجديد» «الانسان المجهول المصير»
 متغلبة على اليأس والقنوط . وفي هذا الخصوص ايضاً على
 أن اخرج الى قصته العبقريّة «الاحازين الغليظة» التي تفهم
 قلب القارىء بالآلم الحاد ازاء الناس المهانين ، المداسين في

الاطيان . الا انني اكتفي بالقول ان خط كل هذه الاعمال متوج بثلاثية سيرة غوركي الشخصية ، بخاصة قصته «طفولتي» التي يكشف المؤلف نفسه عن فحواها في واحدة من استطراداته الفلسفية اذ يقول : «حياتنا مدهشة لا بسبب ان طبقة كل انواع القذارات الحيوانية بهذا السُك والدسامة حسب ، بل لان عبر هذه الطبقة ايضاً ينمو ، رغم كل شيء ، وبنجاح ، كل ما هو ساطع وصحي وابداعي ، ينمو الخير ، الانساني ، موقظاً املاً لا يحق في انبعاثنا نحو حياة وضاء كريمة» .

ان هذه الاعمال الادبية التي لا ترحم القارئ ولا تهون ابدأ من صورة فظاعات الحياة ، تمنحه ايضاً ثقة لا تقهر بأن الانسانية تسير وتتجاوز كل العوائق وكل الحماقات متجهة لا الى الهلاك ، انما الى الانبعاث . فهي جميعاً عن خلود الانسانية في الانسان .

ليس مصادفة ان يتردد نشيد الانسان عالياً في هذه الاعمال بالذات ، صداحاً كما لم يحدث منذ زمن شكسبير ، منذ زمن عصر النهضة . ها نحن نقرأ في قصة غوركي «ميلاد انسان» : «انها لوخليفة استثنائية فائقة ان تكون انساناً على الارض» . لقد اعجب لينين من غوركي لا «الام» ، «انشودتيه» عن العقاب ونذير العاصفة ، «حكايات عن ايطاليا» وحسب ، بل و«في الحضيض» ، «سته وعشرون رجلاً» وفتاة واحدة» و«الاحازين الغليظة» .

تميزت الفترة الاخيرة من حياة غوركي بصعود جديد باهر لعبقريته . فالى جانب «حياة كلیم سامجين» وغيرها من الاعمال

الملحمية كتب رواث جديدة مسرحية مثل : «غور بوليتشيوف وآخرون» ، «دوستيغايف وآخرون» ، الصياغة الثانية «فاسا جيليزنوف» وكذلك صوره الادبية العظيمة عن ابرز شخصيات العصر . وفي السنوات الاخيرة من حياة غوركي ازداد نشاطه الصحافي والاجتماعي المتنوع بشكل فائق ، فيما اتسم كل ذلك بوطنية الكاتب العالية ، وقوته الابداعية ، وآثار تلك الماثرة ، التي انارت له آخر ما تبقى من اعوام وايام .

من المعلوم ان غوركي سافر تحت الحاح لينين عام ١٩٢١ الى الخارج للعلاج . فقد كانت مقاومة رثتيه ، اللتين اصيبتا بذلك الطلق الناري القديم ، تضعف باستمرار امام داء السل العريق عنده : حياة الكاتب كانت في خطر . ومع مرور الاعوام لم يخف المرض انما سكن حسب ، ولكن غوركي كان دائم الشوق لبلده ، حيث كان البناء الاشتراكي الضخم قائماً على قدم وساق . ومنذ عام ١٩٢٨ راح غوركي يعود بـلده السوفييتي في اشهر الصيف ، فيما كان يضطر لمغادرته والرجوع الى ايطاليا حيث اعتاد بدنه على جوها حالما تحل اشهر البرد والرطوبة . ورغم ذلك قرر غوركي عام ١٩٣٣ البقاء نهائياً في بلده متجاهلاً مرضه الذي كان يفصح عن نفسه الآن غالباً وغالباً . كان يعلم انه يقصر من امد حياته ولكنه لم يستطع التصرف بصورة مفيدة : فقد وصل الفاشست الى السلطة في المانيا ، وعلقت في الجو رائحة حرب عالمية جديدة ، قدّر انها ستوجه رؤوس حرايبها الرئيسية الى صدر اول دولة اشتراكية في التاريخ . اصبح غوركي خطيباً ملتهباً يناوئ الفاشية ، وواحداً من قادة حركة الكفاح من اجل السلم

العالمي . وكانت آخر الكلمات التي فاه بها مريضاً على فراش الموت ، قبل ان يفقد وعيه : « . . . ستنشب حروب . . . يجب التهيؤ . . . » لقد مات ، مثل دانكو .

لقد مضى اكثر من نصف قرن على غياب غوركي من الدنيا ، ولكنه ما زال يواصل كونه شخصية مركزية في العملية الادبية العالمية ، وما زالت فتوحاته الفنية حتى الآن تحرك هذه العملية الى امام . ولكن ، ألم يحاولوا «دفن» غوركي ، ومنذ بداية طريقه الابداعي تقريبا ! ولنتذكر : ما كاد الكاتب يرتفع بفكره الى مصاف الوعي الاشتراكي ، ويصوغ شخصية نيل ، ومسرحيته «في الحضيض» ، وغيرها من الاعمال ، التي تعتبر اليوم من متون الادب الكلاسيكي ، وبالنسبة لمناهضيه في الفكر ، حتى ارتفعت في الحال صيحات نكراء : «غوركي ينتهي» . وما كاد يرتفع الى ذروة ابداعية جديدة اثناء الثورة الروسية الاولى (١٩٠٥ - ١٩٠٧) ، حتى ظهرت في الحال ايضاً مقالات اشد نعيياً بعنوانينها «نهاية غوركي» . ولكن ما الذي تبقى من امر مؤلفي مثل هذه الاعلانات ؟ أي مصير كان لهم ؟ لقد ظهوروا ثم اختفوا ، ولا احد يهتم الآن ببداياتهم أو نهاياتهم .

اما عامل مدينة نيجني نوفغورود (مدينة غوركي حالياً) الكسي بيشكوف ، فنان الكلمة العبقرى مكسيم غوركي فما زال يواصل الخطو في ارجاء روسيا والعالم كله ، باعثة الدفء في قلوب ملايين الناس من الاخيار . ولا نهاية لطريقه .

ب . بيالك

اقاصيص

(۱۸۹۲-۱۹۰۶)

ماكار تشودرا

كانت ريح رطبة قارسة تهب من ناحية البحر فتتشرف فوق السهب مترامي الاطراف لحناً مكتئباً حالمًا تنشده الأمواج الصاخبة المتكسرة على الشاطئ ، مثلما تردده الوشوشة اللطيفة التي تتبادلها الأشجار الجافة المنتصبة على سيف البحر . وكانت انسامها تحمل من حين لآخر اوراقاً مفضنة ذابلة تصبها في النار التي اضرمنا اجيها فتفتت قبساً من الحياة في لهيبها ، بينما يرتعش ضباب الليل الخريفي فيما يحيط بنا من فضاء ويتبدد في بعض الاحايين لثانية واحدة قصيرة وكأنه مذعور من شيء مجهول ، كاشفاً لنا السهب عديم الحدود عن شمال ، واليم العريض اللامتناهي عن يمين ، وشبح ماكار تشودرا ، الفجري الشيخ ، الى الامام مني . كان يحرس خيول معسكره الممتد على طول خمسين خطوة منا . كان يضطجع هناك في وضع جليل مفعم جمالاً وقوة ، غير حافل بنفحات الريح المتجلدة التي تفتح عباءته القوقازية وتعري صدره كثيف الشعر لتصفعه دونما رحمة أو شفقة . استلقى متجهاً إليّ بمجياه ، ساحباً الأنفاس من غليونيه بصورة رتيبة ، نافثاً من فمه ومنخريه سحباً كثيفة من الدخان ، محدقاً بعينيه من فوق رأسي في العتمة الصموت الغامدة المغلفة بردائها السهب الواسع متحدثاً باستمرار دون أن يأتي حركة ينتقى بها ضربات الريح الجموح .

- إذن ، فانت تجوب الآفاق ؟ ما اروع ذلك ! لقد اخترت الحصة الفضلى ، يا صاح . هذه هي الطريقة المثلى في الحياة .

تضرب في الآفاق وانظر إلى الأشياء . وعندما تشيع من الرؤية اضطجع ومث . وهذا كل شيء !

واسترسل يقول ، بعدما أصغى متشككاً إلى اعتراضه على قوله « وهذا كل شيء » :

— الحياة ؟ البشر الآخرون ؟ وكي ، وكي ! لكن فيم تقلقنك هذه الأمور ؟ أفلمست أنت نفسك الحياة ؟ إن البشر الآخرين يعيشون من دونك ، وسيحيون من دونك دائماً . اتظن حقاً أن ثمة من يحتاج إليك ؟ أنت لست خبزاً يؤكل أو عصاً يتوكأ عليها ، وليس من هو إليك في حاجة .

— تقول أن يتثقف المرء ويتثقف الآخرون ؟ لكن ، هل تستطيع أن تتعلم كيف تجعل الناس سعداء ؟ كلا ، أنت لا تستطيع . فليشب شعرك قبل أن تنصب من نفسك معلماً لهم . وكي تعلمهم ماذا ؟ إن كل إنسان يعرف ما هو إليه في حاجة . والأكثر ذكاء من الناس يأخذون ما يجدون ، والأكثر حماقة لا يجدون شيئاً ، وكل إنسان على حساب نفسه يتعلم ... — سخفاء هم ، هؤلاء البشر الذين عنهم تحدثني . يتكبدسون

بعضهم فوق بعض ، ويسحقون بعضهم بعضاً ، فيما المكان — يا الله ! — ينقصهم على هذه الأرض — وهنا أشار إلى السهب إشارة عريضة — وإنهم ليعملون جميعاً دون انقطاع . لماذا ؟ ولمن ؟ ليس من يدري شيئاً من ذلك ! انني أرى رجلاً يحرق الأرض ، فأقول في وليجة نفسي : سوف يستنفد قواه قطرة قطرة بهذا العرق الذي يهرق على الأرض ثم ينام في باطنها حيث يتفسخ . ولسوف يموت أبله أحق مثلاً ولد ،

ولا يترك من بعده شيئاً ، ولا يرى في الحياة من بعد حقله شيئاً .
 - يا للشيطان ! أهذا ما خُلقَ من أجله ؟ ان يقلب الأرض . ومن ثم يموت دون ان يجد وقتاً كافياً يحفر فيه لعدو الخاص ؟ أيعرف ما هو طعم الحرية ؟ أيقع اتساع السهوب في نطاق ادراكه ووعيه ؟ أيفرح قلبه حديث أمواج البحر ؟ إنه عبد رقيق منذ ولادته ، عبد طوال حياته ، وفي هذا يقوم كل شيء ! ما عساه يصنع من ذاته ؟ أن يشنق نفسه فقط ، فيما لو ملك شيئاً من نهى كيما يفعل ذلك !
 - فيما أنا رأيت حتى الثامنة والخمسين كثيراً من الأمور ، ما لو كتب على الورق لما وسعه ألف خرج كالذي تحمل . قل لي ، مثلاً ، أي بلد لم امر فيه ؟ أنت لن تستطيع . . . بل أنت لا تعرف بلداً كالبلاد حيث ذهبت ، بلى هكذا يجب ان يعيش الإنسان - متنقلاً من مكان إلى آخر ، إمشي ، ولا تبق طويلاً في مكان واحد ، فما جدوى ذلك ؟ انظر الى النهار والليل يركضان ، يطارد كل منهما الآخر فيما حول الأرض ، فافعل مثلهما ، ولا تتوقف كي تفكر في الحياة ، كيلا تهرب المحبة من قلبك . ولكن ، إذا ما شرعت في التفكير مرة ، فلسوف تكف عن الحب . هكذا تجرى الأمور دائماً .
 لقد عرفت هذا مرة أنا الآخر ! بلى ، يا صاح !
 - كنت في السجن في جاليسيا ، فرحت أفكر ضجراً يائساً . فيم جئتُ أنا الى هذا الوجود ؟ المرء يملُ في السجن ، يا صاح . آه ، لشدة ما يشقى ! ولقد أطبق عذاب اليم على قلبي عندما كنت انظر الى البرية من خلال النافذة ، أطبق عليه واعتصره في كماشة دونما رحمة . من تراه يستطيع ان

يقول لِمَ يحيا ؟ ما من إنسان يستطيع ذلك ، يا صاح !
ذلك سؤال يجدر ألا يطرحه إنسان على نفسه . عش . كل
شيء في هذا . تنقل في أرجاء الأرض ، وتطلع فيما حولك ،
وعندئذ لن تشعر بالتعاسة مطلقاً . آه ، لقد كدت أشنق
نفسي بحزامي في ذلك الحين ، لو تدري !

- وكَي ! تحدثت إلى رجل مرة ، رجل صارم من لונكم ،
رجل روسي مثلك . قال : يجب أن تعيش لا كما تريد ، بل
كما هو مكتوب في كلام الله . إخضع لله فإنه معطيك كل ما
تسال . . . وكان هذا الرجل يتسكع في اطمار بالية مهترنة .
قلت له أن يسأل الله ثوباً جديداً ، فثار غضبه وطردني
بالشتائم والاهانات . كان يقول قبل لحظة من ذلك إنه يجب
الصفح عن الناس ومحبتهم . كان يجب أن يغفر لي في تلك
الحال فيما لو أساءت كلماتي الى قدرته العليّة . يا للاستاذ
الجميل ، وربّي ! إنهم يعظونك أن تقلل من طعامك وهم
ياكلون عشر مرات في النهار الواحد .

بصق في النار وجنح إلى صمت ، وقد انهمك في ملء
غليونه من جديد . كانت الريح تزمجر بشكواها في صوت
مخفوت ، والجياد تصهل في الظل المنتشر ، وأغنية شعبية
حنون ملتبة تدفء من معسكر الفجر . . إنها نونكا الجميلة ،
ابنة ماكار ، تغني . كنت أعرف صوتها المنبعث من أعماق
الصدر ، صوتها مفعم الجرس نغمات رنانة تتميز أبداً بشيء
غريب حائق متسلط ، أكانت تنشد أغنية أم تلقي سلاماً .
كانت مهابة الملكات تظهر متجسدة في محياها المسمر باهت
اللون ، فيما عيناها الكستنائيتان القاتمتان والمغمورتان بالأخيلة

تبرقان بوعيا لجمالها الطافي ، واحتقارها لكل إنسان آخر .
ناولني ماكار الغليون قائلا :

- دخن ! تغني جيداً هذه الفتاة ، اليس كذلك ؟ وِي ،
بلي ! أتريد أن تحبك فتاة مثلها ؟ كلا ؟ عظيم ! هذا خير
لك . لا تؤمن بالنساء ، بل ابق دائماً حراً طليقاً . الفتاة
تُسِرُ وتُفرح عندما تُغمر بالقبلات أكثر مما أُسِرُ أنا
وانشرح عندما ادخن غليونني . لكن إذا ما قبّلتها مرة ماتت
إرادتك في قلبك . إنها ستربطك اليها بوئاق خفي لن تستطيع
له فصماً ، فتضع روحك عندئذ عند قدميها . تلك حقيقة لا
مراء فيها ! فاحذر من الفتيات ! هنّ يكذبن دائماً . تقول
إنني احبك أكثر من كل شيء في الحياة ، لكن جرّب أن تخزها
بالدبوس ولسوف تمزق لك قلبك إذن . إنني أعرف ذلك ،
أنا وِي ، وِي ! لشدّ ما أعرف ذلك ! هيا ، يا صاح ،
أتريد أن أروي لك قصة حقيقية ؟ تذكر هذه القصة .
ولسوف تظل كالطائر الطليق طوال حياتك .

«في ذلك الزمان كان غجريّ فتى» ، فتى غجري يدعى
زوبار ، لويكو زوبار . وكانت هنغاريا بأسرها وبوهيميا
وسلوفاكيا وكل البلاد فيما حول البحر تعرفه . لقد كان فتى
لا يُشَقُّ له غبار ! لم يكن في سائر هذه البلدان قرية لم
يقسم بضعة من شبانها أمام الله أن يقتلوا لويكو . لكن
أحوال لويكو لم تزد بذلك سوءاً . ولو شاء أحد الجياد
أن يروق في عينيه ، فقد تقوم اذن فرقة كاملة من الجيش
على حراسته عبثاً . لقد كان زوبار يسقط عليه ! وِي ،
وِي ! من كان يقرر أن يخيفه ؟ لو أنه رأى إبليس وزبائنه

كلها تأتي إليه ، كن على يقين إذن أنه إذا لم يغمس فيه
سكينه في الحال ، فسيرمي بكل تأكيد بسيل من الشنائم
على أقل تقدير وينزل لطماته على ابواز الشياطين . صدقني ،
فأنا مَنْ أقول لك ذلك .

« كانت سائر معسكرات الفجر تعرفه أو تناهت إليها
أخباره . كان يحب الجياد فحسب ، ولا يحب شيئا آخر .
ثم إن هذا الحب لم يك يدوم طويلا . فعندما كان يمل ركوب
جواد يبيعه ويمنح المال لمن يريد هذا المال . إنه لا يتمسك
بأي شيء على الإطلاق . ولو أن الحاجة إلى قلبه مستك فهو
ينتزعه إذن من صدره بيديه ، ويقدمه لك ما دام ذلك يسرُّك
ويرضيك . هكذا كان هذا الرجل ، يا صاح !

« كانت عشيرتنا تعسكر في ذلك الحين في بوكوفينا -
وذلك من مضي عشر سنوات . وكنا نجلس ذات امسية
ربيعية أنا ودانيلو الجندي الذي قاتل مع كوشوط ونور
العجوز ورادا ابنة دانيلو وسائر الباقين .

« أتعرف ابنتي نونكا ؟ إنها الملكة بين الفتيات ! بلى ،
حاذر أن تقارن نونكا برادا ، فذلك يكون شرفاً عظيماً
لنونكا ! أن تتحدث عنها ، عن رادا الجميلة هذه ، تظل
الكلمات عاجزة مقهورة . لربما أمكن عزف جمالها على الكمان !
وعندئذ ينبغي أن يعرف المرء الكمان مثلما يعرف نفسه .

« لقد ذبحت عدداً كبيراً من قلوب الفتيان . ويّ ويّ !
ما أكثر ما يَعدُّون ! لقد رآها في مورافيا ثريّ شيخ ذو
ناصية ، فظلّ بعد ذلك مسحوراً بفعل تلك الرؤية . كان
يمتطي صهوة جواده وينظر إليها مرتجفاً كمصاب بالحمى .

كان جميلاً كالشيطان يوم عيد ، يرتدي ثوباً اوكرانياً ثميناً منسوجاً بالذهب ، ويتخصر سيفاً مرصعاً بالجواهر الكريمة يتضوأ كالبرق ، لدى كل حركة يأتيها جواده السبوح . وكانت قبعته زرقاء مخملية كقطعة من السماء صافية الأديم . كان فائق الجلالة ، هذا السيد العجوز ! جسماً بعينه طويلاً من فوق صهوة جواده ، ثم قال لرادا : «اني أعطي صرة من المال في سبيل قبلة واحدة !» . فحوّلت نظرها عنه دون ان تضيف شيئاً . فقال العجوز وقد نزل عن تعبّره مباشرة ، ورمى على قدميها صرة من المال ، صرة كبيرة ، يا صاح : «اصفحي عني ان أسأت اليك ، وتطلعي اليّ في شيء من اللطف على الأقل» . أما هي فأرسلت صرة المال في الغبار بضربة خاطفة من قدمها ، وكأنها لم تلمحها على الإطلاق .

«تنهّد صاحبنا ، وخنخن : «اه ، يا للفتاة الغريبة !» ثم ضرب بالسوط جواده ، فإذا الغبار يرتفع سحابة كثيفة . «لكنه ظهر في الغداة . . صاح في صوت مجلجل كالرعد عبر المعسكر بكامله : «من هو أبوها ؟» . فخرج إليه دانيلو . . فقال له : «بعضي ابنتك . خذ ثمناً لها ما يروق لك !» . فاجابه دانيلو : «ليس سوى النبلاء يبيعون كل شيء ، خنازيرهم وضماثرهم . أما أنا فقد قاتلت مع كوشسوط ، ولست أبيع أي شيء !» . فتأججت نعمة الرجل الثري ومدّ يده الى سيفه ، لكنّ أحد الفتیان نشر بعض المواد اللاهبة في أذن الجواد فانطلق بذلك السيد كالبرق الخاطف . أما نحن فرفعنا المعسكر وغادرنا المكان . . مشيناً يوماً ويومين ، لكن ما أسرع ان لحق بنا فجأة . . صاح : «وَيَ أيها القوم

الطيبون ! إن ضميري نقي طاهر أمام الله وأمامكم ! اعطوني الفتاة أتزوجها ، وسوف أقاسمكم كل شيء . فأنا عظيم الثراء !» . كان يغلي ويتأرجح على متن جواده كعشب السهوب تصفعه الريح . ولقد كان في حديثه ما يحملنا على التفكيير العميق .

«قال دانييلو في شارييه : «حسنًا ، يا ابنتي . تكلمي .»
«فسألتنا رادا : «إذا دخلت انثى النسر عش الغراب برضاها ، فماذا تصير ؟»

«فانفجر دانييلو ضاحكًا ، وضحكنا معه . .»
«قال : «حسنًا ، يا ابنتي . هل سمعت ، يا سيدي ؟
لن تنفخ جهودك شيئًا ! فتش بالآخرى عن حمامة ، فهسي أيسر منالًا» . وما نحن قد عاودنا المسير .
«أما السيد فانتزع قلنسوته ورمى الأرض بها ، وانطلق خبيًا ترتعش التربة تحت حوافر جواده . هكذا كانت رادا ،
يا صاح !

«وي ، بلي ! وهؤلاء نحن قعود في المعسكر ذات ليلة نرهف آذاننا . ان موسيقى رائعة تدفء عبر السهب فجأة ، موسيقى فائقة العذوبة ! كانت تؤرث اللهب الواهر في الدم الجاري في عروقك ، وتناديك إلى عوالم مجهولة منك . وكنا نحس ، جميعًا ، أن هذه الموسيقى تبعث فينا الرغبة في شيء ما لن نتمسنا الحاجة من بعده إلى الحياة ، أو إن لم يكن لنا بدء في الحقيقة من الحياة فيجب أن نعيش إذن ملوكًا للكون جبابرة عليه ، يا صاح !
«وعندئذ انفصل جواد من الظل ، وتقدم يعلو صهوته

فارس يعزف ذلك اللحن الجميل . وقف قريباً من النار التي
اجتئنا ، وتوقف عن العزف ، وقف هناك يحدجنا بنظراته ،
شفتاه مفترتان عن ابتسامة عذبة .

«صاح دانييلو به : «واه ! زوبار ! هذا انت إذن ؟
هذا هو ، إذن ، لويكو زوبار !

«كان شارباه يتساقطان على كتفيه ويمتزجان بشعره
الجعدي ، وعيناه تنضوان أشبه ما تكونان بكوكبين براقين .
وكانت ابتسامته شمساً خالصة . كنت تقول إنهما من حديد
واحد صلباً ، هو وجواده معاً . وقف هناك يغمره لهيب الجمر
المتوقد فكانه يغتسل بالدماء ، يضحك بجميع أسنانه
المتألقة النصوص ! ألا فلاكن ملعوناً إن لم أحبه كنفسي منذ
تلك اللحظة ، قبل أن يخاطبني بكلمة واحدة ، أو يحسّ
مجرد وجودي أيضاً !

«بلى ، يا صاح ! إن أمثاله من الرجال يوجدون في هذا
العالم ! كان يتطلع إليك في ملء عينيك فيأسر روحك في
الحال دون أن تستشعر خجلاً من ذلك . بل كنت تفخر
بالأحرى . كنت تصير أفضل في حضرة هذا الإنسان لأن
أمثاله من البشر ليسوا بكثيرين ، يا صاح ! ولعل ذلك
أفضل على أية حال ، إذ لو كان الخير أمراً ميسوراً لما ظلّ
الناس يعتبرونه خيراً . ذلك صحيح ، ولكن اسمع بقية القصة .
«إذن ، فقد قالت له رادا : «أنت تجيد العزف ، يا

زوبار ! من صنع لك مثل هذا الكمان الرنان ؟» أما هو فاغرق
في الضحك ، وأجاب : «صنعتة بنفسي . لم أصنعه من
خشب ، بل من صدر فتاة أحببتها كثيراً فحبكت الأوتار من

الياف قلبها . وما برح الكمان يكذب قليلاً ، لكنني اعرف كيف امسك القوس في يدي جيداً !»

«وتلك محاولة معروفة ، فنحن الرجال نجرّب دائماً ان نلقي غشاوة على أعين الفتيات كيلا يلمين قلوبنا ، بل يتسربلن على العكس بالحزن من أجلنا . . . وهكذا فعل زوبار ، لكنه ضلّ الطريق واضاع الأثر . فقد استدارت رادا عنه وهممت متثابثة : «لقد كانوا يقولون لي إن زوبار على شيء كثير من الذكاء والمهارة ! ما أكثر ما يخطئ الناس !» وسارت مبتعدة . . .

«صاح زوبار متألق العينين ، وهو يترجّل عن صهوة جواده : «وَيّ ، وَيّ» ، أيتها الفاتنة ! إن لك اسناناً حادة ! عتم صباحاً ، ايها الأصدقاء ! لقد جئت ازورك !

«فجاب دانيلو رداً على كلامه : «كسّ ضيفاً علينا !» وتماقنا ، وتبادلنا كلمات ، وعدنا إلى مضاجعنا . استغرقنا في نوم عميق . وماذا رأينا في الصباح ؟ كان رأس زوبار معصوباً . . . فماذا حدث ؟ يبدو أن جواده جرحه بضربة من حافره خلال الليل .

«وَيّ ، وَيّ ! لقد فهمنا من كان ذلك الجواد ! وتبسّمنا في شواربنا . واطلق دانيلو عن ناييه بدوره . ماذا ؟ افليس يساوي لويكو رادا إذن ؟ ابداً ! ثم إن الفتاة ، مهما كانت جميلة ، تظل نفسها ضيقة حقيرة ، فإن علقت رطلاً من الذهب في عنقها فلن تساوي بسبب ذلك أكثر مما هي في حقيقة الأمر . أخيراً . فلنختصر !

«قضينا فترة طويلة في ذلك المكان . كانت أمورنا تسير

على مايرام في ذلك الزمن . وكان زوبار معنا . كان رفيقاً طيباً بكل ما في الكلمة من معنى ، حكيماً مثل شيخ هراته السنون عليماً بسائس الأمور ، يقرأ ويكتب الروسية والهنگارية ، وعندما يروي بعض القصص أحياناً نصغي إلى حديثه الطليّ ولو استمر في ذلك الحياة بطولها ! أما عزفه . . . ألا فلتضربني الصاعقة إن كان انسان عزف مثله قط ! كان يُمرّ القوس على الأوتار فإذا القلب يرتعش ! وإذا عاد بها فإن القلب يغمى عليه . أما هو فيعزف ويبتسم ، وعندئذ تحدوك الرغبة في البكاء والضحك في آن معاً . إن تأوه بانس يئنّ ويدعو إلى النجدة يخترق صدرك تارة كخنجر مرهف الحدّ ، وتارات أخرى هو السهب يحدث السماء بأقاصيص كثيرة ، أقاصيص مفعمة حزناً وكآبة . فتاة تبكي ، وهي تودع فتاتها ، والفتى ينادي الفتاة أن تلحق به عبر السهب العريض ! وعلى حين غرة ، يا لله ، تعلق انشودة حرة ، رشيقة ، وتتفجّر كالرعد ، فإذا الشمس ذاتها تتأهب ، فيما يلوح ، كيما تتراقص في السماء على ايقاع تلك الانشودة . . كذلك كانت الحال ، يا صاح !

«كانت كل ذرة في جسدك تفهم تلك الأغنية ، فتصير بكليّتك عبداً لها . ولو أن زوبار صاح عندئذ : «إلى السكاكين ، يا اصحاب !» - فقد كنا ننطلق إذن جميعاً نقاتل بالسكين الشخص الذي يشير اليه . كان يستطيع أن يفعل ما يريد بالإنسان فيلغه على خنصره الصغير . وكان الجميع يحبونه ، يحبونه كثيراً ، سوى رادا التي لم تكن تنظر إلى الفتى الجميل أو تحفل به . وليتها اكتفت بهذا الموقف منه ،

بل لقد ذهبت أبعد من ذلك . فهي تسخر منه دون انقطاع ،
تاركة في قلبه اثراً عميقاً . وكان لويكو يُصرُّ بأسنانه ،
ويشدُّ على شاربيه ، وتظلم عيناه أكثر من ظلمة الهاوية ،
وتشع فيهما أحياناً بروق ترسل الهلع في قلوبنا . إنَّه
يذهب ، والليل قد عسكر ، بعيداً في السهب ، فيبقى كمانه
يبكي حتى الصباح - يبكي حرية زوبار الضائعة . أما نحن
فنظلُّ مضطجعين نصفي ؛ ومن حين لآخر نتساءل : ماذا تراه
سيحدث بعد الآن ؟ كنا نعرف جيداً أنه عندما تتدحرج صخرتان
في اتجاه بعضهما بعضاً فليس ينفع المرء أن يضع نفسه في
سبيلهما - لسوف تسحقانه إذن . وكان هذا ما حدث فعلاً .
«كنا جميعاً جلوساً إذن ، نتجاذب أطراف الحديث في
شؤونا المختلفة . وراودنا الملل ، فتوجه دانيلا إلى لويكو
زوبار سائلاً : «غنّ» ، يا زوبار ، وترنّم بأغنية صغيرة تفرح
قلوبنا !» فأطال لويكو نظرة على رادا المضطجعة غير بعيد
عنه تنظر إلى السماء ، ثم ضرب على الأوتار . . . حينئذ راح
الكمّان يتكلم فكانه قلب فتاة عذراء حقاً وفعلاً . وغنّى لويكو :

بقلبي يثور لهيبُ الخيال
ودربي بعيد المدى لا يُطالُ
جوادي سبوح ، وزندي حديدُ
فأينَ يكونُ اللقاءُ الجديدُ ؟

«أدارت رادا رأسها ونهضت عن الأرض معتمدة مرفقها ،
ثم ضحكت ساخرة أمام عيني المنشد الذي التهب مثل شمس
قرمزية :

فَطِرْ ، يا جوادي ، إلى الملتقى
أطلِّ الصباحُ ونامَ السَّحَرُ

وإن صرت يوماً بقرب السما
حذارِ تَمَسُّ يَدَاكَ الْقَمَرُ .

«أواه ! لشدّة ما كان إنشاده رائعاً ! ما من إنسان
يعرف اليوم يغني مثله ! أما رادا فهممت ، وكان كلماتها
ماء جليديّ ينصبّ علينا : «يجب ألا تحلق حتى هذا
العلوّ ، يا لويكو زوبار ، وإلا هويت متدحرجاً وأنفك في حفرة
قدرة توسخ شاربيك الجميلين» .
«رماها لويكو بنظرة غضبي دون أن ينبس ببنت شفة ،
واسترسل يغني :

وإن مرّت الشمسُ صبيحاً علينا
وكنا ننامُ معاً في الفراشِ
سنخجل ، نخجل من ضمّتنا
ونركض في الروض مثل الفراش .

«قال دانيلو : «إنها لأغنية رائعة ! أبداً لم أسمع
أنشودة مثلاً . ولیمسّخني الشيطان إن كنت أكذب !»
«وكان العجوز نور يحرك شاربييه ويهزّ كتفيه .
والحضور جميعاً مفتونون بأنشودة زوبار الجريئة . . وكانت
رادا الوحيدة التي لم تعجب بها .
«قالت : «هكذا سمعت الذبابة تبوق ذات يوم مقلّدة
صياح النسر» .
«وقعت كلماتها ، مرة أخرى ، كانصباب الثلج على
وجوهنا .

«قال دانيلو متحركاً صوبها : «لعلك تريدان السوط ، يا رادا ، ما ؟» لكن زوبار ألقى بكمته على الأرض وصاح اسود اللون كالتراب : «قف ، يا دانيلو ! الجواد العروى يحتاج إلى لجام من فولاذ . أعطني ابنتك زوجاً لي !»
«فضحك دانيلو ، وقال : «حسناً قلت ! خذها ، إن كنت تستطيع !»

«فقال زوبار : «حسناً !» والتفت نحو رادا مخاطباً إياها بقوله : «هيا ، أيتها الفتاة ! أصغي إلي برهة ولا تتكبري ! لقد عرفت عدداً كبيراً من النساء ، لكن إحداهن لم تمسّ شغاف قلبي مثلما فعلت أنت . أواه ، يا رادا ، لقد استعبدت نفسي ! هيا ! ما يجب أن يكون سوف يكون ، و . . . ليس هناك جواد يمكن للإنسان أن يفرض عليه هرباً من نفسه إنني أتخذك زوجاً أمام الله وأمام شرفي وأمام أبيك وهؤلاء القوم جميعاً . لكن حاذري أن تقفي حجر عثرة في سبيل حريتي . أنا رجل حر» ، وأريد أن أحيي على هواي !»
«وتقدم منها ، مطبق الفكين ، متوهج العينين . وهذا هو يمدُّ إليها يده . قلنا في وليجة أنفسنا : «يا عجباً ! هذه هي قد تملكتم زمام حصان البيداء !» لكننا رأيناه على حين بفتنة ، قد ألقى ذراعيه في الهواء وسقط أرضاً على قفاه !

«ما هي تلك المعجزة ! ليخيّل إليك للوهلة الأولى أن رصاصة أصابت الفتى في ملء قلبه . لكنها رادا ضربت مأبضيه بسوطها المصنوع من الجلد ، وجرت به إليها في عنف مفاجئ جعله يتهاوى أرضاً .

«وهذه الفتاة من جديد مضطجعة دونما حراك ، وابتسامة خبيثة تسرح على شففتيها . نظرنا ما سيحدث ، لكن زوبار اقتعد الأرض آخذاً رأسه بين يديه فكأنه يخاف عليه الانفجار . ثم نهض في هدوء . وغدا عبر السهب دون أن يرى أحداً من الحاضرين . فهمس نور في أذني : «راقبه جيداً» . فانزلت خلفه عبر السهب تكتنفي ظلمة الليل . هذا ما حدث ، يا صاح !» .

ونفض ماكار غليونيه ، وأخذ يحشوه ، فيما تلممت في معطفي ورحت اتفحص ، من حيث استلقت على الأرض ، وجهه العجوز المسود بالشمس والرياح . كان يهز رأسه بجلال وصرامة ويخاطب نفسه همساً ، فيتحرك شارباً الأشيان فيما الريح تعبت بشعر رأسه لاهية متلاعبه . كان أشبه ما يكون بشجرة بلوط عتيقة أصابتها الصاعقة ، لكن ظلت مع ذلك متينة ، قوية ، فخوراً ببأسها . . وكان البحر يتابع همساته ، مثله قبلاً ، في أذن رمال الشاطئ في صوت خفيض ؛ والرياح تنشر على الدوام وشوشته فوق السهب العريض . وكانت نونكا قد توقفت عن الغناء ، والسحب المتكدسة في السماء تقاوم من ظلمة تلك الليلة الخريفية .

«كان لويكو يسير مجرراً أذ ياله ، مطرق الرأس ، مسترخي الذراعين كشرطين متهدلين . حتى إذا بلغ الجرف قريباً من الساقية اقتعد حجراً وصعد تنهيدة صارخة . كانت انتة صارخة حتى احسست قلبي يفيض دماً شفقة عليه . لكنني لم أدن منه لأن الكلمات الجميلة لا يمكن أن تفعل

في حفرة الحزن شيئاً . اليس هذا صحيحاً ؟ رائع ! لقد بقي هناك ساعة . ولقد بقي ساعة أخرى . وفي الساعة الثالثة لم يكن قد تحرك بَعْدُ من مكانه .

«تمددت على الأرض قريباً منه . كانت السماء صافية ، والقمر يغمر بالفضة السهب بأسره ، والرؤية ممكنة كما في وضع النهار .

«وفجأة ، ماذا أرى ؟ هذه رادا قادمة من المعسكر في اتجاهنا .

«سررت' بذلك أيما سرور ، وقلت في نفسي : «إيه ! ذلك رائع ! يا لرادا من فتاة جريئة !» وهذه هي تقترب منه ، وهو لا يسمع خطواتها . وضعت يدها على كتفه فارتعش ، وحلّ يديه ، ورفع رأسه . وهذا هو يقفز على قدميه ويمدّ يده الى سكينه . وَيْ ! لسوف يقتل الفتاة . هذا ما أيقنت منه . أردت أن استغيث بالقوم في المعسكر ، وأن أركض اليهما ، عندما سمعت' على حين بغتة «إرم هذا ! وإلا حطمت لك رأسك !» نظرت' ، فإذا رادا تمسك غدّارة في يدها مصوّبة إياها نحو جبهة لويكو . يا لها من فتاة شيطانية ! فكرت في ثنايا نفسي : «حسنًا ! هما قد تساويا قوة ! فما عسى أن يحدث الآن ؟»

«اسمع - لقد دسّت رادا غدارتها في حزامها ، وقالت لزوبار : - لم آت لأقاتلك ، بل لأصالحك . فارم سكينك !» فرمى السكين وتطلع في عينيها مكتئب الطلعة . لشدة ما كان ذلك رائعاً ، يا صاحبي ! هذان كائنان يقفان وجهاً لوجه يتبادلان النظر كالوحوش الضارية ، وكلاهما شجاع مقدام

عنيد ! وكان القمر الأضحيان يراهما وكنت أراهما أيضاً .
وهذا كل شيء .

« قالت رادا : «حسناً ! «أصغ إلي» ، يا زوبار . أنا
أحبك !» فهزّ زوبار كتفيه ليس الا وكأنه مقيّد اليدين
والقدمين .

« قالت : «عرفت كثيراً من الفتيان ، اما انت فتتفوق
عليهم إقداماً وجمالاً في الروح والصورة . لقد كانوا جميعاً
يحلقون شواربهم من غمزة واحدة مني ، وكانوا جميعاً
يتساقطون عند قدمي» ، ولم يكن عليّ سوى أن أريد !
لكن ، ما جدوى ذلك ؟ لم يكونوا على قدر كبير من الشجاعة .
وكنت أجعلهم يختنثون جميعاً . لم يتبقّ في العالم إلا قليل ،
قليل جداً من الفجر الفرحين ، يا زوبار . أنا لم أحب أحداً
قط ، يا زوبار . لكنني أحبك انت . . . إلا أنني أحب حريتي
أيضاً ! أنا أحب حريتي أكثر من حبي لك . لكنني لا أستطيع
الحياة من دونك ، كما أنك لا تستطيع الحياة دوني . وهكذا
فأنا أريد أن تكون لي جسداً وروحاً . أسمع ؟»

« فأغرق زوبار في ضحكة مقتصبة ، وقال : «أنا أسمع !
وحديثك يبعث الغبطة في نفسي . هيا . استرسل» .

« قالت : «ولأقل لك أيضاً ، يا زوبار : مهما استدوت
وتقلّبت فسوف اتقلب عليك وتكون لي . لا تضع وقتك
عبثاً إذن ، فقبلاتي تنتظرك - ولسوف أقبلك بقوة عظيمة ،
يا زوبار ! ولسوف تنسى في قبلاتي حياتك وما طفحت به من
مغامرات . . ولن تتردد بعد ذلك في السهب أغانيك الرقيقة
التي تفرح الشبيبة الفجرية كثيراً ، بل ستنشد أغنيات عن

الحب ، أغنيات عذبة لي وحدي ، أنا راداك . . . لا تضسح
إذن الوقت عبثاً . لقد قلت لك ما عندي ، وسوف تقدم لي
الاحترام غداً ، مثلما تقدمه لأخيك البكر . لسوف تجثو عند
قدمي أمام المعسكر بأسره وتقبل يدي اليمنى ، وعندئذ
اغدو لك زوجاً» .

«هذا ما كانت الفتاة الشيطانية تريد ! ابداً لم يحدث
مثل ذلك منذ كان الإنسان ! ويقول الشيوخ إن تلك العادة
كانت متبعة عند قبائل الجبل الأسود ، أما عند الغجر فذلك لم
يحدث قط . هل تستطيع أن ترى ، يا صاح ، إن كان يمكن
اختراع ما يفوق هذه الفكرة صفاقة ؟ ابداً ، ولو اعتصرت
مخك طوال عام كامل !

«ابتعد زوبار عنها بقفزة قوية ، وأطلق في ملء السهب
صيحة رجل أصيب بجرح في صدره . وارتعشت رادا ، لكنها
لم تستسلم . . .

«قالت : «وإلى الغد ! وفي الغد ستفعل ما أمرتك به ،
يا زوبار !»

«فزمجر زوبار ، وقد مدّ إليها ذراعيه : «إني أسمع ،
ولسوف أفعل» .

«لكنها لم تتطلع إليه . فأخذ يترثج كشجرة كسرتها
الريح ، ومن ثم سقط على الأرض يهتزّ بالنشيج والضحك
معاً .

«هكذا استنفدت رادا اللعينة قوى الفتى بما ساقته عليه
من عذابات . ولقد بذلت جهداً عظيماً كيما أرده إلى صوابه .
«وَيَّ ! لم يجب على البشر ، بحق الشيطان ، أن

يجرعوا كأس المرارة والأسى ؟ من يعنى بالإصغاء إلى زمجرات قلب إنسان يحزقه الحزن ؟ والاسفاه . إن ذلك لبليهة عظيمة !

«رجعت الى المعسكر ورويت للشيوخ كل شيء . ففكروا وقرروا انتظار ما عسى أن يحدث في الغداة . وإليك ما حدث . . . عندما اكتمل عقدنا حول النار مساء قدم زوبار أيضاً . وكان الاضطراب بادياً عليه . وقد نحل بصورة رهيبة في تلك الليلة الوحيدة . غارت عيناه عميقاً في محجريهما . أطرق بعينيه وقال لنا دون أن يرفعهما : «إليك ما حدث ، يا رفاق ! لقد نظرت هذه الليلة في قلبي فلم أجد فيه مكاناً لحياتي الحرة السابقة . إن رادا وحدها تعيش فيه ، وهذا كل شيء ! هذه هي رادا الجميلة تبتسم كملكة متوجة ! إنها تحب حريتها أكثر مني ، وأحبها أكثر من حريتي . ولقد قررت أن أجتو عند قدميها . لقد أمرت بذلك كيما يرى الجميع كيف أخضع جمالها البطل لويكو زوبار الذي كان من قبلها يلعب مع الفتيات مثلما يلعب القط مع الفار . ثم سوف تكون زوجتي ، ولسوف تلاطفني وتقبلني حتى تغادرني الرغبة في إنشاد الأغاني لكم ولا أندم على حريتي ! اليس هذا ما ينبغي أن يكون ، يا رادا ؟»

«رفع عينيه ورماها بنظرة مكتئبة . فاجابت هي برأسها أن بلى ، وأشارت بيدها إلى قدميها دون أن تخرج عن صمتها أو تلين . اما نحن فكنا نرى دون أن نفهم شيئاً . بل كنا نودّ مغادرة المكان كيلا نرى لويكو زوبار يتراعى عند قدمي الفتاة ، ولو كانت هذه الفتاة رادا نفسها . كان في ذلك ما

يدعو إلى الحزن والرتاء والألم . . .

«صاحت رادا بزوبار . . «هيا !» . فقال : «وَيَّ !
وَيَّ ! لا تتعجلي ! فذلك آت من غير بدّ . وسيتوفر لك
الوقت حتى يبعث الملل في فؤادك . . .» وانفجر ضاحكاً ،
فإذا ضحكته أشبه ما يكون برنين الفولاذ . قال : «وهذا كل
الامر ، أيها الرفاق . ثم ماذا ؟ ثم بقي لي ان أجرب ما إذا
كان قلب رادا قاسياً بمقدار ما أردتني أن اتصوره .
لسوف أجرب اذن ، فاصفحوا عني !»

«لم نجد الوقت الكافي كيما نخمّن ما يريد زوبار ان
يفعل . فإذا رادا متكورة على الأرض وقد غابت في صدرها
سكين زوبار حتى المقبض . وفغرنا أفواهنا دهشة مصعوقين
حائرين . . .

«وانتزعت رادا السكين ، ورمتها جانباً ، وضغطت على
جرحها بخصلة من شعرها الأسود . وابتمست . وقالت في
صوت واضح النبرات : «وداعاً ، يا زوبار ! كنت أعرف
أنك ستفعل ما فعلت . .» وأسلمت الروح . . .
«أفهمت الفتاة ، يا صاح ؟ ألا فلاكن ملعوناً في الأبدية !
فلقد كانت فتاة شيطانية حقاً .

«زمجر زوبار على مدى السهب : «بلي ، سوف أجثو عند
قدميك ، يا ملكتي المتفطرسة !» وارتدى ارضاً ، وضغط
بشفتيه على قدمي رادا الميتة ، وجمد دون حراك ، فنزعنا
عمراتنا ، وبقينا وقوفاً في سكون .

«ما عسانا كنا نقول في مثل هذه الحال ، يا صاح ؟
وَيَّ ! بلي ، لقد قال نور : «يجب أن نشدّ وثاقه !» . . .

لكن الأيدي ما كانت لترتفع لتشدّ وثاق زوبار . لم يكن
إنسان يرضى أن يرفع يديه . وكان نور يعرف ذلك . لوّح
بيده مدلاً على عجزه وانصرف عمن المكان . بينا تناول
دانييلو السكين التي رمتها رادا ، وحدّق فيها طويلاً محرّكاً
شاربيه الأشيبيين . لم يكن دم رادا قد جفّ عنها بعد ،
وكانت فصلتها معقوفة مدببة . ثم اقترب دانييلو من زوبار
وغرس السكين في ظهره ، في موضع القلب تماماً . لقد كان
الجندي العجوز دانييلو والد رادا أيضاً !

«قال لويكو بوضوح ، مستديراً نحو دانييلو : «احسنت
صنعاً !» ولحق برادا .

«ونظرنا . . كانت رادا مستلقية قابضة على صدرها
بيدها المسكة بخصلة الشعر ، وعيناها المفتوحتان تشخصان
إلى السماء ، وعند قدميها تمدّد الشجاع لويكو زوبار وقد
تبعثر شعره على وجهه فأخفاه .

«بقينا وقوفاً مستغرقين في التفكير . كان شاربا العجوز
دانييلو يرتعشان ، وحاجباه السميكان مقطبين . إنه يشخص
إلى السماء ولا يقول شيئاً . أما نور الأبيض الشعر فانطرح
ووجهه إلى الأرض ، وطفق يبكي بعنف هزّ جسده هزّاً .

«كان ثمة ما يستحق البكاء ، يا صاح !

« . . وهكذا فانت تجوب الآفاق . حسناً . إذهب في
طريقك اذن دون أن تتلفت إلى الوراء . إذهب قدماً . لعلك
لا تفنى عبثاً . ذلك كل شيء ، يا صاح» .

لاذ ماكار بالصمت ، وأخفى غليونه في كيس طباقه ،
وضمّ أزاره على صدره . أخذ المطر يهطل ، والرياح تقوى ،

والأمواج تزمجر في صخب ونقمة . واقتربت الجياد واحداً إثر واحد من النار التي تنطفئ* . وبعد ان حدثت فينا بعيونهما الواسعة الذكية وقفت دون حراك مطوّقة إيانا بحلقة ثخينة .
صاح ماكار بها في صوت مداعب :

- هوب ، هوب ، أوي !

وصفح براحة يده عنق جـسواد اسود ، جواده المفضل وخاطبني قائلاً : - لقد آذنت ساعة النوم .

ولف* رأسه بمعطفه القوزاقي ، واضطجع على الأرض معتصماً بالصمت .

لم تكن بي رغبة في النوم . حملقت في ظلمة السهب ، فإذا شبّح رادا الجميلة بأهـسرة الحسن يسبح امام عيني* . كانت تضغط بيدها خصلة من الشعر الأسود على الجرح في صدرها ، والدم يسيل قطرة قطرة من خلال اصابعها الدقيقة الملفوحة ويتساقط أرضاً مثل كواكب حمراء مشتعلة .

إلى الـوراء منها ، قريباً جداً ، تحلّق هيئة لويكو زوبار الشجاع . إن تجاعيد كثيفة من الشعر الأسود تغطي محياه حيث تتقاطر عبرات باردة كبيرة . . .

واشتدّ تهطال المطر ، فيما البحر يرتل نشيده الاحتفالي الجنائزي باكية الفجريين الجميلين لويكو زوبار ورادا ابنة الجندي العجوز دانيـلو .

كان كلاهما يدوّم ويدوّم ، في تناسق ودون ضوضاء ، في ظلال بهمة الليل ، ولويكو زوبار الجميل عاجز أبداً عن إلامساك برادا المتكبرة .

رفيقي في الطريق

١

التقيته في ميناء اوديسا . وطوال ثلاثة أيام متعاقبة ظلّ اهتمامي منجذبا الى ذلك المظهر البشري المتأرجح القوي ، وذلك الوجه الشرقي الذي تؤطره لحية جميلة . ما اكثر ما كان يبرز امامي على حين فجأة : فالمنصب على مدى ساعات طويلة على غرانيث الرصيف ، منحنيًا على قمة عصاه يمد نظرات غائمة الى مياه الميناء المتلاطمة من عينيه السوداوين اللوزيتين . وكان يتدحرج امامي اكثر من عشر مرات في اليوم وحركاته تدلّ على انه لا يبالي بهذا العالم مقدار ذرة . من عساه يكون ؟ شرعت اراقبه . اما هو فعند من جانبه ، وكأنه يتقصّد لفت انتباهي ، الى البروز امامي اكثر فأكثر الى ان الفت أخيراً رؤية بزته العصرية المخططة على شكل تربيعات ، وقبعته السوداء ، وخطوته المتكاسلة ، ونظراته المكتنبة المتبرمة المتبلدة ، وغدوت أتعرف عليه من بعيد . كان تواجد ههنا في الميناء غربياً تماماً بين المراكب البخارية والمراجل الصافرة ، وقمقعة السلاسل ، وصياح عمال الأرصفة ، والضجيج الجنوني الذي يعم الميناء بأسره . جميع الناس ههنا قلقون ، متعبون ، وجميعهم يصخبون ، ملوثون بالسخام ، ينضحون عرقاً ، يتنادون ويتشائمون . وفي ملء تلك الجلبة الصاخبة تتجول تلك الطلعة الغريبة لرجل يتسم وجهه بضجر مميت - فهو

لا يبدي اهتماماً بأي شيء ، ينادى عن الناس ، وينطوي على نفسه .

عثر عليه أخيراً ، في اليوم الرابع ، في فترة تنساول الغداء ، فعزمت على اكتشاف هويته كائنه ما كانت النتائج المترتبة على ذلك . جلست غير بعيد عنه ، وقد وضعت أمامي رغيفاً من الخبز وبطيخة ، وجعلت آكل وأنا أراقبه واتساءل عن أنجع وسيلة في مبادئه الحديث .

وقف مستنداً الى كومة من صناديق الشاي يحدق حواليه في فتور ، متلمساً عصاه بأصابعه فكانها مزمار في يديه . كنت ارتدي ثياب متسول واحمل على ظهري حبل الحمالين وقد تلمطخت بهباب الفحم ، وكان يصعب عليّ أن أخطو الخطوة الأولى في الاقتراب من مثل ذلك الغندور . وما أثار دهشتي ، على أية حال ، هو أنني لمحت عينيه مركزتين عليّ ، وشعرت أنهما تضطربان الآونة بلهيب حيوانسي جشع لا يبعث على سرور . فقررت أن قضية ذلك الذي يبعث على فضولي هي الجوع ، فألقيت حوالتي نظرة سريعة ، واستوضحته في صوت هادي :

— أتريد شيئاً تأكله ؟

انتفض مجفلاً ، معرياً في جشع شيئاً أشبه بمائة من الأسنان المكنونة القوية ، واسترقّ حواليه نظرة متشككة مثل نظرتي .

لم يكن ثمة من يعيرنا التفاتاً . ناولته نصف البطيخة وقطعة من رغيف الخبز المصنوع من القمح . اختطفهما واختفى ، وأقصى وراء مجموعة من الاقفاص . كان رأسه

يبرز بين حين وحين لحظات ، وقد ارتدت قبعتـه الى مؤخرته ، كاشفة عن جبهته المغمورة بالعرق المسفوعة بتأثير الشمس . وكان وجهه يشعُ بابتسامة عريضة ، وهو يغمز لي لسبب لا يعرفه سواء ، دون أن يتوقف فـه عن المضغ ثانية واحدة . أومات له أن ينتظرني ، وذهبت أحصل على شيء من اللحم ابتعته ورجعت به إليه ، وأعطيته إياه ووقفت الى جانب الأقفاص كمن يحاول أن يخفيه عن عيون السابلة . كان حتى ذلك الحين يسترقُ النظر حوالـيه مثل حيوان يلتمـه فريسته ، وكأنه خائف من أن يختطفهـا شخص منه . وجعل الآن يتناول طعامه في مزيد من الطمأنينة ، لكن في كثير من العجلة والحيوية بحيث آلمني التطلع الى ذلك الرجل الساغب اللئـس ، فأوليته ظهري .

— اسكر ك ! اسكر ك كثيراً !

قال ذلك بروسية ركيكة رثة وهزني من كتفي ، ثم قبض على يدي ، واعتصرها في يده وراح يهزها بصورة تبعث على الألم .

ولم تمض خمس دقائق حتى راح يروي لي قصته . هو الأمير شاكرو بتسادزه ، جورجـي الأصل ، والابن الوحيد لأبيه الملاك الثري من كوتايسي ، وكان يعمل موظفـاً في سكة الخطوط الحديدية «القوقازية» ، ويقـيم مع صديق له . وقد اختفى هذا الصديق فجأة حاملاً معه جميع أموال الأمير شاكرو النقديـة وممتلكاته الثمينـة ، فانطلق الأمير في أعقابـه . وقد سمع ، مصادفة ، أن ذلك الصديق اشترى تذكرة الى باطومي ، فأعجل الأمير خطواته وراءه على الفور .

وتبين في باطومي أن ذلك الصديق رحل الى أوديسا . وعندها تقرّب الأمير من شخص يدعى فانو سفانيدزه ، وهو حلاق - صديق للأمير يماثله عمراً ولا يماثله بنية - واستعار هويته الشخصية ، وانطلق الى أوديسا ، وهنا أخبر الشرطة بموضوع السرقة فوعده بالعثور على اللص ، فانتظر طوال أسبوعين ، وأنفق كلّ ما يحمل من مال ، وهذا هو اليوم الثاني الذي لم يتناول فيه كسرة من خبز .

أصغيت الى قصته التي زرکشتها بعض الشتائم واللعنات ، وراقبته ، وصدقت ما قال ، وشعرت بالأسف على ذلك الصبي - كان في حدود العشرين من عمره ، بالغ السذاجة بحيث لا يعطيه المرء هذا العمر أيضاً . وما أكثر ما كان يشير ، وفي سخط عميق ، الى الصداقة المتينة التي ربطته باللص الذي سرقه أشياءه ، بحيث ان والده العبوس ما كان ليتوانى عن «قطع عنقي» «بخنجر» إن فشل ولده في استعادتها . وخطر لي أنه اذا لم يتواجد من يمدّ يد المعونة الى هذا الشاب فإن المدينة الشرهة ستبتلعه في جوفها . كنت أعرف كم كانت الاشياء المبتذلة أحياناً تبتلع صفوف اليايسين ، وهذا الأمير شاكرو تنفتح له فرصة الانخراط في تلك الجماعة الفاضلة ، لكن التي لا يوليها المرء احتراماً إلا بصعوبة فائقة . أردت أن أساعده . فاقترحت عليه أن نذهب الى رئيس الشرطة ونطلب منه تذكرة ، فبانت عليه ملامح الارتباك ، وأخبرني أنه لن يذهب . لماذا ؟ بدا أنه لم يسدد المالك أجر إقامته ، وحين جرت مطالبته به عمد الى ضرب أحدهم . ومنذ تلك الفترة وهو يختبئ عن الأنظار

وأتقاً من أن الشرطة لن تشكره على أنه لم يسدد الأجرة ،
كما لن تشكره على الضربات التي أنزلها بذلك الشخص .
وهو لا يتذكر ، في هذا الخصوص ، ما إذا كانت ضربة
واحدة ، أم ضربتين ، أم ثلاث ضربات أم أربع .

وقد عقد هذا الوضع القضية . وقررت اننى أستطيع
الاستمرار فى عملى العالى الى ان اكسب ما يكفى من مال
فاعيده الى باطومي ، لكن ، ولسفاه ! فان ذلك دلّ على أنه
يتطلب فترة طويلة لأن شاكرو ، وقد اسقمه السغب ،
شرح يأكل الآن ما يأكله ثلاثة رجال أو أكثر .

فى تلك الفترة ، ونتيجة لتدفاق الناس من المناطق
التي ضربتها المجاعة ، كان الأجر اليومي فى الميناء
منخفضاً ، وإذا أبقينا الأمر سراً فيما بيننا فقد كنا ننفق
من الثمانين كوبيكاً التي أحصل عليها قرابة ستين كوبيكاً
على الطعام . وبالإضافة الى هذا كنت اتخذت قرارى قبل
لقائى بالأمير على الرحيل إلى القرم ، ولم تكن تراودنى رغبة
فى الإقامة طويلاً فى أوديسا . وهكذا اقترحت على الأمير
شاكرو ان نرحل معاً على قدمينا وفقاً للشروط التالية : إن
لم أتمكن من العثور على رفيق يرتحل معى إلى تيفليس
فسوف أرافقه شخصياً حتى إذا عثرت له على هذا الرفيق
اتجه كل منا فى سبيل .

نظر الأمير الى حذائه الأنيق ، وقبعته ، وبنطاله ، ومراء
بيده على سترته ، وأغرق فى التفكير برهة ، وتنهد طويلاً ،
وأبدى أخيراً موافقته على الفكرة . وهكذا انطلقنا معاً سيراً
على الأقدام من أوديسا الى تيفليس .

حين وصلنا الى خيرسون كنت قد عرفت في رفيقي شاباً بسيطاً مستسلماً للحزن لم يتحصّل على شيء من ثقافة ، يسعد حين يكون شبعان ويشقى حين يكون جوعان ، وعرفت فيه حيواناً شديداً البأس طيب السريرة . أخبرني في الطريق أخبار القوقاز ، وقصص حياة الملاكين الجورجيين ، وأنباء حفلاتهم اللاهية ومعاملتهم للفلاحين . كانت أقاصيصه شيقة ، لها نكهة خاصة ، لكنها تركت فيّ انطباعاً عن الراوية ليس فيه شيء من الاطراء . فقد سرّدت عليّ ، على سبيل المثال ، القصة التالية :

التقى جيران أمير ثري في دارته في وليمة . فاغتنبوا الخمرة ، واكلوا «الشوريك» و«الشاشليك» ، وخبّز «اللافاش» والأرز المطبوخ باللحم والتوابل ، ومن بعد دعا الأمير ضيفانه الى زيارة اسطبلاته . كانت الجياد مسرجة . فاختار الأمير افضلها وانطلق به على العشب خبياً . كان فعلاً يتّقد نشاطاً ! فامتدح الضيوف رشاقتة النبيلة وسرعته القوية ، فارغمه الأمير مرة أخرى على التوثب خبياً ، ولكن احد الفلاحين جاء على حين فجأة طائراً على صهوة جواد ابيض وسبق حصان الأمير . . . سبقه . . . ضحك ضحكة فخوراً . واحسّ الأمير بالخزي في حضرة ضيوفه جميعاً ! . . . انعقد حاجباه جهمة ، فاستدعى الفلاح إليه بايماة من رأسه ، وحين اقترب منه على حصانه قطع له عنقه بضربة واحدة من سيفه ، وأردى الحصان بطلقة من مسدسه أفرغها في أذنه ،

ثم ذهب الى الحاكم وروى لهم هنالك ما فعل . وصدر الحكم بحقه بالاشغال الشاقة .

روى لي شاكرو هذه القصة في نبذة مشفقة على الأمير . حاولت ان أثبت له ان شفقتة في مثل هذه القضية عبارة عن هباء لا جدوى منه ، فارتأى أن يوضح الأمر لي ، فقال :
- الأمراء قلة ، والفلاحون كثرة . ولا ينبغي ان يحكم أمير لمجرد قتله فلاحاً واحداً . ما هو الفلاح ؟ هو هذا .
وأراني شاكرو كومة من التراب .

- أما الأمير . . . الأمير هو مثل كوكب دري !
وجرت بيننا مجادلة ، فقد مرّة صبره . حين يفقد مرة صبره فهو يعرّي أسنانه مثل ذئب ، وتحتدّ قسّات وجهه بأسرها .

وكان يصيح بي :
- إخرس ، يا مكسيم ! انك لم تعسى في القوقاز ابداً !

كانت براهيني المنطقية عديمة الحجة في وجه عفويته التلقائية ، وما يبدو لي واضحاً وضوح ضوء النهار يستثير ضحكته فحسب . وحين أفحمه ببراهين تفوقي الفكري فهو يقول بروسيته الركيكة من فوره دون أن يروّي النظر في أقوالي :

- إمض مباشرة الى القوقاز وحاول أن تعيش هناك .
رويدك . . . فان ما أقوله صحيحاً . الجميع يتصرفون على هذا الغرار ، ولذلك يجب أن يكون صحيحاً . فيم يتعيّن

عليّ ان اصدقك حين لا يقول به أحد سواك ، وحين
آلاف الناس . . . يقولون إنه صحيح ؟

فأكفّ عن الجدل ، وقد اتضح لي ان الوقائع وحدها ،
وليس الكلمات ، يمكن أن تقنع امرؤاً يحسب أن الحياة ،
كائنة ما كانت ، هي على الدوام صحيحة وعادلة . كنت
أجنح الى الصمت ، أما هو وقد استفزه الحديث وجعل
يمصص شفثيه ، فيروح يتحدث عن الحياة في القوقاز ،
حياة تمج بفتنة طاغية ، وتلتهب بالنيران والطرافة . كانت
هاتيك الأفاصيص ، وهي تستلفت انتباهي وتطربني ،
توقع الذعر في نفسي وتثير حنقي في الوقت ذاته بسبب
من وحشيتها ، وبسبب من تبجيلها الموسرين والقوى
الهمجية . وقد حدث أن استفسرته مرة ما إذا كان عرف
تعاليم المسيح .

اجاب ، وهو يهز كتفيه :

- من دون ريب !

ووضح لي من اختبارات أخرى ان ما كان يعرفه هو
التالي : كان هنالك شخص يدعى المسيح ثار في وجه
قوانين اليهود ، ولهذا السبب صلبه اليهود على صليب .
ولكنه كان الها ، فلم يمت على الصليب بل صعد الى السماء ،
وعندها وهب للناس قانوناً جديداً للحياة .

استوضحت :

- ما هو هذا القانون ؟

أطال نظره اليّ في انشداة ساخرة ، واستعلم :

- أمسيحيّ أنت ؟ حسن اذن ، أنا مسيحي أيضاً .

كل إنسان على الأرض تقريباً هو مسيحي . حسن إذن ،
فقيم تسال ؟ أترى كيف يعيس كل إنسان ؟ . . . هذا هو
قانون المسيح .

تفجرت الدماء في عروقي فشرعت أروي له تاريخ حياة
المسيح . أعارني بادی الأمر سمعه في جدية مطلقة ،
وسرعان ما فترت همته ، فجعل يتشاءب أخيراً .

حين أدركت أنه لا يعيرني انتباهاً جعلت ذهنه همّي ،
ورحت أحدثه عن ميزات المساعدة المتبادلة ، وفضائل
المعرفة ، وحسنات مراعاة القوانين وعدم مخالفتها ،
والمزايا ولا شيء غير المزايا . . . ولكن أحاديثي تحولت
الى غبار دقيق في وجه الجدار الأصم لمعرفته عن الحياة .
كان الأمير شاكرو يحاججني متكاسلاً :

- المحق مَنْ كان قوياً ! ليس هو مضطراً
الى الدراسة ، فهو يعثر على سبيله مغمض العينين !
كان ، أبداً ، صادقاً مع نفسه . وهذا ما فرض عليّ
احترامه ، ولكنه كان همجياً فظاً ، وكنت انا احسّ بين آونة
وآونة جيشاناً مفاجئاً من الكراهية له . ولكنني ، على أية
حال ، لم أفقد الأمل في العثور على نقطة للاحتكاك به ،
على سبب مشترك يمكن أن نلتقي عنده ونبدأ في فهم احدهنا
الأخر .

اجتزنا برزخ بيريكوب وجعلنا تقترب من يايلا . كنت
أحلم بشاطئ القرم الجنوبي ، وكان الأمير ثابت الهممة وهو
يرسل من بين أسنانه أغنيات غريبة . وكنا أنفقنا ما لدينا

من مال ، وبدأ اننا لن نحصل على شيء منه . وكنا نهدف الوصول الى مدينة فيودوسيا حيث بدأ العمل ، حينذاك ، في بناء الحرفا .

اعلمني الأمير انه انتوى ، هو الآخر ، ان يعمل ؛ واننا حين نكسب ما يكفي من مال سنبحر الى باطوم . ولديه في باطوم عدد من الاصدقاء ، وما أسرع ان يجد لي عملاً على الفور كناظر او خفير ليلي . ربّت على كتفي ، وأعلن متفضلاً ، وهو يفرق بلسانه متوقفاً :

- ساهي! لك مثل هذه الحياة ! تسه ، تسه ! لسوف تنهل الخمرة . . . بمقدار ما يطيب لك ! وتاكل اللحم الضأن . . . بمقدار ما يعنّ لك ! وتزوج بامرأة جورجية ، امرأة جورجية عبلة ، تسه ، تسه ، تسه ! . . . وستطبخ لك ارغفة من الخبز القوقازي ، وتنجب لك اولاداً ، اولاداً كثيرين ، تسه تسه !

أدهشتني هذه «التسه تسه !» بادی الامر ، ثم راحت تثيرني ، وأخيراً رمتني في بحران من غضب يائس . ففي روسيا تستخدم هذه النبرة في مناداة الخنازير ، أما في القوقاز فهي تعبير عن الحماسة ، والاعتذار ، والسعادة او الأسى .

كانت بزة شاكرو العصرية قد اهترات تماماً ، وانثقب حذاؤه في أمكنة كثيرة . وكنا قد بعنا عصاه وقبعته في خيرسون ، فابتاع لنفسه من ثمنها قبعة عتيقة لأحد مستخدمي السكة الحديدية .

سألني أول ما وضعها على رأسه ، مائلة الى جانب
واحد :
- كيف ابدو ؟ وسيم الطلعة ؟

٣

هذان نحن في القرم ، وقد خلفنا سيمفيروبول وراءنا
وانطلقنا نحو يالطا .

كنت أسير وقد أخرجني الانشده من فتنة الطبيعة
في هذه البقعة من الأرض التي يكتنفها البحر . وكان الأمير
يزفر متوجعاً ، ويدحرج نظراته المكتئبة على الأرياف
المحدقة بنا ، ويحاول ان يدلا معدته الخاوية بثمر العليق
المشكوك فيه . لم تكن معرفته بالأشياء المغذية تسعفه
بشكل جيد ، وما أكثر ما كان يسألني وقد اعتكر مزاجه :
- إذا ما اضطربت في أحشائي ، فكيف أستطيع
مواصلة الطريق ؟ إيه ؟ قل لي . . . كيف ؟

لم تتح لنا الظروف اكتساب أي شيء ، فجعلنا ، وقد
أجدبنا حتى من كوبيك واحد نشترى به خبزاً ، نقيت
أنفسنا بالثمار والآمال في المستقبل . كان شاكرو قد
شرح يعنفني بخصوص تكاسلي و«قعودي فاغر الشدقين»
حسب تعبيره . كان يزيدني ضجراً على وجه العموم ، وأكثر
من ذلك يعذبني بأقاصيص شهيته الخرافية . وبدأ أنه ،
وقد كان يسد بطنه بالتهام «حمل صغير» وثلاث زجاجات
من الخمرة عند انتصاف النهار ، يستطيع في الساعة الثانية ،

من دون أي جهد خاص ، أن يتناول غداء من ثلاثة صحن
كبيرة من بعض الأطباق «كالشاخو خيلسي» أو
«الشيكيرتما» ، وسلطانية من «البيلاف» ، وطبق من
الشاشليك ، و«كمية غير محدودة من التولما» ، وكمية
أخرى متنوعة من الأطباق القوقازية اعتاد أن يعبء معها
الخمور - «قدر ما أريد» . وكان يروي لي طول اليوم
أحاديث عن نزعاته إلى الطعام واكتشافاته عنه - وهو
يمصص شفثيه ، وعيناه تلتهبان ، وقد عرّى أسنانه
وراح يطحنها ، وجعل يمتص في صوت عال ويبتلع اللعاب
الجائع الذي يتناثر غزيراً من بين شفثيه الفصيحيتين .

ذات مرة ، وكنا في جوار يالطا ، حصلت على عمل لتنظيف
بستان من الأغصان المشدّبة ، وحينما قبضت أجر يوم
كامل مقدماً فقد انفقت نصف الروبل كله على شراء لحم
وخبز . وعندما أبت بمشترياتي ناداني البستاني فذهبت
إليه تاركاً ما اشتريت لدى شاكرو الذي عجز عن العمل
بدعوى إصابته بصداغ . ورجعت بعد ساعة ورايت أن
شاكرو لم يبالغ فيما روى لي من أحاديث عن شهيته : لم
يترك كسرة واحدة من جميع ما اشتريت . لم يكن ذلك
منه عملاً ودياً ، ولكنني لم اعاتبه بحرف واحد - وهذا
شيء تبين لي فيما بعد أنه كان سبباً في خرابي .

عمد شاكرو ، وقد لحظ صمتي ، الى الاستفادة منه
بوسيلته الخاصة . كان ذلك بداية وضع سخيف . كنت أنا
اعمل ، وكان هو يرفض أي عمل يعرض عليه ، متذرعاً
بهذا السبب أو ذاك ، فيأكل ، وينام ، ويرغمني على بذل

مزيد من جهد . وكنت نصف ساخر منه ونصف مشفق عليه - ذلك الجلف المعافى الكبير - حين أراه يلتهمني بعينه الساعيتين ، وينتظر أوبتي ، وقد أنهكت قواي بالعمل الذي عثرت عليه كيفما كان ، في إحدى الزوايا الظليلة . وأكثر ما كان مدعاة للأسى والغيظ هو أنه كان يضحك مني لأنني أعمل . كان في مقدوره أن يضحك لأنه تعلم أن يستعطي على اسم المسيح . يوم بدأ يجمع الصدقات أول مرة أخجله أن يفعل ذلك أمامي ، ولكننا ما أن اقتربنا مؤخراً من قرية تتارية حتى شرع يتأهب لجمعها أمام عيني . وللقيام بذلك ، فقد كان يعرج متوكئاً على عصا ، جاراً إحدى قدميه فكانها توجهه ، عارفاً أن التتاريين البخلاء لن يفتحوا محافظهم لشاب معافى البنية . حاججته في الأمر ، محاولاً أن أفهمه العار الذي يلحق به جراء هذه الصنعة . . .

فردّ عليّ في اقتضاب :

- لا أعرف كيف أعمل !

لم يجمع مبلغاً كبيراً . وفي الوقت ذاته أخذت صحتي تسوء نوعاً ما . وغدت طريقنا أكثر صعوبة من يوم إلى آخر ، وصلتي بشاركو أكثر توتراً . وجعل يصرّ الآن عليّ أن أطعمه فكان له عليّ حقاً .

- أنت هو دليلي ! فقدني ! كيف لي أن أذهب بعيداً سيراً على قدمي ؟ لست على ذلك معتاداً . فقد أموت من جرائه . لماذا تعديني ، لماذا تتقل عليّ ؟ إذا مت ، فمادا يحدث لجميع أولئك الآخرين ؟ أمي تبكي ، وأبي يبكي ، أصدقائي سيكون جميعاً ! وما أكثر ما يدرفون من دموع !

كنت أصغي الى أمثال هذه الخطب دون أن تلهب غضبي . في ذلك الوقت كنت قد شرعت أهدهم فكرة غريبة أمدتني بالصبر للتغلب على جميع تلك المشكلات والمصاعب . كان يلجأ أحياناً الى النوم ، فأروح أردد بيني وبين نفسي ، وأنا أطيل النظر مستقصياً في وجه الهادي الخالي من أي تعبير ، وكان الكلمات تحمل إليّ إلهاماً معروفاً ولكنه ناقص بعض الشيء : «رفيقي في الطريق . . . رفيقي . . . رفيقي في الطريق . . .» .

وفي مكان ما ، داخل تجاويف دماغي ، هبت فكرة تقول إن شاكرو كان حقاً وفعلاً يصرّ على حقه حينما طالبني بمثل تينك الثقة والجرأة بمدّه بالعون والعناية . في تلك المطالب كان ثمة قوة في الشخصية ، وكان ثمة سلطان . لقد استعبدني ، فخضعت له وأمنت في دراسته ، مراقباً كل ومضة تعبير ، محاولاً أن أتخيل أين واستناداً إلى ماذا سيسبّح لنفسه أن ينطلق في فرض سلطانه على رجل آخر . وكان هو ، من ناحيته ، يشعر بالارتياح ، فيغني ، وينام ، ويضحك مني كلما طاب له . وكنا نفترق أحياناً طوال يومين أو ثلاثة أيام . وكنت أموّنه بالخيز والمال ، وأدله أين ينبغي أن ينتظرنني . وحين نلتقي ثانية فهو يحبيني منتصراً مغتبطاً بعد ما ودعني متشككاً منفعلاً غضباً ، ويقول وهو يضحك على الدوام :

- وأقول في نفسي إنك هربت في سبيلك ، وخلّفتني وحدي ! ها ، ها ، ها !

وكنت أعطيه ما يؤكل ، وأقصّ عليه أخبار الأمكنة

الجميلة التي زرت' . ومرة ، وأنا أحدثه عن باختشيساراي ،
رويت له أخبار بوشكين وتلوت عليه شيئاً من شعره . فلم
يؤثر فيه ذلك على الإطلاق .

- أوه ، الأسعاسار ! هذه أغنيات ، وليس اسعاراً !
عرفت مرة رجلاً ، من جورجيا ، يا له من مطرب ! وأغنياته
كانت أغنيات حقيقية ! . . . كان يسرّع في الغناء - آي ،
آي ، آي ! . . . في صوت عال . . . في صوت مرنان كان
يعني ! فكان أحدهم يبرم خنجراً في حنجرته ! . . . وقد طعن
صاحب الحانة بمدية . . . وذهب الى سبيريا .

كنت كلما رجعت اليه أشعر بانحطاط في معنوياته ، ولم
يكن يقوى على إخفاء ذلك عني .

كانت أحوالنا تزداد سوءاً . ولم تكن تسنح لي الفرص
للحصول على روبل ونصف الروبل أسبوعياً الا بصعوبة
جمة ، وطبيعي أن هذا المبلغ لا يكفي لشخصين . ولم يكن
ما يجمعه شاكرو ليغطي نفقات الطعام . كانت معدته هالوة
صغيرة تبلع كل شيء ولا تميز بين العنب ، والبطيخ ،
والسمك المملح ، والخبز ، والثمار المجففة - وبدأ مع مرور
الأيام أنها تزداد رحابة ، وتتطلب مزيداً من الضحايا .

وشرع شاكرو يستحثني على مغادرة القرم ، ويجادلني
منطقياً بحلول الخريف ، وبأن ثمة مسافات طويلة ينبغي
عليها اجتيازها بعد . اتفقت معه في الرأي . وفضلاً عن
ذلك ، فقد كنت شاهدت كل ما رغبت برؤيته في القرم ،
وهكذا ارتحلنا صوب فيودوسيا على أمل أن «نكسب» بعض
«النقد» ، وهي شيء لم تكن نملك منه داتقاً .

بعد ما قطعنا حوالي عشرين فرسخاً من ألوشتا توقفنا
ل قضاء الليل . استحثت شاكرو أن يسير على طول
الشاطئ ، رغم أنها الطريق الأكثر طولاً ، لأنني كنت راغباً
في استنشاق نسيم البحر . أشعلنا ناراً واستلقينا في
جوارها . كانت الليلة بهية . والبحر الأخضر الداكن يتحطم
على الصخور تحتنا . والسماء الزرقاء الشاحبة معتصمة
بصمت وقور فوق رأسينا ، وفيما حوالينا تخشع الأشجار
والأدغال في أصوات هادئة . وكان القمر يشق لنفسه درباً .
والظلال تتساقط من ذرى أشجار الدلب الخضراء المخزومة .
وعصفور يسقسق بجرأة وشجوة . وارتعاشات صوته الفضية
تذوب في الفضاء مفعمة حيوية في ملء أصداء الأمواج اللطيفة
المهددة ، ومن بعد تخفت فتصافح السمع على الفور سقسقة
عصبية تطلقها بعض الحشرات . وتضوات النار في مرج ، وبدا
لهيها مثل باقة ضخمة متماوجة من زهور حمر وصفر . وهذه
الزهور بدورها تلقي ظلالها ، وهذه الظلال تتوالب حوالينا
قاصفة لاهية وكأنها تعرض حيويتها على ظلال القمر الكسلى .
وكان انبساط أفق البحر بكامله مهجوراً ، والسماء فوقه
عارية من السحب ، فشعرت كما لو كنت جالساً عند حافة
البسيطة أروني النظر في الفضاء الخاوي - ذلك البهاء من
الأحجيات الأكثر فتنة . . . وشعور هباب من أننا على تخوم
شيء عريض عريض بصورة لا يمكن التعبير عنها يملأ
روحي ، في حين أن ضربات قلبي يخمداه الرعب .
انفجر شاكرو على حين فجأة في قهقهة صخابة :

- ها ، ها ، ها . . . يا للطلعة الغبية المرتسمة على وجهك ! تماماً مثل الخراف ! آها ، ها ، ها . . .
جفلت فكان زمجرة من الرعد تفجرت بفتة فوق رأسي مباشرة . ولكن الأمور كانت أكثر من ذلك سوءاً . كانت ساخرة ، بلى ، لكن . . . لكم جرحت أحاسيسي ! . . . أما هو ، شاكرو ، فيذرف الدمع ضاحكاً . وكنت على أهبة البكاء بسبب من شيء آخر . كانت هنالك كتلة متورمة في حلقي ، وكنت عاجزاً عن الكلام ، لا أقوى على غير التحديق فيه بعينين جاحظتين جعلتا يفرق في مزيد من الضحك . تدرج على الأرض ممسكاً معدته بيديه . ولم أكن بمستطيع أن أتغلب على تلك الإهانة . عانيت من اساءات حقيقية جمّة من قبل ، وأولئك القلة من الناس ، فيما آمل وأرجو ، الذين سيفهمون ما كنت أعاني منه - لعلهم ، هم أنفسهم ، قد مروا بمثل هذه التجربة - سيقدرّون على استيعاب مجمل تلك القباحة الشائنة .

صرخت فيه والغضب يفور في جوانحي :
- كفّ عن ذلك !

وثب وقد اشتمله الرعب ، دون أن يتمكن من السيطرة على نفسه ، واستمرت نوبات الضحك تتغلب عليه ، فنفخ خديه ، ونتاجت عيناه ، وسرعان ما غرق في موجة جديدة من الضحك . ونهضت أنا ، وخطوت مبتعداً عنه . مشيت زمناً طويلاً ، وقد خوى رأسي من أي تفكير ، جاهلاً كل ما يدور حولي ، أطفح سماً ملتهباً من الإهانة التسي لحقت بي . فتحت قلبي كيما أعانق الطبيعة بأسرها ، ورحت أروي لها

في صمت ، بجماع روحي ، مقدار حبي لها حباً غيوراً لرجل
فيه شيء من شاعرية ، والطبيعة ، في شخص شاكرو ، قد
تزلزلت تضحك مني في اللحظة التي كنت أستسلم لها فيها !
كان في مقدوري أن اختلق كدسة من الاتهامات ضد الطبيعة ،
وشاكرو ، والحياة بمجملها ، لو لم تصل الى سمعي أصداء
خطوات سريعة ورائي .

أعلن شاكرو في خجل ، وهو يلمس كتفي في رقة :
- لا تغضب ! هل كنت تصلي ؟ لم أكن أعرف .
تحدث بنبرة خجول لصبي صغير اجترح ذنباً ، فما
استطعت ، رغم ما أنا عليه من انفعال ، إلا أن اشخص الى
وجهه الحزين الذي شوّهه الخجل والذعر بصورة تبعث على
السخرية .

- لن اهزئك مرة أخرى . ابدأ ! صدقني !
وهز رأسه في حماسة .
- أرى . . . أنك متواضع . أنت تعمل ، ولا ترغبني
على العمل ، واتساءل . . . لماذا ؟ لا ريب . . . لا ريب أنه
غبي ، مثل الخراف .

هذا هو ، إذن ، يؤاسيني على هذا الغرار ! هذا هو
يعتذر اليّ ! وطبعي أنني ، بعيد تلك المؤسسة وهذه
الاعتذارات ، لم يبق أمامي سوى أن أصفح عنه ، ليس فيما
يتعلق بالماضي فحسب ، بل فيما سيمحله المستقبل أيضاً .
بعيد نصف ساعة كان يغط في نوم عميق ، وأنا أجلس
الى جانبه أرنو اليه . في فترات النوم يبدو الرجل القوي
ضعيفاً لا حيلة له - وكان شاكرو يثير الشفقة . شفتاه

السمينتان وحاجباه المقوّسان يسبغان على وجهه قسّمت طفولية من انشداه خجلان . كان يتنفس في هدوء ، واطمئنان ، لكنه لا يلبث أحياناً أن يروح يتمايل ويتحدث في نومه ، مطلقاً بالجورجية كلماته سريعة بنبرة استعطافية . وحوالينا يخيم ذلك الصمت المتوتر الذي يهبّ في المرء دائماً شعوراً من الترقب إذا استمرّ زمناً فلا مناص من أن يصيب المرء بالجنون من جراء ذلك الصمت الشامل وانعدام الأصوات ، الظل الحيّ لكل حركة أو نامة . لم تكن همسات الأمواج الساكنة تبلغ إلينا - كنا في بقعة معشبة تعج بأدغال متلاصقة تشبه فكين مفغورين مثلمين لحيوان شلّه الخوف . رمقت شاكرو ، وقلت في نفسي :

«انه رفيقي في الطريق . . . في مقدوري أن أتركه ههنا ، لكنني لن أنفصل عنه ، لأنه لا عدد له . . . إنه رفيقي في الطريق ، حياتي بأسرها . . . لسوف يخطو الى جانبي حتى حافة القبر . . .»

لم تكن فيودوسيا في المستوى الذي رجونا منها . حين بلغناها كان هنالك حوالي أربعمئة شخص من أمثالنا ترجّوا الحصول على عمل ، وتعيّن عليهم أن يقنعوا بمشاهدة بناء رصيف الميناء . كان العمال هنالك من الاتراك ، واليونانيين ، والجورجيين ، والروس من سمولنسك ، والاوكرانيين من بلتافا . في كل ناحية من المدينة وضواحيها تطوف جماعات من أشكال رمادية موهنة العزيمة من الذين «شرّدهم الجوع» ، وجوابو آفاق من القرم وبحر آزوف يتجولون في صفوفهم في خطوات تشبه خطوات الذئب .

وتابعنا سبيلنا الى كيرتش .

التزم رفيقي في الطريق بوعدة فكفّ عن مضايقتي . بيد
ان الجوع كان يعصر معدته ، فهو يصرّ بأسنانه كالذئب
حينما يلمح شخصاً يأكل ، ويرعيني بأوصاف كميات الطعام
المتنوعة التي يتمنى أن يفترسها بأسنانه . وقد مرّت
به فترة من الزمن الآن جعل يتذكر فيها النساء . أول الامر
بصورة طارئة - فهو يزفر متهدأ ، ومن بعد بصورة
متوالية ، مكشراً عن ابتسامات متفكرة خبيثة لأحد «رجال
الشرق» ؛ ومن بعد ، في آخر المطاف ، انتهى به الأمر الى
أنه لا يستطيع أن يرى امرأة تمرّ به ، مهما ذرّف بها العمر
أو ارتسمت لها طلعة ، دون أن يبادلني تعليقاً فاجراً عملياً
أو فلسفياً عن شيء فيها . كان يتحدث عن النساء في حرية ،
وفي نبرة من هو على اطلاع عميق ، وينظر اليهنّ من وجهة
نظر وطيدة بصورة تبعث على الدهول تجعلني أشعر وكأنني
أغسل فمي . . . حاولت مرة أن أثبت له أن النساء لسن
مرؤوسيه بحال من الأحوال ، ولكنني حين تبينت أنه لن
يفضّب مني بقسوة فحسب ، بل أنه سيطيّش صوابه من
الخزي الذي ألصقه به من وجهة نظره ، فقد قررت إرجاء
هذه المحاولات الى ما بعد أن يشبع بطنه جيداً .

لم نتخذ سبيلنا الى كيرتش بمحاذاة الشاطئ ، ولكننا
اجتزنا السهب اختصاراً للطريق . فنحن لم نكن نملك في
كيسنا أكثر من كمكة مصنوعة من الشعير لا تزن أكثر من
أقة اشتريناها من تتاري بأخر خمسة كوبيكات
كانت معنا . وضاعت جهود شاكرو في استجداء الخبز في القرية

عبثاً . راح الناس يردون علينا باقتضاب في كل مكان :
«لا نستطيع اطعامكم جميعاً !» . وكانت تلك هي الحقيقة :
في تلك السنة القاسية كان ثمة أعداد غفيرة من الناس
تفتش عن كسرة من خبز .

وما كان رفيقي في الطريق يطبق اللاجئين من المجاعة -
هؤلاء الذين ينافسونه في جمع الصدقات . لم يكن خصومه
النشطاء يسمحون له أن يظهر ، على الرغم من الطريق الصعبة
والتغذية السيئة ، في مظهر زري يثير الشفقة ، وهو شيء
كانوا يتباهون به باعتباره نوعاً من الكمال ، فيروح يقول ،
وهو يلسمهم قادمين من بعيد :

- يأتون من جديد ! تفو ، تفو ، تفو ! فيم هم
يأتون ؟ فيم يسافرون متجولين ؟ وهل روسياً مكان
صغير صغير ؟ لست أفهم ! سعب بالغ الغباء ، هؤلاء
الروسيون .

حين أوضحت له الأسباب التي دفعت هؤلاء الروس
«الأغبياء» الى الطواف عبر القرم بحثاً عن الخبز ، هز رأسه
متشككاً ، وأجاب :

- لست أفهم ! كيف يكون ذلك ممكناً ! . . . في
جورجيا ليس لدينا مثل هذا الغباء !

وصلنا الى كيرتش في ساعة متأخرة من العشيّة
واضطربنا لقضاء الليل على الشاطئ تحت سقالات رصيف
الميناء . كان أفضل لنا ان نبقى في الخفاء . فقد علمنا ان
السكان الاضافيين ، قبل وصولنا بزمان وجيز ، تم إبعادهم
عن كيرتش ، وكنا نخشى ، باعتبارنا متسولين ، من الالتقاء

برجال الشرطة . وفضلاً عن هذا فقد كان شاكرو يسافر بجواز شخص آخر ، الأمر الذي قد يؤدي بنا الى مضاعفات نحن في غنى عنها .

كانت الأمواج الناجمة عن المضيق ترشنا بزبدتها في سحاء . زحفنا عند الفجر من تحت السقالات نرعى رطوبة وقرأ . وقضيت النهار بطوله محوّمًا حول أرصفة الميناء ، وكان كل ما تدبرنا الحصول عليه عبارة عن قطعة صغيرة من العملة خلعتها عليّ زوجة كاهن بعدما حملت لها كيساً من البطيخ من السوق .

كان من الضروري أن نعبر المضيق الى تامان . لم يرض احدٌ من أصحاب القوارب أن ينقلنا كجذّافين رغم توسلاتي المتوالية . كانوا ، جميعاً ، متحيزين ضد المتشردين الذين جمعوا قبل وصولنا بفترة قصيرة ، سمعة سيئة في هذه الأرجاء ، فصنّفونا في عدادهم نتيجة لذلك .

عندما خيم المساء ، وقد شملني الغضب من جراء النحس الذي أصابنا ومن العالم بصورة عامة ، اتخذت قراري بالقيام بعمل خطر ، وما أن جثم الليل حتى وضعت موضع التنفيذ .

٤

في تلك الليلة حثت وشاكرو الخطا مقتربين دون صوت من مركز الجمارك الذي قامت الى جانبه ثلاثة مراكب وحيدة الصاري ربطتها سلاسل حديدية الى حلقات حديدية مثبتة في

الجدار الحجري على رصيف الميناء . كانت الظلمة منتشرة ،
والرياح تنفخ ، والمراكب تصدم بعضها بعضاً ، والسلاسل
تقعقع . وكان في مستطاعي أن أحلّ إحدى تلك الحلقات في
يسر وأخرجها من مكانها في الجدار الحجري .

على مسافة عشر أقدام فوق رأسينسا يتمشى الخفير
الجمركي روعة رجعة ، وهو يصفر من بين أسنانه . وحين
يتوقف في مكان قريب منا أتوقف بدوري عن العمل من قبيل
الحيطة التي لا ضرورة لها . فما كان يمكن أن يخطر له في
بال أن ثمة رجلاً تحته يجلس حتى عنقه في الماء . وفضلاً
عن ذلك ، فقد كانت السلاسل توالى قعقتها المتوالية من
تلقاء ذاتها . وكان شاكرو مستلقياً في باطن القارب
يخاطبني بصوت مهموس ، فلا أفقه مما يقول شيئاً بسبب
صخب الأمواج . وانحلت الحلقة بين يدي أخيراً ... واحتملت
القارب موجة وابتعدت به عن الضفة . وحملت أنا السلسلة
وسبحت الى جانبه ، ثم تسلفت إليه . وأخذ كل منا لوحاً
خشبياً من أرض القارب وأثبتته في العروة بدلاً من المجذاف ،
وظفنا نجذف مبتعدين . . .

كانت الأمواج ناشطة ، فاستوى شاكرو عند ذراع
الدفة ، يختفى أحياناً عن بصري ، ويبرز أحياناً أخرى الى
الأعلى مني ، فيتدحرج فوق مرسلاً صبيحة ثاقبة . نصحت
ليه ألا يصرخ إذا كان يود ألا يسمعه الخفير . فاعتصم
بالصمت . ورأيت له وجهاً أشبه ما يكون بلطخة بيضاء .
ظل ممسكاً بالدفة طوال الطريق . فلم يكن لدينا متسع من
الوقت لتبادل فيه مكانينسا ، وكنا خائفين أن نتحرك في

المركب . ناديت عليه ماذا يفعل ، فاستوعب ما أردت في الحال ، وقام بكل شيء على أفضل وجه فكانه وليد بحاراً . كان الدفان الخشبيان اللذان اتخذت منهما مجذافين لا يمدانني بمساعدة كافية . وكانت الريح ورائنا ، ولم ألق بالآلى الى أين يجذفنا التيار بل صرفت انتباهي كله ان يظل القارب مندفعاً الى الضفة المقابلة . ولم يكن صعباً عليّ أن احدد موقعها لأننا كنا نلمح بُعد الأضواء المنبعثة من كيرتش . وكانت الأمواج تصل إلينا من فوق جانبي القارب وتزجر غاضبة . وكلما أوغلنا مبتعدين عن الضفة ازدادت هي ارتفاعاً . وفي المنتأى كان ثمة صدى هدير مياه ، متوحشة عامرة بالوعيد . . . واسترسل القارب في طريقه - أسرع فأسرع . وصار الاستمرار في السيطرة عليه من الصعوبة بمكان . فأونة ننزلق الى قعر أوجار عميقة ، وأونة نسحق الى ذروة هضاب شامخة من المياه ، فيما ظلمة الليل تشتد سواداً وفحمة ، والسحب توالي انخفاضها فوقنا . واختفت الأضواء وراء مؤخرة قاربنا في ملء الدكنة ، وغدت الأمور عندها مربعة حقاً . بدا أن هذا الاتساع الرحب من المياه الغاضبة لا نهاية له . فليس هنالك ما يقع عليه بصرك غير الأمواج تطير صوبنا من قلب الظلمة . اطارت احد اللوحين الخشبيين من يدي وقذفت أنا الآخر الى أرض القارب وتمسكت بجانبيه بكلتا يدي بقوة . كان شاكرو يطلق صرخة وحشية كلما وثب القارب مرتفعاً . شعرت بالوهن واليأس في تلك الدجنة ، وقد احاطت بي العناصر الغاضبة تصمّ سمعي بتصخابها . فقدت الأمل ، وغدوت

ضحية يأس مرير ، ولم أعد أرى غير هاتيك الموجات
 برؤوسها المبيضة تتناثر في رذاذ ملحي ، والسحب فوقى
 متكاثفة ، ممزقة ، أشبه ما تكون بالأمواج . . . وعيت امرأة
 واحداً لا غير : إن كل ما يجري حوالى كان ، من دون ريب ،
 أكثر صخباً ورعباً بما لا قياس ، وكنت أنا متضايقا إلى حد
 ما من أنه يبدو وكأنه ملجوم وغير راغب في إظهار منتهى
 جبروته . وكان الموت محتوماً . وكان ضرورياً أن
 يكون تذبذبه اللامبالي على شيء من الجمالية ، وأن يكون
 أكثر قبولا - كان امرأة واقعيّاً بصورة فظة ، واقسى من
 أن يتقبله المرء . لو أعطي لي أن اختار بين الاحتراق في
 الضرام أو الغرق في مستنقع ، فلسوف أبذل قصارى جهدى
 لاختيار الحل الأول - فهي على أية حال ، نهاية أكثر قيمة .

.

صاح شاكرو :

- فلنرفع صراعا !

فسألت :

- ومن أين تأتي بهذا الشراع ؟

- سأصنعه من معطفي . . .

- التق به إليّ هنا ! لا تترك الدفة ! . . .

وبدا شاكرو صراعا صامتا مع الانشوطات .

- إليك به !

التقى إليّ معطفه . زحفت موجوعاً على طول قعر القارب ،
 واقتلعت لوحاً آخر من أرضيته ، ودفعته في كم المعطف
 الخشن ، ودعمتها بالمقعد ، وشدت ساقى ، ولم أكد

أمسك بالكم الآخر وجزء من حاشية المعطف حتى وقع شيء لم يكن في الحسبان . . . وثب القارب الى الأعلى بصورة واضحة ، ثم تهاوى . ووجدت نفسي في الماء ، ممسكاً بالمعطف بإحدى يديّ ، وقابضاً على الحبل المثبت حول القارب بالأخرى . وتكسرت الأمواج صاخبة فوق رأسي ، وجعلت ابتلع المياه المالحة المريرة . ملأت أذني ، وفمي ، وأنفي . . . تشبثت بالحبل بعنف ، وانطلقت أرتفع وأنخفض في المياه ، ضارباً رأسي بجانب القارب ، وأنا أقذف المعطف فوق قعر القارب المقلوب ، محاولاً ان أرمي نفسي وراءه . ونجحت محاولة من عشرات المحاولات والجهود التي بذلت ، فتفرسخت جالساً على القارب وما أسرع ان لمحت شاكرو الذي يتشقلب في المياه ، وكلتا يديه تشبثان بالحبل الذي أطلقته من يدي . بدا أنه التفّ حول القارب بأكمله ، وقد مرّ ضمن الحلقات الحديدية المعلقة في جوانبه .

هتفت به :

- أنت حي !

وثب عالياً من الماء وسقط على بطن القارب . مددت يدي لمساعدته ، وغدونا طوال لحظة وجهاً لوجه قبالة بعضينا . كنت جالساً منفرج الساقين فوق القارب فكانتني أمطى حصاناً ، وقدماي منفرجتان في الحبل فكانتهما في ركابين - لكن جلستي كانت مقلقلة : فإن أية موجة يمكن أن تلقي بي عن السرج . كان شاكرو متشبثاً بركبتيّ بكلتا يديه ، وقد دفن وجهه في صدري . كان يرتعش من فزعه

حتى قدميه ، وكنت أسمع الى أسنانه تصكُّ بعضها بعضاً .
ينبغي أن نفعل شيئاً ما . كان بطن القارب زلقاً وكأنه
مدھون بالزيت . فقلت لشاكر و أن يخفض نفسه الى الماء
من جديد ، ويمسك الحبل من جانب ، وأفعل أنا الشيء ذاته
من الجانب الآخر . فجعل يضرب رأسه على صدري بدلاً من
أن يعطيني جواباً . وبين حين وحين كان رقص الأمواج
الوحشي يجعلها تتواثب فوقنا فنعجز عن التماسك . وكان
الحبل يحزُّ على إحدى ساقيَّ بصورة رهيبه . وكانت تلال
رهيبه من المياه تتراعى على مسرح الرؤية أمامي ثم تتلاشى
مرسلة صخباً مدوياً .

كررت ما قلت له بنبرة أمره . فائثال شاكر و يضرب
صدري برأسه في مزيد من العنف . لم يكن هنالك وقت
يمكن أن نضيقه . أرغمته أن يفك يديه عني واحدة بعد
الأخرى ، وشرعت أدفعه في المياه ، محاولاً أن أجعله يلتقط
الحبل . وعندها حدث أمر أَدَبَ الذعر في قلبي أكثر من أي
شيء آخر حدث في تلك الليلة .

همس شاكر و ، وقد تطلَّع في وجهي :

- تريد أن تفرقني ؟

كان ذلك رهيباً بحق ! السؤال ذاته كان رهيباً ،
وأرهب منه تلك النبذة التي صيغ بها والتي تردد فيها
خضوعٌ خانع ، وتوسُّلٌ بالرحمة ، وآخر زفرة لرجل فقَدَ
كل رجاء في الأفلات من قضاء حاسم . والشيء الأكثر رهبة
من أي شيء آخر هو تأنك العينان في ذلك الوجه الندي

الشاحب شحوب الموتى ! . . .

صرخت به :

- تجلّد ! تمسك بالحبل !

وانزلت نفسي في الماء ممسكاً بالحبل . صدمتُ ساقِي
شيئاً ، فما استوعبت الأمر بداءة بسبب من الألم الذي
شعرت به . وبعد ذلك فهمت . فتدفق في جوانحي شيء حار .
سكرت ، وشعرت بنفسي قوياً كما لم أعهد نفسي من
قبل . . .

هتفت :

- الأرض !

يحتمل أن الملاحين العظام عند اكتشافهم أراضي جديدة
أطلقوا مثل هذه الصيحة في انفعسّال يفوق حدّة انفعالي ،
ولكنني ارتاب في أن يكونوا أطلقوها أشدّ ارتفاعاً . أفلت
شاكرو هتافاً وقذف بنفسه إلى الماء . وسرعان ما جنحنا إلى
اتزان : فالمياه ترتفع حتى خصرينا ، وأنظارنا لا تقع على
دلالات عن الأرض الصلبة في أي مكان . وكان من حسن
سعدنا أني لم أفلت زمام القارب . وهكذا أخذت وشاكرو
مكانينا عن جانبيه ، وتشبّثنا بحبال الانقاذ ، وانطلقنا قدماً
على حذر إلى وجهة مجهولة ، ونحن نقود القارب وراءنا .

كان شاكرو يتغمغم ويضحك ، وأنا اطلع حواليّ في
قلق . وكانت الظلمة شاملة . فيما وراءنا وعن يميننا ارتفع
صوت الأمواج أكثر حدة ، وإلى الأمام منا وعن يسارنا أكثر
نعومة . اتجهنا ناحية اليسار . كانت الأرض صلبة رملية ،
لكنها مليئة بحفر لا يسهل التكهن بها . ولم نكن نستطيع

أحياناً أن نلمس البطن ، ويتعين علينا أن نخوض بساقينا وإحدى ذراعينا ونظل ممسكين بالقارب بالذراع الأخرى . وفي أحيان أخرى كانت المياه تصل إلى ركبتينا . وفي الأماكن العميقة يعول شاكرو وأرتعش أنا رعباً . وبعد ، على غير انتظار ، لقد نجونا ! فأمامنا ثمة أنوار على مرمى البصر .

شرح شاكرو يعول بأعلى صوته . وكنت أذكر جيداً أن القارب من أملاك الجمارك فأسرعت أذكره بذلك . ركن إلى الصمت ، ولم تمر لحظة أو لحظات حتى بدأ ينشج . لم أستطع أن أواسيه - فلم يكن لديّ من سلوى .

بدأت المياه تضعل . . . فبلغت إلى ركبتينا . . . عقبيننا . ورغم هذا دأبنا على شدّ قارب الحكومة . ومرت بنا لحظة ماتت فيها قوانا فأفلتناه . وكان ثمة جذع شجرة سوداء زاوية يعترض سبيلنا . وثبنا فوقه ، وحططنا معاً ، حفاة القدمين ، على نوع من عشب شائك . آلمنا ذلك ، ولكننا على جزء من البسيطة قد لا يكون مضيافاً ، بيد أننا لم نلتفت إليه ، بل اطلقنا ساقينا ناحية الضوء . كان يبعد عنا قرابة ميل واحد ، ويبدو وهو يتوهج مرحاً كمن يضحك وهو يسرع لملاقاتنا .

•

. . . ألفت ثلاثة كلاب شعناء ضخمة توابت من مكان ما من الظلمة بأنفسها علينا . فأرسل شاكرو الذي ينشج بصورة تحزّ في النفس عويلاً صارخاً وتهاوً مستلقياً على

الأرض - والقيت أنا المعطف المبلل على الكلاب النائرة وانحنيت أرضاً ، اتحسس بيدي بحثاً عن حجر أو عصاً . فركزت الكلاب هجومها . وأطلقت من فمي صفيراً حاداً وقد دسست فيه إصبعين . وثبت متراجعة ، وسرعان ما تناهى إلينا صدى أقدام على الأرض وارتفعت اصوات اشخاص يركضون .

بعيد عدة دقائق كنا متحلقين ناراً مع أربعة من الرعاة يرتدون معاطف من جلد الخراف غزيرة الصوف . كان اثنان جالسين على الأرض يدخنان ، وآخر طويل العود له لحية سوداء كثيفة يعتمر قبعة طويلة من الفرو مما يلبسه القوزاقيون يقف وراءنا معتمداً على عصاً تنتهي بعقدة ضخمة . أما الرابع ، وهو شاب اشقر الشعر ، فيساعد شاكرو الناحب على خلع ملابسه ، وعلى مسافة خمسة أمتار من حلقتنا تغطت الأرض بطبقة كثيفة من شيء رمادي منتفخ يشبه ثلوج الربيع التي بدأت في الذوبان لتوها . وما كنت تستطيع ، إلا بعد تحديق طويل ، أن تميز أشكال الخراف التي تجمعت بعضها الى بعض . لا بدءاً أن هنالك عدة ألوف منها ، الصقها النوم وظلمة الليل بطبقة كثيفة دافئة متراسة من السهب . كانت تنغو بين وقت وآخر ثغاء كثيباً يمازجه هلع ورعب . . .

جفت المعطف ورويت للرعاة كل ما حدث معنا فعلاً ، وأخبرتهم كيف جئت بواسطة القارب . استفسر الشيخ الصارم الأشيب الراس ، ولم يكن قد رفع بصره عني خلال حديثي :

- واين هو ، ذلك القارب ؟
فاخبرته .

- اذهب ، يا ميخائيل والقي نظرة !
رمى ميخائيل - الاسود اللحية - عصاه على كتفه وخطا
في اتجاه الشاطئ .

طلب اليّ شاكرو ، وهو يرتعش برداً ، أن أعطيّه
المعطف الدافئ الذي لا يزال مبللاً ، ولكن الشيخ قال :
- رويدك ! إركض قبل ذلك قليلاً لتسري الدفء في
دمك . اركض حول النار ، هيا !

لم يفهم شاكرو ما قيل له على الفور ، ولكنه لم يلبث
أن نهض واثباً ، عريان ، وشرع يرقص رقصة متوحشة ،
طائراً مثل الطائفة فوق النار ، مدوماً على نفسه في بقعة
واحدة ، ضارباً الأرض بقدميه ، صارخاً بأعلى صوته ،
ملوحاً بذراعيه . كان مشهده قاتلاً ، فأخذ اثنان من الرعاة
يتدحرجان على الأرض يضحكان ملء شديقيهما ، في حين حاول
الشيخ ، جامد الأسارير وقورها ، أن يصفق تصفيقاً يتوافق
وايقاع الرقصة ، ولكنه فشل . التصقت عيناه بتدويم
شاكرو ، وجعل يهزّ رأسه ، يبرم شاربه ، ويصيح في صوت
جاف عميق :

- هاي - ها ! سو - سو ! هاي - ها ! بوتز -
بوتز !

وراح شاكرو يتلوى مثل الأفعى يضيئه وهج النار ،
آونة يتواثب على قدم واحدة ، وآونة يضرب الأرض بقدميه

في إيقاع كامل ، وجسده - المتألق بتأثير أضواء النيران -
مغطى بقطرات كبيرة من العرق بدت حمراء كالدم .

وراح الآن الرعاة الثلاثة يصفقون فيما رحل أنا ، والبرد
يرعشني ، أجف نفسي عند النار وأحدث نفسي أن مفامرة
اليوم ينبغي أن تكون ذروة السعادة لعشاق فينيمور كوبر
أو جول فيرن : حطام قارب ، ومواطنون مضيافون ، ورقص
وحشي حول نيران معسكر . . .

وهذا شاكرو الآونة يجلس على الأرض متراكماً في معطفه
يأكل شيئاً ، ويشخص اليّ بعينين سوداوين فيهما تألق لم
يرقني . كانت ثيابه تجفف حيث علقت على عصي مغروزة في
الأرض قريباً من النار . وأعطوني ، أنا أيضاً ، قليلاً من
خبز وشرائح من لحم خنزير مملح .

رجع ميخائيل ، وقعد الى جانب الشيخ صامتاً لا ينطق
بحرف .

استفسر الشيخ :

- حسناً ؟

فأجاب ميخائيل في اقتضاب :

- القارب هناك !

- لن يجرفه التيار ؟

- كلا !

وساد الصمت الجميع ، وهم شاخصون اليّ .

استوضح ميخائيل ، دون أن يوجه سؤاله الى شخص

معين :

- حسن . هل نصحبهما الى الأتمان * في القرية ؟ أو
ربما . . . الى رجال الجمارك ؟
لم يعطه أحد جواباً . وظل شاكرو يأكل دون أن يبدي
اهتماماً .
- في مقدورنا أخذهما الى الأتمان . . . أو الى رجال
الجمارك بسبب ذلك . . . هذا حسن ، وهذا حسن
أيضاً . . .

فشرعت أقول :

- رويدك برهة ، يا جداه . . .
بيد أنه لم يعرني اهتماماً على الإطلاق .
- هذا هو الأمر إذن ! ميخائيل ! القارب هناك ؟
- أجل ، هو هناك . . .
- وهكذا . . . والتيار لن يعرفه ؟
- كلا ، لن يعرفه .
- إذن ، فليبقَ في موضعه ، وفي الغدادة يذهب
المراكبيون الى كيرتش وفي مقدورهم أن يأخذوه معهم . لم
لا يأخذون قارباً فارغاً معهم ؟ إيه ؟ هكذا الأمر إذن . . .
والآن انتما . . . أيها الشابان الأشعثان . . . هل
أنتما . . . كيف أقول ذلك الآن ؟ . . . هل أرتعبتما ،
أنتما الاثنان ؟ كلا ؟ ها ، ها ! . . . لو اجتزتما نصف
فرسخ آخر لوصلتما الى البحر الفسيح . فماذا تفعلان إذن

* الاتمان أو الهتمان : زعيم قوزاقي .

لو قُلِّدَ القارب في خضم البحر ؟ آه ؟ كنتما سقطتما الى القاع ، مثل حجرين ، أنتما الاثنان . كنتما غرقتما ! ليس أكثر من ذلك .

مال الشيخ الى الصمت ، ونظر اليَّ بابتسامة متهمكة تتخايل على شاربيه .

- حسن ، ألن تقول شيئاً عن نفسك ، يا صاح ؟
كنت قد شبت من تأملاته ، هذا التيار الذي أخفقت في استيعابه واعتبرته مجرد سخريه .
قلت في شيء من الاستياء :

- إني معيرك سمعي !

- حسن ، وماذا استنتجت من هذا ؟

كان الشيخ يريد أن يعرف ذلك .

- لم أستنتج منه شيئاً .

- الآونة إذن ، الآونة إذن ، فيم تكشّر عن أسنانك ؟

أيتراءى لك أنك قادر أن تزمجر وتعض الكبار والمتفوقين ؟

فظللت بالصمت معتصماً .

واسترسل الشيخ يقول :

- هل تريد مزيداً من طعام الآن ؟

- كلا .

- حسن ، لا تأكل إذن . فليس من يجبرك على ذلك .

لعلك تأخذ كسرة من خبز للطريق . اتحب ذلك ؟

اجفلت غبطة ، ولكنني لم أفضح نفسي .

قلت في هدوء :

- من أجل الطريق قد آخذ . . .
- هاي ! . . . أعطوهما شيئاً من الخبز من أجل الطريق وقليلاً من شرائح دهن الخنزير . وقد يكون هنالك شيء آخر أيضاً ؟ إذا كان هنالك شيء ، فاعطوهما إياه . . .
- استعلم ميخائيل :
- هل تتركهما يذهبان إذن ؟
- ورفع الراعيان الآخران أنظارهما الى الشيخ .
- حسن ، وأي عمل سيعثران عليه هنا معنا ؟
- لاحظ ميخائيل في صوت مستاء :
- خطر لنا ان نأخذهما إلى الأمان . . . وإن لم يكن ذلك . . . فإلى رجال الجمارك .
- تلملم شاكرو في موضعه قرب النار ومدّ رأسه من داخل المعطف متسائلاً . كان الخوف قد زائله .
- وماذا يفعلان لدى الأمان ؟ ليس لديهما ما يفعلان هنالك فيما يخيّل اليّ . في مقدورهما أن يذهبا ويرياه فيما بعد . . . ان طابت لهما رؤيته .
- وأصرّ ميخائيل :
- وماذا عن القارب إذن ؟
- فأجاب الشيخ عن السؤال بسؤال :
- القارب ؟ ماذا عن القارب ؟ أهو هناك ؟
- أجاب ميخائيل :
- هو هناك .
- حسن ، فليبق هناك إذن . وفي الصباح يستطيع إيفاشكا ان يأخذه الى المرسى . ومن هناك يأخذه أحدهم الى

كيرتش . ليس هنالك شيء آخر نستطيع أن نفعله
بالقارب .

راقبت الراعي الشيخ مراقبة دقيقة ، فما استطعت أن
اميز أقل حركة في وجهه رابط الجأش ، وجهه الذي لوحته
الشمس وصوّحته العوامل الجوية الأخرى ، والذي راحت
ظلال النيران تتوثب فوقه .

شرع ميخائيل يستسلم :

— طالما أنه لن ينجم عن ذلك شيء سييء غير متوقع

فيما بعد

— إذا لم تتركوا السنتكم تثرثر حول هذا الموضوع
فلا أرى ضرراً ينجم عن ذلك . إذا أخذناهما إلى الأتمان ،
ففي رأيي أن ذلك سيعني متاعب بالنسبة إلينا واليهما
سواء . أن ما نريد هو أن ننصرف إلى أعمالنا ، وما هما
يريدان هو أن . . . يسيرا . إيه !

وسألني الشيخ ، على الرغم من أنني سبق وأوضحت
له ذلك :

— هل تذهبان بعيداً على أقدامكما ؟

— إلى تيفليس

— درب طويلة ! هذا أنت ترى ، والأتمان سوف

يعوقهما . وإذا فعل ذلك ، فمتى يصلان ؟ يحسن أن ندعهما
يتابعان طريقهما إلى حيث يرغبان الوصول . هه ؟

فوافق رفاق الشيخ على كلامه :

— لم لا نفعل ذلك ، إذن ؟ فليتابعا سبيلهما !

حين أنهى الشيخ ملحوظاته المقتضبة ضغط على شفتيه ، وتطلع حواليه الى رفاقه مستفسراً ، وهو يخلل بأصابعه لحيته السوداء الشائبة .

أوما الشيخ إيماء انصراف :

- حسن ، كان الله معكما ، أيها الشباب ! سوف نعيد القارب الى أصحابه . موافقان ؟

التقطت قبعتي :

- شكراً ، يا جداه !

- فيم تشكرني ؟

فكرت ، وقد غلبني الانفعال :

- شكراً ، يا أخي ، شكراً !

- فيم تشكرني ؟ هذا شيء غريب ! أقول : كان

الله معكما ، ويقول هو : شكراً ! لن تكون خائفاً لو أرسلتك الى الشيطان ، أليس كذلك ؟ إيه ؟

فاعترفت :

- كنت مذنباً !

رفع الشيخ حاجبيه :

- أوه ! . . . فيم أرسل الآن رجلاً على الطريق

السيئة ؟ يحسن ان أرسله على الطريق التي ادوس عليها بنفسى . من يدري . . . قد نلتقي مرة أخرى ، وعندها . . .

نكون أصدقاء قدامى . اتحب ذلك ؟ جميعنا نحتاج الى شيء من المساعدة بين حين وآخر . . . وداعاً الآن ! . . .

رفع قبعته الشعثاء المصنوعة من جلد الخراف وانحنى

لنا . وانحنى رفاقه أيضاً . استفسرناهم عن الطريق الى
مدينة أنابا ، وانطلقنا قدماً .
كان شاكرو يضحك من شيء ما . . .

٦

سألته :

- ما الذي يضحكك ؟

اغبطنى ذلك الراعي الشيخ وفلسفته في الحياة ،
واغبطتنى الريح الرخاء التي تهبّ قبيل الفجر على وجهينا
مباشرة ، وأن السماء خالية من السحب ، وأن الشمس
سرعان ما تشرق في السماء الصافية ، وأن الآلهة الجميل
المتألق ليوم جديد سيطل على الوجود . . .

غمز شاكرو لي ساخراً وانفجر ضاحكاً بصوت أشد
ارتفاعاً . وتبسمت أنا أيضاً ، وأنا أسمع الى ضحكه الجدل
المعافى . كل ما تبقى من رحلتنا الشاقة بعيد ساعتين أو
ثلاث ساعات قضيناها عند نيران الرعاة والخبز ودهن
الخنزير الطيبين هو وجع خفيف في عظامنا . بيد أن هذا
الاحساس لم يشوّه مزاجينا الصافيين .

- حسناً ، ما الذي يضحكك ؟ سرور أنت لخروجك من
هذا على قيد الحياة ، أليس كذلك ؟ على قيد الحياة ،
ومعدتك ملأى بالاضافة اليه ؟

هزّ شاكرو رأسه ، ولكزني بعرقه بقسوة ، وكشّر
في وجهي ، وانفجر ضاحكاً من جديد ، ثم خاطبني أخيراً
بنبرته الروسية الشوهاء :

- أنت لا تفهم ما الذي يتير السخرية ؟ لا تفهم ؟
ساخبرك ! اتدري ما كنت أفعل لو أخذونا الى ذلك الأتمان -
رجال الجمارك ؟ انست لا تدري ؟ ساخبرك : لقد رغبت في
إغراقي ! وبدأت أنا أبكي . وعندهما أسفقا على ولن
يسجنوني ! اتفهم ؟

أردت أن آخذ حديثه بادی الأمر على محمل المزاح -
لكن - وأأسفاه ! - كان قادراً أن يقنعني أن هدفه كان
جدياً تماماً . اقنعني بهذا بصورة جلية صافية حتى أنني ،
بدلاً من أن أغضب منه بسبب من سخريته الساذجة ،
ملأني شعور من إشفاق عميق عليه . أي إحساس آخر يمكن
أن أشعر به نحو رجل ينبئك ، على الرغم من ابتساماته
المشرقة وفي نبرات لا حدود لإخلاصهما ، عن رغبته في
قتلك ؟ ماذا يمكن أن يعمل المرء معه إن كان ينظر الى هذا
العمل باعتباره مزاحاً ظريفاً محبباً ؟

شرعت أبرهن لشاكرو في حيوية جميع ما في رغبته من
عمل لا أخلاقي . فرد عليّ بمنتهى البساطة أنني لا أفهم
مقاصده الحقيقية ، وأني أنسى أنه يعيش بموجب جواز
سفر مزيف ، وأن أحداً لن يربت على ظهره نتيجة لذلك . . .
وصعقتني ، على حين فجأة ، فكرة وحشية . . .
قلت :

- رويدك برهة . اتنوي أن تقول إنك صدقت أنني
انتويت إغراقك حقاً ؟

- كلا ! . . . حين دفعتني في الماء صدقت ، وحين
وثبت اليه بنفسك - توقفت' .

هتفت صارخاً :

- حمداً لله على هذا ! حسناً ، اظنّ أنه ينبغي أن
أشكر !

- كلا ، لا تسكرني ! أنا أقول لك سكرأ . هنالك ،
عند النار ، كنتَ بردان ، وكنتُ أنا بردان أيضاً . وكان
المعطف معطفك - لكنك لم تأخذه . جففته ، وأعطيتني
إياه . أما أنت نفسك . . . أنت لم تأخذ شيئاً . ولهذا
أقول لك سكرأ ! أنت رجل طيب طيب - وأنا أفهم ذلك .
حين نصل الى تيفليس - سأعوض لك كل شيء . سأصحبك
الى والدي . وأقول لوالدي - هذا هو الرجل ! أعطه ما
يأكل ، أعطه ما يسرب ، وأنا - الى الحمير في اسطبلاتها !
هذا ما سأقول له ! وسوف تعيش معنا ، ستكون بستانياً ،
وستسرب الخمرة ، وتأكل كل ما تريد ! . . . آخ ، آخ ،
آخ ! . . . ستتمتع بحياة رائعة ! بسيطة جداً ! . . . وتأكل
من طبق واحد ، سأقول له ، ونسرب من قده واحدة
متلى ! . . .

واستغرق في وصف مفصل لمباهج الحياة التي سيعدها
لي في تيفليس . وفكرت في نفسي ، وأنا أسمع حديثه ،
في البؤس العظيم الذي يعيشه أولئك الناس الذين تفوقوا ،
وقد تسلحوا بمبادئ جديدة وطموحات جديدة ، على
معاصريهم واضطروا الى السفر في رفقة أناس غرباء عنهم
عاجزين عن فهمهم . . . الحياة قاسية بالنسبة الى هؤلاء
الناس المتوحدين ! أنهم فوق الأرض ، في الهواء . . . ولكنهم

يهومون هنالك مثل بذور حنطة جيدة رغم ندرة سقوطهم في
أرضي مشمرة . . .

كان الضوء ينتشر . وعند الأفق راح البحر يتألق بلون
ذهبي قرنفلي .

قال شاكرو :

- أريد أن أنام !

توقفنا . استلقى في فجوة أحدثتها الرياح في الرمل
الجاف قرب الشاطئ ، وغطى نفسه من رأسه حتى عقيه
بالمعطف الكبير ، واستغرق في النوم على الفور . جلست الى
جانبه ، وجعلت أراقب البحر .

كان البحر يعيش حياة خاصة به ، خصبة متحددة ،
مفعمة حركة صخابة . وكانت أسراب وراء أسراب من الأمواج
تتدحرج في ضجيج على الشاطئ وتتكسر فوق الرمال التي
تهمس في خفوت وهي تبتلع المياه . وكانت الأمواج المنطلقة
في المقدمة ، وهي تشرئب بأعرافها البيض ، تطوح بنفسها
في جلبه وهجمة مباشرة على الشاطئ ، ومن بعد تنزلت
مقهقرة كيما تلتقي بأسراب أخرى تنطلق لدعمها
ومساندتها . كانت تتدحرج على الشاطئ من جديد ، وقد
تعانقت عناقاً شديداً ، مرغية مزبدة ، وتروح تضربه في
عنف لتنشر حدود كينونتها أوسع فأوسع . ومن الأفق الى
الشاطئ ، فوق انبساط البحر المترامي ، تهب هاتيك
الامواج القوية اللينة ، وتوالي دحرجتها ، من دون انقطاع ،
وتتكاثف سوية وتندغم واحدة بالأخرى في سبيل هدف
مشترك . . . وكانت الشمس تضيئ ذراها بتألق متفاقم ،

في حين تلوح الأمواج المتناثية في الأفق حمراء بلون الدم .
لم تكن قطرة واحدة تضيق أو تذهب هدرأ دون أن تخلف
اثراً في تلك الحركة الهائلة للمياه المتراكمة التي تبدو
وكانها نفخت فيها الحياة من قبل غاية مرصودة أو شكت أن
تكتمل بواسطة تلك الضربات العريضة المتناغمة . يخلب
اللب أن تراقب الشجاعة المتحدية لتلك الأمواج القائدة
تدفع نفسها بجرأة في وجه الشاطئ الصامت ، وفاتن أن
تشاهد كيف يتبعها البحر بأسره ، هادئاً راسخاً ، البحر
الجبار الذي صبغته الشمس بمختلف ألوان قوس قزح ،
والذي يعي مقدار ما هو عليه من جمال وجبروت . . .
وكان مركب بخاري كبير يشق عباب الأمواج مبحراً من
وراء قمة الجبل الداخلة في البحر ، متميلاً بمهابة على صدر
اليم اللاهث ، متسلقاً ذرى الأمواج الكبيرة التي تطوح
أنفوسها في غضب على جميع جوانبه . كان جميلاً قوياً ،
ومعدنه يتألق تحت الشمس ، ويمكن في أي وقت غير هذا
الوقت أن يعيد الى الذاكرة الأعمال الرائعة للإنسان الذي
يستطيع أن يفرض إرادته على العناصر جمعاء . . . أما الى
جانبي فيضطجع أنسان كان ، هو نفسه ، العنصر . . .

٧

سرنا في أراضي مقاطعة تيريك . كان شاكرو ممزقاً
مهلهلاً الى درجة لا يمكن تصديقها ، وقد اعتكر مزاجه رغم
أنه لم يعد جائعاً بعدما اتاحت لنا فرص كثيرة لاكتساب

المال . وخلق على نفسه طلعة من هو غير أهل للقيام بأي عمل على الإطلاق . بذل جهده مرة لنذر القش الذي بعثته الدراسة ، ولكنسه تخلى عن ذلك عند انتصاف النهار بعدما امتلات راحته ببثور نازفة . وحاولنا في مرة أخرى أن نجتز الأعشاب الضارة فكشط جلد عنقه بالمجرفة .

كان تقدمنا بطيئاً - فنحن نعمل يومين كاملين ونتابع طريقنا على الدرب يوماً . وكان شاكرو يأكل ما طاب له ، ولم أستطع بسبب من شرهه أن أدخر ما يكفي من مال كيما اشتري له بديلاً عن ثيابه التي لم يبق منها غير رقع مهلهلة وثغرات مرقشة تمسكها خيوط متعددة الألوان .

ذات مرة ، في هذه القرية أو تلك ، عثر في كيسى على خمسة روبلات فأخرجها ، وكنت قد ادخرتها في الغطاء بصعوبة فائقة ، وبرز في تلك العشية في المنزل الذي كنت اعمل في حديقة مطبخه ، يتعته السكر وترافقه امرأة قوزاقية سمينة صفعتني بهذه التحية :

- تحية ، أيها الهرطوقي الملعون !

حين أجفلى هذا اللقب استوضحتها السبب في نعتى بالهرطوقي ، فردت في رباطة جأش :

- ذلك أنك ، أنت أيها الشيطان أنت ، منعت الشاب المسكين عن أن يحب إحدى النساء ! كيف تأذن لنفسك بتحريم ما سمحت به القوانين ؟ أنت ملعون ، هذا ما أنت عليه ! . . .

وقف شاكرو الى جانبها يومئ برأسه موافقاً . كان السكر قد أفقده وعيه ، واية حركة يأتيا تجعله يترنح

وكان مفاصله ارتخت وتفككت . وكانت شفقه السفلى
متدلية ، وعيناه المكتئبتان تلوحان وكأنهما تحملقان فيّ في
إصرار فارغ .

صاحت المرأة في جراءة متناهية :

- والآن ، أنت ، فيم تفغر فمك منشدها بنا على هذا

الغرار ؟ أعطه نقوده !

سألت مشدوها :

- أية نقود ؟

- هيا ، هيا ! أو أجرك الى المحكمة . أعطه المائة

وخمسين روبلا التي اخذتها منه في أوديسا !

ماذا كان عليّ أن أفعل ؟ تلك المرأة الملعونة قد

تجرني من جراء سكرها الى المحكمة ، ومن بعد الى بلدية

القرية ، ونحن على ما نحن عليه من طلعة المتشردين ،

وهناك يعتقلوننا . ومن يدري ماهية نتائج مثل ذلك

الاعتقال بالنسبة اليّ وإلى شاكرو ! وهكذا لجأت الى

استخدام الوسائل الدبلوماسية للتحايل على تلك المرأة ،

الامر الذي يقتضيني كثير مشقة . وتمكنت بمساعدة ثلاث

زجاجات من الخمر أن أسترخيها . فتراكمت على الأرض

بين البطيخ ، واستسلمت الى النوم . ووضعت شاكرو في

فراشه . وفي بكور اليوم التالي غادرت وإياه القرية ، تاركين

المرأة بين اكوام البطيخ .

بقي شاكرو يبصق ويرسل زفرات عميقة وقد أسقمته

الآثار البغيضة التي خلفها إسرافه في الشراب نصف سقام ،

وانسحق وجهه وانتفخ . حاولت ان احادثه ولكنه لم يرد عليّ ، بل جعل يهزّ رأسه الاشعث مثل خروف .

كنا نتبع ممراً ضيقاً راحت ديدان صغيرة حمراء ترحف عليه رائحة جائية ، وهي تنزلق تحت أقدامنا . وكان الهدوء المخيمّ حوالينا يساعدنا في الاستغراق في أحلام اليقظة . وكانت قطعان من السحب السود تتحرك متباطئة في السماء فوقنا . كانت تتمزج ببعضها وتغطي السماء بأسرها فيما وراءنا ، أما أمامنا فهي صافية رغم شظايا من السحب انفصلت عن جسد أمها وهبت تنفخ في مرح وهي تلحق بنا . وفي مكان ما في البعيد كان ثمة دمدمة رعد ، وزمجرته الهادرة تدفّ مقتربة أكثر فأكثر . وتساقطت قطرات من الغيث . وراح العشب يخشخش مثل ورق القصدير .

لم يكن هنالك ملجأ . وقد اغدقت الظلمة وارتفعت خشخشة العشب بصورة فاقمت في رعبنا . وكان هنالك قرعة من الرعد - فتبعثرت السحب متألفة بنور أزرق . وهطل مطر ثقيل مدرار ، وراحت قعقة الرعد تتوالى واحدة بعد الأخرى في زمجرة مستديمة فوق السهب المقفر . وكان العشب ، وقد أحنّت هامته هبات الريح والمطر ، يضطجع مستلقياً على الأرض . وكان كل شيء يرتجف في عصبية . ومزق البرق السحب في ومضات تبهر العيون . . . وتبدت في نوره الأزرق المتألق سلسلة من الجبال البعيدة تومض بلهب أزرق ، فضي بارد ؛ ومن بعد ، حين ينطفئ البرق ، تختفي وكان هاوية الظلمة قد ابتلعها . وفيما حوالينا كان ثمة رحم مزجر مرتعش مُصدّر من الأصوات . لكأن السماء ،

وقد انتفخت وغضبت ، تكابد تفاعلاً من التطهير بالنار من كل الغبار والقذارة المنبعثة من الأرض ، فيما يلوح أن الأرض ترتجف خوفاً من غضبتها .

كان شاكرو ينشج مثل كلب مذعور . أما أنا فقد كنت أسير نوع من الانسراح ، جرفه فوق العالم اليومي التبصر في هذه البانوراما الكثيفة الجبارة للعاصفة فوق السهب . وحملتني هبولى إلهية بعيداً ، وافرخت مزاجاً بطولياً ، وغلقت الروح في تآلف عاصف . . .

غلبتني الرغبة في المشاركة في العاصفة كيما أعثر على منفذ للرب والانشداه المتدفقين المنبعثين في من جراه قوتها . وكانت النار الزرقاء التي أشعلت السماء بأسرها ، فيما يبدو ، قد التهمت في صدري ، و . . . حسناً ، كيف يتاح لي أن أعبر عن انفعالي الفسيح وعن تهليلي ؟ بدأت أغني - في صوت مرنان ، وبكل ما يتفجر في من قوة . وزمجر الرعد ، وومض البرق ، وخشخش العشب ، وغنيت أنا أنى امتزجت بكليتي بجميع الأصوات الأخرى . . . كنت أطيّر من الفرحة . فليس هنالك شيء ضدي . وأنا لم أؤذ أحداً سوى نفسي . العاصفة في البحر ، والرعد فوق السهب ! ولا أعرف تظاهرة للطبيعة أفخم من هذه التظاهرة .

وهكذا أطلقت صوتي عالياً ، وأنا ممثلي ثقة أني لا أزعج إنساناً بتصرفاتي ، وأنني لا أتعرض لأي خطر إذا ما تعرضت أفعالي للنقد . وعلى حين فجأة ، اهتزت ساقاي من تحتي بقسوة ، ورايتني مرغماً على الجلوس في بركة من الوحل . . .

كان شاكرو يتطلع في وجهي بعينين غاضبتين وقورتين .
 - لقد فقدت صوابك ؟ أنت لم تفقده ؟ كلا ؟ ادن . . .
 اخر . . . س ! لا تصرخ ! سأمزق حنجرتك ! اتفهم ؟
 انشدته ، وشرعت أستوضحه كيف أسأت إليه .
 - لقد أرعبتني ! اتفهم ؟ الرعد . . . هذا كلام الله ،
 وأنت تصرخ فيطفي صوتك عليه . . . ما رأيك ؟
 قلت له إني أملك ملء الحق في الغناء إذا اشتهته
 نفسي ، مثلما يملكه هو .
 فأوضح بصورة جازمة :
 - ولكنني لا أريد ذلك .
 فأذعنت :
 - إذن لا تفعل ذلك !
 فحذرني شاكرو بقسوة :
 - وأنت لا تفعل ذلك أيضاً !
 - كلا ، فأنا أشعر برغبة في الغناء . . .
 بدأ شاكرو يقول في نبرة غاضبة :
 - والآن أصغ . . . ما رأيك ؟ من أنت ؟ الديسك
 بيت ؟ الديك أم ؟ أب ؟ الديك أحد الأقرباء ؟ الأرض ؟ من
 تكون في هذا العالم ؟ هل تحسب أنك رجل ؟ أنا هو . . .
 الرجل ! فأنا أملك كل شيء !
 ودق على صدره :
 - أنا أمير ! وانت . . . انت . . . لا شيء ! لا شيء
 على الإطلاق ! أنا معروف في كوتايسي ، في تيفليس ! . . .
 اتفهم ؟ فحذار أن تقف في وجهي ! هل تخدمني ؟ . . .

لسوف تكون مسروراً ! سأدفع لك عشرة أضعاف ! هل تفعل ذلك من أجلي ؟ أنت لا تستطيع القيام بأي عمل آخر . أنت تقول بنفسك أن الله أمرك أن تخدم جميع الرجال دون تعويض ! وأنا أعوض عليك ! فيم تعذبني ؟ فيم تعظني ، وفيم تخيفني ؟ هل تريد أن أصبح مثلك ؟ هذا لا ينفع !
هه ، هه ، هه . . . تفو ! تفو ! . . .

جعل يتكلم ، يتلمظ بشفتيه ، ويبصق ويشخر ، ويتنهد . . . أدمنت الى وجهه النظر ، وقد فطرت فمي دهشة . كان يبدو أنه يهرق جميع الاساءات المتراكمة ، والاهانات والاذلالات التي عاناها على يدي منذ بداية رحلتنا . وكما يسبغ القوة على مجادلاته ظل يدسّ اصبعه في صدري ناخراً ، ويهزني من كتفي ، وفي اللحظات الأشدّ فعالية يضغط رمته بأكملها عليّ . وهطل المطر مدراراً علينا ، وتفجرت جلجلة متوالية من الرعد فوق راسينا ، وجعل شاكرو ، كيما يسمعي صوته ، يصيح بأعلى ما لديه من قوة .

كانت سخافة مركزي أكثر ما صعقتني قوة وارغمشي على الانفجار في الضحك حتى مزقت خاصرتي . . .
واستدار شاكرو عني ، وهو يبصق عن قصد .

٨

كلما كنا نقترّب من تيفليس كان شاكرو يستغرق في التفكير والاكتئاب . وظهر شيء جديد في وجهه الهزيل لكن الخالي من أي تعبير . وغير بعيد من فلاديكافقاز بلغنا قرية

جركسية وآجرنا نفسينا لموسم حصاد الذرة .
بعيد يومين من العمل مع الجراكسة الذين يتكلمون
الروسية بصعوبة ويزجون أوقاتهم ضاحكين منا يلعنونا
بلغتهم الخاصة ، عزمنا على مغادرة القرية ، وقد أساءت إلينا
تلك المعاملة المتزايدة العداء التي خصنا بها السكان . وعلى
مسافة قرابة عشرة فراسخ من القرية أخرج شاكرو فجأة من
تحت قميصه ربطة من شاش «ليزغيني» وأطلعني عليها في
انتصار معلناً :

- لا حاجة الى العمل بعد الآن ! بها - واستر كل ما
نحتاج إليه ! وشتكفينا حتى تيفليس ! أتفهم ؟
كدت أنفجر غضباً . اختطفت القماش منه ورميته جانباً ،
وتطلعت من فوق كتفي . فالجراكسة لا يحبون العبث بهم .
قبل فترة وجيزة سمعنا القصة التالية من أحد القوزاقيين :
عمد أحد المتشردين وهو يفادر القرية التي كان يشتغل فيها
الى اخذ ملعقة حديدية . فأدركه الجراكسة ، وعثروا على
الملعقة ، فشرخوا له معدته بخنجر ، ودفعوا الملعقة في
الجرح ، ثم ركبوا جيادهم في هدوء وتركوه في السهب حيث
التقطه القوزاقيون على شفا الموت . روى لهم القصة وأسلم
الروح على الطريق الى قريتهم . وحذرنا القوزاقيون بشدة
من الجراكسة أكثر من مرة . ورووا لنا قصصاً أخرى من
الوتيرة ذاتها - ولم أجد سبباً يمنعني عن تصديقهم .

ذكرت شاكرو بذلك . انتصب أمامي مرهفاً سمعته
الي . وعلى غير انتظار ، ودون أن ينطق بحرف ، عرى

أسنانه وضيّق فرجتي عينيه ، ووثب عليّ مثل القط . بقينا حوالي خمس دقائق مشتبكين في عراك ، حتى أن رفع شاكرو صوته أخيراً صائحاً في غضب :

- هذا يكفي !

جلسنا منهكين قبالة بعضينا وقد شملنا الصمت فترة من وقت . تطلع شاكرو مفكراً الى الناحية التي القيت الشاش المسروق فيها ، وراح يتحدث :

- فيم تقاقل ؟ يا ، يا ، يا . . . ما اغباك . هل سرقتك منك ؟ أسفت لأنى اخدت القماس . أنا أرثي لك ، ولهذا سرقت . . . أنت من يتعين عليك أن تعمل ، فأنسا لست قادراً عليه . . . ماذا ينبغي أن أعمل ؟ أردت أن أساعدك . . .

حاولت أن أشرح له معنى السرقة .

كان ناقماً عليّ ، فأوضح قائلاً :

- أرجوك أن تخرس ! فلك رأس مثل الحطشب . . . اذا كنت تموت - فهل تسرق ادن ؟ حسناً ! وهل تسمى هذه الحياة حياة ؟ إخرس !

خشيت أن أغضبه مرة أخرى ، فركنت الى الصمت . كانت تلك ثاني مرة يسرق فيها . الأولى ، يوم كنا على البحر الأسود ، سرق ميزان جيب من صيادي السمك اليونانيين . وهنالك أيضاً كان يمكن أن تسوء الأمور معنا الى أبعد الحدود .

سأل حين جنحنا الى هدوء ، ورتبنا الامور وقعدننا نستريح :

- حسناً . . . هل نتابع الطريق ؟
تابعنا طريقنا . كان مزاجه يزداد حدة مع مرور كل
يوم ، فيروح يشخص إليّ بغرابة من تحت حاجبيه
المتجهمين . ومرة ، حين اجتزنا وادي داريال ، أخذنا ننزل
في الطريق الى غودور ، بدأ يقول :
- في غضون يوم أو يومين . . . نصل الى تيفليس .
تسه ، تسه !

وتلمظ بشفتيه ، وشرقت ملامحه اشراقة واسعة :
- وصلت الى بيتي : أين كنت ؟ كنت أسافر !
سأذهب الى حمام البخار . . آها ! وسأكل كثيراً . . . آه ،
كثيراً ! وسأقول لامي - أريد كثيراً أن آكل . . . وسأقول
لأبي - اصفح عني ! فلقد وجدت كثيراً من الأحران ، ولقد
رأيت الحياة - بمختلف ضروبها ! المتسردون قوم طيبون .
فادا التقيت أحدهم سأعطيه روبلاً ، وأصعبه الى الحانة ،
أقول له اسرب خمرة . فلقد كنت متسرداً ! وسأخبر
والدي . . . أن ذلك الرجل - كان مثل أخ كبير لي . . .
وقد وعظني . وقد ضربني ، ذلك الكلب ! . . . وقد
أطعمني . والآن ، سأقول ، أطعمه من أجل ذلك . أطعمه
سنة كاملة ! سنة كاملة - بجميع ايامها . أسمع ، يا
مكسيم ؟

كنت أحب أن أصغى إليه حين يتحدث على هذا الفرار .
في مثل هذه اللحظات كان ثمة شيء بسيط طفولي فيه . ومثل
هاتيك الأحاديث كانت لها شأنها بالنسبة اليّ لأنني لم أكن

اعرف أحداً في تيفليس ، وكان الشتاء على الأبواب - وفي غودور ثلجتنا السماء . وكنت أعتمد على شاكرو الى حد ما . مشينا مسرعين . ووصلنا الى متسخيتا ، عاصمة إبيريا القديمة . وخططنا في اليوم التالي للوصول الى تيفليس . من بعيد ، من مسافة تبلغ خمسة فراسخ تقريباً ، وقعت عيناى على عاصمة القوقاز قائمة بين جبلين . أنها نهاية الطريق ! وكنت أحس بالسعادة من شيء ما - وكان شاكرو لامباليا . كان يمدُّ بصره الى الأمام بعينين مكتئبتين ويبصق لعاباً جائعاً ، وبين فترة وأخرى يشدُّ على معدته في تشنجات من الألم . لقد أكل الجزر الذي كنا نقتلعه عن جانبي الطريق دون حذر .

- أتحسب أننى ، وأنا النبيل الجورجى ، سأدخل مدينتي في وضوح النهار ، وأنا رت التياب تغطيني الأوساخ ؟
أوه ، أبدأ ، أبدأ ! سننتظر حتى المساء توقف !
جلسنا الى جانب جدار بناء خاو ، ولفَّ كل منا آخر لفافة لديه ، ونحن نرتجف من البرد ، وشرعنا ندخن . كانت ريح مريرة قاسية تهبُّ من «طريق جورجيا العسكري» . فقد قعد شاكرو يرندح أغنية حزينة . وفكرت أنا في غرفة دافئة وفي كل فوائد نار ملتهبة فوق وجود متشرد .
نهض شاكرو ، وقد ارتسمت على سيماء ملامح من اتخذ قراره :

- سندهب !

كانت الظلمة تتراخي . انها فترة اشعال المصابيح في المدينة . كان ذلك حلواً : فالأضواء ، واحداً بعد الآخر ،

وبصورة تدريجية ، تشع في العتمة التي غمرت الوادي
وأخفت المدينة .

- هاي ، اعطني هذا الباسليق * أخفي به وجهي ، والا
عرفني أصدقائي . - أعطيته ذلك الباسليق . كنا نسير في
شارع أولجينسكايا . وكان شاكرو يصفر لحناً حاسماً .

- مكسيم ! أترى موقف الكونكا * * ذلك - جسر
فيريسكي ؟ اجلس هنالك ، وانتظر ! أرجوك . انتظر ،
سأصل الى أحد البيوت ، وأستفهم من أحد الأصدقاء ، عن
أهلي ، أبي ، أمي . . .

- هل تغيب طويلاً ؟

- لن أغيب طويلاً ! دقيقة واحدة !

انزلق سريعاً في قم زقاق ضيق مظلم ، وأختفي فيه . . .
الى الأبد .

لم ألتق ذلك الرجل بعد ذلك أبداً - رفيقي في الطريق
طوال أربعة شهور من عمري ، ولكنني أذكره غالباً في نشوة
حقيقية ودودة .

علمني أشياء كثيرة لا استطيع العثور عليها في الصفحات
الكثيفة التي خطها الحكماء - ذلك ان حكمة الحياة هي أعمق
دائماً وأكثر شمولاً من حكمة الرجال .

١٨٩٤

* الباسليق - الطرطور أو القبعة .

* * كونكا - ترام يجره أحصنة .

الجد ارجيب وليونكا

كانا ينتظران الطوف متمددين في ظل الضفة المرتفعة ،
يمدان بصريهما في صمت الى أمواج نهر كوبان السريعة العكرة
المتدفقة عند قدميهما . كان ليونكا قد أغفى ، والجد ارجيب
يحسّ في صدره الماء أصمّ مرهقاً ولا يجد الى النوم وسيلة .
وكان شباحهما الرئان المتقلصان ينصلان بصعوبة عن قاع
الأرض الأسمر القاتم ، فكأنهما بقعتان من هذه الأرض تثيران
رثاء وشفقة ، احدهما أكبر من الأخرى قليلاً ، والثانية
أصغر من الأولى بقليل . وكان وجهاهما المتعبان اللذان
لوّحتهما الشمس وكساهما الغبار يتناسقان تماماً مع لون
أسمالهما المتوحشة .

كان جسد الجد ارجيب الطويل المتعظم يقطع لسان الرمل
الضيق المتطاوّل في شريط أصفر على طول الشاطئ ، بين
النهر والضفة المرتفعة . وكان ليونكا النائم يجثم قرب جده
أشبه ما يكون بهلال صغير . كان هشاً ، يلوح في أسماله
مثل غصن ملتبس ، منفصل عن الجد ، هذه الشجرة العجوز
المتيبسة التي حملتها أمواج النهر وطوّحت بها في هذا
المكان .

كان الجد يتطلع ، وقد رفع رأسه على مرفقه ، الى الضفة
المقابلة المغفورة بأشعة الشمس ، المزدانة بشجيرات من
الصفصاف . وكان يستطيع أن يميز بين هذه الجذوع النادرة
حافة الطوف السوداء . انه الدمار والفراغ هناك ! وهذا
الشريط الرمادي الذي تشكله الطريق ينفصل عن النهر

ويغطس في السهب ، مستقيماً ، جافاً ، كثيباً ، بصورة بانسة
تبعث على الشفقة والراء .

كانت عينا الشيخ العكرتان الملتهبتان ، وقد احمرت
اجفانهما وانتفخت ، تطرفان دون انقطاع ، ومحياء الملون
بالغضون جامداً في تعبير ينم عن العذاب والاعياء . لم يكن
يستطيع امتناعاً عن السعال من حين لآخر ، وعندها يرنو الى
حفيدة ويخفي فمه بيده . كان السعال جافاً ، مختنقاً ، يرفعه
ويستهطل من عينيه عبرات كبيرة مستديرة .

وفيما عدا سعال الجد وضوضاء الأمواج الخامدة على
الرمال كان السهب أخرس . . . انه يمتدّ عن جانبي النهر ،
مترامي الأبعاد ، متوحشاً ، تحرقه الشمس اللاهبة ، الا هناك
بعيداً بعيداً ، عند الأفق ، حيث يتموج محيط مذهب من
القمح بأبهة عظيمة ، وعينا الشيخ لا تكادان تريان منه
شيئاً ، تسقط عليه باستقامة سماء صافية تخطف الأبصار .
وكان يرسم عليه ثلاثة أشباح باسقة تمثل ثلاث شجرات
حور نائية . كانت هذه الأشباح تصغر تارة ، وتمظم تارة
أخرى ، والسماء والقمح تحت السماء يترنحان ، يصعدان
ويهبطان بصورة مستمرة . ثم يختفي كل شيء ويتلاشى
بصورة مباغتة وراء الستار المتألق المفضض الذي ينشره
سراب السهب . .

وكان هذا الحجاب المتدفق ، البراق والمخادع ، يقترب
أحياناً حتى يكاد يلامس ضفة النهر ، وعندئذ يبدو هو الآخر
مثل نهر ينبع فجأة من السماء ، نقياً ساكناً مثل هذه السماء
عينها .

وقتئذ كان الجد أرخب ، الجاهل بهذه الحادثة ، يفرك عينيه ويفكر في كتابة أن هذه الحرارة وهذا السهب سينتزعان منه البصر مثلما انتزعا منه قبلاً قوة الساقين .

أن حاله اليوم أسوأ منها في هذه الأيام الأخيرة . كان يشعر أنه سيموت عما قريب ، فيتركه هذا الاحساس لامبالياً ، خالياً من أية أفكار ، فكانه امام دين لا بد أن يسدده في أوانه المحدد . ولكنه كان يحب ، رغم ذلك كله ، أن يموت بعيداً عن هذا المكان ، في بلاده . وعين يفكر في حفيده يبلغ قلقه الأوج . . ماذا سيصير لليونكا اذن ؟

كان يطرح هذا السؤال على نفسه عدة مرات كل يوم ، فيحس كل مرة شيئاً ينقبض في باطنه ويتجلد ، فيجتاحه غثيان شديد حتى ليرتجى العودة الى بيته ، في روسيا ، حالاً دون أي ابطاء .

ولكن روسيا بعيدة ، ولن يصل اليها على أية حال ، بل سيموت في مكان ما على الدرب . الناس اسخياء ههنا في الكوبان . هم ميسورو الحال ، لكنهم مقيتون لا يكفون عن السخرية . وما كانوا يحبون المتسولين لأنهم اغنياء . . . وجثمت نظرتة المبتلة بدمعة على حفيده ، ومسح بيده القاسية ، بعذر ، على رأسه .

اضطرب الطفل ورفع اليه عينيه الزرقاوين ، عينيْن كبيرتين عميقتين ، تمان عن تفكير يفوق سنه ، وتلوحن أعظم اتساعاً في محياه الناحل الصغير المحفور بآثار الجسري ، محياه الرقيق الشفتين ، الخالي من الدم ، بأنفه المدبب .
سأل :

- هل جاء ؟

واستكفّ يده ، ورنّا الى النهر الذي يعكس اشعة الشمس .

شرع أرخيب يقول ، وهو لا ينيّ يمسيح على رأس حفيده :

- لم يأت بعد . انه لا يتحرك . انه ينتظر . لماذا ياتي الى هنا ؟ ليس انسان يدعوّه ، فهو ينتظر اذن . . . اكنت نائماً ؟

فهزّ ليونكا رأسه بصورة غامضة ، وتمطى على الرمال . ولاذ اثناهما بالصمت .

صرّح ليونكا بعد قليل ، وهو يشخص الى النهر بثبات :
- لو كنت أعرف السباحة كنت استحممت . النهر سريع جداً ، وهنا ! ليس عندنا أنهار على هذا الغرار ، ما باله يضطرب ؟ انه يركض ، وكأنه يخاف ان يتأخر . . .
ونحيّ بصره عن الماء في شيء من عدم الرضى .
قال الجدمفكراً :

- اسمع ، يا صاح ! فلننزعنّ حزامينا ، ونربطهما ببعضيهما ، فأربط ساقك بهما عليك عندئذ غير الانزلاق في الماء ، فتستحم .

فردّ عليه ليونكا في صوت رزين :
- هيا ، يا جداه . ما هذا الذي تتخيل ! لعلك تحسب ان النهر لن يجرفك معه ؟ هو قمين باغراقنا معاً .
- هذا صحيح تماماً ! سوف يجرفني . انظر كيف يندفع . مما لا ريبه فيه انه يفيض في الربيع ، يا لطيف !

ويجب ان يكون ذلك رائعاً بالنسبة الى هذه الحقول ، هذه الحقول التي لا تنتهي !

لم تراود ليونكا رغبة في الاجابة ، فترك الجد يتحدث وحده . كان يمسك بيديه كتلة من الطين الجاف يفتتها بين اصابعه وعلى محياه سيماء الجد والتفكير .

وكان الجد يتطلع اليه ويفكر مفضن العينين .
بدأ ليونكا يقول في صوت خفيض رتيب ، نافضاً الغبار عن يديه :

— يا عجباً ! انظر الى هذه الأرض . لقد أخذتها بين يدي ، وفركتها ، فاستحالت غباراً . . . لا شيء سوى حبيبات دقيقة تكاد لا ترى .

فاستوضح أرخب ، وقد أخذته نوبة من سعال وجعل يتفحص من خلال عبراته الكبيرة عيني حفيده الكبيرتين ، الجافتين والبراقنتين في وقت واحد :

— ماذا تريد أن تقول ؟

وأضاف حين هذا سعاله :

— لماذا تقول هذا ؟

هزّ ليونكا رأسه ، ونبّر :

— هكذا . . لمجرد القول . بنح ، انها جميعاً على هذا

الغرار !

وأشار بذراعه الى الضفة الثانية من النهر ، وأضاف :

— وقد بني كل شيء على هذه الأرض . . كم مدينة

اجتازنا ؟ أكوام من المدن ! وثمة بشر في كل مكان . ما أكثر عددهم !

وحين لم يستطع ليونكا ان يفهم فكرته جيداً ، عاد فاستغرق في التفكير في سكون ، متطلعاً حو اليه .

ولاذ الجدّ برهة بالصمت هو الآخر ، وشرع يتحدث من جديد في صوت لطيف رقيق مقترباً من حفيده :

- ايها الخبيث الصغير ! لقد أصبت ، فكل شيء تراب . . . المدن والبشر ، وأنت وأنا ، نحن جميعاً من التراب ذاته . . . آه ، يا ليونكا ، يا صغيري ليونكا ! . . لو أنك ذهبت الى المدرسة ! . . كنت اذن تقطع شوطاً بعيداً . لكن ، ما عسى أن يكون مصيرك ؟ . .

وشدّ الجدّ رأس حفيده الى صدره وقبّله .

صاح ليونكا ، متحرراً من صمته ، مطلقاً شعره الكتاني من أصابع جده الخشنة المرتجفة :

- انتظر . . . ماذا قلت ؟ ذاك تراب ؟ المدن وكل ما هو موجود ؟

- انه الله الذي جعلها هكذا ، يا حبيبي - كل شيء اصله من الأرض ، والأرض تراب ، وكل شيء يموت على الأرض . . . هكذا هي الأمور ! ولذلك ينبغي على الانسان أن يعيش في العمل والذل . خذ فانا الآخر ساموت عمّا قريب . . .

وأضاف بعد قليل بصوت مكتئب :

- أين عساك تذهب عندئذ بدوني ؟

ما اكثر ما سمع ليونكا جده يطرح هذا السؤال ، حتى لقد شبع من التفكير في الموت ، فأدار رأسه دون أن ينبس

بحرف ، وانتزع عرقاً من العشب وضعه في فمه وشرع يعضه على مهل .

أما بالنسبة الى الشيخ فكان الموضوع حساساً . . . استفسر في لطف ، منحنياً على حفيده وهو يسعل من جديد :
- لم لا تقول شيئاً ؟ كيف ستدبر الأمور دوني ، قل ؟
فأجاب ليونكا في لهجة تنم عن الضيق وشروذ الذهن ، وهو يلقي على الجد نظرة شزراء :
- لقد قلت ذلك من قبل . . .

إذا كان هذا الضرب من الحديث لا يرضيه فسبب ذلك أنه ينتهي الى الخصام في أغلب الأحيان . كان الجد يثرثر طويلاً عن اقتراب الموت ، فيصغي اليه ليونكا بانتباه كبير باديء الأمر ، ويذعر من جدة الوضع الذي يعرض أمامه ويبكي ، ولكنه سرعان ما يتعب شيئاً فشيئاً ، فيكف عن الاصغاء ، ويستسلم لأفكاره الخاصة . ويلاحظ الجد ذلك فتثور ثائرته ، ويشكو من أن ليونكا لا يحب جده ، وأنه لا يعني بهومه البتة ، ثم يتهمه أخيراً بأنه يتمنى موته .

- وماذا يعني «قلت ذلك» ؟ أنت ما تبرح أحسق صغيراً ، فلا تستطيع أن تفهم ماهية حياتك . ماذا تبلغ من العمر ؟ أنت في الحادية عشرة فحسب . أنت هش لا تصلح للعمل . أين عساك تذهب ؟ أتحسب أن الناس طيبين يساندونك ؟ آه ، لو كنت تملك مالاً فقد كانوا يساعدونك إذن على التهامه ، هذا ما تستطيع أن تكون على يقين منه . وهل تحسب أن طلب الصدقة أمر يبعث على السرور في سني الانحناءات أبداً ، والتوسلات دائماً ! وهم يشتمونك ، بل

يضر يونك أحياناً ويطردونك . . اتحسب حقاً أنهم يعتبرون المتسول إنساناً ؟ كلا ! لقد قضيت عشر سنوات أتدحرج عبر العالم ، فانا أفهم ما أقول . أنهم يعطونك كسرة مسن الخبز فكأنها ورقة من فئة الألف روبل . ولا يكادون يعطونك أياها حتى يخيّل اليهم أن أبواب الجنة ستفتح أمامهم . فكّر قليلاً ، ما الذي يدفعهم الى الصدقة ؟ كي ينعموا براحة البال . أنهم يفعلون ذلك في سبيل هذا وحده ، يا صغيري ، فلا تظنّ أنهم يشفقون عليك . أنهم يرمون كسرة لك ، وبعدئذ يستطيعون أن يأكلوا دون خجل . والمرء الذي يأكل حتى يشبع هو حيوان مفترس لا يشفق أبداً على ذلك الذي تظلّ بطنه خاوية . انهما عدوان أبداً ، كل منهما للآخر شوكة في العين . لا يفامران بمحاولة التفاهم وتبادل الرافة . واثارت حميّة الجدّ بفعل الغضب والمرارة ، فارتجفت شفّته ، وأخذت عيناه العكرتان تتدحرجان بين أهداً به واجفانه المحمرة ، بينما انحفرت الغضون في محياه المظلم . لم يكن ليونكا يحب أن يراه على هذه الحال ، فانتابه شيء من الخوف .

- انا أسألك ما عساك تفعل في هذا العالم . انت طفل صغير ناحل ، اما العالم فحيوان مفترس . سوف يلتهمك في الحال . أما أنا فلمست أريد ذلك . . . أنا أحبك ، يا صاح ! ليس لي سواك وليس لك سواي . . . كيف أستطيع الموت ؟ أن أموت وأتركك . . . لمن ؟ . . . يا رب ! . . . لمّ لمّ تحبّ عبدك ؟ لم أعد املك القوة على الحياة ، ولا أستطيع كذلك أن أموت بسبب من الطفل ، فينبغي عليّ أن أذود عنه

واحبيه . لقد حملته سبع سنوات . . . على ذراعي . . .
العجوزين . . . يا رب ، مدّ لي يد المعونة !
جلس الجد وشرع يبكسي ، ورأسه بين ركبتيه
المرتجفتين .

كان النهر يهرب الى المنتأى ، ويهدر بصخب على الضخّة
فكانه يريد أن يخنق بهديره تأوهات الشيخ . وكانت السماء
البريئة من الغيوم تبسم بصورة مضيئة ، وتسكب حرارة من
نار ، وتصغي في هدوء الى ضجيج الأمواج المضطربة الصاخب .
قال ليونكا في صوت صارم ، وعيناه تنظران الى مكان
آخر :

- هذا يكفي ، لا تبك ، يا جداه !
وأضاف ، وقد أدار محياه صوب جده :
- لقد تحدثنا عن هذا كله ، اليس كذلك . سوف أتدبر
أمرى ، سوف أطرق باب حانة ما في مكان ما . . .
فزمر الجد الفارق في عبراته :
- سوف يضربونك . . .
فصاح ليونكا في شيء من التحدي :
- قد يكون ذلك وقد لا يكون . كلا ، لن يضربوني .
ماذا يستطيعون أن يصنعوا بي ؟ لن أسمع لهم بذلك !
وسكت برهة ، وأضاف بعد قليل في صوت مخفوض :
- والا غدوت الى الدير . . .
فتنهّد الجد ، وقد دبّت الحياة في أوصاله :
- ليتك تفعل ذلك !
وطوته نوبة جديدة من السعال الخانق .

وتردد فوق رأسيهما صياح وهدير عجلات . وشقّ
النداء المنطلق من أعماق الحنجرة الهواء صائحا :

- القا . . رب ! . . القارب ! هيا !

فهبّا على أقدامهما ، وأخذا كيسيهما وعصويهما .

كانت عربة تصر بسائر عجلاتها قد اندفعت في الرمال ،
ينتصب فيها قوزاقي واقفاً على قدميه ، ضمت رأسه قلنسوة
من الفرو مالت على إحدى أذنيه . كان يتأهب للصياح ، فهو
يستششق الهواء ، فاغراً فمه ، مقبياً صدره العريض ،
واسنانه البيض تتضوأ في إطار لحية سوداء حريرية تتسلق
الى ما تحت عينيه المحترقتين بالسدم . وكانت العين ترى
تحت قميصه المفكوك الأزرار ومعطفه الملقى باهمال على
كتفيه جسداً يغطيه الشعر لَوَحَتْهُ الشمس بئيرانها . كان
كل شيء في هذا الجسد الكبير المتين البشيان ، كما في ذلك
الحصان الأشهب الممتلئ لحماً ، الكبير هو الآخر بصورة
شيطانية ، وكما في عجلات العربة العالية المطوقة بالحديد
السميك ، كان ذلك كله يؤثر في النفس ، ويخلف فيها انطبعاً
عميقاً من الصحة ، والعنفوان ، والقوة .

- هي . . . هيا ! . . .

رفع الجد والحفيد طاقتيهما وانحنيا كثيراً ، غير أن
القادم الجديد صاح في صوت رنان :

- صباح الخير !

وامتحن بعينيه الضفة المقابلة حيث الطوف الأسود يبرز
من خلال أشجار الصفصاف بخراقة وتمهّل ، والتفت الى
المتسولين يتفحصهما من قمة رأسيهما حتى أخمص قدميهما .

- من روسيا ؟
- فردّ عليه أرخبيل ، وهو ينحني :
- آه ، بلى ، يا سيدي الطيب !
- يموت الناس جوعاً هناك ، ما ؟
- وقفز من عربته ، وأخذ يشدّ احد سيور الحصان .
- حتى الخنافس تموت جوعاً !
- آه ، آه ! حتى الخنافس . وهذا يعني بكلام آخر انه
- لم يبق شيء من شيء ، وانكم اتيتم على كل شيء . انتم
- اقوياء عند الاكل ، اما العمل فقصة اخرى بكل تأكيد . ذلك
- انه عندما يشتغل المرء جيداً ، كما ترى ، فهو يجد على الدوام
- ما يأكله .
- السبب الرئيسي ههنا ، يا سيدي الطيب ، هي
- الأرض . . . هذه الأرض ما عادت تنتج . لقد استنفدناها ،
- هذه الأرض .
- هزّ القوزاقي رأسه :
- الأرض ؟ الأرض يجب أن تنتج باستمرار ، وهي ما
- اعطيت للانسان الا في سبيل ذلك ، قل بالأحرى انها ليست
- الأرض ، بل الأيدي . الأيدي سيئة . الأرض لا تقاوم الأيدي
- الجيدة ، بل تنتج .
- وكان الطوف يقترب . . .

دفع قوزاقيان يضرب وجهاهما الممتلئان الاحمران الى
اللون القرمزي الطوف حتى الضفة في صخب شديد ، وقد
تقوست قامتاها فوق سيقانها الكبيرة ، ثم تعثرا وألقيا

المرساة ، وأخيراً تبادلنا النظر وطفقا يلهثان .

– هل الطقس حار ؟

وافترت شفتا القادم الجديد عن ابتسامة عريضة ، ورفع يده الى طاقيته ، وتقدم بجواده على الطوف . قال أحد البحارة ، دافعاً يديه في جيبي سرواله المنتفخ ومتقدماً من العربية :

– ليس الطقس بارداً .

ورمى نظرة الى العربية ، وحرك اربعة انفه ، مستنشقا الهواء ملء رئتيه .

أما الآخر فاقطع أرض الطوف ، وشرع ينزع حذائيه مزعجراً .

تسلق الجد وليونكا الطوف بدورهما ، واستندا الى حافته وراحا يراقبان القوزاق .

وأصدر صاحب العربية أمره :

– هيا ، فلننطلق !

سأله ذلك الذي تفحص العربية :

– أفلا تحمل معك ما نشربه ؟

كان زميله قد نزع جزمته وجعل يتفحص باطنى ساقيهما طارفاً بعينيه .

– كلا . ثم ماذا ؟ أفليس في الكوبان كفاية من الماء ؟ . .

– الماء ! . . . أنا لا أتحدث عن الماء .

– الخمرة اذن ؟ كلا ، لست أحمل خمرة .

فاستفسر الآخر متفكراً ، وعيناه تستقران على خشب الطوف :

- كيف يمكن ان يكون ذلك ؟

- هيا ، فلننطلق !

بصق القوزاقي في يديه وامسك الجبل ، فتقدم منه
المسافر يساعده . وقال البحار صاحب الجزمة متوجهاً الى
أرخب :

- وأنت ، أيها الجدّ ، لماذا لا تقدم له عوناً ؟

فقال الجد بنعمة مفعمة شكوى ، وهو يهزّ رأسه :

- كيف لي ذلك ، أيها الصديق ؟

- لا حاجة الى ذلك ، على أية حال . سيتدبران الامر
وحدهما .

وكيما يقنع الجدّ بصديق كلماته ترامى بثقل على
ركبتيه ، وتمدد على أرضية الطوف .

وبخه رفيقه متكاسلاً ، فلما لم يتلقّ منه جواباً ضرب
الأرض بقدميه بصخب ، جاهداً أن يشير أقصى ما يمكن من
ضوضاء . وكان الطوف ، وقد حمله التيار الهادر الذي يلطم
جانبه في صسوت أصمّ ، يرتعش ، ويترنح الى الأمام
والخلف ، ويتقدم على مهلة .

كان ليونكا يحملق في الماء ويحسّ رأسه يدور في
لطف ، وعينيّه المتعبتين من جريان الأمواج السريع تلتصقان
رغبة في النوم . كان همس الجدّ الأصم ، وصرير الجبل ،
والهدير الطنان تهدده جميعاً . فيودّ أن يرتمي على الأرض
من شدة اعيائه ورغبته في النوم . بيد أن شيئاً ما قلبه
بصورة مباغتة فسقط على خشب الطوف .

تطلع حواليه وقد جحظت عيناه . كان القوزاق يهزؤون به وهم يشدون الطوف الى ارومة محترقة على الشاطي* .
- اذن كنت نائماً . انت عاجز عن الوقوف على قدميك . اصعد الى العربية ، وساقودك حتى القرية . اصعد انت الآخر ، ايها الجد .

شكر الجدّ القوزاقي بصوت اراده ان يكون متهدجاً ، وتسلىّ العربى مزجراً ، وقفز ليونكا بدوره اليها ، فانطلقوا جميعاً في اعصار من الغبار الدقيق الأسود ، بينا راح الجد يسعل من جديد حتى يكاد ان يختنق .

وراح القوزاقي ينشد اغنية . كان يغني بأصوات غريبة ، ينتزع الالحان بعنف ويختتمها بالصفير . كنت تقول انه ينشر الأصوات مثل خيطان كبة الغزل ، فاذا ما صادف عقدة قطع الخيط قطعاً .

كانت العجلات تصر شاكية ، والغبار يدوم ، والجدّ يهزّ رأسه ويسعل دون انقطاع ، بينا ليونكا يفكر أنهم سيكونون بعد برهة وجيزة في القرية القوزاقية ، وأنه ينبغي عليه ان يستجدي تحت التوافذ بصوته الأخرن : «ايها الرب يسوع المسيح . . .» وسيشرع الأطفال يسخرون منه من جديد ، والنساء يضايقنه بالأسئلة عن روسيا . لم يكن يجب ، في مثل هذه الأحيان ، ان ينظر الى الجدّ الذي لا يكفّ عن السعال ، منحنيّاً كثيراً في حال من الضيق والالم ، ويتحدث بصوته الشاكي ، ويتأوه ، ويروي أشياء لم توجد قط في اي مكان على الاطلاق . . . كان يقول ان الناس في روسيا يموتون في الشوارع ، وانهم يُبعثون هكذا حيث يموتون ،

وإنه ليس ثمة إنسان يرفعهم لأن الناس جميعاً أرفعهم السغب وهدء قواهم . . . وهما لم يريا شيئاً من ذلك في الأمكنة التي مرا بها ، بيد أنه ينبغي رواية ذلك كله لاجبار الناس على العطاء . لكن أين يمكنهما ههنا أن يدسا الصدقة ؟ كانا يستطيعان في بلدهما أن يبيعا الخبز بسعر أربعين كوبيكا ، بل نصف روبل ، لكل ستة عشر كيلوغراماً ، أما ههنا فليس من يريد هذا الخبز . ومن ثم لا بدءاً من القاء قطع جيدة منه في السهب .

سال القوزاقي ، وهو يتطلع من فوق كتفه الى الشبحين المتقلصين :

— هل ستستجديان ؟

فأجاب الجدء أرخب متنهداً :

— لا مناص من ذلك ، يا سيدي الطيب !

— قم على قدميك ، أيها الجد . سأدلك على مسكني فتجي لقضاء الليل عندي .

حاول الجدء أن ينهض ، ولكنسه سقط من جديد ، واصطدمت أضلاعه بحفاف العربة ، فزمرج في صوت حاد . وتمتم القوزاقي مشفقاً :

— وَّيْ ! أيها العجوز ! لا عليك ، فليس من حاجة الى مرافقتي . عندما تحين ساعة الرقاد اسأل عن الأسود ، أندريه الأسود الذي هو أنا . والآن إنزل . وداعاً !

وقف الجد والحفيد أمام باقة من أشجار كنت ترى من خلف الجذوع سقوفاً ، وحواجز ، وباقات الأشجار ذاتها تنصب في كل مكان ، عن يسار وعن يمين . وكانت أوراقها

الخضر مغطاة بغبار رمادي اللون ، وقشرة الجذوى الكبيرة فيها شققها الحرارة .

وكانت درب ضيقة تمتد أمام المتسولين باستقامة ، بين سياجين ، فسلكاها وهما يترنحان كما يفعل الناس الذين مشوا كثيراً .

سأل الجد :

- اذن ، يا ليونكا ، ما عسانا نفعل ؟ هل ننطلق معاً ام يتخذ كل منا طريقه الخاصة ؟

ولم ينتظر جواباً ، بل اضاف :

- يفضل ان ننطلق معاً ، فالتاس لا يعطونك إلا القليل . انت لا تعرف كيف تطلب . .

فاجاب ليونكا في نفور ، وعيناه تجولان فيما حوله :

- وما جدوى ذلك ؟ نحن على أية حال لن نأكل شيئاً . . .

- ما جدوى ذلك ، يا غريب الأطوار ؟ . . لنفرض انك وجدت شارياً بصورة لم تكن في الحسبان ؟ إليك ما تفعل به إذن ! سيعطونك مالاً ، والمال شيء عظيم . وبالمال تستطيع أن تتدبر امورك بعد موتي .

ومسح الجد على رأس حفيده ، وهسو يضحك في صوت خفيض :

- هل تعرف مبلغ ما جمعت اثناء موسم صيد السمك ؟ إيه ؟

فاستعلم ليونكا في لامبالاة :

- كم جمعت ؟

- أحد عشر روبلاً ونصف الروبل ! أرايت ؟
لكن المبلغ ونعمة الجدة الحماسية معاً لم يؤثرأ في ليونكا
أدنى تأثير .

تنهد الجدة وقال :

- آه ، يا صغيري ، يا صغيري ! اذن فاننا ننطلق كل
في طريق ؟

- أفضل ذلك . . .

- حسناً . . . سنلتقي قرب الكنيسة . أتريد ذلك ؟

- اتفقنا .

سلك الجدة الدرب الضيقة وانعطفت الى اليسار ، أما
ليونكا فتابع الطريق باستقامة . ولم يكده يخطو عشر خطوات
حتى سمع صوتاً مرتعشاً : «أيتهال النفوس الشفوقة . . .» كان
هذا النداء يذكّر بضوضاء يد تمثر على قيثارة لم تبض
أوتارها ، من الوتر الأضخم الى الوتر الأرق . ارتعش ليونكا
واستحث خطاه . كان يحس النعمة كلما سمع هذه
التوسلات ، ويحس شيئاً من الكآبة بالإضافة إلى ذلك . لكنه
إذا ارتدّ الجدة خائباً مرة فقد كان يفقد الشجاعة ، ويتيقن
أن الشيخ سينفجر في زمجرات مديدة .

كان لا يبرح يميز الأنعام المرتجفة الشقية السابحة في
فضاء القرية القوزاقية الأهالي ، الشديدة الحرارة . وكان كل
شيء حوله هادئاً مثله في الليل ، اقترب ليونكا من الحاجز
وجلس في ظل شجرة كرز تهدل أغصانها في الطريق . كان
دوى نحلة يشخر في مكان ما .

رمى ليونكا جرابه عن كتفه ، واسند اليه رأسه ،

وتأمل السماء برهة من خلال الأوراق فوقه ، واستغرق في نوم عميق ، تحميه من عيون السابلة أعشاب كثيفة مجنونة وظل السياج المضفور المخطط .

أهبطته من رقاده أصوات غريبة سابحة في الفضاء المنتعش باقتراب المساء . كان شخص يبكي بالقرب منه . تلك كانت دموع صبي صغير ، دموعاً نائمة لا ينضب لها معين . وكانت الزفرات تنطفئ بلحن حاد ، ثم تنفجر من جديد بصورة مباغتة وتنتشر بقوة جديدة ، وهي تزداد قرباً دون انقطاع . فرفع ليونكا رأسه وشخص الى الطريق من خلال الأعشاب .

شاهد طفلة صغيرة يمكن أن تكون في السابعة تدنو منه ، نظيفة الهمد ، محمّرة الوجه منتفخته بفعل العبرات التي لا تبرح تجففها بطرف تنورتها البيضاء . كانت تسير على مهلة ، تجرّ قدميها العاريتين على أرض الطريق باعثة في الفضاء سحابة من الغبار ، وهي لا تدري بكل تأكيد أين تذهب أو ما تفتش عنه . كانت عيناها كبيرتين سوداوين ، مלאهما الغضب فهما حزینتان مبتلتان ، كما أن أذنيها كانتا دقيقتين ورديتين تبرزان في قحة من تحت جدائلها الكستنائية الهائجة المترامية على جبهتها ، ووجنتيها ، وكنتفيها .

وجدها ليونكا مرحة باعثة على التسلية رغم عبراتها ولقد كانت لعوباً . هذا ما لا ريبه فيه .

استفسر ، وهو ينتصب على قدميه عندما حاذته :

— ما بالك تبكين ؟

انتفضت وتوقفت في مكانها . كفت عن البكاء بفتة ، لكنها

استمرت تنسج في صوت خفيض . نظرت اليه بضع ثوان ،
وارتعشت شفاتها من جديد ، وأكتسى وجهها بالغضون ،
ولثت صدرها ، وعادت البكاء في صخب وقد تابعت طريقها .
أحسّ ليونكا شيئاً ينقبض في أعماقه ، فانطلق بفتة ،
هو الآخر ، يلاحقها .

شرع يقول قبل أن يدركها :

- لكن ، لا تبكي . صبية كبيرة مثلك . أفلا تخجلين ؟
وحين لحق بها حملق في وجهها ، واستوضح من جديد :
- هيا ، ما الذي يحملك على النحيب ؟

فزعلت :

- آه . . . ! لو أنك . . .

وتهاوت بصورة مباغتة في غبار الطريق ، وغطت معيها
بيديها ، وزمجرت في يأس .

بدرت من ليونكا إشارة تنمّ عن الاحتقار :

- هيا ! أنت لست سوى امرأة ! . . . امرأة حقيقية !

تفو ! . . .

غير أن ذلك لم يسوّ شيئاً من الأمور ، لا بالنسبة اليها
ولا بالنسبة اليه . وحينما شاهسد ليونكا الدموع الصغيرة
تسيل من بين أصابعها الدقيقة الوردية انتابه الحزن هو
الآخر وراودته رغبة في البكاء . انحنى عليها ، ورفع يده في
حذر ولامس شعرها . لكنه ذعر في اللحظة ذاتها من جراته .
وسحب يده . وكانت لا تبرح تبكي ، ولا تقول شيئاً .

عاد ليونكا يقول بعد صمت قصير ، وكان يحسّ حاجة
ملحة إلى مساعدتها :

- أتسمعين ؟ ما بالك ؟ ضربوك ، اليس كذلك ؟ إن كان الأمر على هذا الغرار ، فلا عليك ! أم لعلّ هناك سبباً آخر ؟ تكلمي ! وَايْ ، أيتها الصغيرة !
هزت الصغيرة رأسها بكآبة دون أن ترفع يديها عن وجهها ، وأجابته أخيراً في بطاء من خلال تأوهاتنا ، وهي تهزّ كتفيها :

- لقد أضعت . . . وشاحي . . . اتاني به والدي من المعرض . . . كان أزرق اللون ، وفيه أزهار ، وقد لبسته وأضعته .

وعاودت البكاء أكثر من ذي قبل ، وهي تتأوه وتطلق زمجرة غريبة : أو - أو - أوه !
أحسّ ليونكا أنه لن يفيد لها شيئاً ، فابتعد عنها مرتكاً ، وسما ببصره إلى السماء التي بدأت تسود متفكراً مكتئباً .
كان قلبه ثقيلاً ، وكان يرثي للطفلة . همس في صوت مخفوض :

- لا تبكي . . . قد يعثرون عليه . . .

وحين أدرك أن جهوده لتعزيته لا تنفع شيئاً ابتعد عنها أكثر منه قبلاً ، مفكراً أن أبامها سيقترض منها لا محالة .
وتخيّل الأب في الحال ، قوزاقياً ضخماً أسود الشعر ، وهو يضرب ابنته ، والصغيرة تتعرجر عند قدميه وقد سبّح معياها في الدموع ، وراح جسدها برمتها يرتجف خوفاً والمأ . . .

نهض مبتعداً ، ولكنه ما قطع خمس أو ست خطوات حتى

التفت فجأة ، ووقف قبالتها مستنداً إلى السياج ، وحاول أن يتذكر بعض الكلمات اللطيفة الطيبة .

- ينبغي أن تبتردي من عرض الطريق ، يا صغيرة !
هيا ، كفي عن البكاء ! اذهبي إلى بيتك وقولي كل ما حدث لك . قولي انك فقدته . . . ما الذي يؤلمك حتى هذه الدرجة ؟

كان صوته أول الأمر لطيفاً مشفقاً ، وحينما انتهى بهتاف ثائر سرّاً لرؤيتها تنهض عن الأرض . فأسترسل يقول مبتسماً بنبرة تغمرها السعادة :

- هذا أفضل ! اذهبي إلى البيت في الحال ! إذا شئت رافقتك ورويت كل شيء . سوف أَدافع عنك . لا تخافي !
وهزّ ليونكا كتفيه في اعتزاز بعد أن القى حواليه نظرة .
همست ، وهي تنفض الغبار ببطء عن ثوبها ولا تبرح تنسج :

- لا ضرورة لذلك . . .

فأعلن ليونكا في صوت مرتفع ، وفي اندفاع حماسية ،
وهو يميل طاقتيه على أذنه :
- إذا شئت أرافقك .

إنه يقف الآونة أمامها مقوساً بمتانة فوق ساقية ، تلوح الأسماك التي يرتديها وقد انتفشت بجراة . كانت عصاه تضرب الأرض بقوة وثبات ، وهو يحدّق بعناد في الصغيرة ،
بينما عيناه الواسعتان الكنيتتان تبرقان بعاطفة من الكبرياء والشجاعة .

ألقت اليه الصغيرة نظرة منحرفة ، وفركت الدموع على وجهها وقالت ، وهي تصعد تنهيدة جديدة :
- لا ضرورة لذلك . لا تأت . . . أمي لا تحب المستعطين .

وابتعدت ، بعد أن التفتت مرتين .
انتاب الضجر ليونكا . . . بدّل وقفته الصارمة المتحدية بحركة بطيئة غير محسوسة ، وانحنى من جديد ، متواضعاً ، وألقى جرابه على ظهره بعدما كان يتدلى من ذراعه حتى ذلك الحين ، وصاح بالفتاة التي كانت توشك أن تتواري في منعطف الدرب الضيقة :
- وداعاً !

كانت قد التفتت اليه أثناء سيرها وتوارت .
المساء يقترب ، والجو مشحون بتلك الحرارة الخاصة ، الخائقة ، المرهقة ، المعلننة عن اقتراب العاصفة . وكانت الشمس واطنة وذرى أشجار الحور تنصبغ بلون قرمزي طفيف . . . لكن ظلال المساء التي تلف أغصان تلك الأشجار تجعل أشباحها العالية الجامدة أشدّ كثافة وأكثر ارتفاعاً . . . وإلى الأعلى منها أظلمت السماء أيضاً متخذة أصبغة مخملية وهي تلوح كأنها تهبط أكثر فأكثر في اتجاه الأرض . وكان بعض الناس يتحدثون في مكان مسابعداً ، وغناء يرتفع في مكان أبعد ، لكن من ناحية أخرى . وكانت هذه الأصوات الضعيفة والمليئة في الوقت ذاتها تلوح ، هي الأخرى ، مشحونة بهذا الجو الخائق .

كان ضجر ليونكا يتزايد دون انقطاع ، بل انتابه الخوف

أيضاً . راودته رغبة في اللحاق بجدّه ، فتلفت حواليه وتقدم في الدرب الضيقة بخطوات سريعة . لم تكن به رغبة في طلب الصدقة ، فكان يمشي ويحسّ أن قلبه يخفق بسرعة عظيمة ، عظيمة جداً ، في صدره ؛ وأن به نوعاً من كسسل خاص يمنعه من المشي والتفكير . . . لكن الفتاة الصغيرة لم تبارح فكره ، فهو يتساءل عما تراها تفعل الآن . إذا كانت من أسرة غنية فسيضربونها لأن جميع الأغنياء بخلاء يتمسكون بالقرش الزهيد . لكنها إذا كانت فقيرة فقد لا يضربونها . . . إن العائلات الفقيرة تحبّ الصغار كثيراً لأنها تعتمد على عملهم . كانت هذه الأفكار تضطرب دون هوادة ، تلاحق بعضها بعضاً في رأسه . وكان إحساس من العذاب المرهق الجارح ، الملتصق بأفكاره مثل الظل ، يثقل عليه أكثر فأكثر في كل لحظة ، ويجتاحه بقوة عظيمة .

وكانت ظلال المساء تزداد كثافة وازهاقاً . إن بعض القوزاق ، رجالاً ونساء ، يمرون بليونكا دون أن يعيروه التفاتاً . لقد اعتادوا هذه الموجة العارمة من الجياع القادمين من روسيا . وكان هو الآخر يمرّ بنظراته الخاملة بكسسل على أشباحهم الشبهانة الشاهقة ، ويخبّ مسرعاً صوب الكنيسة التي يبرق أحد صلبانها خلف الأشجار .

ودفّ صوبه صنب قطيع في طريق عودته إلى حظيرته . ها هي الكنيسة الواطئة العريضة ، بإبراجها الخمسة المصبوغة بالزرق ، المطوّقة بأشجار الحور المتجاورة ذراها العالية الصلبان السابحة في أشعة الغروب والمتألقة من خلال الخضرة ذات الانعكاسات الذهبية الموردة . وها هو الجسد

يقترّب من ناحية فناء الكنيسة ، منحنيًا تحت ثقل خرجه ،
متطلعًا في كل حدب وصوب ، ويده ملتصقة بجبهته .
ان قوزاقيًا ثقيل المشية المهيبة يتبعه لابسًا طاقية تغور
عميقًا فوق جبينه ، وممسكًا عصًا في يده .

سأل الحدّ ، وهو يقترّب من حفيده الذي ينتظره
قريبًا من بناء الكنيسة :

- إن كيسك فارغ ، اليس كذلك ؟ أما أنا ،
فانظر . . .

ونزع كيسه المليء حتى يكسّاد ان يتشقق عن كتفه ،
ووضعه على الأرض وهو يلهث :

- أف ! . . . ان الناس محسنون ههنا ! وذلك رائع !
لكن ما بالك تكتئب هكذا ؟

فقال ليونكا في صوت خفيض ، وهو يجلس على الأرض
إلى جانب جده :

- رأسي يؤلمني .

- قل . . . إنك متعب . . . ولسم تعدّ تحتل ! . . .

إليك ، سوف نسعى إلى النوم في الحال . ما اسمه ، ذلك
القوزاقي . إيه ؟

- أندريه الأسود .

- حسنا . سوف نسأل : أين يقطن أندريه الأسود ؟

إليك . هذا شخص يأتي من هذه الناحية . أجل . هؤلاء قوم
شجعان ، شبعانون ! وهم لا يأكلون غير خبز القمح . طاب

يومك ، أيها الرجل الطيب !

فاقترب القوزاقي منهما ، وقال في صوت متمهل رداً على تحية الجد :

- طاب يومك أنت أيضاً !

وتقوَّس على قدميه ، وحلق بالمتسولين بشبات بعينه الغاليتين من كل تعبير ، وحك رقبتة دون أن يقول شيئاً . احتار ليونكا في تعليل هذا السلوك ، بينما راح الجدّ يطرف بعينه متسائلاً . وظلّ القوزاقي معتصماً بالصمت ، وأخيراً أخرج لسانه قليلاً ليلتقط طرف شاربه . وحين نجح في هذه العملية سحب شاربه إلى فمه ، ومضغه ، وأخرجه بطرف لسانه ، وحطم أخيراً ذلك الصمت المرهق قائلاً في صوت كسول :

- هيا ، اتبعاني الى المركز .

فانتفض الجد ، واستفسر :

- لماذا ؟

وأحسّ ليونكا رعشة في اعماقه .

- يجب ذلك . لقد تلقيت الأمر به . هيا !

وأدار لهما ظهره وهمّ بالمسير ، ولكنه ألقى نظرة سريعة إلى الخلف ولمح أنهما لم يتحركا من مكانيهما ، فصاح في صوت أجش :

- ايجب أن اجرّكما جرّاً ؟

عندئذ لحق به الجد وليونكا بما وسعهما من سرعة . كانت عينا ليونكا مثبتتين في جده ، وحينما شاهد شفّتيه ترتعشان ورأسه يرتجف ، ورآه يلقي فيما حوله نظرات مذعورة وينبش سترته ، راوده شعور بأنه ارتكب

الحماقات مرة أخرى ، مثلما فعل مرة في تامان . وشرع الخوف ينتابه حينما فكر في قضية تامان . لقد سرق الجد يومئذ بعض الثياب الداخلية من فناء إحدى الدور فقبضوا عليه والأشياء التي سرقها بين يديه . ولقد سخرُوا منه ، وأهانوهما ، بل بلغ الأمر أن ضربوهما ، وأخيراً طردوهما من القرية في زحمة الليل وامضيا ذلك الليل في مكان ما من ضفاف المضيق على الرمال ، حيث زمجر البحر بصورة مخوفة الليل بطوله . وكان البحر يشن تحت وطأة الأمواج المرتدة . ولقد زمجر الجد طوال الليل وابتهل إلى الله ، متهماً نفسه باللصوصية ، متوسلاً إليه أن يغفر له .

- ليونكا

وانتنفض الطفل لضربة في خاصرته ، ونظر إلى جده . كان وجهه قد استطال وأصبح أكثر جفاء وظلمة منه عادة ، وهو لا ينني يرتجف .

كان القوزاقي يسبقهما في خمس أو ست خطوات ، يدخن الغليون ، ويقتطع بضربات من عصاه رؤوس الأرقطيون دون أن يلتفت إلى الوراء مطلقاً .

همس الجد في صوت يكاد لا يُسمع :

- إليك ، خذ . . . إرمه في العشب . . . وعيّن المكان

حيث رميته ! لسوف نرجع ونفتش عنه فيما بعد .

والتصق بحفيده وهو يتابع سيره ، ودفع في يده خرقة ملفوفة على صورة كرة .

ابتعد ليونكا مرتعشاً خوفاً . واخترقته قشعريرة متجلدة بصورة مباغتة من رأسه حتى قدميه ، واقترب من الحاجز

حيث تنمو بعض الأعشاب البرية بغزارة . مدّ يده ، وعيناه
مثبتتان بالكثفين العريضتين للقوزاقي الذي يرافقهما ، ورمى
الخرقه بين الأعشاب . . .

انتشرت الخرقه أثناء سقوطها فاستطاع ليونكا أن يرى
وشاحاً أزرق فيه أزهار ترك مكانه في الحال لصورة الصبية
الصغيرة الباكية . انتصبت أمامه فكأنها نابضة بالحياة ، فلم
يعد ليونكا يرى القوزاقي ، أو جده ، أو أي شيء آخر
حوله . . . ملأت أذنيه من جديد ضوضاء نحيبها ، فخيّل
إليه أن دموعا شفافة تساقط على الأرض أمامه .

وهكذا دخل في حال من اللاشعور تقريباً إلى المركز وراء
جده ، وسمع خريراً أصم لم يستطع ولم يشأ أن يفهمه .
ورأى ، فكأنما من خلال ضباب كثيف ، كسر الخبز تنسكب
من خرج جده على الطاولة الكبيرة ، واصغى إلى هذا الخبز
يقرع الطاولة بصوت حاد طري . ومن بعد انحنت رؤوس
عديدة مغطاة بقبعات عالية على المائدة . لقد كانت الرؤوس
والقبعات كثيبة قاتمة ، وكانت تهديدات رهيبة تتصاعد
وتترنح من خلال الضباب الذي يشملها هي الأخرى ، ثم
تمتم الجدد بغتة بضع كلمات بصوت أجش ، ودار مثل
الخدروف في يدي شابين متينيين البنيان .

صاح الجدد في صوت مختنق :

— أنتم مخطئون ، أيها الأخوة الطيبون ! أنا بريء ،
والله شاهد عليّ !

وتهاوى ليونكا على الأرض ، وقد غصت عيناه
بالعبرات .

اقتربوا منه وانهضوه عن الأرض ، واجلسوه على
دكة ، ونهشوا الأسماك التي تغطي جسده الصغير .

زمجر صوت يقول :

- كذبت دانييلوفنا ، تلك اللئيمة !

فإذا هذا الصوت الغليظ الثائر يطرق اذني ليونكا طرقة
شديداً .

وارتفع صوت يردُّ على الصوت الأول في لهجة اشدَّ منه
ارتفاعاً :

- لعلهما أخفياها في مكان ما !

كان ليونكا يشعر أن سائر هذه الأصوات ضربات تنهال
على رأسه ، فانتابه خوف شديد أفقده الوعي ، فكأنه غاص
بصورة مباغتة في حفرة سوداء تفغر أمامه هاوية سحيقة .

عندما استردَّ وعيه كان رأسه يرتاح على ركبتَي جده ،
ومحيا المعجوز ينحني فوقه ، بائساً مفضناً أكثر منه في أي
وقت آخر . وكانت عيناه تطرفان ذعراً ، وتقطران على جبينه
عبرات صغيرة عكرة تدغدغه وتسيل على وجنتيه وفي
عنقه . . .

- هل أنت أحسن ، يا صغيري ؟ لنذهبن من هنا !

لنذهب ، فقد أطلقوا سراحنا ، الملاعين !

نهض ليونكا شاعراً أن سائلاً ثقيلاً سكب في رأسه
الذي يوشك أن يسقط عن كتفيه بين لحظة وأخرى . أمسك
رأسه بين يديه ، وهزه من جهة لأخرى ، وهو يتأوه في
صوت خافت .

- إنه يؤلمك ، رأسك الصغير ؟ يا حبيبي ! . . . لقد

عذبونا . . يا للوحوش ! إن خنجراً قد تلاشى ، كما أن
فتاة صغيرة أضاعت وشاحها . إذن فقد سقطوا علينا !
أواه ! يارب ! . . . فيم تعاقبنا ؟
كان صرير صوت الجذ يخمش ليونكا خمشاً ، فيحس
شرارة صغيرة محرقة تشتعل فيه وتبعده عن الرجل العجوز .
ابتعد عنه وتطلع حواليه . . .

كانا يجلسان عند مخرج القرية في ظل كثيف لشجرة حور
مشوهة . وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر تكبّد
السماء ، ونوره الحليبي المفضض الذي يغمر فراغ السهب
المتصل يلوح كأنما يُصير هذا الفراغ أضيق ، وأقفر ،
وأكثر حزناً . وفيما أبعد من السهب المختلط مع السماء كانت
نتف من سحب ترتفع وتسبح في هدوء ، مخفية القمر وملقية
على الأرض ظلالاً كثيفة . وكانت الظلال تلتصق بالأرض ،
وتنزلق على مهل متفكرة ، ثم تضيع بصورة فجائية . كنت
تقول إنها تختفي تحت الأرض ، من خلال الشقوق المسببة عن
الضربات المحرقة التي ترسلها الأشعة الشمسية . وكانت
بعض الأصوات تجيء من القرية ، وشعلات صغيرة تلتهب في
مكان ما في المنتأى ، وتشع فكانها جواب عن النجوم الصافية
اللون الذهبي .

قال الجد :

- فلنذهب ، يا حبيبي ! ينبغي أن نذهب .

فرد ليونكا في صوت خفيض :

- فلنبق بعض الوقت .

كان يهوى السهب . فإذا عبره نهراً أحب أن ينظر إلى

بعيد ، هنالك حيث تستند قبة السماء إلى صدر السهل العريض . وكان يتصور هنالك مدناً كبيرة رائعة ، يقطنها بشر طيبون لم يصادف لهم مثيلاً ، لن يحتاج أن يسألهم خبراً ، بل سيعطونه إياه من تلقاء أنفسهم ، دون أن ينتظروا منه رجاء . . . ولكنه عندما كان السهب ، المنتشر على الدوام أعرض فأعرض أمام عينيه ، ينكشف فجأة عن قرية قوزاقية يعرفها من قبل ، شبيهة بأبنيتها وسكانها بالقرى التي سبق له أن رآها ، فهو يحسُّ الحزن والاضطراب لخطيئته .

وإنه لينظر الآونة متفكراً إلى المنتأى حيث تتقدم السحب الزاحفة على مهلتها . لقد كانت هذه السحب بالنسبة إليه دخان آلاف مداخل تلك المدينة التي ما أكثر ما يشتاق إلى رؤيتها . . . وقطع سعال الجد الجاف تأمله .

حدّق ليونكا بثبات في الوجه السابح في الدموع المستنشق الهواء في جشع .

كان القمر ينير هذا الوجه ، الفارق في ظلال غريبة تلقى عليه الطاقة الشعثاء ، الحاجبان والليحة ، فيبدو بذلك الفم الكبير الذي يتحرك متشنجاً وتينك العينين الكبيرتين المفتوحتين ، المستنيرتين بإشراق خفي ، مخيفاً بائساً نوعاً ما ، يوقظ في ليونكا ذلك الشعور الجديد الذي يجبره على الابتعاد عن جده . . .

كان يهمس ، وهو ينبش بطانة سترته بإبتسامة بلهاء :

— إذن فلنبق ، فلنبق بعض الوقت !

استدار ليونكا وشرع يتأمل البعد من جديد .

صرخ الجد بغتة بنغمة ظافرة :

- ليونكا ! . . . انظر !
ومدّ إلى حفيده ، والسعال يكسره ، شيئاً طويلاً لامعاً ،
وأضاف :
- من الفضة ! إنه من الفضة ! هذا يساوي خمسين
روبلًا !

كانت يداه وشفتاه ترتعش جميعاً بالشراسة والألم ،
ومجياها بأسره يكسره .
ارتعش ليونكا ودفع ذراع الجد عنه . همس في صوت
متوسّل ، ملقياً نظرة سريعة حوله ليتأكد من عدم وجود
إنسان بالقرب منهما :

- أخفه سريعاً ! . . . آه ! يا جدي ، أخفه !
- ولكن ، ما بالك ، أيها الأبله الصغير ؟ أخائف انت ،
يا صغيري ؟ نظرت من نافذة فوجدته معلقاً . . . وضعت
يدي عليه ، وهذا هو تحت سترتي . ولقد أخفيت به ذلك
في السياج . وعندما خرجنا من القرية تظاهرت أنني أضعت
طاقيتي ، فأنخيت ولممه . . . يا لهم من بلهاء ! والوشاح
أيضاً لممه . إليك ، هذا هو !
وسحب بيديه المرتجفتين المنديل الضائع بين أسنانه ،
ولوّح به أمام وجه ليونكا .

وانشق حجاب الضباب أمام عيني الطفل وكشف عن هذا
المشهد : ان ليونكا وجدّه يسلكان بأقصى ما يستطيعان من
سرعة شارع القرية . انهما يتجنبان نظرات المارة ، ويسيران
في خوف ، ويخيل إلى ليونكا أن حتى الريح تتمسح بعق
جلدهما ، والبصاق عليهما ، وإهانتها . . . ان كل ما يحيط

بهما من أسوار ، وبيوت ، وشجر ، يتأرجح في ملء ضباب
غريب كان الرياح تهزّه . . . وإن المرء ليسمع أصواتاً
تدوي ، قاسية نائرة . . . هذه الطريق لا تنتهي ، والمرء لا
يرى مخرج القرية وراء الكتلة المتكاثفة المؤلفّة من الدور
المرتجة التي تتجه تارة صوبهما كمن يريد أن يسحقهما ،
وتارة تبتعد إلى مكان ما لتضحك منهما في ملء وجههما باللطخ
القائمة لنوافذها . . . ويرتفع هتاف طنان بصورة مباغتة من
إحدى النوافذ : «أيها السارقان ! أيها السارقان ! إنك
سارق ، سارق صغير !» ويختلس ليونكا نظرة سريعة جانبية
فيرى في النافذة الصبية الصغيرة التي رآها قبل قليل تبكي
فأراد أن يحميها . . . لقد فاجأتها نظرتة ، فمدّت لسانها
له ، وألقت عينها الزرقاوان الفاقعتان بريقاً قاسياً خبيثاً
فوخزتا ليونكا مثل الإبر .

انبتق هذا المشهد في ذاكرة الطفل واختفى في اللحظة
ذاتها دون أن يترك أثراً سوى الابتسامة الخبيثة التي ألقاها
على محيا جده .

كان الشيخ يتكلم دون انقطاع ، يقاطعه سعاله من حين
لآخر ، ويلوِّح بيديه ، ويهزُّ رأسه ، ويجفّسف العرق
المتصّبب بقطرات كبيرة بين غضون وجهه .

وغطت سحابة ثقيلة مُمزّقة مُسننة وجه القمر ، فما
عاد ليونكا يميز محيا جده إلا بصعوبة جمة . لكنه تمسّل
بجانبه الطفلة الباكية ، وأثار في خاطره شبحها وقاسها بجده
فكرياً . . . الشيخ العليل ، الصافر ، الجشع ، المغطسى
بالأسمال ، إلى جانب الصبية التي أهانها الغارقة في دموعها

لكن صحيحة الجسم ، طرية ، جميلة . إن الجدَّ يلوح كأنه
لا نفع فيه ، يكاد أن يكون مثل كوشاي الأسطورة خبثاً
وقرفاً . أيمن ذلك ؟ لم جرحها ؟ إنه لم يكن واحداً من
أفراد عائلتها . . .

وكان الجد يصفر قائلاً :

- لو أستطيع أن أجمع مائة روبل ! . . . إذن أموت
في هدوء . . .

فالتهب شيء ما ليونكا بصورة مباغطة :

- شبه ! ! إصمت بربك ، سوف تموت ، سوف تموت ...
وأنت لا تموت . . .

ثم زعق ، وقد هبَّ فجأة على قدميه مرتجف الأوصال :

- أنت تسرق ! يا لك من لص عجوز ! هيا إذن !

وشدَّ قبضته الصغيرة الجافة وهزَّها أمام أنف الجد
الذي لا بالصمت على غير انتظار ، ثم تهاوى على الأرض
بثقل ، وهو لا يبرح يقول من بين أسنانه :

- لقد سرقت طفلة . . . آه ، ما أجمل ذلك ! . . .
عجوز ، وبماذا يُعنى . . . هذا لن يغفر لك في العالم
الآخر !

فجأة اهتزَّ السهْب بأسره واتسع مغموراً بضياء زرقنة
تعمي الأبصار . . . وارتعش الضباب الذي كان السهْب
يرتديه واختفى طوال برهة وجيزة . وزمجر الرعد وتدحرج
بصوت أصم فوق السهْب ، مزلزلاً أياه والسماء على حدِّ
سواء ، هذه السماء التي يتقدم فيها سراعاً كتل كثيفة من
الغيوم السود يفرق القمر في لجتها .

وخيمت الظلمة ، ولمع البرق ، ساكناً لكن متوعداً ، في مكان لا يبرح بعيداً . ولم تمض ثانية حتى دوى الرعد من جديد ، ضعيفاً متخاذلاً . . . ثم ساد سكون لاح أنه لن ينتهي أبداً .

رسم ليونكا إشارة الصليب ، بينما ظل الجد جالساً في مكانه جامداً أخرس فكانه واحد من جذع الشجرة التي يستند إليها بظهره .

- جداه ! . . . - همس ليونكا منتظراً في الخوف المعذب رعدة جديدة . - لنذهب الى القرية !

ارتعشت السماء من جديد ، ومن جديد اندلع لهيب أزرق ، وانهارت على الأرض ضربة معدنية جبارة ، فكان آلاف الألواح الحديدية ألقيت على الأرض تتصادم وتتناطح .
صاح ليونكا :

- جداه !

فتردد هتافه المختنق بصدى الرعد أشبه بضربة وقعت على جرس صغير مصدوع . وقال الجد في صوت أجش ، ودون أن يتحرك :

- ما بالك ؟ خائف ؟ . . .

وشرعت قطرات كبيرة من المطر تنهال مدرارة ، فترن طقطقتها بصورة غريبة أشبه بإنذار خفي . كانت هذه الطقطقة تؤلف في المنتأى ضجيجاً مستمراً ، عريضاً ، شبيهاً باحتكاك فرشاة عملاقة بالأرض اليابسة . أما هنا ، بجانب الجد والحفيد ، فقد كانت كل قطرة ترسل أثناء سقوطها

صوتاً جافاً مقتضباً ثم تموت دون صدى . وكانت أصوات
الرعد تقترب دونما انقطاع ، والسماء تشتعل بتواتر اعظم .
قال الجد ، وهو يتنهد :

- لن اذهب الى القرية ! ما على المطر سوى اغراقي ...
أنا كلب ، ولص . . . وليصعقني الرعد . لن اذهب ! ...
اذهب اليها وحدك . انها هناك ، القرية . . . اذهب ! . . .
لا أريدك على البقاء هنا . . . اذهب من هنا . . . اذهب !
اذهب ! اذهب ! . . .

كان الجد يصيح الآن بصوت قوي مبحوح .
توسل ليونكا اليه ، مقترباً منه :

- جداه ! . . . اصفح عني !

- لن اذهب . . . لن اصفح عنك . . . لقد هدهدتك
طوال سبع سنوات . . . صنعت كل شيء في سبيلك . . .
وعشت من أجلك . هل بي حاجة الى شيء ما ؟ أنا أموت
كما ترى . . . أنا أموت . . . وأنت تنعتني باللص . . .
لماذا اقدمت على السرقة ؟ من أجلك . . . هذا كله . انه
من أجلك . . . اليك ، خذ . . . خذ . . . من
أجل حياتك . من أجل حياتك كلها . . . قد جمعت . . .
حسناً ، بلى . . . وقد سرقت أيضاً . . . الله يرى كل
شيء . . . انه يعرف . . . أنني سرقت . . . انه يعرف
ذلك . . . وسوف يقتص مني . ولن يصفح عن سرقات كلب
عجوز مثلي . ولقد اقتص مني منذ الآن . . . يا رب ! لقد
عاقبتني ، أليس كذلك ؟ لقد عاقبتني ؟ . . . قتلتنى بيسد

طفل صغير ! هذا صحيح ، يا رب ! هذا طييعي ! . . . أنت عادل ، يا رب ! أرسل الى نفسي . . . آواه ! . . .
وارتفع صوت الجد الى زعيق صارخ أرسل الرعب في قلب ليونكا .

كانت الرعود التي تهزُّ السهب والسما معاً تزمجر الآن عنيفة متدافعة حتى ليخال لك أن كلاً منها يريد أن ينقل الى الأرض رسالة مستعجلة ضرورية . وكانت هذه الرعود تتلاحق وتدوي دون انقطاع تقريباً . وكانت السماء الممزقة بالبرق ترتعش ، والسهب يرتعش أيضاً ، مشتعلات تارة بلهب أزرق ، غارقاً من جديد تارة أخرى في ظلمة باردة ، ثقيلة ، خائفة تضيقه بصورة غريبة . وكان برق يضيء البعد أحياناً ، فيتراءى أن هذا البعد يهرب في عجلة من هذا الصخب وهذه الزمجرات . . .

وأخذ المطر يهطل غزيراً ، فتخبى قطراته ، المتخذة في ضوء البرق لمعاناً فولاذياً ، التذبذب المألوف لأنوار القرية . كان ليونكا يموت ذعراً وهلعاً ، ويموت أيضاً بأحاساس ذلك العذاب الذي يرهقه به شعور غامض بجرمه بمد تلك الصيحة التي أطلقها الجد . كان يحدق أمامه بعينين واسعتين ، ويخشى حتى أن يطرف بهما عندما تساقط عليهما قطرات من الماء تنزلق عن رأسه المبتل ، ويمدُّ أذنيه لصوت الجد الفارق في هذا البحر من الأصوات الصماء .
كان ليونكا يحس أن جده لا يتحرك ، لكنه يخال له أنه سيختفي ، أنه سيذهب الى مكان ما ويخلِّفه وحيداً . اقترب منه شيئاً فشيئاً دون وعي منه ، وعندما لامس مرفقه

ارتعش متوقعا حدوث شيء رهيب . . .
ومرق برق السماء مضيئا هذين الكائنين الملتصقين
ببعضهما بعضا ، المتقلصين الدقيقين ، المتجلدين بما يسيل
من جداول عن الأغصان . . .

كان الجدّ يلوح في الهواء بيده متابعا زمجرته ، لكن
التعب اجتاحه اثناء ذلك وشرع يقطع عليه أنفاسه .
نظر ليونكا اليه وجها لوجه وأرسل صيحة من الرعب . . .
كان الوجه يلوح ، في ضوء البرق الأزرق ، ميتا . بينا
العينان الكامدتان المتدحرجتان فيه مجنوتتان .
زمجر ، وهو يلقي رأسه بين ركبتي جده :
- جداه ! . . . فلنذهب ! . . .

انحنى الجدّ عليه ، وأخذه بين ذراعيه الرقيقتين
المتعظمتين ، وضمه اليه بشدة ، وبينما هو يشده الى
صدره أرسل فجأة زمجرة حادة مثل ذئب وقع في الفخ .
انتزع ليونكا نفسه من عناقه ، وقد صيره ذلك
الصراخ أشبه بالمجنون ، ووثب واقفا على قدميه ، وانطلق
الى الامام كالسهم ، واسع العينين ، تعميه البروق المتلاحقة ،
يقع على الأرض كي ينهض ، ويفوص اكثر فاكتر في الدياجير
المتلاشية تارة في لمعان البروق الأزرق ، المتكاثفة تارة أخرى
حول الصبي الذي ذهب الخوف بصوابه .

وكان المطر الساقط يتابع ضوضاءه الباردة الرتيبة
الحزينة . وكان يلوح أن شيئا لم يحدث قط في السهب سوى
ضوضاء المطر ، ولمعان البروق ، وزمجرة الرعد الغاضبة .
في صبيحة الغداة قفل بعض الصبية الذين خرجوا لنزهة

في الضواحي على أعقابهم في الحال ، وأنذروا القرية معلنين
أنهم رأوا شحاذ البارحة متمدداً تحت شجرة حور وأنه قد
ذبح من دون ريب ، لأنهم شاهدوا خنجراً مرمياً الى جانبه .
ولكنه حين جاء الشيوخ للتحقق من صحة الخبر وجدوا
انه لم يكن ثمة شيء من ذلك . كان الشيخ لا يبرح يتنفس ،
ولما دنوا منه حاول أن ينهض عن الأرض فعجز . كان قد
فقد القدرة على الكلام ، فهو يسألهم جميعاً بعينين دامعتين ،
ولا يكف عن التنقيب بين الجمهور دون أن يجد شيئاً أو
يتلقى جواباً .

مات حوالي المساء ، فدفنوه حيث وجدوه ، تحت شجرة
الحور ، لانه لا يليق دفنه في المقبرة : فهو غريب أولاً ،
وهو لص ثانياً ، وهو قد مات دون أن يعترف ثالثاً .
ووجدوا الى جانبه ، في الطين ، الخنجر والوشاح .
وعشروا على ليونكا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

فوق أحد أودية السهب ، قريباً جداً من القرية ، طفقت
عصابات من الغربان تحوم بصورة مستمرة ، ولما ذهبوا
يتقصون السبب في ذلك عشروا على الصبي المتمدد متباعد
الذراعين ، منكب الوجه في الطين السائل الذي خلفته الأمطار
في قاع المجرى .

قرروا بادی الأمر أن يدفنوه في المقبرة لانه صبي
صغير ، لكنهم وضعوه بعد تفكير الى جانب جده تحت شجرة
الحور . وصنعوا فوق القبر كومة من تراب وغرسوا فيها
صليباً فظلاً من الحجر .

العجوز ايزرغيل

٩

هذه الأفاضل سمعتها في احدى نواحي شاطئ
بيسارابيا غير بعيد عن اكرمان . . .
ذات عشية ، بعيد انتهائنا من التقاط حبات العنب ،
انطلق المولدافيون الذين اعمل معهم الى الشاطئ الرمي ،
فبقيت مع عجوز تدعى ايزرغيل مضطجعين على الارض في ظل
عريشة كثيفة ، نراقب في صمت اشباح القوم الهابطين الى
البحر وهي تختلط بظلال الليل الزرقاء المتساقطة .
كانوا ينحدرون الى الشاطئ الرمي يغنون ويضحكون ،
الرجال في معاطف قصيرة وسراويل عريضة تضيق عند
ركبهم ، ووجوه برونزية اللون لوحتها الشمس ، وشوارب
سود كثيفة ، وخصل متجعدة من الشعر تسترسل حتى
اكتافهم . والنساء والفتيات ضاحكات جذلات ، عيونهن زرق
غامقة ، واجسادهن رشيقة ، ووجوههن برونزية اللون ايضا .
كان شعرهن الحريري الاسود يسترسل طليقاً على ظهورهن ،
وهبات النسيم الدافئ المترقق بين ضفائرهن تجلجل النقود
الزخرافية المربوطة بتلك الضفائر وتحملها على الرنين .
وكانت الريح تهب في تيار عريض مستر هفاف ، ولكنها
تلوح ، بين فترة واخرى ، وكأنها تثب فوق عقبات غير
منظورة ، ومن ثم تجيء نفحات ثقيلة تنشر شعر النساء في
تموجات خيالية حول رؤوسهن ، خالعة عليهن منظر نساء

خرجن من بعض الاساطير الغريبة . وفيما هن يتناوين عنا
راح الليل وخيالي يلفانهن بجمال فائق العذوبة والبهاء .
وتصاعد عزف على الكمان . وغنت صبية في صوت خفيض
عذب ، وتردد صدى ضحك يدف من البعيد . . .

الهواء مشبع برائحة البحر اللاذعة ، وانفاس الارض
الدسمة سقته وقد غزرت الامطار هطولا عند انتشار الليل .
وبعض اطمار من السحب الفخمة ، غريبة الألوان والأشكال لا
تبرح تضيق في السماء ، رقيقة هنا مثل اكاليل من دخان
رمادي اللون ضارب الى الزرقة ، كثيفة هناك مثل قطع من
صخور سود غامقة او شاحبة . وفيما بينها قطع من السماء
الزرقاء تشع بنور هادئ ، مزينة ببقع من نجوم صغيرة
مذهبة . كان هذا كله - الانغام والعطور والسحب والبشر -
جسلا حزيناً بصورة غريبة . يلوح لي مثل بداية اقصوصة
رائعة . كنت تقول ان كل شيء وقف في ملء نموه مسلماً
للموت عنفوانه . وكان صخب الاصوات ينطفئ في البر
مستحيلاً الى زفرات مكتسبة .

سألتنى العجوز إيزرغيل ، وهي تشير برأسها ناحية
البحر :

- لِمَ لم تذهب برفقتهم ؟

كان الزمن قد طواها طياً . عيناها السوداء وان فيما غير
من الزمن معتكرتان دامتان . في صوتها الجاف نبرات غريبة
متكسرة فكانها تتكلم عن طريق عظامها .

أجبت قائلاً :

- لست أريد !

- اف ! أنتم الروس شيوخ منذ الولادة . عابسون
ابداً مثل الشياطين . وفتياتنا يخفن منك . وأنت ، يا فتاتي في
زهرة الشباب ، متين البنيان . . .

نهض القمر ، فإذا قرصه الضخم المشربة حموته بالدم
يلوح منبثقاً من اعماق هذا السهب الذي ابتلع على ممر
الاجيال ، ما لا يحصى من اجساد بشرية ، وشرب ما لا يقدر
من دم إنساني ، الأمر الذي قد يكون جعله دسماً كريماً
حتى هذه الدرجة . وكانت الظلال المخزومة التي تلقيها الازراق
تسقط على وعلى العجوز فتغطيها بما يشبه الشبكة . ومرت
عن شمالنا ، على طول السهب ، غيوم مشبعة بشعاعات القمر
الازرق وقد أضحت أشد نقاءً وأكثر شفافية .

- انظر ! هذا لارا يمر !

نظرت الى الناحية التي دلتنى العجوز عليها بيدها
المرتجفة معقوفة الأصابع : ثمة ظلال عديدة تمر حيث
أشارت ، يركض أحدها - أعظمها كثافة ودكنة - أسرع من
أخواته وأخفض . كان يتساقط من سحابة تسبح بصورة
أعجل من رفيقاتها وأقرب الى الأرض .
قلت :

- ولكن ، ليس من إنسان هناك !

- أنت أكثر عمىً من عجوز مثلي . تطلّع ! أفلا ترى
هناك شيئاً حالك الدكنة يتراكم عبر السهل ؟

نظرت مرة أخرى ، ومن جديد لم أر غير الأخيلة .

- إن هو الا خيال ! لم تسمينه لارا ؟

- لأنه لارا . بلى ، هو اليوم أشبه ما يكون بالخيال !

ولا عجب في ذلك . هذي الوف السنوات انقضت وهو يعيش .
لقد جففت الشمس جسده دماً وعظماً ، وبعرته الريح مثل
الغبار . هذا ما يستطيع الله ان يصنع بإنسان فيعاقب
غروره !

سألتها ، مستشعراً احدى تلك الاقاصيص الجميلة
المؤلفة في أعماق السهوب :
- إروى لي كيف حدث ذلك .
فروت القصة التالية .

«مرت آلاف من السنوات منذ ذلك الحين . بعيداً فيما
وراء البحر ، حيث تشرق الشمس ، تمتد شواطئ نهر كبير
حيث كل ورقة من الأشجار وكسل عرق من العشب يمنحان
الإنسان ظلالاً تدراً عنه وطأة شمس لاهبة .

«والارض أريحية في تلك المنطقة !
«هنالك كانت قبيلة قوية تحيا ، رجالها يرعون القطعان ،
ويستنفدون قواهم وشجاعتهم في مطاردة الوحوش ، ويولمون
غيبَ العودة من الصيد ، ينشدون الأغنيات ، ويراقصون
الفتيات .

«وفي ذات يوم ، خلال إحدى الولايم ، حطّ من السماء
نشر اختطف واحدة من الصبايا . كان شعرها أسود ناعماً
مثل الليل الطري . وتساقطت السهام التي رماء بها الرجال
على الارض بصورة مغزيلة . عندئذ انطلق هؤلاء الرجال
يبحثون عن الفتاة فما وقعوا لها على أثر . وكان ان نسوها
مثلما كل شيء على هذا الارض يؤول الى النسيان» .

تنهدت العجوز تنهيدة عميقة وجنحت الى الصمت . كنت تقول ، وأنت تسمع الى صوتها المصرصر ، انك ترهف اذنك الى احتجاج الأجيال المنسية الذي تجسده فى صدرها ظلال الذكرى . وكان البحر يرافق بأنغامه العذبة مطلع إحدى تلك الأساطير العتيقة التي ربما على ضفافه نسجت .

«لكنها رجعت بعد عشرين سنة من تلقاء نفسها مرهقة عجفاء ، يصحبها فتى جميل قوي مثلما كانت هي عليه قبل عشرين سنة . سألوها أين كانت ، فردت أن النسر الذي اختطفها حملها الى الجبال واتخذها ، هناك عالياً ، له زوجة» . وهذا الذي يرافقها هو ابنها . أما الأب فلم يعد من هذا الوجود . حينما راحت قواه تتدهور ارتفع الى شاهق السماء للمرة الأخيرة ، وطوى جناحيه ، وتهاوى على نصال الجبل فتحطم حتى الموت .

«حذق الجميع في ولد النسر مشدوهين . رأوا انه لا يفضلهم في شيء . عيناه وحدهما كانتا باردتين فخوريين كميني ملك الطيور . كانوا يخاطبونه فيجيب حين يشاء ، او يظل بالصمت معتصماً . ولما اقترب شيوخ القبيلة منه خاطبهم مثلما يخاطب أقراناً له . ولقد وجدوا في ذلك إهانة لهم ، فنعتوه «بالسهم المنتوف الكليل الذؤابة» ، وقالوا له إن آفاقاً من أشباهه ، بل من الذين يكبرونه مرتين سنّاً ، يكرمونهم ويخضعون لهم . أما هو — فحذق فيهم في جراءة وصلف ، وأجابهم : إن الأرض خلت من رجال على غرارهِ ، وإن العالم بأسره قد يكرمهم ، اما هو فلن يفعل ذلك ابداً . حينئذ غضبوا أيما غضب ، وقالوا :

«- ليس من مكان له فيما بيننا ! فليذهبن حيث يطيب له !

«انفجر ضاحكاً ، وذهب حيث طاب له . ذهب الى فتاة غيداء تنظر اليه في ثبات . ذهب اليها وأخذها بين ذراعيه . كانت ابنة أحد الشيوخ الذين أدانوه . دفعته عنها رغم جماله خشية من أبيها . دفعته وأرادت الابتعاد عنه ، فضربها بقوة . حينما سقطت أرضاً داس بقدمه على صدرها في عنف عظيم ، فانبثق الدم من شفيتها غزيراً صوب السماء . وتلوت الفتاة كالأنفى مرسله زفرة حرى ، ولفظت أنفاسها الأخيرة . «ارتعدت فرائص سائر الذين كانوا هناك : إنها العرة الأولى التي يرون فيها امرأة تقتل بوحشية على هذا الفرار . ظلت السننهم ملجومة فترة طويلة ، يشخصون الى الفتاة المستلقية على الأرض جاحظة العينين دامية الفم ، والى الرجل الناهض وحيداً ضد الجميع ، المنتصب الى جانبها شامخ الأنف ، غير مطرق برأسه فكانه يطلب العقاب . حينما استعادوا وعيهم أطبقوا عليه ، وقيدوه ، وتركوه مربوطاً معتبرين ان قتله مباشرة سيكون غاية في البساطة بحيث لا يروى غليلهم» .

كانت ظلمة الليل تشتد حلكة وتمتلئ بأصوات غريبة عذبة . وفتران الحقل تصفر في السهب بكآبة ، وصريسر الجنادب الفولاذي يتردد بين أوراق أشجار الكرمة وأوراق الشجر تنهد وتوشوش ، وقرص البدر المكتمل - وكان أحمر مثل الدم قبل برهة وجيزة - يشحب بمقدار ما يتناهى

عن الارض ، وهو لا يني ينشر على السهب طفاوته المزرقـة
بغزارة متزايدة .

«وعندئذ تحلقوا يستنبطون عقاباً جديراً بالجـرم
الفظيـح . . أرادوا ان يسحقوه بحوافر الأحصنة ، لكن ذلك
بدا في أعينهم شيئاً تافهاً بالنسبة الى ما يستحق . وخطر لهم
أن يثقبوا جسده بالسهم ، ويطلق كل منهم واحداً ، لكنهم
رفضوا هذا الحل أيضاً . . واقترحوا أن يحرقوه ، غير أن
دخان المحرقة سيمنعهم إذن من رؤية عذاباته . . تناقشوا
في كثير من صور العقاب ولم يجدوا عقاباً واحداً يرضيهم
جميعاً . وكانت الأم لا تبرح جائية أمامهم ، لا تجد العبرات
أو الكلمات التي تترجى رحمتهم . تحدثوا طويلاً الى ان قال
أحد الحكماء بعد تفكير طويل :

«- فلنسنأله فيم فعل ذلك .

«طرحوا عليه السؤال ، فأجاب :

«- حلّوا وثاقي ! لن أتكلّم وأنا مغلول اليدين !

«حلّوا وثاقه ، فاستفسر بنغمة سيد يخاطب عبداً له :

«- ماذا يريدون مني ؟

«قال الحكيم :

«- لقد سمعت . . .

«- وما يدعوني الى تفسير أفعالي لكم ؟

«- نريد أن نفهم ماهية هذه الأفعال . إسمع ، أيها

المتكبر ! لسوف تموت على أية حال ، أليس كذلك ؟ دعنا

ندرك إذن لماذا فعلت ذلك ؟ نحن باقون في قيد الحياة .

ويفيدنا أن نعرف أكثر مما نعرف .

«-فليكن . سأتكلم . وإن كنت ' لست ' على يقين ،
أنا نفسي ، من فهم ما حدث . لقد قتلتها ، فيما يؤتى لي ،
لأنها دفعتني عنها وكنت في حاجة إليها .
»فقالوا له :

«- لكنها لم تكن لك .

«- ألا تستخدمون أنتم إلا ما هو ملك لكم ؟ أنا أرى
كل انسان لا يملك غير لسانه وذراعيه وساقيه ومع
ذلك يسيطر على الحيوانات والنساء والارض وأشياء
أخرى كثيرة .

«أجابوه ان الانسان يدفع ثمن ما يأكل ، يدفع من ذكائه
وقوته ، وأحياناً من حياته . فرد انه يريد
الاحتفاظ لنفسه بكل شيء ، وأنه لا يرغب
في أن يدفع شيئاً .

«تناقشوا طويلاً ، فادرك الشيوخ في النهاية أن الفتى
يعتبر نفسه الأول على هذه الأرض فلا يرى شيئاً فيما عداه .
»ارتعدت فرائصهم جميعاً عندما فهموا رهبة الوحدة التي
أسلم نفسه إليها . لم تكن له قبيلة ، أو أم ، أو قطعان ،
أو زوجة . ولم يكن يريد من هذا كله شيئاً .

«عندما أدركوا هذه الحقيقة أخذوا يتناقشون في أمر
عقابه من جديد . لم يطيّلوا الحديث هذه المرة . فقد تركهم
الحكيم يبدون آراءهم ، ثم استلم دفة الحديث :

«- رويدكم ! ثمة عقاب ، عقاب رهيب لن تجدوا له
مثيلاً في ألف عام . عقابه يكمن في ذاته ! أطلقوا سراحه
واتركوه حراً . ذلكم هو عقابه !

«عندئذ حدث شيء عظيم . زمجر الرعد في السماء وكانت خالية من السحب . انها القوى السماوية تشني على كلام الحكيم . انحنى الجميع وتفرقوا ، فيما الفتى الذي اطلق عليه حالياً اسم لارا (الطريد) يروح يضحك بصوت مرتفع حين شاهد القوم الذين رفضوه يبتعدون عنه . ضحك بعدما بقي وحيداً حراً مثلما كان ابوه . لكن اياه لم يكن بشراً . اما هو فانسان . . وشرع يعيش منذ ذلك الحين ، دونما عائق مثلما الطير في السماء الفسيحة . كان يأتي الى القبيلة فيسرق الغنم والفتيات وجميع ما يتوق اليه . وكانوا يطلقون السهام عليه فتعجز عن اختراق جسده الذي يحميه العقاب الاسمى بدرع غير منظورة . كان حاذقاً ، جشعاً ، قوياً ، قاسياً ، لا يقابل البشر وجهاً لوجه ، ولا يشاهده إنسان الا عن بعد بعيد . ظل هكذا طويلاً يعيش وحده حائماً حول البشر . ومرت على هذه الحال عشرات السنوات . بيد انه اقترب منهم ذات يوم ، ولما هجموا عليه لم يتحرك من مكانه قيد أنملة ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه . خمن احدهم امره ، فصاح في صوت مرتفع :

«- لا تمسوه ! إنه يريد أن يموت .

«فتوقفوا جميعاً . ما كانوا يريدون تخفيف عذاب ذلك الذي أساء اليهم ، فأبوا ان يقتلوه . رفعوا عنه أيديهم ومنه جعلوا يسخرون . كان يرتجف وهو يسمع الى ضحكهم ، فيبحث دون انقطاع بيديه المنقبضتين عن شيء ما في صدره . تناول حجارة عن الأرض بصورة مباغتة ، وهجم عليهم بها . تجنبوا ضرباته ولم يوجهوا اليه ضربة واحدة ، حتى اذا

اطلق صيحة معذبة وتهاوى على الأرض خائر القوى ابتعدوا عنه ووقفوا يراقبونه من بعيد . وقتئذ هب على قدميه ، واطبق على سكين سقطت خلال المعركة وضرب بها صدره ، فتحطمت السكين وكأنها أصابت حجراً . تهاوى من جديد ، وضرب رأسه بالأرض طويلاً ، فجعلت الأرض تهرب من تحته وتغور تحت ضرباته .

«قال الرجال في فرح وحبور :

«- إنه عاجز عن الموت !

«ذهبوا وتركوه وحيداً . ظل مضطجعا على ظهره يحدق في السماء ، يرى الى النصور القوية تحلق في الاعالي مثل نقاط سود صغيرة . كان في عينيه مسن العذاب ما يكفى لتسميم الجنس البشري بأسره . ولقد بقي ، منذ ذلك الحين ، وحيداً حراً ينتظر أن يموت . هكذا يذهب ويأتى في سائر الأمكنة . . . أترى ؟ هو الآن أشبه بالخيال . ولسوف تظل الحال على هذا الفرار الى الأبد ! إنه لا يفهم لغة البشر أو أفعالهم ، لا يفهم شيئاً على الإطلاق . . إنه يشرد دائماً ، ساعياً وراء شيء ما . . هو لا يملك الحياة ، والموت لا يبتسم له . . وليس له مكان بين البشر . انظر كيف عوقب إنسان بسبب من غروره وكبريائه !»

تنهدت العجوز وجنحت الى الصمت ، وتركت رأسها مرة أو مرتين يتأرجح على صدرها بصورة غريبة . نظرت إليها ، فخيّل لي أن النعاس يلفها بعباءته فأحسست شفقة عنيفة عليها تجتاحني . لقد ختمت قصتها في

صوت يلتهب حماسة وتوعداً ، لكن تتردد فيه ذللك
نبرة خائفة خاضعة .

ارتفع على الشاطئ غناء غريب من أفواه الجموع
المتحمسة عليه . إن صوتاً نسائياً خفيضاً رجع في البدء لحنين
أو ثلاثة الحان ، وراح صوت آخر ينشد الاغنية من مطلعها ،
والصوت الأول يسبقه دون انقطاع . واشترك في الاغنية
صوت ثالث ، ورابع ، وخامس . . وعلى حين غرة رددت
الاغنية ذاتها ، من مطلعها ، جوقة من أصوات الرجال .

كان كل من أصوات النساء يتردد بصورة واضحة جلية ،
أشبه ما يكون بساقية تزدهسي بلون خاص ، تتدفق فوق
الصخور ، متلاحقة الأمواج رنانة الصدى ، ثم تتلاقى جميعاً
وتصب معاً في الموجة الكثيفة التي تشكلها أصوات الرجال
المرتفعة نحوها بحركة متساوية ، فتغسق فيها ، ثم تنتزع
نفسها منها وتطفئ عليها وتعود فترتفع من جديد ، الصوت
تلو الصوت ، نقية قوية صوب الأعالي .

وكان صخب الأمواج يتلاشى خلف الغناء فلا يصل الى
الأسماع .

٢

سألتني العجوز إيزرغيل ، وهي ترفع رأسها وترسم على
فمها الأردد ظل ابتسامة :

- هل سمعت قط ان البشر أنشدوا مثل هذا الإنشاد في
مكان ما ؟

فأجبت :

- كلا ، لم أسمع ذلك . ليس في أي مكان قط .
- وابدأ لن تسبح به . نحب نحن أن نغني . وحدهم
الناس الجميلون يستطيعون أن يغنوا بصورة رائعة - الناس
الجميلون الذين يفعم حب الحياة افئدتهم . ونحن من هؤلاء
الناس . هلا نظرت ؟ أفلمست تظن أنهم تعبوا من عمـل
النهار ، أولئك المنشدون هناك ؟ لقد عملوا منذ شروق
الشمس حتى غروبها ؛ ها هو القمر قد نهض الآن ؛ وهؤلاء
هم ينشدون . إن أولئك الذين لا يعرفون أن يعيشوا
يلجؤون الى الفراش بدلا من ذلك ! أما الذين يحبون الحياة
ويجدونها لذيذة فيغنون .

وبدأت أقول :

- لكن صحتهم . . .

- المرء يتمتع دائما بما يكفي من الصحة في سبيل
الحياة ! الصحة ! لو كنت تملك المال افما تصرفه ؟ والصحة
ذهب أيضا مثلها مثل المال - . أتراك تعرف كيف قضيت
أيام صباي ؟ كنت أنسج السجاد منذ طلوع الفجر حتى
المغيب ، ولا اكاد أنهض عن عملي أبدا . كنت متدفقة الحياة
مثل شعاع من أشعة الشمس . كنت مجبرة على البقاء في وضع
الجلوس ، جامدة مثل حجر صلد . كنت أبقي جالسة فترة
طويلة بحيث تططق عظامي من تلك الجلسة في بعض
الأحيان . ولكن ما ان يهبط الليل حتى أروح أعدو صوب
ذلك الرجل الذي أحب ، فأعانقه وأقبله . ولقد استمر حبي
له ثلاثة اشهر . كنت أركض إليه واقضى سائر ليالي

عنده . انظر الي اي مدى " عمرت " أنا ! إن الدم في شراييني لا
يني يتدفق على ما يلوح لي . وكم من رجال أحببت ! وكم من
قبلات تلقيت وأعطيت !

نظرت الى محياها . لقد بقيت عيناها السوداوان عكرتين
لم تبعث الذكرى الحياة فيهما . وكان القمر يعكس ضوءه على
شفثيها الجافتين المتشققتين ، وذقنها المدببة شائبة الشعر ،
وانفها الممضن المعقوف كمنقار البوم . ثمة حفرتان قاتماتان
تغوران في مكان الوجنتين استقرت في احدهما خصلة من شعر
ابيض ضارب الى لون الرماد ، خصلة افلقت من الخرقنة
الحمراء التي تغطي رأسها . وكان جلد وجهها وعنقها ويديها
محترقا بالفضون ، فاتوقع لدى كل من حركاتها ان أرى
هذا الجلد الجاف يتمزق بأسره ويتساقط قطعاً مهملة كي
ينتصب أمامي هيكل عظمي عار انطفأت عيناه واسودتا .
وعادت تحكي بصوتها المتكسر :

- كنت أحيأ مع أمي قريباً من «فالتشي» على ضفة نهر
«بيرلاد» . وكنت في الخامسة عشرة عندما جاء الى مزرعتنا .
كان فارغ القد ، رشيق العود ، أسود الشاربين ، مرح
الروح . كان يركب قارباً ، فطفق ينادينا من خلال النوافذ في
صوت طنان رائع : «إيه ، افليس ، لديكم خمرة وما
يترمق المرء به ؟» أنفذت بصري من النافذة ، من خلال
أغصان الدردار ، فرأيت النهر مصطبغاً بالزرقة تحت شعاع
القمر ، ورأيته ينتصب بقميصه الأبيض وزنار عريض يتدلى
طرفاه على جانبيه ، يدوس بقدمه الواحدة على الضفة فيما
الأخرى لما تفارق القارب بعد . وكان يؤرجح القارب ويفني .

وما أن وقعت عيناه علىّ حتى قال «:شبهه ، يا للفتاة الجميلة التي تقطن ههنا ! . . . انا لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك» - لكانه عرف سائر الفتيات الجميلات من قبل . أعطيت له قليلاً من خمرة وشيئاً من لحسم الخنزير المطبوخ . . ولم تمض أربعة أيام حتى وهبت له نفسي بكليتها . . كان يأتي كل ليلة ويصفر في صوت ناعم مثل الحسون ، فأقفز كالسمكة من النافذة الى ضفة النهر . . وهذان نحن في الطريق . كان صياداً من «بروت» ، فلما عرفت أمي كل شيء فيما بعد وضربتني راح يقنعني بمرافقته الى دبروجا ، والى أبعد من ذلك أيضاً - الى مصب الدانوب . لكنّه لم يعد يروق في عينيّ ، فهو لا يفعل غير الغناء وتقبيلي ، ولا شيء غير هذا ! لقد أصبح ذلك قاتلاً شديد الإرهاق . وكانت جماعات من الهوتسليين يعبرون تلك المناطق في ذلك الحين ، وكانت لهم ثمة حبيبات . . أواه ! لشد ما كانت حياتهم رائعة ! إن فتاة تنتظر ، تنتظر فتاتها القادم من جبال قرباط ، وتراه منذ الآن رهين السجن أو قتيلاً بعد معركة في مكان ما . وهذا هو ، على حين غرة ، يهبط عليها من السماء ، وحيداً أو برفقة صديقين أو ثلاثة أصدقاء . إنه يحمل إليها هدايا ثمينة . كان كل شيء سهل المنال عندهم ! وكان يتغذى عندها ، ويفخر بها أمام رفاقه . وكانت الفتاة تحب ذلك . سألت رفيقة لي على علاقة بهوتسلي ان تدلني عليهم . . ما كان اسمها ؟ لقد نسيت . . بدأت ذاكرتي تخونني الآن . فثمة زمن طويل منذ ذلك الحين ، وكل شيء ينتهي الى النسيان ! عرفتني على فتيّ . كان رائعاً . اصهب اصهب كله ، له شاربان

مفتولان . وله رأس من نار . . كان مكاباً ، يمزح أحياناً
ويزمجر أحياناً أخرى مقاتلاً مثل وحش مفترس . ضربني مرة
على وجهي . . . فإذا بي أقفز عسلى صدره مثلما يفعل قط
رشيق وأغرس أسناني في خده . . ومنذ ذلك الحين ظهرت
حفيرة في خده ، وكان يحب ان أقبل له تلك الحفيرة .
سألتها :

- والصيد ؟ ماذا كان مصيره ؟

- الصيد ؟ حسناً ، كان هنساك . . لقد تعلق بهم ،
الهوتسليين . كان يترجاني في البدء ان أعود اليه ، ويهدد
بالقائي في الماء إن لم أعد ، ثم لم يبق شيء من ذلك ، فقد
تعلق بهم واتخذ لنفسه حبيبة منهم . . وشنقوهما معاً ،
الصيد وحبيبي الهوتسلي . وذهبت أنا أشاهد اعدامهما . حدث
ذلك في دبروجا . في الطريق الى ساحرة الإعدام كان الصيد
شاحب اللون بكاء العينين ، فيما الهوتسلي يدخن غليونيه .
كان يمشي بكل بساطة ، ويدخن غليونيه ، ويداه في جيبه ،
يستريح شاربه الواحد على كتفيه ، والآخر على صدره .
رأني فنزع غليونيه من فمه وصاح بى : «وداعاً !» . . .
أسفت عليه وبكيت طوال سنة كاملة . . وقع ذلك لهما
حين ارادا العودة الى بلادهما في الجبال . وفي يوم الرحيل
اولموا حفلة في دارة روماني حيث ألقى القبض عليهما . لم
يقبض إلا على اثنين فقط ، فيما قتل عدد كبير ، وفسر
الآخرون . . وعلى أية حال ، فقد نال الروماني حسابه فيما
بعد . . أحرقت مزرعته وطاحونه ومخازن قمحه . وانتهى الى
فاقة عظيمة .

فرميت هذا السؤال كيفما اتفق :

- اانت من فعلت ذلك ؟

- كان للهوتسليين كثير من الأصدقاء - فلم اكسن وحيدة . وأولئك الذين كانوا افضل اصدقائهم أخذوا على عاتقهم الاحتفال بيومهم الأربعيني .

هفتت الأغنية على الضفة ، فلم يعد يرافق المعجوز الآن غير ضجيج الأمواج . كان هذا الضجيج المتفكر الصاحب لحناً رائعاً يصاحب حكاية هذه الحياة الصاخبة . وازداد الليل عذوبة وشعاع القمر الأزرق انتشاراً فيما خفت الأصوات الغامضة التي تصعدُها الحياة المضطربة بساكنيها غير المنظورين ، وقد علا عليها صخب الأمواج المتعاطم . . ذلك إن الريح شرعت تهب .

- بعد ذلك أحبيت تركيا أيضاً . كنت في عداد حريمه في «سكوتاري» حيث قضيت اسبوعاً كاملاً . كانت الأمور على ما يرام . . لكن سرعان ما مللت . النساء والنساء دائماً وفي كل مكان . . . كان لديه ثماني نساء . . . وكن يقضين اليوم بأسره في الطعام ، والنوم ، والثروة بالسخافات . أو كن يتخاصمن ويتفننن كالدجاجات . لم يكن شاباً ، ذلك التركي . بل يكاد شعره ان يكون أبيض ، وكان كثير الجلال ، عظيم الثروة ، يتكلم مثل امبراطور مهيب . وكانت عيناه سوداوين . عينان مستقيمتان . . تنظران في باطن نفسك . وكان يحب ان يصلتي دائماً . رأيتُه أول مرة في بخارست . . كان يذهب ويحي في السوق مثل ملك عظيم السلطان ، ويتطلع فيما حواليه بصرامة . ابتسمت له ، وفي

المساء ذاته امسكوا بي في الطريق وقادوني إليه . كان يبيع الصندل ومنتجات النخيل ، وقد جاء الى بخارست لشراء شيء ما . سألتني : «أتأتين معي الى تركيا ؟» فأجبت : «أوه ، آتي ! اني أريد ذلك» . قال : «حسناً» . وهذه أنا قد ذهبت برفقته . كان ثرياً . وكان له ولد ، صبي أسمر البشرة كثير الرشاقة ، في السادسة عشرة من عمره . فهربت معه من لدن التركي . . هربت إلى بلغاريا ، الى لومبالانكا . . وهناك طعننني بلغارية بالسكين في صدري بسبب زوجها او حبيبها ، لم أذكر جيداً .

«بقيت مريضة طويلاً في دير للنساء . عنيت بي فتاة بولونية الأصل . . وكان يزورها من دير آخر في ما أذكر - وكان قريباً من أرتزير بالانكا - أخوها الذي كان راهباً هو الآخر . وكان يتلوى أمامي مثل الدودة . وعندما وقفت على قدمي ذهبت برفقته الى بولونيا» .

- رويدك ! وماذا حدث للتركي الصغير ؟

- الطفل ؟ لقد مات . ذلك الطفل . . حينئذ الى بلاده ، او بسبب من الحب . لست أدري . . لكنه جفّ مثل شجيرة ما برحت طرية صبت الشمس عليها أشعتها طويلاً . . وهكذا جفّ تماماً . وانا أذكره متمدداً في الفراش ، وقد اضحى شفافاً مزرقاً كقطعة من جليد . وكان الحب يتأثر فيه دائماً . . وكان يسألني على الدوام ان أميل عليه واقبله . . وكنت أحبه في توق ، وأذكر اني كنت أقبله كثيراً . ثم سمعت أحواله تدريجياً حتى غدا لا يتحرك ، فهو مضطجع ابداً يسألني بالنعمة الشاكية لشحاذ يطلب الصدقة ان أنام

الى جانبه وأبعث الدفء في جسده المسكين . وكنت أنام . ولا
أكاد أفعل حتى يلتهب بكليته في التو واللحظة . واستيقظت
يوماً فرأيت به بارد الأوصال . كان قد مات . بكيته . من
يدري ؟ لربما كنت أنا التي قتلت به . كنت أكبره بمرتتين في
ذلك الحين ، وكنت فائقة القوة مفعمة بنسج الحياة . وهو ،
ماذا كان ؟ كان صبيّاً صغيراً !

تنهدت ورسمت إشارة الصليب ثلاثاً - تلك كانت المرة
الأولى التي أراها فيها تفعل ذلك - وهي تتمم أثناء ذلك
بشيء من بين شففتيها الجافتين .
همست في أذنها :

- أذن غدوت الى بولونيا . . .

- أجل ، مع ذلك البولوني الصغير . كان مضحكاً
ودنيئاً . وعندما كان يحتاج الى المرأة يلتصق بي مثل القط ،
ويروح يسيل من لسانه عسلاً لاهباً . وعندما لم يكن يريدني
فهو يلسعني كالسوط بكلماته . وفي ذات يوم كنا نمشي
على ضفة النهر ، فاذا هو يرميني بكلمة متعجرفة جارحة .
أوه ، ثارت ثائرتي ! واخذت أغلى مثل القطران الأسود !
أخذته بين ذراعي مثل طفل صغير (وكان صغير القامة)
ورفعته في الهواء ضاغطة أضلاعه حتى اسود تماماً . وعندئذ
جمعت قواي وألقيته من فوق ضفة النهر . . طفق يصيح
بصورة مضحكة وأنا أراه من على يخوض في الماء . ثم ذهب ،
ولم أره بعد ذلك قط . كان حظي كبيراً : فأننا لم الق
أولئك الذين أحببت بعد فراقهم . تلك لقي سيئة ، مثلها
مثل أشباح الموتى .

استكانت العجوز الى الصمت متداركة انفاسها . وتصورت في ذهني الرجال الذين بعثت بهم قصتها الى الحياة . كان هنالك ذلك الهوتسلي ذو الشاربين والشعر المتوهج ، الذاهب الى الموت مدخناً غليونه بهدوء . كان له ، من دون ريب ، عينسان زرقاوان باردتان تسلطان على الأشياء ذات النظرة المركزة الثابتة . وكان هناك ، الى جانبه ، ذلك الصياد المنحدر من بروت ، ذو الشاربين الأسودين الذي يبكي ولا يريد أن يموت . إن العذاب الذي يسبق الموت يغطي معياه الشاحب ، وعينييه الكدرتين ، فيما شارباه المبللان بالدموع يتدليان بكآبة على صواري فمه الملتوي . وكان هناك ذلك التركي العجوز ذو المشية المهيبة ، الطاغية والمؤمن بالقدر دون شك ، والى جانبه ابنه ، هذه الزهرة الصغيرة الشاحبة الهشة من أرض المشرق ، المسممة بفيض القبلات . وكان هنالك ذلك البولوني المغرور ، المتأنق والقاسي ، المعسول الكلام والبارد . . . لم يكونوا جميعاً سوى أخيلة شاحبة ، فيما تلك التي عانقوها وقبلوها تجلس الى جانبي حية تتنفس وأن جففها الزمان - لا جسد لها ، فارغة من الدم ، خالية القلب من الرغبات ، خابية العينين من كل بريق ، تكاد هي الأخرى أن تكون خيالا .

وعاودت تقول :

— لقد لقيت في بولونيا كثيراً من العناء . هنالك يعيش اناس باردون وكذابون . ولم أكن أعرف لغة الأفاعي التي بها يتكلمون . هم يفحون طوال الوقت . وفيهم يفحون ؟ الله اعطاهم لغة الافاعي هذه لأنهم كذابون . كنت اذهب يومئذ

حيث لا أدرى . فإراهم يتجمعون للثورة عليكم ، انتم
الروسيين . ولقد وصلت حتى مدينة بوخنيا ، وهناك بعث
نفسى ليهودي . لم يشترني لنفسه ، بل كيما يتاجر بجسدي .
وافقت على ذلك . كي يعيش المرء يجب أن يفعل شيئاً ما ،
وأنا لم أكن أعرف أن أفعل شيئاً ، فكان عليّ أن أدفع من
شخصي . إنما كنت أقول عندئذ في نفسى إنى إذا حصلت
قليلاً من مال كي أعود الى بيتي على ضفاف بيرلاد ، فسوف
أحطم اذن سائر السلاسل مهما تك متينة صلبة . ولقد بقيت
هناك . كنت اتلقى زيارات «البكوات» الاغنياء الذين يقيمون
الولائم عندي . وكان ذلك يكلفهم اموالاً طائلة . كانوا
يتقاتلون من أجل ويبذرون اموالهم .

وكان بينهم سيد أراد أن يملك قلبى منذ زمن طويل ،
وإليك ما فعل ذات يوم .

جاءنى يتبعه خادم يحمل كيساً . اخذ «البك» الكيس من
يدي الخادم وأفرغه فوق رأسى ، فإذا القطع الذهبية تنهال
على ، فيجتاحنى سرور عظيم وأنا اسمع رنينها وهي تتساقط
على الأرض . لكنى طردت «البك» بالرغم من كل شيء . كان
وجهه ضخماً قبيحاً ، وبطنه أشبه ما تكون بوسادة منتفخة .
كانت له سيماء خنزير سمين العطفين . بلى ، طردته بالرغم
من انه أخبرنى كيف باع جميع أراضيه ودوره وجياده كيما
يفطينى بالذهب .

ولكننى كنت في ذلك الوقت أحب سيداً نبيلاً آخر في
محياء أثر ندبة قديمة . لقد جرحته سيوف الأتراك الذين
حاربهم قبل زمن غير بعيد الى جانب اليونانيين . كان رجلاً

حقاً ! ما عسى أن يعنيه أمر اليونانيين ما دام بولونيا ؟
سأقول لك ذلك . ولكنه راح يحارب جنباً لجنب معهم ضد
اعدائهم فأفقدوه عينه وإصبعين من يده اليسرى . ما عسى
أن يعنيه أمر اليونانيين ما دام بولونيا ؟ والسبب في ذلك
أنه كان يحب مجيد الأعمال ، وإذ يحب امرؤً مجيد الأعمال
يعرف على الدوام كيف يحققها ، ويجد على الدوام المكان الذي
فيه يحققها . وفي الحياة ، كما ترى ، مكان لمجيد الأعمال
دائماً . وأولئك الذين لا يعرفون كيف يجدونها هم بكل بساطة
الكسالى والجبناء ، أو أنهم لا يفهمون الحياة ، لأنه إذا فهم
البشر الحياة مرة فإن كل إنسان يريد إذن أن يترك فيها ظله
من بعده . وعندئذ لا تلتهم الحياة البشر دون أن تترك أثراً
منهم . . . بلى ، لقد كان ذلك الرجل ذو الندبة انساناً حقاً !
كان على استعداد للذهاب الى اقصى العالم كي يفعل أي شيء .
أظن ان جنودكم قتلوه ساعة الانتفاضة . ولماذا ذهبتم
لمقاتلة الهنغاريين ؟ حسناً ، حسناً ، اسكت . . .

وإذ أمرتني العجوز إيزرغيل بالسكوت مالت ، هي
الأخرى ، الى الصمت بصورة مفاجئة ، وغاصت في افكارها .
- كنت أعرف هنغارياً ايضاً . لقد تركني ذات يوم في
زمهرير الشتاء ، ولم يجدوه إلا في الربيع التالي حين ذابت
الثلوج . كان ممدداً في حقل وقد ثقت رصاصة رأسه . ما
رايك في ذلك ؟ أترى كيف أن الحب يقتل من البشر ما لا يقل
عما يقتل الطاعون منهم ! لو أردنا ان نحسب ذلك لوجدنا ان
هذه هي الحقيقة . . . أين كنت من حديثي ؟ آه ، بلى ، في
بولونيا . . . بلى لقد لعبت هناك شوطي الأخير . لقيت نبيلاً

كان جميلاً مثل الشيطان ! أما أنا فكانت السن تقدمت بي كثيراً . أكنت في الأربعين ؟ . . . ربما كنت في الأربعين تقريباً ! كان متكبراً ، أفسدناه نحن النساء . ولقد كلفني غالباً . . . بلى ، كان يريد أن يأخذني هكذا ، منذ الوهلة الأولى ، لكنني لم أخضع ولم أعطه نفسي بسهولة . أنا لم أكُ قط أمة لكائن من كان . أما اليهودى فكنت قد تخلصت منه . اعطيته كثيراً من المال . وكنت أقطن يومئذ في كراكوفيا ، وأملك كل شيء ، الجياد والذهب والخدم . وكل ما اشتغى . وكان يأتي لرؤيتي ، ذلك الشيطان المغرور ، ويريدني دائماً أن ارتعى من تلقاء نفسي بين ذراعيه . ولقد تخصصنا . . . وإني لأتذكر كيف فقدت مظهري الجميل بسبب من ذلك . وطال الأمر بنا . لكنني ربحت في النهاية . كان يتوسل الي جاثياً على ركبتيه . لكنه لم يكذب يملكني حتى هجرني . أدركت عندئذ أنني هربت . أواه ! هذا لا يسر القلب مطلقاً ! لا يسر القلب أبداً ! ولقد كنت ، أنا أحبه ذلك الشيطان ! أما هو فكان يضحك عندما يلقاني . . . يا له من دنيء ! ومع الآخرين كان يسخر مني - كنت أعرف ذلك . . . أواه ، لشد ما كان ذلك مريراً ! يجب الاعتراف به . لكنه كان هناك ، قريباً جداً وكنت أسير دائماً برؤيته . وحين ذهب يقاتل ضدكم ، انتم الروس ، حز الألم في قلبي . كنست أقاوم نفسي دون جدوى . . . وعزمت أخيراً على اللحاق به . كان قريباً من فرصوفيا ، في ملء الغابات . . . لكن عندما وصلت علمت أن جنودكم كسروهم . . . وأنه أسير في قرية قريبة .

فكرت في وليجة نفسي : «هذا يعني ، بكلام آخر ، أنني لن أراه بعد الآن!» وكنت أريد رؤيته بجماع قلبي ، فجاهدت كي تكتحل عيناى برؤيته من جديد . . . تنكرت في زي متسولة عجوز عرجاء ، واتخذت سميتى معصوبة الوجه الى القرية حيث كان مسجوناً . كنت تجد في كل مكان القوزاق والجنود . لشد ما كلفني أن أكون هناك ! علمت أين يوجد البولونيون . وادركت صعوبة الوصول إليهم . ومع ذلك لم يكن بد من الوصول . وهكذا تسللت ليلاً الى المكان حيث كانوا . زحفت في حديقة بين الأخاديد ، لكن هذا خفير^١ ينبثق امامي بصورة مباغتة . . كنت أستطيع أن أسمع الى البولونيين ينشدون تسبيحاً كنائسياً . . مرفوعاً الى والده الإله . وكان هو ، حبيبي أركاديك ، يغني معهم . وتذكرت بمرارة أنهم كانوا يزحفون الي فيما مضى . فلقد حلت الساعة الآن حيث أزحف كالدودة وراء رجل ، ولربما وراء موتي أيضاً . وهذا الخفير يصيح السمع ويميل الى الأمام . ما عساني أفعل ؟ نهضت عن الأرض ومشيت إليه . . . لم أكن أملك سكيناً . لم أكن أملك سوى يدي ولساني . لشد ما أسفت لأنني لم أحمل معي سكيناً . همست به : «انتظر !» . لكنه ، هو الجندي ، كان قد وجه الحربة الى عنقي . قلت له في همس خفيض : «لا تضرب . إنتظر . إسمع . ان كنت ذا روح ! لست أستطيع إعطاءك شيئاً ، لكنني أتوسل اليك . . .» خفض بندقيته ، وقال لي هو الآخر في صوت مخفوض : «إذهبي ، ايتها العجوز ! إذهبي ! ماذا تريدن هنا ؟» قلت له إن ابني سجين هناك . . «انت تفهم ، يا جندي . إنه ابني . أنت أيضاً

ابن لشخص ما ، اليس كذلك ؟ إذن فانظر الي . إن لي ابناً
مثلك ، وهو سجين هناك ! دعني أره ، فلعله سيמות عما
قريب . وقد تقتل أنت غداً . . افلن تبكيك أمك ؟ أولن
يصعب عليك جداً أن تموت دون أن تلقي عليها نظرة أخيرة ،
هي أمك ؟ وكذلك يصعب على ابني . كن رحيماً بنفسك وبه
وبني أنا امه !» .

«أواه ! لشد ما أطلت الحديث إليه ! كان المطر يهطل
وبيللنا . وكانت الريح تزمجر وتعوي ، تصفع ظهري تارة
وصدري تارة أخرى . وكنت أقف هناك ، أتأرجح أمام هذا
الجندي الذي قد من حجر . . وكان هو لا يبرح يقول :
«كلا !» . وبمقدار ما أسمع كلمته الباردة كانت الرغبة في
رؤية الآخر ، أركاديك ، تزداد اشتعالاً في قلبي . كنت أتكلم
وأقيس الجندي بنظري : كان قصير القامة ، يابس العود ،
لا يني يسعل طوال الوقت . عندئذ ارتيمت على الأرض أمامه
وأحطت ركبتيه بذراعي ، وأنا أكيل له التوسلات اللاهية ،
ثم القيته أرضاً . وقع في الطين ، فأسرعت أقلب وجهه نحو
الأرض ، وادفع برأسه في بركة الوحل لأمنعه عن الصياح .
لكنه لم يصح ، بل تلوى تحت وطأتى مجرباً أن يرميني عن
ظهره . أما أنا فرحت أشد برأسه أعمق فأعمق في الوحل
بكلتا يدي حتى اختنق أخيراً . . وعندها أسرعت إلى
المخزن حيث يغني البولونيون ، ورحت أهمس باسمه من
خلال شقوق الجدران : «أركاديك !» . ان لهم آذاناً حادة ،
هؤلاء البولونيين ! سمعوني ولكنهم واصلوا الغناء ! ورايت
عينيه مقابل عيني . سألته : «أتستطيع الخروج من هنا ؟»

فقال : « أجل . من خلال الأرض » . فقلت : « اذن هيا » . وهؤلاء أربعة يخرجون من تحت ذلك المخزن ، ثلاثة وجيبي اركاديك . سأل اركاديك : « أين الخفاء ؟ » . فقلت : « إنه هناك على الأرض . . . » . وهؤلاء هم يذهبون في حذر واحتراس شديدين ، منحنيين نحو الأرض . وكانت السماء تمطر والرياح تزمجر . خرجنا من القرية ومشينا طويلاً في صمت عبر الغابة . كنا نمشي مسرعين ، يمسك اركاديك بيدي فأحس يده لاهبة مرتجفة . أواه ! كنت أحس الارتياح وأنا أسير الى جانبه وهو صامت لا يقول شيئاً . وتلك كانت الدقائق الأخيرة ، الدقائق الفضلى من حياتي المتأججة . كنا قد بلغنا أثناء ذلك حقلاً فتوقفنا عنده . وشكرني أربعتهم . أواه ، أواه ! لشد ما أطلوا الحديث ! كنت أسمع اليهم وأنظر الى صاحبي طوال الوقت متسائلة عما عساه يصنع بي . وهذا هو يأخذني بين ذراعيه ويقول لي بنغمة خطيرة . . . لست أتذكر ما قال لي ، وإن تكن أقواله جميعاً تتلخص فيما يأتي ، الا وهو أنه سيحبني بعد الآن اعترافاً منه بالجميل لأنني ساعدته على الفرار . . . وجنا أمامي ، شفتاه مفترتان عن ابتسامة عريضة ، وقال لي : « يا ملكتي ! » . أترى أي كلب كدوب كان ! عندئذ رفسته بقدمي وكدت أصيبه في ملء وجهه لو لم يبتعد جانباً ويهب على قدميه . وهذا هو يقف أمامي متوعداً شاحب الوجه . . . وكان الثلاثة الآخرون يقفون هناك مقطعي الوجوه . انهم يصمتون جميعاً . نظرت اليهم . . . وقتئذ لم أعد أحس ، على حين بفتة - وأنا أذكر ذلك - إلا ضجراً هائلاً ، كسللاً لا مثيل له يقع علي . . . قلت لهم : « اذهبوا » .

فسألوني ، هم الكلاب : «ستعودين الى هناك لإرشادهم الى طريقنا؟» أترى إلى الدناءة ! ومن ثمة ذهبوا على أية حال . ساعتئذ ذهبت أنا الأخرى ، وفي الغداة اعتقلني جماعتكم ، لكنهم اطلقوا سراحي حالاً . حينئذ أدركت أن الوقت آذن كي أبني لنفسي عشاً فقد كفاني الزمن الذي قضيت شريسة كالقوق ! كنت بدأت اثقل ، فيما جناحي فقدوا قوتهم ، والأرياش فقدت لمعانها . لقد آذن الوقت ، آذن منذ زمن طويل ! وقتئذ غدت الى غالاتيا ، ومن هناك الى دبروجا . وهذه قرابة ثلاثين سنة انقضت مذ قطعت هذا المكان . وكان لي زوج مولد في الأصل مات قبل عام تقريباً . وأنا . . . أنا أحياء ! أحياء وحيدة . . . كلا ، ليس وحيدة ، بل مع أولئك . واشتارت المعوز نحو البحر . كان كل شيء هادئاً هناك . ومن حين لآخر يولد صوت مقتضب خادع كي يموت في الحال . - إنهم يحبونني . أنا أروي لهم كثيراً من الأمور . وهم جميعاً ما برحوا شباناً . . . وأنا أجدني بخير معهم . أنا أراهم وأفكر اني كنت أنا الأخرى مثلهم . . . إنما كان الإنسان في أيامي يتمتع بشيء أكثر من القوة واللهيب ، بحيث كانت الحياة أيضاً أفضل وأكثر مرحاً . . . بلى !

لأذت بالصمت . كنت الى جانبيها كثيراً . إنها تعلم وتهز رأسها ، وتوشوش في صوت خفيض . . . ربما هي تصلي ! كانت سحابة سوداء ، ثقيلة قاسية المحيط ، شبيهة بقمة جبل ، تصعد من البحر . إنها تتقدم في السهب وهي تزحف ، تنفصل من مقدمتها ندف تسبقها مطفنة النجمات الواحدة تلو الأخرى . وكان البحر يزمر . وكان يسمع في

الكروم ، غير بعيد عنا ، اصوات قبلات ووشوشات وتنهيدات .
وكان كلب ينبج في أعماق السهب الفسيح . . والهواء يشير
الأعصاب ، فهو محمل بعير غريب يدغدغ الخياشيم . وكانت
ظلال السحب تسقط على الأرض ، وأخيلة كثيفة تزحف وتزحف
وتختفي وتعاود الظهور . . وفي مكان القمر لم يسبق سوى
بقعة عكرة مشعشة الألوان تغطيها من حين لآخر كتلة مزرقه
من السحاب فتخفيها تماماً عن العيان . وكانت أنوار صغيرة
زرق تشتعل في أعماق السهب الذي أضى الآن اسود مخوفاً
فكانه يتخفى أو يخبىء سرّاً دفيناً . كانت هذه الأنوار تظهر
جزءاً من ثانية ، تارة هنا وتارة هناك ، ثم تنطفئ فكان
بعض الناس المبعثرين عبر السهب الواسع يفتشون فيه عن
شيء ما ، فيشعلون أعواد تقاب سرعان ما تطفئها الريح
الجموح . تلك كانت السنة من النار غريبة مزرقه ، تحمل على
التفكير بشيء خيالي عجيب .

سألتني العجوز إيزرغيل :

- أترى هذا الشرر ؟

فقلت ، مشيراً الى السهب :

- الازرق ، هنالك ؟

- الازرق ؟ بلى ، هو . . . إذن ، هو يطير دائماً !

حسنًا ! حسنًا ! لكنني لم أعد أراه مطلقاً . أنا لا أقدر بعد
الآن على رؤية الشيء الكثير .

استوضحت العجوز :

- من أين يأتي هذا الشرر ؟

كنت أعرف كثيراً من الأقاصيص عن منشأ هذه النيران

الماجنة . إنما كنت أريد أن اسمع قصة العجوز أيزرغيل عنها .

قالت :

— هذا الشرر يصدر عن قلب دانكو المتأجج . ثمة قلب في غابر الزمن اشتعل ذات يوم . . وهذا الشرر ينيثق عنه . أتريد أن أروي لك هذه القصة ؟ إنها أسطورة قديمة أيضاً . . شيء قديم . أنت ترى كم من الأشياء حدثت في الأزمان الماضية ؟ أما الآن ، فانظر . . لم يعد ثمة شيء ، لا أفعال ، ولا رجال ، ولا أقاصيص كما في الأيام الخوالي . . . لماذا ، أجب ! حسناً ؟ اليس من جواب ؟ ماذا تعرف ؟ ماذا تعرفون جميعاً ، أنتم الفتيان ؟ وي ، وي ! . . لو نظرتم في الماضي جيداً فإن كلمة سائر الالغاز توجد فيه . . . لكنكم لا تنظرون ، وهذا هو السبب في أنكم لا تعرفون كيف تعيشون . أفلمست أرى الحياة ؟ أواه ، أنا أرى كل شيء ، وإن تكن عيناى رديثتين ! وأنا أرى أن البشر لا يعيشون ، وانهم يقضون وقتهم في الاستعداد للعمل ، دون أن يعملوا قط ، ويضعون في هذا كل حياتهم . وعندما يسرقون أنفسهم يبدرون وقتهم وبيعشرونه سدى ، يأخذون ويكون مصيرهم البائس . لكن ما هو المصير ؟ إن كل امرئ هو ، بالنسبة الى نفسه ، مصيره الخاص . أنا أرى مختلف أنواع البشر ، لكنى لست أرى الاقوياء مطلقاً ، اين هم إذن ؟ إن الناس الفاتنين ليندرون أكثر فأكثر .

واخذت العجوز تفكر اين يمضي الناس الأقوياء

والفانتون ، وهي لا تبرح ، اثناء تفكيرها ، تحدج السهب
القائم بنظرة متفحصة فكانها تفتش فيه عن جواب .
رحت أنتظر حكايتها ، معتصماً بالصمت خشية أن يحولها
سؤال ما عما تنوي أن تروى لي .
وهذه هي تبدأ الحديث . . .

٣

«في ذلك الزمان ، كان قوم يعيشون على الأرض تطوق
مخيماتهم من ثلاث جهات غابات متكاثفة لا يسير لها غور ،
فيما يمتد السهب الفسيح من الجهة الرابعة . كانوا قوماً
مرحين ، أقوياء ، مقدمين . لكن هذه أوقات عصيبة جاءت
ذات يوم : ظهرت قبائل منبثقة من حيث لا يدري أحد ،
فطردت القبائل الأولى إلى قلب الغابات . وهناك كانت
المستنقعات والدياجير ، اذ كانت الغابة قديمة قديمة ،
وأغصانها متعانقة بشدة حتى لتحجب السماء عن العيون .
وكانت أشعة الشمس لا تشق لنفسها درباً من خلال الأوراق
إلى المستنقعات الا بصعوبة جمة . وحين تقع هذه الأشعة على
مياه المستنقعات تعبق منها عفونة تقضي على الناس جماعة
بعد جماعة . عندئذ أخذ النساء والأولاد يبكون ، وشرع الآباء
يفكرون ويكتسبون . لم يكن بدءاً من الخروج من الغابة ، وفي
سبيل ذلك لم يك غير سبيلين : احدهما من خلف حيث ثمة
أعداء أقوياء شريرون ، والآخرى من أمام حيث تنتصب
أشجار عملاقة ، تتعاقب أغصانها القوية وتغوص جذورها

عميقاً جداً في طين المستنقعات الدبق . كانت هذه الاشجار المتحجرة تنتصب نهاراً ، ساكنة جامدة ، في الظل الرمادي . فاذا حل المساء ضيقت الخناق أكثر فأكثر على البشر عندما تشتعل نيران المخيم . وكانت حلقة من الدياجير القاسية لا تبرح تحتف بهؤلاء البشر ليل نهار ، تبدو في كل لحظة على أهبة أن تسحقهم وتحيلهم هباء منثوراً ، هم الذين الفوا اتساع السهب المديد .

«وكانت الأمور تزداد رهبة حين تصفع الريح قمم الأشجار ، فتأخذ الغابة بأسرها تعول عويلاً أصم فكانهم يتوعدهم وترتل نشيد جنازتهم . كانوا رجالاً أشداء في مكنتهم أن يقاتلوا حتى الموت أولئك الذين سبق أن غلبوهم على أمرهم . لكنهم ما كانوا يستطيعون أن يموتوا في المعارك لان ثمة وصايا في حوزتهم ، فان ماتوا تلاشت هذه الوصايا معهم ، فاقاموا هناك يفكرون أثناء الليالي الطويلة ، تحت صخب الغابة الأصم ، وفي عفونة المستنقعات المسمومة . «وبقوا هناك ، وأخيلة نيران المخيم تقفز فيما حولهم في رقص أخرس ، فيلوح دائماً أن ما يرقص ليس مجرد أخيلة ، بل هي أرواح الغابة والمستنقع الشريرة التي تنتصر . . بقوا هناك على الدوام ، وكانوا يفكرون . إنما لا شيء ، لا العمل ولا النساء ، ينهك أجساد البشر ونفوسهم كما تفعل الأفكار القلقة المضطربة .

«وهكذا تزعزعت قوى القوم لكثرة ما أطالوا التفكير . . وولد الذعر فيما بينهم ، فشل أذرعتهم القوية ، فيما النساء ينشرون الهلع ببكائهن على أجساد أولئك الذين ماتوا بسبب

من المفونة ، وعلى مصير الأحياء الذين شلّهم الخوف ، فكان يتردد في الغابة كلمات جبانة ، مخنوقة في البدء ، متزايدة الجراءة شيئاً فشيئاً . . وهؤلاء هم أصبحوا ، جميعاً ، على استعداد للذهاب إلى العدو ، حاملين إليه هدية حريتهم الثمينة ، فلم يبق فيما بينهم إنسان يخشى حياة العبودية بعد أن عرف الذعر من الموت . . عندئذ ظهر دانكو الذى وحده أنقذهم جميعاً» .

كان من الواضح أن العجوز تكثر من رواية قصة قلب دانكو المشتعل . كانت تتكلم مغنية ، فيثير صوتها المصرصر الأصم في النفوس صورة صخب الغابة حيث يموت أناس بائسون مرهقون بسبب من الهواء المسموم . .

«كان دانكو واحداً منهم ، فتى فائق الجمال . الناس الجميلون شجعان دائماً . وهذا هو يقول لرفاقه : «- لسنا نبعد الحجر عن الطريق بالفكر وحده . من لا يقدم على شيء لايتوصل الى شيء . ما جدوى استنفاد قوانا في التفكير والأنين ؟ وقوفاً ، فلندخلن الغابة ، ولسوف نجتازها ، اذ أن لها نهاية ، لأن لكل شيء في هذا العالم نهاية ! فلنمشي ! هيا ! الى الأمام !

«نظروا اليه وراوا أنه أفضل الجميع لأن القوة والنار الحية كانتا في عينيه تشعان .

«قالوا :

«- قدنا إذن !

«عندئذ سار في مقدمتهم . . .» .

جنحت العجوز الى الصمت برهة ، وألقت بأبصارها الى السهب حيث تتفامم الدياجير كثافة حيناً بعد حين . كانت الشرارات الصغيرة المنبثقة من قلب دانكو المشتعل تلتهب بعيداً وتلوح زهوراً زرقاء هوائية تتفتح لحظة قصيرة ليس غير .

«سار دانكو في مقدمتهم ، فتبعوه مجمعين إذ به كانوا يؤمنون . الطريق صعبة عسيرة ! الظلمة محلولة ! المستنقع يفغر لدى كل خطوة حلقه الجشع المتعفن الذي يبتلع البشر . الأشجار تسد عليهم الطريق بحاجزها الجبار . كانت أغصانها متعاقبة كالأفاعي ، وجذورها متغلغلة في كل مكان ، وكل خطوة تكلف كثيراً من العرق ومن الدماء . مشوا طويلاً . والغابة تزداد كثافة على الدوام ، وقواهم تزداد ضعفاً خطوة بعد خطوة . عندئذ طفقوا يزمجرون نغمة على دانكو الذي اقترب ، هو الفتى الذي لا تجربة له ، جرم قيادتهم الى حيث لا يعرف سوى الله . أما هو فيمشي في المقدمة ، جريئاً مستبشراً .

«لكن العاصفة هبت ذات يوم على الغابة ، فاذا الأشجار تتبادل همساً أصم مخوفاً ، وإذا الظلمة تحلوك حتى ليخيل الى المرء ان كل الليالي تجمعت على حين غرة ، كل الليالي منذ ولادة الغابة . وكانوا يمشون ، هم البشر الصغار بين الأشجار الكبيرة ، يمشون في ضجيج البروق المتوسع ، يمشون والأشجار العملاقة تترنج وتصرصر وتعوي بأغنيات غاضبة نائمة ، والبروق الطائرة فوق القمم تضئ الغابة برهة بلهيب أزرق بارد ، ثم تتلاشى بذات السرعة التي ظهرت بها ، تاركة الناس مذعورين مخلوعي الأفئدة . وكانت الأشجار تبدو حية

وقد أضيئت بلهيب البروق البارد ، وتلوح كأنما تنشر حول البشر الهاربين من الظلمات أذرعتها الطويلة الملتوية لتنسج منها شبكة محكمة ، مجربة أن تقطع بها على المسافرين درهم . وكانوا يرون ، من خلال ظلال الأغصان ، شيئاً مخوفاً مظلماً بارداً . كانت الطريق عسيرة ، والقوم متعبون إنما كانوا يخجلون من الاعتراف بعجزهم . عندئذ ارتموا على دانكو في غضبتهم ونقمتهم ، على الرجل الذي يسير في طبيعتهم . واخذوا عليه انه لم يعرف كيف يقودهم . ما رأيك في هذا ؟

«توقفوا عن المسير ، وبدأوا يدينون دانكو ، متعبين حقودين في ملء ضوضاء الغابة المشؤومة والدياجير المرتعشة . قالوا له : «انت انسان لا موهبة له ، وضار بالإضافة الى ذلك ! لقد قدتنا ، واستنفدت قوانا ، ولذا موتاً تموت !» فصاح دانكو ، وهو يجابههم :

«- قلت لي «قد» ، وقدتكم ! كان لي ، انا ، الشجاعة كي اقود ، فقدتكم ! وانتم ؟ ماذا فعلتم لتساعدوا انفسكم ؟ لم تفعلوا غير المسير ، ولم تعرفوا كيف تحفظون القوى في سبيل طريق أطول ! لم تفعلوا سوى المسير مثل قطع من الخراف !

«لكن هذه النقمة زادت مرارتهم علقماً . فزمجروا :

«- لسوف تموت ! لسوف تموت !

«وزمجرت الغابة ، زمجرت باستمرار ، مرافقة صيحاتهم ، فيما البروق تمزق الدياجير وتحيلها أطاراً . نظر دانكو الى اولئك الذين تكبد العناء في سبيلهم ، فرأى أنهم أشبه ما

يكونون بالحيوانات الكاسرة . كانوا كثرة فيما حوله . لم يك في وجوهم شيء من نبل ، ولم يكن يُنتظر منهم شيء من شفقة . وقتئذ أحس ، هو الآخر ، مراحل الغضب تغلي في قلبه لكن الرحمة الى البشر هداته . كان يحب القوم ، ويظن أنهم ربما يفنون دونه . وعندئذ عجز قلبه بالرغبة في انتاذهم ، في قيادتهم على درب يسيرة ، فتوهجت في عينيه أشعة ذلك اللهب العنيف . . اما هم فحسبوا أن الغضب يعمل فيه ، وأن الغضب هو الذي أعطى عينيه مثل هذا البريق ، فاتخذوا أهبتهم مثل الذئاب متوقعين منه القتال ، فأحاطوا به عن قرب ليسهل عليهم القبض عليه والقضاء على حياته . لكنه أدرك أفكارهم ، فازداد قلبه توهجاً . . . لأن هذه الفكرة كانت تملؤه حزناً واكتئاباً .

«لكن الغابة لم تبرح تغني نشيدها الحزين . وكانت السماء ترعد ، وكانت تمطر بلا هوادة .

«صاح دانكو بصوت طفى على ضجيج الرعد :

« - ماذا أستطيع أن أفعل من أجل البشر ؟

«وعلى غير انتظار فتح صدره بيديه ، وانتزع من بين أضلاعه قلبه ، ورفع عاليًا فوق رأسه .

«كان يلتهب نيراً كالشمس ، أشد نوراً من الشمس ، فاذا الغابة بأسرها تجنح الى الصمت والسكون ، منارة بهذه الشعلة من الحب العظيم الى الناس . وتلاشت الدياجير أمام نوره ، وذهبت في عمق الغابة تساقط مرتجفة في حلجوم المستنقع المتعفن . وكان الناس المدهشون جموداً كالحجارة .

«صاح دانكو :

« - الى الامام !

«اندفع قدماً الى مكانه في الطليعة ، ممسكا قلبه المتأجج
عالياً ، منيراً الطريق للبشر .

انطلقوا مصعوقين في اثره . عندئذ أخذت الغابة
توشوش من جديد مؤرجحة قممها ، مسبوهة مشدوهة . لكن
صوتها اختنق بوقع أقدام القوم وهم يمشون . كانوا يركضون
طافحين حيوية واقداماً ، يجرفهم المشهد الرائع للقلب
المتأجج . وكانوا يموتون ، الآونة ايضاً ، لكن دون شكوى
أو عبرات . وكان دانكو في الطليعة على الدوام ، وقلبه
يلتهب دون انقطاع !

«وهذه الغابة تبتعد أمامه على حين بغتة ، تبتعد وتبقى
الى الوراء ، كثيفة خرساء ، فيما دانكو ورجاله يغطسون
فجأة في بحر من الشمس والهواء النقي المغسول بقطرات
المطر . كانت العاصفة هنالك الى الوراء منهم ، ما فوق الغابة ،
أما ههنا فالشمس تشع ، والسهب يتنفس ، والعشب يتضوأ
تحت جواهر الغيث ، فيما النهر يرسل انعكاسات من ذهب ...
كان الوقت مساءً ، والنهر يبدو تحت أشعة الغروب أحمر
كالدم الذي انبثق جدولاً ملتهباً من صدر دانكو المعزق .

«لقى دانكو الفخور المقدام نظرة الى الامام منه على
اتساع السهب العريض ،لقى نظرة فرحة على الأرض الحرة
وانفجر في ضحكة فخور ، ثم تهاوى ... ميتاً .

«لكن القوم ، الطافحين فرحاً والمفعمين آمالاً ، لم
يلحظوا موته ولم يروا أن قلبه المقدام ما برح يشتعل قريباً
من جدته . ثمة واحد منهم شاهد ذلك فخاف مصيبة ما ووضع

قدمه على القلب الفخور . . فاعطى هذا باقصة من الشرر وانطقاً . .»

- هذا هو سبب الشرارات الزرق التي تبدو في السهب قبل العاصفة !

كان هدوء مخيف قد خيم على السهب الآن بعدما انتهت العجوز من حكايتها الفاتنة . كانت تقول إن هذا السهب مشدوه من قوة دانكو المقدام الذي أشعل قلبه في سبيل البشر ومات دون أن يسألهم أية مكافأة . وكان النعاس يراود أجفان العجوز ، فنظرت اليها وفكرت في ثنايا نفسي : «كم من اقاصيص وذكريات بقيت في ذاكرتها ؟» وفكرت في قلب دانكو الكبير المتأجج ، وفي خيال البشر ، هذا الخيال الذي أبدع جميع هذه الأساطير القوية الرائعة .

هبّت الريح فعرّت ، تحت الأطمار ، صدر العجوز ايزرغيل المتيسس ، وهي تفرق أكثر فأكثر في نومها . غطيت جسدها الهرم وتكومت على الأرض الى جانبها . . كان السهب هادئاً مظلماً ، والسحب تنزلق في السماء . . بطيئة رتيبة . . وكان البحر يزمجر في صوت أصم ، في كآبة عظيمة . . .

تشيلكاش

السماء الجنوبية الزرقاء خلع عليها الغبار طلعة ضبابية
فاحمة السواد . والشمس الحارة تطلّ على البحر الضارب الى
الغضرة كأنما من خلال نقاب رمادي رقيق ، واشعتها لا تكاد
تنعكس على صفحة المياه المزبدة بفعل ضربات المجاذيف ،
ودواسر المراكب البخارية ، والقياديسم الحادة «للفلوكات»
التركية ، والبواخر الأخرى التي تمخر المرفأ المزدهم في شتى
الاتجاهات . وأمواج البحر ، المنضغطة في صناديقها الغرائتية
بفعل الأثقال الضخمة فوق متونها ، تلمطم الشاطئ وجوانب
السفن - تتناطح مزمجرة مزبدة ، وأطرافها محمّلة بمختلف
صنوف النفايات .

رنين سلاسل المراسي ، وقرقعة مصدّات عربات
البضائع ، والصليل المعدني للمصفائح الحديدية التي تفرّغ
على الأرصفة الحجرية ، والدق الأصمّ للأخشاب على الأخشاب ،
وقعقة العربات ، وصفير المراكب البخارية المتحوّل من عويل
الى زعيق ، وصراخ الحمالين والبحارة وحراس الجمارك - هذه
الأمور كلها تختلط تشكّل الموسيقى الداوية ليوم العمل ،
المتصاخبة عنفاً في السماء فوق المرفأ ، في حين تهبّ من
الأرض تحتها أمواج جديدة متتابعة من الأصوات - حيناً
مدوية تهزّ البسيطة ، وحيناً محطّمة تصدّع الهواء القائظ
الرطب .

الغرائيت ، والفولاذ ، والخشب ، والأرصفة الحجرية
والسفن ، والناس - كل شيء يتنفس الأصوات الجبارة لهذه

الترنيمة الهانجة لإله التجارة والفصاحة والخصوصية . لكن الأصوات البشرية لا تكاد تسمع في تلك الجبلية العامة ، فهي ضعيفة تبعث على السخرية . وكان الناس أنفسهم ، أولئك الذين خلقت جهودهم هذا الصوت كله ، يبعثون أيضاً على السخرية والراء ؛ فأجسادهم النحيلة القدرة المهلهلة الثياب محنية تحت ثقل الأحمال على ظهورهم وهم يتراكمون هنا وهناك في الغبار والحر والضجيج ، وهي لا شيء بالمقارنة مع البواخر الفولاذية الضخمة ، وجبال البضائع ، وقعقة عربات السكة الحديدية ، وجميع تلك الأشياء الأخرى التي خلقوها بأنفسهم . ان هذه الأشياء الأخرى التي خلقوها بأنفسهم قد استعبدتهم وسلبت منهم شخصياتهم .

البواخر العملاقة المتأهبّة للانطلاق تصفر ، وتصدّد تنهيدات ثقيلة ، وكل صوت ترسله مشبع بنغمة ازدراء ساخرة من تلك المخلوقات الكثيبة المغبرة الزاحفة على متونها لإملاء عنابرها العميقة بمنتجات عملها العبودي . كانت رؤية تلك الصفوف الطويلة من الحمالين وعلى ظهورهم آلاف «البودات» من القمح لتخزينها في بطون البواخر الحديدية كيما يكسبوا من ذلك عدة أرطال من القمح يملؤون به بطونهم ، تجعل المرء يضحك ويضحك بحيث يتفرغر الدمع من عينيه . كان ثمة قصيدة من السخرية المريرة في ذلك التناقض بين هؤلاء الرجال المهلهلي الثياب الطافحين عرقاً ، المغبولين تحت وطأة الحر والضجيج والعمل المرهق ، وتلك الآلات الجبارة التي صنعها هؤلاء الرجال والمنتصبة في تالق

تحت أشعة الشمس - الآلات التي تمّ تسييرها في نهاية المطاف لا بقوة البخار بل بدماء صانعيها وقوة عضلاتهم .
كان الضجيج خانقاً ؛ والغبار يخز الأنوف ويتسلل إلى العيون ؛ والحرارة تشوي الجسم وتفنيه ؛ وكل شيء يبدو متوتراً ، فكان خاتمة الصبر بلغت سمتها والكارثة على إهبة الانفجار ، الانفجار الرهيب الذي ينقّي الهواء ويتيح للرجال أن يتنفسوا بحرية ورخاوة . وعندها يتنزّل على الأرض سكّون ، ويتلاشى الغبار والاضطراب بحيث لا يصمّان الناس ويرعشانهم إلى درجة الجنون ، ويصفو هواء المدينة والبحر والسماء ، ويغدو نقياً عذّباً . . .

وضربت اثنتا عشرة دقة موزونة لأحد الأجراس . وما أن خمدت آخر نبرة نحاسية حتى تلاشت موسيقى العمل الوحشية جانحة إلى هدوء ، وانقلبت بعد دقيقة واحدة إلى همهمة من الإستياء . وغدت الآونة أصوات الرجال ورشاش البحر أكثر رنيناً في الأذان . إنها ساعة الغداء .

١

عندما توقف الحمالون عن العمل وتبعثروا فوق متون المراكب في جماعات صاخبة لشراء الطعام من الباعة والعتور على زوايا ظليلة يتقرفصون فيها على الرصيف يتناولونه ، ظهر غريشكا تشيلكاش . كان معروفاً بين جميع الحمالين وأهل المرفأ بأسرهم بصفته سكيراً مدمناً ، ولصاً ماهراً جسوراً . كان حافي القدمين عاري الرأس ، يرتدي سروالاً

رثاً من المخمل القطني وقميصاً قطنياً قدراً له ياقة ممزقة
تكشف عن صدره المتعظم المفروش بجلد بني اللون . وكان
شعره الأسود المنفوش الذي اشتعل شيباً وطلعته الشبيهة
بطلعة الصقر ينمان عن أنه استيقظ قبل لحظات وحسب .
وكانت قشة قد علقت بشاربه ، وأخرى بارزة على وجنته
اليسرى الحليقة ، في حين حشر وراء أذنه غصناً صغيراً من
زيزفون . مشى الهويناً على أرض الشارع المرصوفة بحصى
كبيرة ، مديد العود ، هزيل القد ، محدوب الظهر قليلاً ،
وهو يتشمم الهواء بأنفه المعقوف ويريش حوالبه نظرات من
عينيه الرماديتين المتألفتين في برودة كمن يفتش عن شخص
بين الحمالين . وكان شارباه الأسودان الطويلان يهتزان مثل
شاربي القط ، وقد وضع يديه وراء ظهره يفرك إحداهما
بالأخرى ويعصر أصابعه المعوجة اللجوجة . حتى ههنا ، بين
مئات من الأجلاف الآخرين ، ما أسرع أن لفت إليه الأنظار على
الفور لأنه يشبهه صقر البراري بسبب من هزاله الجارح ،
ومشيته الهادفة التي تخفي ، مثلها مثل طيران الطائر المقترس
الذي يشبهه ، حذراً متوتراً تحت مظهر من رباطة جأش هادئة .
وفيما هو يقترب من جماعة من الحمالين المتراكمين في
ظل كومة من سلال الفحم ، هبّ للقائه فتى قصير ممتلئ
الجسم وجهه مبقع بالبثور يوحى بالبلادة ، وعنقه مخدوشة
من جراء معركة لم يمرّ عليها زمن طويل فيما يبدو . مشى
إلى جانب تشيلكاش ، وقال في صوت مهموس :
- اكتشف البحارة نقص بالتين من النسيج . وهسم
يفتشون عنهما .

استوضح تشيلكاش ، وهو يجيل عينيه فيما حوله في هدوء .

- وماذا ؟

- ماذا تقصد بكلمة «وماذا» ؟ إنهم يفتشون عنهما ، أقول لك .

- ويطلبون مني المشاركة في هذا التفتيش ؟ - سأل تشيلكاش ونظر مبتسماً الى تلك الجهة حيث ارتفع مستودع بضائع الاسطول .

- إمض الى الشيطان !

واستدار الشاب عنه .

- رويدك ! من خلع عليك هذه النقوش الجميلة ؟ يبعث على الأسى أن يشوهوا واجهتك على هذا الغرار ! أرايت ميشكا هنا ؟

فردّ عليه الفتى من بعيد ، وهو ينضم الى رفاقه :

- لم أره منذ طويل زمن .

جعل الجميع يحيون تشيلكاش عند مرورهم به تحية صديق قديم . أما هو ، المرح الساخر عادة ، فكان ، فيما يبدو ، معتكر المزاج فجاءت أجوبته محكمة موجزة .

برز من وراء كومة من البضائع خفير الجمارك على حين فجأة - مخضر اللون داكته ، معفراً بالغبار ، على أهبة الإستعداد للعراك . وذرع نفسه في وجه تشيلكاش متحدياً ، ويده اليسرى على مقبض مديته ، فيما اليمنى تتناول للوصول الى ياقة تشيلكاش .

- قف ! الى أين تقصد ؟

تراجع تشيلكاش خطوة ، واسام عينيه الى وجه الخفير الأحمر ، وابتسم ابتسامة باردة .

جاهد الوجه الماكر ، لكن الطيب ، ان يعبر عن سحنة مهددة : انتفخ الخدان وتقرمزا ، وانشد الحاجبان ، وحملت العينان ، فبدت الطلعة بأسرها باعثة على الضحك .
زمجر قائلاً :

- أمرتك مرة بالابتعاد عن هذه الأرجاء إن كنت تريدني
الا احطم ضلوعك . وهذا أنت هنا مرة أخرى !

فقال تشيلكاش رابط الجأش ، وهو يمدّ يده :
- مرحباً ، يا سيميونيئش ! أنا لم أراك منذ فترة طويلة .

- من الافضل الا اراك قرناً كاملاً . تحرك ، اذهب .
ولكنه صافح اليد الممدودة له .

استرسل تشيلكاش يقول ، وقد قبض على يد الخفير بين أصابعه الفولاذية وراح يهزها في حركة ودية :

- إليك ما أردت أن استوضحك عنه . هل وقعت
لميشكا على أثر أينما كان ؟

- أي ميشكا ؟ ما أحسبني عليمًا بأمر أي ميشكا !
تحرك ، يا رجل ، وإلا رآك الرئيس ، وعندها . . .

فاصر تشيلكاش :

- ذلك الشاب الأحمر الرأس الذي عملت معه على
«الكوستروما» في المرة الماضية .

- ذلك الذي تسرق معه ، كما أفهم منك . لقد وضعوه

في المستشفى ، ميشكاك هذا - سحقته ساقه حديدية . إرحل من هنا أقول لك ، إذهب قبل أن أطوِّح بك من ياقة عنقك . - أصغوا إلى هذا القول الآن ! ولقد قلت إنك لا تعرف أي ميشكا . فما الذي يجعلك على هذا القدر من القرف ، يا سيميونييتش ؟

- ليس هذا من شأنك ! إمش !

كان الغضب قد بدأ يشتمل الخفير . انثنى يطيل النظر حواليه وحاول أن يحرّر يده ، ولكن تشيلكاش تشبث بها وهو يرمقه في هدوء من تحت حاجبيه الكثين ، ويتابع حديثه : - فيم تستعجلني ؟ ألا تحب أن تثرثر معي قليلاً ؟ كيف تسير أمورك ؟ كيف حال زوجتك وأولادك ؟ هل هي حسنة ؟ ومضت عيناه ، وانكشفت أسنانه عن تكشيرة ساخرة ، وأضاف :

- قصدت أن أزورك منذ زمن بعيد ، ولكنني لم أستطع أن أتدبر ذلك . إنه الشراب . . .

- كفّ عنه ، انصح لك ! فهو ليس من مزاحك ، أيها الأخرق الهزيل . أنا أعني ما أقول . لكن ، ربما تحولت الى سارق بيوت ، أو جعلت تسرق الناس في الشوارع ؟

- وفيم أفعل ذلك ؟ ههنا ما يكفي لتشغيلي وتشغيلك مدى الحياة . وربّي أنا صادق ، يا سيميونييتش . ولكنني أسمع أنك سرقت بالتين أخريين من النسيج . حذار ، وإلا وجدت نفسك في الفخ !

ارتعش سيميونييتش سخطاً ، وتدفق لعابه وهو يحاول أن يقول شيئاً . أطلق تشيلكاش يده ومشى في هدوء على ساقيه

الطويلتين عائدا ، الى بوابات الميناء . وسار الخفير في أعقابهِ وهو يشتمهُ في قسوة .

انبطت أسارير تشيلكاش الآن . فجعل يصفر من بين أسنانه ، وقد دس يديه في جيبه ، وتبطأ في السير ، ناثراً الضحكات يميناً ويساراً . فردوا عليه بالعملة ذاتها .

صاح حمال كان مستلقياً على الأرض مع رفاقه يغمون قليلاً من راحة بعد الطعام :

- أرايت مقدار ما يسبغ الرؤساء عليك من عناية ، يا غريشكا ؟

فأجاب تشيلكاش :

- يخاف سيميونيتش أن أدوس على بعض المسامير بقدمي الحافيتين .

وصلا إلى البوابة . فأمر جنديان أيديهما على ثياب تشيلكاش ، ودفعاه إلى الشارع .

عبر الطريق واقتعد حجراً مقابل الخمارة . وخرجت من بوابات المرفأ قافلة من العربات المحملة ، في حين راح صف من العربات الفارغة يتحرك في الناحية المقابلة ، وسائقوها يتواثبون على مقاعدهم . وتقياً الميناء زمجرة عادية وسحباً من غبار يلتصق بالجلد .

كان تشيلكاش في الجو الذي يناسبه وسط تلك الفوضى المجنونة . كان يتوقع الحصول على صيد وفير في تلك الليلة ، صيد لن يكلفه غير عناء قليل ، ولكنه صيد يتطلب كثيراً من الحنق . كان واثقاً أن لديه ما يكفي من هذا الحنق ، فضيق فرجتي عينيه مسروراً وهو يتصور كيف سينفق

اوراقه النقدية كلها في صبيحة اليوم التالي . وفكر في صديقه
ميشكا . لشدّ ما هو إليه في حاجة ، ولكنه كسر ساقه . ولمن
تشيلكاش في سرّه وقد خطر له انه لن يستطيع النهوض
بالأمر وحيداً . كيف سيكون الجوّ ، يا ترى ؟ . . ورفس
بصره الى السماء ، ثم مسح به الشارع كله .

على الرصيف ، على مبعدة ست خطوات منه ، وظهره يتكى
على نصبة منخفضة ، ثمة شاب يرتدي قميصاً أزرق من قماش
خشن وبطالاً شبيهاً به ، وينتعل صندلاً من ليف الشجر ،
ويغطي راسه بقبعة ممزقة حمراء اللون . وإلى جانبه حقيبة
صغيرة ومنجل لا مقبض له ملفوف بقليل من القش ومربوط
بجبل على نحو متقن . كان الشاب قوياً ، عريض المنكبين ،
اشقر الشعر ، لوحث الريح والشمس بشرته ، وله عينان
زرقاوان كبيرتان راحتا تحدقان في تشيلكاش في نظرات ودية .
عرى تشيلكاش اسنانه ، وأخرج لسانه ، وخلع على
سيماه طلعة مرعبة ، وتفرّس في الشاب بعينين مبعلقتين .
طرف الشاب أول الأمر بعينه حائراً ، وانفجر من بعد
ضاحكاً ، وهو يصيح خلال نوبات ضحكه : «أحمق مثل طائر
الغواص !» تحرك عن نصبته ، دون أن ينهض عن الأرض ، إلى
حيث يجلس تشيلكاش ، وجرّ حقيبته على التراب ، فجعلت
ذروة منجله تقعقع على حصى الشارع .

خاطب تشيلكاش قائلاً ، وهو ينفذ سرواله :

- أسرفت في الشراب ، أليس كذلك ؟

فاعترف تشيلكاش مبتسماً :

- أنت على حق ، يا صغيري ، أنت على حق .

ما أسرع ما استرعى اهتمامه هذا الشاب المعافى الطيب
بعمليه الصافيتين كعيون الأطفال .

- أكنت تعمل في الحصاد ؟

- أجل . كنت أعمل في الحصاد ، لكن لم أحصل على شيء من
مال . الأيام سيئة . أنت لم تر مثل هذا الحشد من الناس
قبلاً ! زحفوا جميعاً من المناطق التي ضربتها المجاعة . ولا
جدوى من العمل بمثل ذلك الأجر . دفعوا ستين كوبيكاً في
الكوبان . فكّر في هذا ! يقولون إنهم اعتادوا أن يدفعوا ثلاثة
أو أربعة روبلات ، أو ربما خمسة .

- اعتادوا ذلك ! لقد اعتادوا أن يدفعوا ثلاثة روبلات
لمجرد إلقاء نظرة على أحد الروس ! كنت أكسب قوتي
على هذا الغرار قبل عشر سنوات . كنت أجيء إلى قرية
قوزاقية ، وأقول : « هذا أنا ، أيها القوم ، روسي مخلص
لله ! » فيحلقونني ، ويلقون نظرة عليّ ، ويتلمسونني ،
ويقرصونني ، ويطلقون التهديدات ، ويدفعون لي ثلاثة
روبلات . ويعطونني أيضاً طعاماً وشراباً ، ويدعونني إلى
الإقامة لديهم ما طاب لي .

فتح الشاب فمه أول الأمر وقد استبانت في ملامح وجهه
المدور دلائل إعجاب مرتبك ، وما أن أيقن أن تشيلكاش
يخلق الأمور حتى أغلق فمه متلماً ، ثم انفلت في موجة
عامرة من الضحك مرة أخرى . احتفظ تشيلكاش بسحنته
الجديدة مخفياً ابتسامته في شاربيه .

- ما أغربك من عصفور ، تخلق الأمور فكانها حقيقة

من حقائق الله ، وأبتلعها أنا . وحقّ الله ، فقد كان هنالك
من قبل . . .

- هذا ما كنت أقوله بالضبط ، اليس كذلك ؟ لقد
اعتادوا أن . . .

فقال الشاب ، وهو يلوح بذراعه :

- أوه ، انتظر ! من تراك تكون ، هل أنت أسكافي ،
أم خياط ، أم ماذا ؟

أغرق تشيليكاش في التفكير برهة ، وقال :

- أنا ؟ أنا صياد سمك .

- صياد سمك ؟ فكروا في هذا ! أنت اذن تصطاد السمك ،
اليس كذلك ؟

- ولماذا السمك ؟ صيادو السمك هنا لا يصطادون
السمك وحده . في اغلب الأحيان جثثا ، ومراسي قديمة ،
وقوارب غريقة . ثمة صنارات خاصة لمثل هذه الاشياء .
- تكذب من جديد . لعلك أحد اولئك الصيادين الذين
ينشدون مغنين :

نلقي شباكنا

على الشواطئ

والعناير ، والأبواب المفتوحة .

استوضح تشيليكاش ، وهو يرسل بصره الى الشاب في
قسوة ويطحن أسنانه :

- هل التقيت أمثالهم من الصيادين ؟

- كلا ، ولكنني سمعت عنهم .

- هل يروقون لك ؟

- الناس من أمثالهم ؟ لم لا ؟ هم أحرار على أقل تقدير ، يفعلون ما يطيب لهم .

- ما هي الحرية بالنسبة إليك ؟ أسمعنى حقاً وراء الحرية ؟

- من دون ريب . هل هنالك شيء أفضل من أن تكون سيد نفسك ، تذهب حيث تشاء ، وتفعل ما يطيب لك ؟ ينبغي وحسب أن تظل مستقيماً ، وحجر الرchy غير معلق حول عنقك . وما زاد عن ذلك فانطلق وامرح ولا يشغلنّ بالك شيء غير الله وضميرك .

وبصق تشيلكاش في ازدراء ، واستدار جانباً .

واسترسل الشاب يقول :

- إليك قصتي . مات أبي دون أن يخلّف شيئاً تقريباً ، وأمي امرأة عجوز ، والأرض ممصوفة جافة . فماذا عليّ أن أفعل ؟ ينبغي عليّ أن أعيش ، لكن كيف أعيش ؟ وحده الله يدري . فمثلاً ، أتيت لي فرصة الزواج بفتاة من عائلة موسرة . وما كنت لأبالي إن فصلوا بائنة البنت . ولكنهم لن يفعلوا ذلك . فأبوها الشيطان لن يعطيها ذرة واحدة من الأرض . وهكذا وجب عليّ أن أعمل لديه ، ولفترة طويلة من زمن . طوال سنوات . هذه هي الحقيقة . لو أتيت لي أن ألقى يدي على . . . لنقل مائة وخمسين روبلاً لاستطعت النهوض على قدمي في وجه أبيها ، وقلت له : «أتريدني أن أتزوج بابنتك مارفا ؟ أن تعطي معها شيئاً ما ؟ لا تريد ؟ فليكن ذلك . فهي ليست الفتاة الوحيدة في القرية ، والحمد لله !» . وأنا حر ، سيد نفسي . . . هكذا !

واطلق الشاب تنهيدة ، وانثنى قائلاً :

- ولكنه بدا أنه ليس ثمة من سبيل غير مصاهرته .
خطر لي أني قد اعود من الكوبان بمائتي روبل تقريباً . وهذا
كل شيء ! وعندها اغدو جنتلماناً ! ولكنني لم احصل على
شيء تقريباً . ولم يعد أمامي سوى أن اغدو أجيراً زراعياً .
فلن يكون لدى مزرعة خاصة بي . هذا هو الأمر كله .
ارتبك الشاب ، وادلهم وجهه من حزن لمجرد التفكير
أنه سيفقدو لذلك الرجل صهراً ، فيما تمللم متناقلاً .
سأل تشيلكاش :

- وإلى أين تتجه الآن ؟

- إلى البيت . أين يمكن أن اذهب ؟

- من أين لي أن أعرف ؟ لربما أنت ذاهب الى تركيا .
فانشده الشاب :

- تركيا ؟؟ اي مسيحي مؤمن يذهب الى تركيا ؟ ما اروع
هذا الكلام !

جمع تشيلكاش ، وهو يستدير عنه مرة أخرى :

- يا لك من احمق .

لقد أثار هذا الشاب الريفي المعافى في نفسه شيئاً .
إن شعوراً فسيحاً من الضجر ينضج في أعماقه ، ويحول
بينه وبين تركيز ذهنه فيما سيتخذ في الليل من أمور .
غمغم الشاب الذي أغضبته كلمات تشيلكاش شيئاً في
سره ، وألقى على الصعلوك نظرات جانبيه . كان خداه
منتفخين بصورة مضحكة ، وشفتهان ناتئتين ، وعيناه الضيقتان
تطرفان بسرعة . يبدو أنه لم يتوقع أن ينتهي هذا الحديث

مع مثل هذا المتشرد الوحشي الكثر الشاربين بمثل هذه السرعة وهذا التكدير .

لكن المتشرد كفّ عن الالتفات إليه . كان فكره يعمل في شيء آخر وهو جالس على النصبه يصفر بينه وبين نفسه ، ضابطاً الإيقاع بإبهام قدمه القنر .

اراد الشاب أن يصفّي حسابه معه .

شرع يقول :

- أنت ، يا صياد السمك ! هل تشرب كثيراً ؟

في تلك البرهة استدار الصياد إليه فجأة ، وقال :

- أنظر ، يا صغيري ، هل تريد أن تساعدني في إنجاز

عمل هذه الليلة ؟ هيا ، اتخذ قراراً . عجل !

استوضح الشاب مرتاباً :

- أي نوع من العمل ؟

- أي نوع من العمل ؟ ما أعطي لك . لسوف نخرج إلى

الصيد . وسوف تجدّ أنت .

- أوه ، هذا عمل لا أمتنع عنه ، فالعمل لا يخيفني .

ولكن - ماذا لو أوقعتنني في متاعب ؟ فانت إنسان ماهر ،

ولست قادراً على فهمك .

أحسّ تشيلكاش مثل لسع النار في صدره . قال في

غيظ بارد :

- لا يثرثرنّ لسانك بأشياء لا تفقه لها معنى . سأنهال

على يافوخك بضربة قوية ، وعندها تفهم هذا الأمر أو ذاك .

وثب واقفاً ، وقد التمعت عيناه ، وراحت يده اليسرى

تشدّ شاربته ، وانقبضت اليمنى في قبضة معروقة .

ارتعب الشاب . وأدار بصره حواليه في عجلة ، ووثب هو الآخر وهو يطرف في عصبية . وقف الإثنين هنالك صامتين يفحص أحدهما الآخر بهينه .
قال تشيلكاش في صرامة :
- حسناً ؟

كان يرغي ويزبد في باطنه وينتفض من جراء الإهانة التي وجهها إليه هذا الجرو الذي ازدراه من قبل كثيراً ، والذي يكرهه الآونة بجماع روحه لأن له هاتين العينين الزرقاوين الصافيتين ، وهذا الوجه الملفوح المعافى ، وهاتين الذراعين القصيرتين القويتين ؛ ولأن له هنالك قرية وبيتاً ، كما أن لديه دعوة لمصاهرة فلاح موسر ؛ وكرهه بسبب من أسلوب الحياة التي عاشها في الماضي وسيعيشها في المستقبل ، وكان أكثر الحقد بسبب من أنه ، وهو مجرد طفل بالقياس إليه هو تشيلكاش ، يجرؤ على السعي وراء الحرية التي لا يعرف لها قيمة أو لا تمس له حاجة بها . مما يبعث على الاستياء دائماً أن تجد امرأةً تعتبره أدنى منك مرتبة يحب أو يكره الأشياء ذاتهما التي تحبهما أو تكرهما ، ويصعب على هذا الغرار شبيهاً بك .

وفيما الشاب يمدّ بصره الى تشيلكاش عرف فيه سيداً ، فقال :

- أنا حقاً . . . لا أبالي . . . بعد كل شيء ، فأننا افتش عن عمل . فأي فرق لديّ إن عملت لديك أو لدى رجل آخر ؟ لقد قلت ما قلت لأننى . . . حسناً ، فأنت لا تبدو في مظهر رجل شغّيل . أنت . . . أنت . . . رث الثياب .

ولكن هذا يقع لكل إنسان ، على ما يخال لي . يا الله ، أفلم تقع عيناي على سكيرين من قبل ؟ رأيت كثرة منهم ، واغلبهم أسوأ منك .

فقال تشيلكاش في نبرة لطيفة :

- حسناً ، حسناً . أنت موافق إذن ؟

- بكل سرور . حدّد الأجر .

- الأجر يتوقف على العمل . بمقدار ما نصيد . ربما

تحصل على خمسة روبلات .

طالما أن الحديث يجري الآونة عن المال فقد رغب الفلاح أن يكون محدداً ، وطلب هذا التحديد من الرجل الذي يستأجره . فقد اصطغبت الشكوك والريب في نفسه مرة أخرى .

- هذا لا يناسبني ، يا أخ .

ولعب تشيلكاش دوره :

- فلنكفّ عن الحديث حول هذا الموضوع الآن .

ولنمضين إلى الخمارة .

مشياً جنباً إلى جنب ، وتشيلكاش يقتل شاربيه خالفاً على نفسه طلعة السيّد ، والشاب يساوره الخوف والريب ، ولكنه راغب في الامتثال .

استوضح تشيلكاش :

- ما اسمك ؟

فأجابه الشاب :

- غافريلا .

وفيما هما يدخلان الحانة القذرة المسودة بالدخان ، اتجه تشيلكاش ناحية المشرب وطلب - بنبرة مألوفة من

زبون عتيد - زجاجة الفودكا ، وحساء كرنب ، ولحماً مشويًا ،
وشايًا . وكرر هذه القائمة ، ثم عقّب في لا مبالاة :
«على الحساب» ، فردّ عليه المشربيّ بايماء صامتة
من رأسه . هنا امتلات نفس غافريلا في الحال احتراماً نحو
مستخدمه ، هذا الذي يتمتع ، رغم مظهره الزريّ ، بمثل هذه
الشهرة والثقة .

- سنأكل الآن شيئاً ونتباحث في الأمور . اجلس هنا
وانتظرنى . سأعود حالاً .

خرج . ونظر غافريلا فيما يحدث به . كانت الحانة في
قبو . وكانت مظلمة رطبة تعجّ برائحة خانقة من الفودكا ،
ودخان التبغ ، والسخام ، وشيء آخر حاد . وكان بحار أحمر
الliche سكران ملطخ بالهباب والسخام من رأسه حتى قدميه
ينبطح على المنضدة المقابلة له . وكان يقرقر ، وهو يفوق ،
بأغنية مبتورة الكلمات صافرة الحروف مرة ، حنجرتها مرة
أخرى . وكان من الواضح أنه لم يكن روسياً .

وراءه ثمة امرأتان مولدافيتان ، بشرتهما داكنة وشعرهما
أسود وثيابهما رثة ، وكانتا بدورهما تلوان أغنية ثمل .
وبرزت من الظلال أشكال أخرى يعصف بها الضجيج
والانفعال والفوضى ويتعتها السكر . . .

انقبض غافريلا رهبة . أواه لو أن معلمه يعود أدراجه !
واختلطت ضجة الحانة في صوت واحد ، وبدا وكأن حيواناً هائلاً
متعدد الألسنة يزجر وهو يحاول الانفلات من هذه الحفرة
الحجرية لكن عبثاً . وأحسّ غافريلا شيئاً مسكراً يزحف إلى

جسده ، فيجعل رأسه يدوم وعينه يغشاهما سديم وهما
تشملان الحانة بنظرة فضولية خائفة .

رجع تشيلكاش أخيراً . وشرع الرجلان ياكلان ويشربان
ويتحدثان . وعصف السكر برأس غافريلا بعد الكأس الثالثة
من الفودكا . فصار مرحاً ، ورغب في أن يقول شيئاً لطيفاً
لذلك الأمير بين الشبان الذي استضافه على مثل هذه الوليمة
الرائعة . بيد أن الكلمات التي كانت تتدفق في حنجرتة لا
ينطق بها لسانه ، هذا اللسان الذي ثقل وتبكم على حين
فجأة .

شخص تشيلكاش إليه في ابتسامة ساخرة :

— سكرت ؟ إيه ، أيها الخرقه البالية ! مسن خمس
جرعات . كيف ستشتغل هذه الليلة اذن ؟

فزمزم غافريلا :

— آه ، يا صاح ! لا تخف . سأريك . أعطني قبلة ،
تعال .

— لا بأس بهذا . إليك ، خذ جرعة أخرى .

ظل غافريلا يشرب إلى الحد الذي بدا فيه كل شيء حواله
يندفع صعوداً وهبوطاً في أمواج متساوقة . وضايقه ذلك
وأشعره بالمرض . واكتسى وجهه نظرة بلادة وقورة . وكلما
حاول أن يقول شيئاً تروح شفتاه ترتقصان على نحو مضحك
ولا يخرج من بينهما غير أصوات مغربلة . وبرم تشيلكاش
شاربيه ، وابتسم ابتسامة كالحة وهو يرمقه شارد الذهن ،
وافكاره منصرفة إلى شيء آخر .

وكانت الحانة لا تبرح بالصخب المخور مثلها أبداً .
وطوى البحار الأحمر الشعر ذراعيه على المائدة واستغرق في
النوم .

قال تشيلكاش ، وهو ينهض على قدميه :

- حان أوان الذهاب .

حاول غافريلا أن يلحق به فلم يستطع ، فأطلق شتية
وضحك ببلاهة مثلما يضحك المخمورون .

تمتم تشيلكاش ، وقد عاود الجلوس :

- يا لسقط المتاع !

تابع غافريلا ضحكه وهو يمدّ بصره الى معلمه بعينين
غائمتين ، في حين سلب عليه تشيلكاش عينين حادتين
متفكرتين . فرأى أمامه رجلاً وقع مصيره في مغلبه الذئبي .
واحسّ تشيلكاش أنه قادر أن يفعل به ما يطيّب له . في
مقدوره أن يسحقه بيده مثلما يسحق ورقة من ورق اللعب ،
أو أن يساعده في العودة إلى حياته الريفية الراسخة . ولما
احسّ بمقدار قوته عليه ، خطر له أن هذا الشاب لن ينهل
الكأس التي فرض عليه القدر أن ينهلها ، هو تشيلكاش .
وحسد هذا الشاب وشعر بالأسف من أجله ؛ احتقره وبالتالي
احسّ بالأسف لأنه قد يقع بين يدي أشخاص آخرين لا
يكونون أفضل منه . وفي آخر الأمر اختلطت عواطف تشيلكاش
كلها في شعور واحد أبوى وعملي في وقت واحد . كان يشفق
على الصبي ويحتاج إليه معاً . وهكذا أمسك غافريلا من تحت
إبطيه وأنفضه ، ودفعه دفعات لطيفة بركبته وهو يقوده

ناحية فناء الحانة حيث اجلسه في ظل كومة من الحطب ، وجلس إلى جانبه وجعل يدخن غليونه . تململ غافريلا قليلاً ، ونخر ، وأغفى .

٢

همس تشيلكاش مخاطباً غافريلا الذي انشغل بالمجذافين :

- أمستعد أنت ؟

- في غضون دقيقة . عروة المجذاف محلولة . هل أستطيع أن أدقها بالمجذاف ؟

- كلا ! لا صوت ! ادفعها بيديك ! وتعود الى مكانها . كانا منشغلين بقارب مربوط الى مؤخرة أحد المراكب التي تشكل أسطولاً كاملاً بالواح البلوط ، والفلوكات التركية المحملة بجذوع النخل والصندل وجذامير السرو الضخمة .

كانت الليلة حالكة ، وفي السماء تسبح طبقات ثقيلة من سحب شعناء ، والبحر هادئاً أسود اللون كثيفاً كالزيت ، يطلق رائحة رطبة مالحة وهمهمة رقيقة وهو يحضن الشاطئ وجوانب السفن ويؤرجح قارب تشيلكاش في لطف . وعلى مسافة قريبة من الشاطئ تلج العين هياكل السفن السوداء قبالة السماء وصواريخها مزينة في أعاليها بمصابيح متعددة الألوان . وكان اليمّ يعكس هذه الأضواء وهو مزركش بوفرة من الرقع الصفراء تتبدى جميلة وهي ترتعش على خلفية من

المخمل الأسود . وكان البحر يغط في نوم عميق فكانه عامل
هدت قواه أعمال النهار .

قال غافريلا ، وهو يغطس المجذاف في الماء :
- فلننطلق .

ودفع تشيلكاش المجذاف بقوة مرسلاً القارب في الممر
الضيق بين مراكب النقل . سرى خفيفاً على صفحة الماء الذي
ندّ عنه وهج فوسفوري أزرق حيث ضرب المجذافان فشكّل
شريطاً متوهجاً في أعقاب القارب .

استوضح تشيلكاش في جزع :

- كيف رأسك ؟ يؤلمك ؟

- بقسوة لا حدود لها . وهو ثقيل كالرصاص . لسوف
أبلله بالماء .

قال تشيلكاش ، وهو يمدّ له زجاجة :

- لماذا ؟ بلّل جوفك . فهذا يشفيك أسرع .

- أه ، فلنشكرنّ الرب .

وتردد صدى قرقرة .

قاطعته تشيلكاش :

- هاي ! هذا يكفي !

مرة أخرى انطلق القارب قدماً ، شاقاً طريقه بين البواخر
الأخرى في خفة وخفوت . وسرعان ما تجاوزها ، فإذا البحر -
البحر اللانهائي الجبار - ينداح أمامهما بعيداً إلى الأفق
الأزرق حيث ترتفع سحب منتفخة : رمادية وبنفسجية لها
حواشي صفراء مزغبة ، وخضراء بلون مياه البحر ، ورمادية
تلقي ظلالاً سوداء موحشة . انسابت السحب على مهلة على

طول السماء ، آونة تلاحق بعضها بعضاً ، وتختلط ألوانها وأشكالها ، وأخرى تبتلع بعضها لتعود وتظهر من جديد في أشكال جديدة ضخمة متجهمّة . كان ثمة شيء مشؤوم في تلك الحركة البطيئة لهذه الأشكال التي لا حياة فيها . وكان يبدو أن ثمة أعداداً منها لا حصر لها عند نهاية البحر ، وأنهما ستوالي زحفها عبر السماء إلى الأبد ، تستحثها رغبة شريرة في الحيلولة بين السماء وتطلعها إلى البحر الهاجع بملايين عيونها الذهبية ، النجوم المختلفة الألوان ، المعلقة هناك حية تنللاً حاملة ، مشيرة رغبات رفيعة في أفئدة الرجال الذين يعزّ عليهم ألقيها الصافي .

سأل تشيلكاش :

— جميل هو البحر ، اليس كذلك ؟

فقال غافريلا ، وهو يضرب المجذافين بقوة واطراد :

— أظن ذلك ، ولكنه يخيفني .

وأطلق الماء رنيناً ورشاشاً خافتين فيما المجذافان يصطدمان به ، وظلّ يرسل ذلك الوهج الفوسفوري الأزرق .
زمجر تشيلكاش :

— خائف ! أنت معتوه !

كان ، هو اللص ، يعشق البحر . وكانت طبيعته العصبية الشמוש ، الظامنة أبداً إلى انطباعات جديدة ، لا تشبّع قط من تأمل هذه الرحابة الداكنة ، الطليقة إلى أبعد الحدود ، الجبارة ، اللانهائية . وقد استاء من مثل هذا الجواب الفاتر عن سؤاله حول جمال ذلك الشيء الذي أحبّه . وفيما هو جالس هنالك في مؤخرة القارب تاركاً مجذافه المتخذ دفة يقطع

الماء وهو يحملق أمامه في هدوء ، افعمته الرغبة في الترحال
طويلاً وبعيداً قدر استطاعته فوق ذلك المنبسط المخملي .
كان إحساس دافئ رطب يخامره على الدوام حين يكون
على البحر ، يملأ روحه بأسرها ، ويطهرها من دنس الحياة
اليومية . كان يقدر ذلك ويحب أن يرى نفسه رجلاً أفضل
ههنا بين الأمواج والهواء الطلق ، حيث تفقد الأفكار عن
الحياة لذعها كما تفقد الحياة ذاتها قيمتها . وفي الليل تروح
الأنفاس الرضية للبحر الناعس تنساب عذبة فوق المياه ،
فيصّب هذا الصوت المترامي في قلب المرء طمأنينة ،
ويروض نزواته الشريرة ويولد فيه احلاماً سامية : . .
سأل غافريلا على حين فجأة ، وهو يبحث في القارب وقد
استبدّ به القلق :

— أين ادوات الصيد ؟

فاجفل تشيلكاش .

— الأدوات ؟ هي عندي هنا في المؤخرة .

لم يكن يرغب في الكذب أمام هذا الصبي ، ورثى لتلك
الأفكار والمشاعر التي تبدّدت على هذه الصورة غير المتوقعة .
وغضب . وأحسّ من جديد تلك الحرقعة اللاهية في حلقه
وصدره ، فعالّن غافريلا قائلاً في نبرة عالية مؤثرة :

— أصغ . إجلس حيث أنت وانصرف إلى عملك .
استأجرتك للتجذيف ، فجذّف . وإذا بدأت تهزّ لسانك
صعبت الأمور عليك . فهمت ؟

ارتجّ القارب قليلاً وتوقف . وراح المجذافان يجران
المياه ويحركانها . وتحرك غافريلا في مقعده قلقاً .

- جَذَف !

وهزّت الهواء شتيمة مقذعة . ورفع غافريلا المجذافين ،
فوثب القارب ، كما لو ارتعب ، وانطلق قدماً في دفعات
عصبية سريعة جعلت الماء يتراشش .

- توازن !

نهض تشيلكاش نصف نهضة دون ان يترك الدفة من
يده ، وغرز عينين باردتين في محيا غافريلا الأبيض . كان
أشبه بقط يتأهب للوثوب حيث انتصب هنالك منحنيّاً
بجذعه . وكان يمكن سماع صرير أسنانه ، مثلما تسمع
رعشة أسنان غافريلا .

وجاءت من البحر صيحة صارمة :

- من يصيح هنالك ؟

وهسّ تشيلكاش :

- جَذَف ، يا ابن الزنا ! جَذَف ! هس ! سأقتلك ،
لعنة الله عليك ، يا كلب ! جَذَف ، أقول لك ! واحد ،
إثنان ! حذار أن تنبس بحرف ! سأمزقك إرباً !
غمغم غافريلا ، وهو يرتعش رهبة وجهداً :

- أيتها العذراء القديسة ، يا أمّ الله !

استدار القارب وانساب عائداً الى المرفأ حيث شكلت
مصاييح السفن مجموعة من الأضواء الملونة وانتصبت
صواربها بارزة للعيان .

ودفّ الصوت مرة أخرى :

- هاي ! من يصيح ؟

ولكنه جاء من مكان بعيد هذه المرة . فاطمان تشيلكاش .
ردّ قائلاً صوب الصيحات :

- أنت هو من يصيح !

والتفت الى غافريلا الذي لا يبرح يتمم بالصلاة :

- كان الحظ في جانبك هذه المرة ، يا صاح . لو طاردنا

أولئك الشياطين لكنت نهايتك . وكنت ألقيتك طعاماً
للأسماك على الفور .

وحين تبين غافريلا المرتجف أن تشيلكاش جنح إلى

هدوء وانشرت نفسه ، توسّل إليه قائلاً :

- أطلقني . ناشدتك المسيح أطلقني . أنزلني حيثما

كان . آه ، آه ، آه ، لقد هُلك ! محبة بالله ، إذن لي

بالذهاب . ماذا تريد مني ؟ أنا لم أقترب مثل هذه الأعمال .

إنها المرة الأولى . يا الله ، لقد ضعت حقاً . فيم فعلت بي

ما فعلت ؟ إنها خطيئة لسوف تدفع ثمنها من روحك . أوه ،

يا لهذا العمل !

سأل تشيلكاش في حدة :

- عمل ؟ أي عمل ؟

أضحكه ذعر الفتى ، ولذّ له أن يفكر فيه ملياً ، وأن

يتروّى في مقدار ما هو عليه من رعب .

- عمل مشبوه ، يا أخ . أطلقني ، محبة بالله . فيم

حاجتك إليّ ؟ هيا ، كن رجلاً طيباً . . .

- إخرس ! لولا حاجتي إليك لما جئت بك . أتفهم ؟

فاخرس إذن !

وتغمغم غافريلا قائلاً :

- يا إلهي الطيب !
فقاطعه تشيلكاش في احتداد :
- كفاك نحيباً .

فقد غافريلا القدرة على ضبط نفسه ، فشرع ينشج في
هدوء ، وسعل ، وتمخط ، وتململ ، ولكنه جذف في قوة
خلقها اليأس في جوانحه . وانطلق القارب مندفعاً كالسهم .
وما أسرع أن وجدا نفسيهما مرة أخرى وقد أحاطت بهما
أجسام البواخر الداكنة . وضاع قاريهما بينهما وهو يدور
وينفتل في ملء مجازات المياه الضيقة .

- إسمع ، يا هذا ! إذا طرحت عليك أسئلة فلا تفتح
فمك إذا كان لحياتك شأن لديك . أتفهم ؟
وتنفس غافريلا :

- يا الله !

وأضاف في مرارة :

- لا ريب أنه مصيري .

همس تشيلكاش مرة أخرى موعزاً :

- كفاك نحيباً .

أفقدت هذه الهمسة غافريلا قدرته على التفكير ، وسيطر
عليه هاجس بارد بنكبة متوقعة . فجعل يدفع مجذافيه في الماء
كمن أصابته غشية ، ويلقى جذعه الى الخلف وهو يشدهما ،
ويخرجهما ثم يدفعهما في المياه من جديد ، وعيناه مستقرتان
على صندليه المصنوعين من الليف .

كان رشاش الأمواج الناعس كثيباً مربعاً . ولكنهما الآونة

في المرفأ . وترامى من وراء جدار حجري في الطرف الآخر صدى
أصوات بشرية ، وصفير ، ورشاش مياه .

همس تشيلكاش :

- توقف ! إرم مجذافيك . إدفع بيديك عن الحائط .
هس ، لعنة الله عليك !

قاد غافريلا القارب بمحاذاة الجدار متشبثاً بيديه بالحجارة
الزلاقة . وتحرك القارب دون أن يندّ عنه صوت ، والمادة
المخاطية على هاتيك الحجارة تكتم الصدى المنطلق منه .

- توقف . أعطني المجذافين . هاتهما ، أقول لك . أين
جوازك ؟ في حقيبتك ؟ أعطنيها . أسرع . هذا إجراء يمنعك
من الهرب ، يا صاح . ليس ثمة خطر الآن . كان في مقدورك
أن تهرب من دون مجذافين ، ولكنك لا تفعل ذلك من دون
جوازك . إنتظر هنا . واحذر ، فإذا ثرثرت شيئاً فلسوف
أعثر عليك ولو في أعماق البحر !

وعندها شدّ تشيلكاش نفسه إلى الأعلى بواسطة
يديه ، واختفى وراء الجدار .

حدث ذلك بسرعة مذهلة حتى أن غافريلا أطلق تنهدة
قصيرة . ثم شعر أن العبء الذي جثم على قلبه والخوف الذي
ملك عليه مشاعره من قبل هذا اللص انزاحا عنه فكأنهما
ثوب طرحه عن جسده . سيهربن الآن ! تنفّس الصعداء ،
وهو يلتفت حواليه . عن يساره ارتفع جسم باخرة ضخمة لا
صواري لها أشبه ما تكون بنعش كبير فارغ مهجور . وكلما
اصطدمت الأمواج به أطلق صدى أجوف يكاد أن يشبه زفرة
ثقيلة . وعن يمين ينتصب الجدار الموحد لعائل الأمواج أشبه

بأفعى ضخمة باردة التفت في البحر على نفسها . وفيما وراه
بدت أشكال سوداء أخرى . أما في الأمام ، في الانفساح القائم
بين الجدار وذلك النعش ، فقد وقعت عيناه على البحر المقفر
الذي غطته سعائب سود . كانت تتحرك في بطن ، جسيمة
ثقيلة ، على طول السماء ، ناشرة الذعر في الظلمة ، مهددة
بسحق المخلوقات البشرية تحت ثقلها الجبار . وكان كل شيء
بارداً ، داكناً ، ينذر بالويل . وارتعب غافريلا . وكان رعبه
الحالي أقوى من ذلك الذي فرضه تشيلكاش عليه . لقد
طوّق صدره بعنف واعتصر كل مقاومة فيسه وسمره في
مقعده . . .

كان كل شيء هادئاً . فليس ثمة صوت غير تنهيدات
البحر . وتحركت السحب بطيئة موحشة مثلها أبدأ . وارتفعت
جموع كبيرة منها من البحر حتى غدت السماء ذاتها شبيهة
بالبحر ، بحر مضطرب يتقلب فوق هذا البحر الناعم الناعس .
كانت السحب أشبه بالأمواج التي تدافعت أواذيتها المزبدة
ساقطة على الأرض ، ثم تراجعت الى الصدوع التي تدفقت
منها ، لتندفع من جديد فوق كتل الأمواج التي ولدت مسن
توّها ولم تتحطم متحولة إلى زبد مخضر من العنف الوحشي .
أحسّ غافريلا أنه مرهق بسبب من هذا الصمت والجمال
الموحشين حواليه حتى أنه تمنى عودة معلمه سريعاً . وماذا
إذا لم يرجع هذا المعلم ؟ وراح الوقت يمرّ بطيئاً - أبطأ
من حركة السحب في السماء . وكان الصمت يزداد شؤماً كلما
طال به الإنتظار . وأخيراً انزلق من الطرف الآخر لعائسل
الأمواج أصداء رشاش ، وهسيس ، وشيء يشبه الهمس .

وشعر غافريلا أنه سيموت في اللحظة التالية .

وجاء صوت تشيلكاش الأصم :

- هاي ! أناثم أنت ؟ إليك ، امسك هذه . في رفق .
ونزل عن الجدار شيء مكعب ثقيل . وضعه غافريلا في
القارب . وتبعته صرة مماثلة . ومن بعد انزلت هيئة
تشيلكاش النحيلة الطويلة ، وظهر مجذافان ، وسقطت حقيبة
غافريلا عند قدميه ، واتخذ تشيلكاش مقعده في مؤخرة القارب
وهو يتنفس في صعوبة .

ورسم غافريلا ابتسامة من فزع خائف .

سأل :

- متعب أنت ؟

- تقريباً ! حسناً ، ضع المجذافين . وجذف بكل قوتك .
لقد كسبت رزقاً لا بأس به . لقد قمنا بنصف العمل . وما
عليك الآن سوى أن تنسب من بين هؤلاء الملاحين ، وعندها
- نجمع الغنيمة وتعود إلى فتاتك . هل توجد عندك فتاة ،
يا صغيري ؟

- ك . . لا .

كان غافريلا يبذل قصارى جهده ، ورثاه تعمالان مثل
منفاخين ، وذراعا مثل نابضين فولاذيين . وخرخت المياه
تحت القارب ، واتسع الشريط الأزرق فيما وراءه أكثر منه
قبلاً . واستحم غافريلا بعرقه ، ولكنه لم يترك المجذافين
يفلتان من بين يديه . لقد طغى عليه الرعب مرتين في تلك
الليلة ، وهو راغب عن معاناته مرة ثالثة . الرغبة الوحيدة
التي عمرت قلبه هي الخلاص من هذا العمل في أسرع وقت

ممکن ، وأن يضع قدميه على اليابسة مرة أخرى ويهرب من هذا الرجل قبل أن يقتله حقاً أو يؤدي به إلى السجن . قرّر الا يخاطبه ، الا يعارضه مهما تكن الأمور ، وأن يفعل جميع ما يأمره به ، وإذا أفلح في الهرب منه دون أذية فلسوف يرفع صلاة شكر إلى القديس نيقولاى صانع المعجائب في صبيحة اليوم التالي . وكان ثمة صلاة ملتهبة مهيأة على لسانه ، ولكنه يجلسها ، وهو يلهم مثل قاطرة بخارية ويتطلع إلى تشيلكاش من تحت حاجبيه الداكنين .

أما تشيلكاش ، النحيل الطويل ، فقد كان جائعاً مثل طير على أهبة الطيران ، وعيناه الشبيهتان بعيني الصقر تخترقان الظلمة أمامه ، وأنفه المعقوف يتشمم الهواء ، وإحدى يديه تقبض على الدفة والأخرى تجذب شاربه المبروم ، في حين افترت شفاته الرقيقتان عن ابتسامة عريضة . كان تشيلكاش مغتبطاً بما أصاب ، راضياً عن نفسه ، وعن هذا الشاب الذى أرعبه وجعل منه عبداً له . وفيما هو يراقب كيف يجهد غافريلا نفسه أحسّ بشفقة عليه ، وخطر له أن يؤنسه بكلمة مشجعة . قال في لطف ، وقد أطلق ضحكة قصيرة :

- إيه ! خفت كثيراً ، اليس كذلك ؟

فزفر غافريلا :

- ليس كثيراً .

- في مقدورك أن تجذب برخاوة الآن . فقد زال الخطر .

ثمة مكان أخير ينبغي أن ننسرق منه . فاسترح قليلاً .

أطاع غافريلا فكفّ عن التجديف ، وأنزل المجذافين في الماء .

- جذف على مهل . ولا تجعل الماء يخرخر . ثمة بوابة يتعين أن نجتازها . هسى . فالناس هنا لا يحبون المزاح . وبنادقهم جاهزة للإطلاق دائماً . يتركون في رأسك فجوة قبل أن تدرك ما أصابك .

القارب الآن ينزلق على الماء دون أن يندّ عنه أدنى صوت . . والدليل الوحيد على حركته ذلك الضوء الأزرق الذي تساقطه المياه عن المجذافين ووهج البحر الأزرق حينما تصطدم القطرات به . واشتدت الليلة حلكة وسكوناً . ولم تعد السماء تشبه بجرأ هائجاً - فقد انتشرت السحب وشكلت غطاء ثقيلًا تعلق منخفضاً فوق المياه لا يأتي حركة . وكان البحر أكثر هدوءاً وأشد سواداً ، ورائحته المالحة الدافئة أقوى من قبل ، ولم يعد يلوح سيعاً مثله قبلاً .
تمتم تشيلكاش :

- لو أن المطر يهطل ! كان أخفانا مثل ستارة .
هبت أشكال ضخمة من المياه عن يمين القارب ويساره . إنها سفن النقل - سوداء كثيفة لا حركة فيها . وكان ثمة ضوء يتحرك على إحداها : إنه شخص يسير حاملاً في يده مصباحاً . وارسل البحر أصداً قصيرة مترجئة وهو يرت على جوانب السفن ، فردت عليه بأجوبة باردة جوفاء وكأنها ترفض التنازل عما يطلب منها .

قال تشيلكاش في صوت مخفوت لا يكاد يسمع :
- إنه نطاق الحراسة .

منذ اللحظة التي أمر فيها غافريلا أن يجذف في هدوء استولى على هذا الأخير شعور من الترقب المتوتر . وفيما هو

يدفع القارب إلى الأمام في قلب الظلمة خيل إليه أنه ينمو - أوجعته عظامه وعروقه وهي تتمدد ، وآلمه رأسه أيضاً بعد أن شغلته فكرة واحدة . وارتجف الجلد على ظهره وأحس أن إبراً تخزه في قدميه . وأحست عيناه أنهما ستنفجران من التحديق في الظلمة بقسوة ، هذه الظلمة التي يترقب أن يهب منها في أية لحظة شخص ما يصيح فيهما : « قفا ، أيها اللسان ! » .

ارتعش غافريلا حين سمع تشيلكاش يقول : « نطابق الحراسة » . ومضت في ذهنه فكرة مشؤومة ، وضربت على أعصابه المتوترة : راودته نفسه أن يصرخ طالباً النجدة . وفتح فمه ، نافخاً صدره وسط القارب ، وأخذ نفساً عميقاً ، لكن الرعب مما انتوى أن يفعل لسعه مثل السوط ، فأغلق عينيه وتهاوى من مقعده .

ونفض من المياه السوداء سيف من ضوء أزرق ملتهب . نهض وشق ظلمة الليل . واخترق السحب في السماء وجاء يستريح على صدر البحر في شريط أزرق عريض من الضوء . استلقى هناك ، وأشعته تلتقط أشكال السفن التي كانت غير المرئية حتى الآن ، من قلب الظلمة - أشكال صامتة سوداء محاطة بدكنة الليل . بدا وكأن هذه السفن ظلت وقتاً طويلاً في قاع البحر وقد جذبتها إليه قوى عاصفة ؛ أما الآن ، وبأمر من ذلك السيف الملتهب المولود من البحر ، فقد نهضت كيما تحدد إلى السماء وإلى كل ما هو موجود على سطح المياه . وكانت حبال صواريتها أشبه بنباتات مائية متشبثة ارتفعت من قاع البحر مع هذه الأشكال الجبارة السوداء المأخوذة في

شباكها . ومرة أخرى هبّ ذلك السيف الأزرق الرهيب ، ملتصعاً ، من أعماق أعماق اليم ، وشقّ الليل من جديد واستلقى ثانية ، ولكن في بقعة أخرى هذه المرة . ومرة أخرى استضاءت أشكال السفن التي لم تكن مرئية من قبل بنوره البراق .

توقف قارب تشيلكاش ، وتراجع على المياه وكأنه لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل . كان غافريلا مستلقياً في مقره ، ويداه فوق وجهه ، في حين راح تشيلكاش يلكزه بقدمه ويهمس في صوت وحشي :

— هذا طراد الجمارك ، يا أحمق ! وذلك هو ضوء الكشفاف ، مصباح كهربائي . إنهض ، أيها الأبله ! لسوف يوجهونه إلينا في أية برهة . لسوف تكون السبب في هلاكنا وهلاك نفسك معاً ، أيها الشيطان ! انهض !

ان ضربة فعالة بعقب القدم تنهال على الظهر جعلت غافريلا يهب على قدميه . كان لا يبرح خائفاً من أن يفتح عينيه ، فاستوى جالساً ، وتحسس باحثاً عن المجذافين ، وشرع يجذف .

— على رسلك ! على رسلك ، أحاقت بك اللعنة ! يا الله ، يا لهذا الأبله الذي تعثرت به ! ماذا يخيفك ، يا أفتطس الوجه ؟ ضوء مصباح — هذا كل شيء . على رسلك بهذين المجذافين ، حلت عليك لعنة الله ! إنهم يفتشون عن المهربين . ولكنهم لن يقبضوا علينا . فهم بعيدون جداً . أوه ، كلا ، إنهم لن يقبضوا علينا . والآن نحن . . . وتطلع تشيلكاش حواليه في انتصار :

- لقد أفلتنا من الخطر . وى ! حسناً ، أنت شيطان
محظوظ ، رغم أنك خاوي الرأس .

جذف غافريلا وقد ركن إلى الصمت ، وهو يتنفس انفاساً
ثقيلة ، ويختلس نظرات جانبية إلى السيف الملتهب الذي لا
ينى يرتفع وينخفض . قال تشيلكاش إنه مجرد مصباح ،
ولكنه لا يستطيع أن يصدق ذلك . ثمة شيء غريب في هذا
الألق الأزرق البارد الذي يحطم الظلمة ويخلق على البحر نوراً
فضياً . وتملك الرعب الكثيب غافريلا من جديد . فجعل يجذف
بصورة آلية ، وقد انكمشت عضلاته وكأنما هو يترقب ضربة
تنزل به من فوق ، ولم يكن راغباً في شيء على الإطلاق الآن .
كان خاوياً لاروح فيه . إن قلق هذه الليلة استنفد كل ما
هو إنساني فيه .

ولكن تشيلكاش كان متهللاً . وأعصابه التسي الفت
الهزات استرخت على الفور . ورقص شاربواه في رضى ،
وتوهجت عيناه . أبداً لم ينعم من قبل بمثل هذا الصفاء في
النفس . وراح يصفر من خلال أسنانه ، ويستنشق هواء البحر
البليل عميقاً ، ويرنو حواليه ، ويبتسم في طيبة حين تتوقف
عيناه على غافريلا .

هبب الريح فاثارت البحر وغطته بموجبات صغيرة .
وازدادت السحب رقة وشفافية ، بيد أن السماء بأسرها كانت
لا تزال عامرة بها . وأخذت الريح تراوح وتغادي في رقة على
طول البحر ، في حين تدلت السحب ساكنة لا حراك بها وكأنما
استغرقتها أفكار رمادية لا شأن لها .

- هيا ، أفق ، يا أخ . أنت تبدو وكأن روحك خرجت

من جسدك ، فلم يتبق منه غير كيس من العظام . لكن
نهاية العالم أذنت حقاً ! ايه ! هل تسمع ؟ . .
انتعش غافريلا لسماعه صوتاً بشرياً . ولو كان صوت
تشيلكاش .

جميعهم قائلاً :

- بلى ، اسمع .

- حسناً ! يلوح أنه لم يبق فيك شيء على الإطلاق .
اليك ، امسك الدفة وسأجذف أنا . لا ريبة أنك تعبت .
نهض غافريلا بصورة آلية وأعطاه مقعده . وفيما هما
يتبادلان مكانيهما ألقى تشيلكاش نظرة على وجه الصبي
الشاحب ولحظ أن ركبتيه ترتجفان وتعجزان عن حمله .
فازداد رثاؤه له أكثر من قبل ، فربت على كتفه .

- رويدك ، لا تكتئب ! لقد كسبتَ حسناً . وسأكافئك
في سغاء . ما رأيك إذا نفحتك بورقة من خمسة وعشرين
روبلًا ؟

- لست أريد شيئاً . لا أريد أكثر من النزول على
الشاطئ .

لوح تشيلكاش بيده ، وبصق ، وشرع يجذف ملقياً
المجذافين بعيداً بذراعيه الطويلتين .

كان البحر قد أفاق وجعل يسلي نفسه باصطناع أمواج
صغيرة يزرکشها بحاشية من الزبد ، ويطلقها واحدة بعد
الأخرى بحيث تنكسر في زخات من الرشاش . وكان الزبد
يهسّ ويذفر وهو يذوب ، وعجّ الهواء باصدااء موسيقية .
وبدا أن الظلمة استيقظت بدورها .

قال تشيلكاش :

- والآن ، أنت ستذهب الى قريتك ، وتـتـزوج ،
وتـشرع بحراة الأرض ، وتـستـنـبـت القمح ، وتـلد زوجتك
اطفالا ، فلا يعود لديك ما يكفي من الطعام ، فتـقـضي عمرك
بأسره تكـد وتـعـمـل . فأية لذة لك في هذا ؟

أجاب غافريلا في خفوت ، وهو يرتعش قليلا :

- أية لذة ؟

هنا وهناك مزقت الريح نتفاً من السحب كاشفة عن رقع
من السماء الزرقاء ، فيها نجم أو نجمان .
وتراقصت انعكاسات هذه النجوم على المياه ، آونة
تختفي وآونات تتضوا من جديد .

قال تشيلكاش :

- اتجه أكثر ناحية اليمين . سنصل عما قريب . هيم ،
لقد انتهى العمل . انه عمل كبير . فكّر فقط ، خمسمائة
من الروبلات في ليلة واحدة !

فكرّر غافريلا في ارتياب :

- خمسمائة ؟

أرعبته هذه الكلمات ، فدفع «البالتين» بقدمه دفعة
خفيفة ، وقال :

- ماذا هنالك فيها ؟

- أشياء تساوي كمية كبيرة من المال . قد تساويان
الف روبل إذا حصلت على السعر الحقيقي ، ولكنني لا أريد
أن يزعجنى أحد . هذه مهارة ، اليس كذلك ؟
هتف غافريلا متشككا :

- يا لكه الطيب ! لو كنت أملك مثل هذا المقدار !
وزفر وهو يتذكر قريته ، ومزرعته البائسة ، وأمه ،
وكل هاتيك الاشياء العزيزة البعيدة التي من أجلها خرج
مفتشاً عن عمل ، ومن أجلها عانى عذابات تلك الليلة .
واستغرقته موجة من الذكريات - قريته الصغيرة على منحدر
التلة المائلة حتى النهر ، والغابات فوق النهر بأشجارها
العديدة : البتولا ، والصفصاف ، والسمن ، وكرز الطير .
وتنهّد في حزن :

- لكم احتاج إليه !

- رويدك ! يخال لي أنك سرعان ما تثب إلى قطار
وتندفع إلى البيت . وهناك تجن الفتيات غراماً بك ! كيف ،
وعندها تختار واحدة منهن تروق في عينيك . وتبني لنفسك
بيتاً جديداً على الرغم من أن النقود لا تكفي لبناء بيت .
- كلا ، لا تكفي لبناء بيت . فالخشب مرتفع الثمن
عندنا .

- ولكنك تصلح البيت على أقل تقدير . وما رأيك في
حصان ؟ هل لديك حصان ؟

- أجل ، لكنه حيوان عجوز عليه اللعنة .

- وهكذا تضطر لشراء حصان جديد . حصان مسن
الصنف الاول . وبقرة . . . وبعض الاغنام . وكمية من
الدواجن . اليس كذلك ؟

- اه ، لا تسترسل في هذا ! افما يغدو في قدرتي ان
انظم حياتي جيداً !

- بلى ، يا اخ . وتغدو الحياة اشبه بأغنية . اعرف

شيئاً او شئيين عن هذه الامور . فقد كان لي عش في وقت من الأوقات . وكان والدي واحداً من الأثرياء في القرية .

لم يكن تشيليكاش يجذف جيداً . فقد راحت الأمواج المتراشقة تؤرجع القارب وهي تصطدم بجانيبه ، فيكاد الا يتحرك في المياه السوداء التي راحت تفاقم من لهوها تدريجياً . وجلس الرجلان هنالك يتمايلان ويطيّلان النظر حواليهما وقد استسلم كل منهما الى لجج أحلامه . لقد ذكّر تشيليكاش غافريلا بقريته راغباً في إراحة أعصابه والتسرية عنه . فعل ذلك في البداية وهو يضحك في شاربيه ؛ لكنه ما ان شرع يحاور رفيقه عن ذكريات الحياة الريفية ، هذه الأفراح التي كفّ هو نفسه عن التمتع بها منذ زمن طويل ونسيها تماماً الى هذه اللحظة ، حتى استغرق في الحديث تدريجياً بدلا من ان يسأل الشاب عن قريته وأحوالها .

- الشيء الأكثر شأنًا في الحياة الريفية هو ان الرجل يملك حرите ، ويكون سيّد نفسه . له بيته الخاص ، ولو كان بيتاً فقيراً . وله أرضه الخاصة - قد لا تكون أكثر من خطوة واحدة ، ولكنها في ملكه الخاص . وهو مَلِك طالما انه يملك هذه الأرض الخاصة . وهو رجل يحسب لـه حساب . يستطيع ان يفرض احترامه على أى كان ، اليس كذلك ؟

وأنهى تشيليكاش حديثه في حيوية .

نظر غافريلا اليه في فضول ، فدبت فيه الحيوية أيضاً . ونسي خلال الحديث ماهية هذا الشخص ، ورأى فيه فلاحاً آخر مثله ، شده الى فلاحة الأرض عرق أجيال متعاقبة من

أسلافه ، وربطته بها ذكريات الطفولة ، فلاحاً قطع باختياره
الشخصي علاقاته مع الأرض والعمل فيها ، فحاق به العقاب .
- صحيح ، يا أخ . ما أروع صحته ! أنظر الى نفسك
الآن ، من تراك تكون من دون هذه الأرض ؟ الأرض ، يا
أخ ، أشبه ما تكون بأمك . لا يمكن نسيانها .
وأفاق تشيلكاش على محيطه ، وأحسّ من جديد ذلك
التوقد اللاهب في صدره ، التوقد الذي ظل دائماً يزعمجه
عندما تمسّ عزته - عزة شيطان لا يقرّ له قرار -
وبخاصة عندما يمسه إنسان لا قيمة له في نظره .

نبر في ضراوة :

- تحاول أن تعلمني ! اتحسب أنني عنيت ما قلت ؟
فليعرف المرء مكانه . يا للغرور !

قال غافريلا في اتضاع وخنوع :

- أنت إنسان يبعث على التسليّة . أنا لم أقصدك
أنت . هنالك كثيرون من أمثالك . يا الله ، ما أكثر البؤساء
في هذا العالم ! وهم متشردون .

نبر تشيلكاش ، وقد حجز تدافقا من الشتائم تفرغسر
في حنجرته :

- اليك ، خذ المجذافين .

وتبادلا المكان ثانية ، وفيما تشيلكاش يتسلق البالتين
أحسّ رغبة عارمة في أن يوجه الى غافريلا دفعة تلقية في
الماء .

لم يسترسلا في الحديث ، ولكن غافريلا يزفر أنفاسه
القرية حتى في صمته . واستغرق تشيلكاش عميقاً في أفكار

الماضي فنسي توجيه الدفة ، فأدار التيار القارب وساقه في البحر . ويبدو أن الأمواج شعرت أن القارب من دون ربان ، فطفقت تلعب به ما طاب لها ، فترفعه أواذيها وتتواثب حول مجذافيه في شحلات زرق صغيرة . وومضت أمام عيني تشيلكاش مجموعة من صور الماضي ، الماضي البعيد ، المفصولة عن الحاضر بخليج مقداره إحدى عشرة سنة من التشرد . ورأى نفسه وهو طفل ؛ ورأى قريته الأم ؛ ورأى أمه ، وهي امرأة بدينة متوردة الوجنتين لها عينان رماديتان لطيفتان ؛ ورأى أباه ، وهو عملاق متجهم القسماص أصهب اللحية ؛ ورأى نفسه عريساً ؛ ورأى زوجته أنفيسا العيلة السوداوية العينين الناعمة المرحمة تتدلى صغيرتها الطويلة على ظهرها . ورأى نفسه من جديد جندياً وسيماً من جنود الحرس هذه المرة ؛ ثم رأى أباه ، وقد وخطه الشيب وأحنى العمل ظهره ؛ ثم رأى أمه وقد سطت على وجهها الغضون وانكفأت حتى الأرض ؛ ورأى الاستقبال الذي أعدته له القرية حين انتهت خدمته العسكرية ، وتذكر مقدار ما كان عليه والده من فخر ، وهو يقدم ولده المعافى الوسيم الجندي ذا الشاربين إلى جيرانه . الذكرى هي دمار أولئك الذين حل بهم البلاء ، فهي تحيي حجارة الماضي وتضيف قطرات من الشهد حتى في السمّ المرير الذي شربوه في غابر الزمان . وبدا أن مجرى لطيفاً من هواء منعش يهب على تشيلكاش ، حاملاً إلى أذنيه كلمات أمه الحنون ، وأحاديث أبيه الفلاحية الغيور ، وكثيراً من الأصوات المنسية الأخرى ؛

والى منحريه رائحة الأرض الأم والثلج يذوب عنها ، وهي
تفلق من جديد ، وهي تتغطى بغطاء زمردى مسن الجاودار
المتفجر . وأحسّ بالوحدة والضياح ، وأنه مرمى^٢ فيما وراء
ذلك النظام من الحياة الذي أنتج الدماء المتدفقة في عروقه .
صاح غافريلا :

- هاى ، الى أين نسير ؟

أجفل تشيلكاش ، ورمى أبصاره حواليه في احتراس
طائر ينقض على فريسته :

- أنظر أين جرفنا التيار ، لعنة الله عليه . جذف
بقوة .

وابتسم غافريلا :

- غرقت في أحلام اليقظة ؟

- تعبت .

سأل غافريلا ، وهو يرفس البالتين بقدمه :

- لا خوف من القبض علينا مع هاتين البالتين ؟

- لا ، لا تخف . سأسلمها الآن وأحصل على نقودي .

- خمسمائة ؟

- على أقل تقدير .

- يا الله ، يا له من مبلغ ! آه لو حصلت عليه !

افما كنت أغني به أغنية جميلة !

- أغنية قروية ؟

- من دون ريب ! كنت . . .

وحلق غافريلا على جناحي تصوراته . صمت تشيلكاش .

وتهدل شارباه ، وتبلل جانبه الأيمن بموجة ، وغرقت عيناه

وفقدتا بريقهما . وخبا كل ما هو كاسر فيه ، طردته منه
المشاعر المغزية التي تطل من طيات قميصه القدر .
انعطف بالقارب انعطافة حادة ، وقاده ناحية شيء اسود
خارج من الماء .

مرة اخرى توشحت السماء بالسحب ، وراح مطر رقيق
دافئ ينصب مثيراً اصواتاً صغيرة مرحة حين تصطدم قطراته
بالماء .

امر تشيلكاش :

- قف ! اوقف القارب !

واصطدم أنف القارب بجانب سفينة للنقل .
زمرر تشيلكاش ، وهو يعلّق خطاف القارب ببعض
البحال المتدلية عن جانب السفينة :

- هل هم نائمون أم ماذا ، أولئك الشياطين ؟ القوا
سليماً ! ولقد انتظر المطر حتى الآن وراح ينصب ! هاى ،
أيها الأوغاد ! هاى !

بربر احدهم عن متن المركب :

- سيلكاش ؟

- أين السلم ؟

- كاليميرا ، سيلكاش .

- السلم ، لعنة الله عليك ، أيها الشيطان !

- أوه ، يا لمزاجه الفضبان هذه الليلة ! ايلوى !

قال تشيلكاش ، موجها الكلام الى رفيقه :

- تسلق الحبل ، يا غافريلا .

صعدا الى متن المركب حيث كان ثمة ثلاثة اشخاص

ملتحين داكني اللون يتحدثون في حيوية بلغة لثواء وهم
يمدون ابصارهم الى قارب تشيلكاش من فوق حافلة
المركب . وخطا الشخص الرابع الذي لف نفسه بمسوح
صوب تشيلكاش ، وصافحه في صمت ، ثم رمى غافريلا
بنظرة متسائلة .

خاطبه تشيلكاش في اقتضاب :

- هيء النقود للصباح . سامضي واغفر قليلاً .
تعال ، يا غافريلا . أجوعان أنت ؟

قال غافريلا :

- أريد أن أنام .

بعيد خمس دقائق كان يشخر بصوت عال . وجلس
تشيلكاش الى جانبه يجرب على قدمه حذاء تنص آخر ، وهو
يبصق ناحية ، ويصفر أغنية حزينة من بين أسنانه .
وسرعان ما استلقى الى جانب غافريلا وقد وضع يديه تحت
رأسه ، وشارباه يرتقصان .

تمايل المركب على الأمواج ، وطقطق لوح خشبي في
مكان ما فأرسل أنة شاكية ، وراح المطر يضرب متسن
المركب ، والأمواج تلطم جانبيه . كان كل شيء شجياً يذكر
المرء بأغنية تهددهما الأم لوليدها الذي قنطت من رؤيته
سعيداً .

عرى تشيلكاش أسنانه ، ورفع رأسه ، وتطلع
حواليه ، وتمتم شيئاً في سره ، وتمدد من جديد وقد باعد
بين ساقيه فجعلهما تشبهان مقصاً كبيراً .

كان تشيلكاش أول من هبّ من هجته . حدّق فيما حوله مرعوباً وسرعان ما هدا باله ، ونظر الى غافريلا الذي يشخر في صوت سعيد ، وابتسامته منتشرة على صفحة وجهه الطفولي المعافى . وأرسل تشيلكاش زفرة ، وتسلق سلماً ضيقاً من الجبال . كانت فسحة من سماء رصاصية اللون تطلّ من فتحة العنبر . كان الضوء منتشراً ، والنهار كثيباً رطباً مثله في ايام الخريف .

رجع تشيلكاش بعد قرابة ساعتين ، احمر الوجه وشارباه مفتولان في نزق . كان يرتدي حذاء طويلاً متيناً ، وقمصلة ، وسروالاً جلدياً ، وكان يشبه أحد الصيادين لم تكن بزته جديدة ، ولكنها متينة وتناسبه تماماً ، فهي تلف جسده تماماً وتخفي هزاله وتخلع عليه مسحة عسكرية . قال ، وقد رفس غافريلا بقدمه :

- انهض ، ايها الجرو .

وثب غافريلا والنوم يغالبه ، وحملق في تشيلكاش بعينين مذعورتين فكانه لم يعرفه . وانفجر تشيلكاش ضاحكاً .

قال غافريلا مبتسماً ابتسامة عريضة :

- لتبدون عظيمًا ! أشبه بجنتلمان .

- هذا لا يقتضينا كثيراً . ولكنك مخلوع الفؤاد

بصورة لم اعدها من قبل . كم مرة كدت أن تموت البارحة ؟

- لا يمكن ان تلومني . فانا لم أشتري في مثل هذا العمل من قبل . كان يمكن ان أخسر نفسي .
- أتفعل ذلك مرة أخرى ؟
- مرة أخرى ؟ فيما إذا . . . كيف أقول ذلك ؟ ماذا أعطى لقاء ذلك ؟
- إذا فعلت ، فلربما نلت ورقتين جميلتين ؟
- تقصد مائتي روبل ؟ لا بأس . قد أفعل .
- وماذا بشأن خسارة نفسك ؟
- فزمجر غافريلا :
- قد لا أخسرها في نهاية المطاف . قد لا أخسرها وسوف أصبح إنساناً طوال حياتي .
- وضحك تشيلكاش مسروراً :
- حسناً ، فلنكفّ عن المزاح . ولننزل الى الشاطئ .
- وهكذا وجدا نفسيهما في القارب مرة أخرى ، تشيلكاش عند الدفة وغافريلا يجذف . وانتشرت فوقهما سماء متواصلة من سحب رمادية . وكان البحر داكن الاخضرار ، يتلاعب بالقارب في مرج فيرفعه فوق الأمواج الصغيرة بعد ، ويقذفه بقبضات من رذاذ شاحب مالح عند جانبيه . وفي البعيد امامهما يترأى شريط من الرمال الصفراء ، أما وراءهما فيمتد البحر الذي تمزقه عصابات صغيرة من الزبد الأبيض . وكان وراءهما أيضاً مجموعة من السفن - غابة كاملة من الصواري ناحية اليسار ، وفيما وراءهما كتلة أبنية الميناء البيضاء . وجاء طنين أصمّ يتدفق من الميناء على البحر ، مختلطاً بزمجرة الأمواج مشكلاً معها موسيقى رائعة صاخبة . وفوق

هذه الأشياء بأسرها نقاب رقيق من الضباب يفصل الأشياء بعضها عن بعض .

أوضح تشيلكاش ، وهو يومئذ ناحية اليم :

- إيه ، سيكون ثمة ما تجدر رؤيته عند هبوط الليل . فاستوضح غافريلا وهو يشق الأمواج قوياً بمجدافيه :

- العاصفة ؟

وكانت ثيابه قد تبللت برشاش المياه الذي تناثره الريح .

أجاب تشيلكاش :

- أجل .

وتطلع غافريلا إليه متسائلاً .

استفهم أخيراً ، وقد أدرك أن تشيلكاش لا يود المبادرة بالكلام :

- حسناً ، كم أعطوك ؟

قال تشيلكاش ، وهو يسحب من جيبه شيئاً يمدّ به يده إليه :

- أنظر .

انشدهت عيناً غافريلا من رؤية تلك المجموعة من الأوراق النقدية البراقة .

- ولقد طاف في ذهني أنك كذبت عليّ ! ما مقدارها ؟

- خمسمائة وأربعون .

لث غافريلا ، وهو يلاحق حزمة النقود تعود الى الجيب بعينين شرهتين :

- آه ! يا الله ! لو كنت املك مثل هذا المبلغ من المال !

واطلق زفرة حزينة .

صاح تشيلكاش متهللاً :

- أنت وأنا سنسرف في الشراب ، يا صاح ! سنعمرها
سكرة . ستأخذ نصيبك ، فلا تخف . سأعطيك أربعين .
هذا يكفي ، أليس كذلك ؟ أعطيكها للتو إذا شئت .

- حسناً ، سأخذها إذا لم يكن لديك اعتراض .
كان غافريلا يرتعش انتظاراً ، ذلك الانتظار الحاد الذي
كان يحرق صدره .

- آه ، أيها الفزاعة ، أنت ! «سأخذها !» . اليك ،
أرجوك ، خذها . خذها ، من فضلك . فأننا لا أعرف ماذا
أفعل بهذا المبلغ كله . اصنع معي معروفاً وخذ كمية من
بين يدي .

مدّ تشيلكاش يده بكومة من أوراق النقد ، فترك
غافريلا المجذافين وتناولها بأصابع مرتعشة ودسها في
قميصه ، وضيق عينيه وهو يفعل ذلك ، واستنشق
عبات من الهواء وكان شيئاً يحرق له حنجرته . راقبه
تشيلكاش وابتسامة ساخرة تمرح على شفثيه . والتقط
غافريلا المجذافين من جديد وانهمك في التجذيف بعصبية
وسرعة ، مطرقاً ببصره ، مثل رجل أصابه الرعب منذ
لحظات . وكان كتفاه وأذناه عرضة للارتعاش .

قال تشيلكاش متفكراً :

- أنت طماع شره . وهذا غير لطيف . لكن ، ماذا

يمكن أن يتوقع المرء ؟ فانت فلاح .
 أوضع غافريلا في انفجارية مفاجئة من الانفعال :
 - يستطيع المرء أن يفعل أي شيء بالمال !
 واسترسل يتحدث في عجلة وكلمات متقطعة شارحاً
 افكاره ، ويمسك بالكلمات وهي طائفة ، راسماً التناقض في
 حياة القرية مع المال ومن دونه . شرف ، ورخاء ، وسرور !
 أصفى اليه تشيلكاش في انتباه ، وقد تجهمت
 ملامحه ، واستضاعت عيناه من جراء التفكير . وكان يكشر
 بين حين وحين عن ابتسامة راضية .
 قطع حديث غافريلا المتواصل :
 - هذان نحن وصلنا !
 وحملت القارب موجة رفعته فوق الرمال .
 - حسناً ، هذه هي النهاية . ينبغي أن نجرّ القارب
 مسافة كافية كيلا يجرفه الموج من جديد . سيحضر بعض
 الناس سعيًا وراءه . والآن وداعاً . نحن نبعد عن المدينة
 قرابة عشرة فراسخ . هل أنت عائد إليها ؟
 كان وجه تشيلكاش يشرق بابتسامة محتالة طيبة وكأنه
 يعتزم أمراً يبعث الغبطة في نفسه ويفاجئ به غافريلا .
 دسّ يده في جيبه وخشخش بالأوراق النقدية فيه .
 غصّ غافريلا مرتعشاً :
 - لا . . . لن أذهب ، أنا . . . أنا . . .
 وحقق تشيلكاش اليه . قال :
 - ما بالك ؟
 - لا شيء .

واحمر* وجه غافريلا ، ثم شحب ، وجعل يتردد في مكانه وكأنه ينتوي الوثوب على تشيلكاش او القيام بعمل شاق لا يقاوم .

ارتبك تشيلكاش من اضطراب الفتى . فانتظر بنتيجة ذلك الاضطراب .

انفجر غافريلا ضاحكاً ضحكة أشبه بالنحيب . وتدل رأسه كيلا يلمح تشيلكاش التعبير المرتسم على وجهه ، ولكنه رأى اذنيه تحمران وتبيضان .

قال تشيلكاش ملوحاً بيده في اشمزاز :

- اذهب الى الجحيم . هل وقعت في غرامي ، أم ماذا ؟ ترتبك مثل فتاة . أو ربما لا تستطيع فراقي ؟ تكلم ، أيها الموهون ، والا انصرفت في طريقي .

صرخ غافريلا :

- تنصرف ؟

ارتعش الساحل المقفر من صرخته ، وبدا ان مويجات الرمال الصفر التي يحملها تدفق الأمواج ارتجت . وانتفض تشيلكاش نفسه . واندفع غافريلا على غير انتظار ناحيته وارتمى عند قدميه ، واحتضنهما بقوة وشدهما اليه . ترنج تشيلكاش وجلس على الرمال في ثقل . صك على أسنانه ، ولوَّح ذراعه الطويلة التي ضم قبضتها بقسوة . ولكن توسلات غافريلا جمّدت تلك الضربة ، وكانت تنطلق في همسات متضرعة :

- أعطني هذه النقود ، أيها الشاب الطيب ! محبة بالمسيح أعطنيها . فيم تحتاج إليها ؟ أنظر ، في ليلة واحدة

لا غير . . . في ليلة واحدة ! وهي تتطلب مني سنوات
وسنوات . اعطنيها . وسأصلي من أجلك ، حياتي بطولها ،
في ثلاث كنائس ، في سبيل خلاص روحك . أنت ستلقي بها
الى الرياح ، اما انا فسأضعها في الأرض . اعطنيها ! فما هي
بالنسبة اليك ؟ لقد جاءتك في يسر . ليلة واحدة ، وتغدو
ثرياً . فأصنع معروفاً في حياتك مرة . وبعد هذا كلسه ،
فانت روح هالكة . وليس أمامك شيء . اما انا . . .
أوه ، فماذا لا أفعله بها ! اعطنيها !

كان تشيلكاش - المرتعب ، المصعوق ، الحائق -
جالساً على الرمل يستند بمرفقيه حيث القى ظهره الى
الخلف . كان جالساً لا ينطق بحرف ، وعيناه تحدقان في
هذا الشاب الذي ضغط رأسه على ركبتيه واسترسل يزفر
توسلاته . وثب تشيلكاش أخيراً على قدميه ، ودس يده
في جيبه والقى الأوراق النقدية الى غافريلا .
صاح ، مرتجفاً انفعالاً ، وراثاً وبغضاً ، لهذا العبد
الشهر :

- اليك ، فالتهمها !

شعر بالبطولة حين رماه بالنقود .

- كنت سأعطيك مزيداً منها على أية حال . شعرت
بالرقة الباردة وأنا أفكر في قريتي . قلت في نفسي : لسوف
أساعد الشاب . ولكنني انتظرت لأرى ما اذا كنت ستسألني
ذلك أم لا . ولقد سألت ، أنت أيها المخنث ، أيها
المستعطي ، أنت ! أمعقول أن تعذب نفسك على هذا النحر
في سبيل النقود ؟ أحمق . أنتم شياطين جشعة . لا عزة
لكم . تبيعون أنفسكم لقاء خمسة كوبيكات .

زق غافريلا ، متلويًا فرحًا وهو يخبي النقود داخل قميصه :

- فليحرسنك المسيح ! ما هذا الذي حصلت عليه ؟
آه ، غدوت الآن ثريًا ! فلتكن مباركا ، أيها الصديق . لن
أنساك . أبداً . سأجعل زوجتي وأولادي يصلون من أجلك
أيضاً .

وفيما تشيلكاش يصغي الى هذه التضرعات ويرنو الى
وجه غافريلا المشرق المشوّ بهذه البرحاء من الجشع وضع
له ، هو اللص السكير ، انه لن ينحدر أبداً الى هذا
الدرك من الطمع والضعّة . أبداً ، أبداً ! وهذان التفكير
والشعور ، اللذان افعماه إحساساً بحريته ، جعلاه يتباطأ
عن الرحيل من هنالك ، عن غافريلا ، على شاطئ البحر .
صاح غافريلا ، مختطفاً يد تشيلكاش ضاغطاً اياها على
خده :

- لقد أهديت إلى غمرة من سعادة .
كشر تشيلكاش عن أسنانه مثل ذئب ، ولكنه لم يفه
بحرف .

واسترسل غافريلا يقول :

-لقد فكرت أنا فيما فعلت الآن ! في طريقنا الى هنا
قلت في نفسي . . . لسوف أضربه . . . أنت ، هذا ما فكرت
فيه - على رأسه . . . بالمجذاف . . . بانغ ! . . . وخذ
النقود . . . واطرحه - أنت ، هذا ما فكرت فيه - من فوق
حافة القارب . ومن يفترقه ؟ واذا عثروا على جثته . . . ليس
هنالك من يجشم نفسه عناء التفتيش عمّن فعل ذلك وكيف

فعله ، وليس هنالك من يحتاج اليه . ليس هنالك من يتقصى عنه .

زمجر تشيلكاش ، وقد قبض على غافريلا من عنقه :
- ردّ لي النقود !

حاول غافريلا التخلص مرة ، مرتين ، ولكن ذراع تشيلكاش التفت حوله كالأفعى . وسمع صوت تمزيق قميص ، و . . . هذا غافريلا ملقى على ظهره في الرمال ، وعيناه ناتشتان من رأسه ، وأصابه تشبث في الهواء ، وقدماه ترفسان في يأس . وانتصب تشيلكاش فوقه ، نحيلاً ، فارغ العود ، أشبه بالصقر ، أسنانه عارية ، وشارباه يرتعدان في عصبية في وجهه المتعظم الصارم . أبداً في حياته لم تصبه الاذية بمثل هذه الوحشية ، وأبداً لم يغضب على هذا الغرار .
ضحك قائلاً :

- حسناً ، هل أنت سعيد الآن ؟

واستدار على عقبيه وانطلق ناحية المدينة . ولم يكذب يخطو خمس خطوات حتى قوَّس غافريلا نفسه مثل القط ، ووثب على قدميه ، ونشر ذراعيه في الهواء وقذفه بحجر كبير .
- اليك هذا !

أطلق تشيلكاش زمجرة ، ووضع يديه على رأسه ، وترنح الى الأمام ، واستدار الى غافريلا ، وسقط ووجهه الى الرمل . تجمّد غافريلا رعباً . حرك تشيلكاش إحدى ساقيه ، وحاول أن يرفع رأسه ، وتمطى مرتعشاً مثل وتر مشدود . وركض غافريلا ، ركض في اتجاه المدى الأسود حيث سحابة

مشعشة سوداء تتدلى فوق السهب المغلف بالضباب .
وزمزت الأمواج وهي تنطرح على الرمال ، واختلطت بهسا
لحظة من الزمن ، وتقهقرت متراجعة من جديد . وهسّ الزبد
وامتلا الهواء رذاذاً .

هطل المطر . كان أول الأمر طفيفاً في قطرات متفرقة ،
وسرعان ما انقلب وإبلاً ينصب من السماء في جداول رقيقة .
وحاكت هذه الجداول شبكة من الخيوط المائية غلّقت امتداد
السهب وانفساح اليم . واختفى غافريلا وراءها . ومرّ زمن
طويل لم تكن العين تقع فيه على شيء سوى المطر وهيئة
طويلة لرجل يضطجع على الرمال عند حافة البحر . ثم جاء
غافريلا راكضاً كالطير خارجاً من قلب الظلمة . حين وصل
الى تشيليكاش تهاوى على ركبتيه الى جانبه وحاول أن
يرفعه . ولمست يده شيئاً حاراً لزجاً أحمر اللون . ارتعش ،
وتراجع الى الوراء وقد علت سيماء ملامح وحشية .
همس يسكب في أذن تشيليكاش بصوت طفى على صخب
المطر :

- انهض ، يا أخ ، انهض !

فتح تشيليكاش عينيه ، ودفع غافريلا عنه ، وهسّ في
صوت خشن :

- انصرف عني .

همس غافريلا مرتجفاً ، وهو يقبل يد تشيليكاش :

- يا أخ ! اصفح عني ! أغواني الشيطان .

- انصرف . أتركني .

- اغسل هذه الخطيئة عن روحي . اغفر لي ، يا أخ .

صاح تشيلكاش فجأة ، وقد استوى على الرمال جالسا :
- إذهب ! إذهب عني ! إذهب الى الجحيم !
كان وجهه شاحب اللون منفعلا غضبا ، وعيناه غائمتين
تنطبقان وكأنه ناعس .

- ماذا تريد بعد ؟ لقد فعلت ما أردت أن تفعل . إذهب
عني . انصرف !

حاول أن يرفس غافريلا الذي صرعه الحزن ، ولكنه عجز
عن ذلك ، وكاد أن ينطرح مرة أخرى لو لم يحضن غافريلا
كتفيه بذراعه . وكان وجه تشيلكاش في مستوى وجه
غافريلا . وكان الوجهان شاحبين يبعثان على الرهبة .
- تفو !

وبصق تشيلكاش في عيني مساعده المفتوحتين على
سعة .

مسح غافريلا وجهه في وداعة بكم قميصه ، وجار
هامسا :

- إفعل بي ما تشاء . لن أنطق بكلمة واحدة . اغفر
لي باسم المسيح .

صاح تشيلكاش في مرارة ، وهو يدفع يده داخل
قمصته ويقتطع قطعة من قميصه عصب بها رأسه في
صمت ، وهو يطحن أسنانه بين آونة وأخرى :

- يا للحنالة ! . . لست قادرا حتى على جريمة ! . .
وسأل من خلال أسنانه :

- هل أخذت النقود ؟

- لم أخذها ، يا أخ . ولن أخذها . أنا لا أريدها .
إنها لا تجلب الا الشر .

دسَ تشيلكاش يده في جيب قمصته ، وأخرج رزمة النقود ، وسحب منها ورقة من فئة المائة روبل أعادها الى جيبه ، والقى بالبقية الى غافريلا .

- خذها وانصرف .

- لن افعل ، يا أخ . لا اقدر . اصفح عما فعلت .

زمر تشيلكاش ، وهو يقلب عينيه بصورة رهيبة :

- خذها اقول لك .

- اصفح عني . لا استطيع ان آخذها إن لم تصفح عني .

قال غافريلا ذلك في خنوع ، وهوى عند قدمي تشيلكاش على الرمل الغارق في ماء المطر .

نبر تشيلكاش في قناعة :

- هذا كذب . لسوف تأخذها ، أيها العثالة .

ورفع رأس مرافقه في الهواء ، ودسَ النقود تحت أنفه :

- خذها . خذها . أنت لم تشتغل عبثاً . لا تخف .

خذها . ولا تخجل لأنك قاربت ان تقتل إنساناً . لن يقبض عليك أحد لقتلك شخصاً من امثالي . بل لسوف يشكرونك اذا عرفوا ذلك . إليك ، خذها .

ولما رأى غافريلا ان تشيلكاش يضحك انشرح صدره .

فقبض على النقود .

تضرع داعم العينين :

- هل ستغفر لي ، يا أخ ؟ أفلن تفعل ذلك من أجلي ؟

أجاب تشيلكاش بمثل نبرته ، وهو ينهض وينتصب

متأرجحاً على قدميه :

- يا صديقي المحبوب ! اغفر لك ماذا ؟ ليس هنالك

ما يستدعي الغفران . أنت قنصتني اليوم ، وأنا أقنصك
غداً .

تنهد غافريلا في حزن ، وهو يهز رأسه :
- يا أخ ، يا أخ .

انتصب تشيلكاش أمامه تتخايل على صفحة وجهه
ابتسامة غريبة . وأشبعت الخرقه المشدودة على رأسه ، وقد
ازداد احمرارها تدريجياً ، طربوشاً تركياً .

انقلب المطر سيلاً . وأرسل البحر زمجرة خفيضة
وفاضت الأمواج على الشاطئ في وحشية .
واعتصم الرجلان بالصمت .

قال تشيلكاش ساخراً ، وهو يستدير للذهاب :
- حسناً ، وداعاً .

وترنج ، وارتجفت ساقاه ، وأمسك رأسه كمن خاف أن
يفقده .

استرحم غافريلا مرة أخرى :
- سامحني ، يا أخ .

اجاب تشيلكاش في برودة ، وقد سار في طريقه :
- لا بأس .

سار مترنحاً ، ممسكاً رأسه بيده اليسرى ، شادا باليمنى
شاربه الأسود في لطف .

وقف غافريلا يراقبه بأنظاره الى أن اختفى في المطر
المتهاطل كأفواه القرب ، مغلفاً السهب بقتام لا يغرق ،
رصاصي كالفلاذ .

وخلع بعدها قبعته المنداة ، ورسم اشارة الصليب على

صدره ، وحدق في النقود في يده ، وزفر زفرة ارتياح عميقة ، وخبأ النقود في قميصه ، ومشى واثق الخطوة على طول الشاطئ في الناحية المقابلة للناحية التي اختفى فيها تشيلكاش .

أعول البحر وهو يقذف موجاته الكبيرة على الرمال محطماً إياها إلى زبد ورشاش . وراح المطر يصفع المياه والرمال . . . وزارت الريح . . . وامتلا الهواء عويلاً وزئيراً وخرخرة . . . وحجب المطر رؤية البحر والسماء .

وما أسرع أن غسل المطر ورشاش الأمواج تلك اللطخة الحمراء على الرمال حيث اضطجع تشيلكاش ، ومحا آثار قدميه ، ومحا آثار قدمي الشاب على طول الشاطئ . ولم يبق على ذلك الشاطئ المقفر شيء يشهد على تلك المأساة الصغيرة التي قام بتمثيلها ذاك الرجلان .

مرة ، في الخريف

بلغت بي الامور ، ذات خريف ، إلى حال عسيرة جداً لا تسر نفساً ولا ترضى قلباً . فقد وصلت الى المدينة التي لا أعرف لي فيها صاحباً او خديناً ، وكنت معدماً ، لا أملك قرشاً في جيبتي ولا مأوى أطوى فيه ليلتي .

جعلت أجوب طرقات المدينة ، وليس على من الثياب إلا اقلتها ، بعد ان بعث في ايامي الأولى جميع أجزاء كسوتي التي لا اخجل من التجوال في الطرقات العامة بدونها واسرعت الى ضاحية تدعى «أوستيا» حيث ارسفة السفن البخارية ومراسيها - وهي حي يموج ويضطرب أيام موسم الملاحة بالزعيق ، والصراخ ، والحياة الشاقة المتعبة . اما في تلك الليلة فقد خيم عليه السكون وهرب منه الناس . . فقد كنا في اخريات شهر تشرين الاول .

رحت أجرؤ قدمي جرأ ، وأديم النظر الى الرمال الرطبة متمعناً ، تحدوني الرغبة في استكشاف فضلات طعام أسدء بها صراخ الجوع في معدتي . وطفقت أطوف هائماً بين الأبنية والمخازن المهجورة ، وأنا أستروح خيال وجبة كافية التمهأ . إن ذلك يكون رائعاً وعظيماً اذن !

ان جوع الفكر في حالنا الحاضرة للثقافة والمدنية لأسرع شعباً واكتفاء من جوع الجسد . فانت تهيم في الشوارع على وجهك ، تحيط بك أبنية ليست على شيء من رداءة المنظر من الخارج - وتستطيع ان تقول دون خوف العثار انها على شيء من حسن الأثاث واناقلته في الداخل ، فيشير منظرها في

نفسك ، احيائاً ، أفكاراً قوية منمشة عن فن البناء ، وقواعد الصحة ، وعدة موضوعات أخرى حكيمة جلييلة القيمة . وقد تصادف عدداً من الناس يرتدون ثياباً نظيفة دافئة ، وهم جميعاً مهذبون ، رفيعو الأخلاق ، يستديرون عنك في خلق ولباقة ، صارفين النظر في اشمئزاز عن رؤية واقع وجودك المؤلم وحقيقة حالك الفاجعة الاليمة . حسنا ، حسنا ! إن فكر الرجل الجوعان لهو ، على الدوام ، اخصب من فكر الرجل الشبعان ، واكثر ثراء . وبذلك تكون في حال تستطيع ان تستدر منها نتائج عظيمة هي في صالح الانسان حسن التغذية .

... كان المساء يقترب على مهل ، والمطر يتساقط في غزارة ، ورياح الشمال تهب هوجاء ، وهي تصفر خلال المظلات والدكاكين الفارغة ، وتعصف بنوافذ الحانات والفنادق الخاوية المقفرة ، وتصفع موجبات النهر فتحولها الى زبد أبيض اللون ، فيثور رذاذها صاخبا على الشاطئ الرمل ، وترفع اعرافها البيضاء عاليا في الفضاء ، متلاحقة في انطلاقها الى المدى المظلم ، قافزة في اندفاع وتهور بعضها فوق اكتاف بعض ، وكان النهر يحس باقتراب الشتاء ، فيعدو في غبطة وطيش هاربا من اصفاد الجليد واغلاله تحملها اليه رياح الشمال في تلك الليلة ذاتها . وكانت السماء ثقيلة سوداء ، تنهمر منها قطرات متلاحقة من المطر تكاد الا يحيط النظر بها . وكان يضاعف من كآبة الطبيعة المحدقة بي من كل جانب بعض اشجار الصفصاف المتكسرة

المشوّمة ، وقارب ربط الى جذوعها قلبت الرياح عاليه
سافله .

كان القارب الصغير المقلوب بجوانبه المهشمة ،
والشجرات البائسة الهرمة وهي تغش في مهب الريح
الباردة . . . كان كل ما يحيط بي مقفراً ، قاحلاً ، مائتاً ،
والسما تسحّ دموعاً لا تجفّ او تنضب . كان كل ما يحيط
بي هو يأس وكآبة . . فانخيل ان الموت بسط سلطانه
على جميع الكائنات ، ما عداي ، خلفني وحيداً بين الأحياء ،
ينتظرني موت بارد انا الآخر .

كنت يومها في السابعة عشرة من عمري . . في ربيع الحياة
واروع مراحلها .

رحت أسير على طول الشاطئ الرملي الرطب البارد ،
واسناني المرتجفة تفرّد على شرف البرد والجوع . . واذا بي
أبصر فجأة ، وانا اتلمّس في عناية كبيرة شيئاً ازدرده خلف
احد الحوائت الفارغة ، شبحاً جائياً على ركبتيه ، يرتدي
ثياباً نسائية مبتلة ملتصقة بكتفيه المحدودبتين . جعلت
أراقب ماذا تفعل ، وقد وقفت خلفها أنظر إليها من فوق ،
وهي تحفر اخدوداً في الرمل بيديها - تحفره عميقاً تحت
دكان منفردة . . وجثوت على الأرض قريباً منها ، وسألت :
- فيم تفعلين هذا ؟

بعثت صرخة صغيرة حادة ، وانتصبت بسرعة على
قدميها ، تحملق فيّ بعينين رماديتين واسعتين تطفحان
رعباً ، فإذا هي فتاة تمانلني عمراً ، ذات وجه صبوح
مزخرف ، لسوء الحظ ، بثلاث علامات زرقاء كبيرة تشوه

خلقتها ، وإن كان في توزيعها تناسق جميل إذا نظر المرء إليها في جملتها . فقد كانت ثلاثتها في حجم واحد ، تقع اثنتان منها تحت العينين ، والثالثة - وهي تكبرهما قليلاً - على الجبين فوق جسر الأنف تماماً . لا ريبة أن ذلك التناسق من عمل فنان عليم بتشويه المحيا البشري .

رنت إليّ الفتاة طويلاً ، وأخذت الخوف يتلاشى من عينيها تدريجياً . نفضت الرمال عن يديها ، وأصلحت غطاء رأسها القطني ، وتكوّرت على الرمل ثانية ، وقالت :

- أخالك ، أنت أيضاً ، تلتمس شيئاً تطعمه . هيا إذن ، واحفر الأرض ، فقد تعبت يداي . اظن أن هنالك (وأشارت برأسها إلى الحانوت) شيئاً من الخبز . . فهذه الدكان لا تبرح تعمل .

شرعت احفر ، وهي ترمقني بنظرها ، ثم جلست بالقرب مني ، وطفقت تساعدني .

عملنا في صمت وسكينة . . لست أدري الآن ما إذا كنت فكّرت ، لحظتئذ ، في قانون العقوبات ، أو الفضيلة ، أو الملكية الخاصة ، أو أي من سائر تلك الأشياء التي ينبغي على الإنسان ، مثلما يعتقد كثيرون من الناس المعجربين ، أن يفكر فيها في كل لحظة من لحظات حياته . ويجب أن اعترف ، على أية حال ، إذا أردت ألا أؤجانب الحقيقة كثيراً ، أنني استغرقت في حفر الأرض حتى نسيت كل شيء تقريباً ، غير شيء واحد ، ألا وهو : ما عسى أن يوجد داخل هذا الحانوت . . .

وتقدّم الليل . وازداد الضباب الرمادي البارد المتعفن

كثافة حولنا ، وطفقت الأمواج تزمجر بأصوات جوفاء مولولة
أكثر من قبل ، والمطر ينهال على جوانب الحانوت أشدّ
عنفاً وأكثر تواتراً . وفي مكان ما ، شرع الحارس الليلي
يقرقع بعصاه الغليظة ، فقالت رفيقتي في صوت خفيض :
- أليس له قاع ، يا ترى ؟

لم افهم ما قصدت ، فاعتصمت بالصمت . ولكنها
استأنفت تقول :

- لقد سألت ما إذا كان لهذا الحانوت قاع أم لا . فان
كان له قاع ، فسنحاول تحطيمه عبثاً . ها نحن نحفر اخدوداً ،
وربما صادفتنا آخر عوارض خشبية قاسية . فكيف
نستطيع ان نخلعها ؟ يحسن بنا ان نخلع القفل ، فهو قفل
صغير .

قليلاً ما تزور الافكار القيّمة عقول النساء ؛ ولكنها
تزورهنّ فعلاً في بعض الاحيان كما ترون . لقد كنت اقدّر
الافكار القيّمة حق قدرها طوال حياتي ، واحاول الانتفاع بها
على الدوام حتى الدرجة القصوى .

وجدت القفل ، فجذبتّه في عنف ، فانتزعته برمته .
وانحنت شريكتي سريعاً ، وتلوّث مثل افعى ، وانسابت الى
الدكان من خلال غطائها مربع الزوايا ، الفاغر فاه . وهتفت
بي من هناك في صوت هامس مستحسنة :

- لكّه درك من باسل مقدم ا

ان «كسرة» صغيرة من مديح تمنحها المرأة اعزّ على
قلبي ، في هذه الايام ، من أي خطاب حماسي يلقي به رجل
مثلي ، وإن كان أكثر بلاغة وبياناً من جميع الخطباء ،

القدماء والمحدثين معاً . ومهما يكن من امر ، فقد كنت وقتذاك
أقل استعداداً للطف والرقّة مني الآن . . سألت رفيقتي في
فظة وقلق ولهفة دون أن ألقى إلى مديحها أدنى انتباه :
- اعثرت على شيء ؟

أخذت تعدّد اكتشافاتها في نغمة مطردة رتيبة :

- سلة ملأى بالزجاجات . . أكياس فارغة . . مظلة

يد . . سطل من الحديد . .

لم يكن ثمة ما يؤكل بين جميع هذه الأشياء ، فشعرت
بألمالي تضمرّ وتلاشى . . ولكنها هتفت على حين غرة في
نشاط وحمية :

- آه ! ها هو ذا !

- ماذا ؟

- خبز . . رغيف كامل . . ولكنه مبلول . خذه !

وطار رغيف ، وسقط بالقرب من قدمي* ، ثم سقطت
زميلتي الشجاعة وراءه . . كنت قد نهشت منه قطعة صغيرة
حشوت بها فمي ، وشرعت امضغها .

- أعطني شيئاً منه . لا يجب أن تبقى هنا . لكن ، أين

نذهب ؟ - تلفتت حواليتها متسائلة . كان كل شيء مظلماً ،
رطباً ، عاصفاً . .

- انظر ! هنالك قارب صغير مقلوب . . فلنمضين*

اليه .

- هيا بنا !

انطلقنا ، نلتهم غنيمتنا ونحن نسير ، ونحشو حلقنا
بقطع صغيرة منه . . واشتد انهمار المطر ، وارتفعت إلينا

زمجرة النهر ونحن نقرب منه . ومن مكان ما تردد صغير
متطاوّل ساخر - تماماً كما لو ان عظيماً ، لا يخاف ، يهزأ
بجميع المؤسسات الارضية ، وبهذه الليلة الخريفية الهائلة ،
ونحن بطلاها . . . وجعل قلبي يخفق من ذلك الصغير حقناً
والماً ، ولكنني تابعت التهام الخبز في شره طماع جعل الفتاة ،
السائرة عن شمالي ، تجاريني فيه دون تقصير .
سألتها ، ولا أدري لماذا سألتها :

- ما اسمك ؟

اجابت في اقتضاب ، وهي تمضغ الخبز في صوت
مسموع :

- ناتاشا .

حملت فيها ، فاحسست قلبي يتمزق بين ضلوعي .
وعدت احملي في الضباب المنتشر أمامي ، فتخيلت ان الوجه
الذي يخاصم مصيري يتسم لي في غموض وبرود عظيمين .
... كان المطر يضرب اخشاب القارب الصغير في غير
رحمة ، فتثير قرعته الناعمة في النفس افكاراً حزينة كئيبة ،
والرياح تصفر وهي تمزق من شقوقه المهشمة فتحتك بعض
شظايا الخشب المقتلعة بعضها ببعض ، فتصدر عنها
اصوات مزعجة مضجرة ، وامواج النهر تردد الشاطئ
فتغمره برذاذها ، وتبعث اصداً رتيبة بانسة ، وكأنها تروي
قصة كئيبة ثقيلة الظل تضايقها ، فتود ان تهرب منها ،
مرغمة على التحدث عنها . واختلط صوت المطر بطنين رذاذ
الامواج ، وتصاعد فوق القارب المقلوب شيء اشبه بتنهيده
طويلة ارسلتها الارض من فرط ما آذتها وارهقتها تلك

التبدلات الابدية : من ضياء الصيف وحرارته ، الى برودة الخريف المضرب ورطوبته ، وراحت الريح تهب بلا انقطاع على الشاطئ المهجور المقفر ، وعلى النهر المزبد المرذ - وهي تنشد اغانيها الحزينة . . .

لم تكن نجد الراحة في مجلسنا تحت القارب ، فهو ضيق رطب ، تسح من شقوق قعره قطرات رقيقة من المطر ، وتنفض الريح من خلال جدرانه المثقوبة . . . جلسنا صامتين نرتجف من شدة البرد . . . وكنت أريد ان انام ، كما اذكر . استندت ناتاشا بظهرها الى جانب القارب ، وطوت جسدها حتى اشبهت طابة صغيرة ، وعانقت ركبتيها بيديها ، واعتمدت ذقنها عليهما ، وراحت تشخص الى النهر في شراسة بعينين مفتوحتين متسعيتين ظهرتا على رقعة وجهها الشاحب بين تلك العلامات الزرقاء كأنهما جوفان هائلان . ظلت ساكنة جامدة ، فراح السكون والجمود يبعثان في ، شيئاً فشيئاً ، رعباً هائلاً من جارتي . اردت ان اسوقها الى الحديث ، ولم أدر كيف افعل .

ابتدأت هي الحديث ، فقالت في وضوح ، وذهور ، ونبرة قناعة عميقة راسخة :

- ما اقسى هذه الحياة واشقها !

لم يكن هذا شكوى او تظلماً ، بل كان في تلك الكلمات شيء كثير من اللامبالاة . ان هذه النفس البسيطة تفكر حسب ادراكها وفهمها - تفكر حتى تنتهي الى نتيجة تعرب عنها في صوت مسموع ، نتيجة لا يستطيع لها دحساً خشية

ان اناقض نفسي . فبقيت معتصماً بالصمت ، وتابعت هي صمتها وجمودها كمن لم يلحظ وجودي ابداً .
استأنفت ناتاشا تقول بعد قليل ، في هدوء وتأمل ،
ودون أي أثر للشكوى هذه المرة :
- احسن لي ان اموت !

كان واضحاً ان تلك المخلوقة ، في غضون تفكيرها عن الحياة ، انما تحاول ان تنظر في حالها وحدها ، وقد انتهت الى الاقتناع اخيراً بانها لا تملك ، كي تصون نفسها من سخریات الحياة ، إلا ان «تموت» بكل بساطة - هكذا نستعمل تعبيرها ذاته .

أثار وضوح تلك الخطة من التفكير في نفسي المأ وحزناً يفوقان الوصف ، وشعرت انني سأبكي لا محالة اذا ظللت معتصماً بصمتي اكثر من ذلك . . وان البكاء في حضرة امرأة عار عظيم من دون ريب ، بخاصة اذا كانت ، هي نفسها ، لا تذرف الدموع .

عزمت على التحدث اليها ، فسألتها :

- ومن الذي نالك بهذا الأذى والعناء ؟

كنت عاجزاً عن التفكير في تلك اللحظة في شيء آخر اكثر لطفاً وارق احساساً .

اجابت في نغمة عالية رتيبة :

- باشكا فعل ذلك ، ومن غيره .

- ومن يكون باشكا ؟

ردت تقول :

- عشيقتي . . وهو خباز .

- اضربك كثيراً ؟

قالت :

- يضربني كلما سكر . . وما اكثر ما يسكر !

استدارت اليّ بغتة ، وشرعت تتحدث عن نفسها ، وعن باشكا ، وعن علاقاتهما المتبادلة . انها «من الفتيات اللواتي . . .» ، اما هو فكان خبازاً أحمر الشاربين . يجيد العزف على الهارمونيك ، جاء لرؤيتها فاستحلته . وكان فتىً ماجناً ، يرتدي ثياباً حلوة نظيفة . . وكان يملك حلة تساوي خمسة عشر روبلاً ، ولحذائه شريط حريري . فوقعها ذلك كله اسيرة حبه ، واصبح «مديناً» لها منذ ذلك الحين ، وصار همه ان يبتز منها المال الذي كان الضيوف الآخرون ينقدونها إياه لشراء الحلويات ، فيسكر به ، ويروح يضربها . لكن هذا كله يسير لو لم يبدأ «يركض» وراء فتيات أخريات امام سمعها وبصرها .

- وبعد ، اليست هذه اهانة ؟ أنا لست أسوأ من الأخريات . وهذا يعني انه يهزأ بي ، ذلك الشيطان الأسود . وقد استأذنت معلمتي ، امس الاول في فرصة صغيرة ، ومضيت اليه . وهناك رايت دونكا جالسة تساقيه الخمرة ويساقيها . كان سكران لا يعي شيئاً . قلت له : - «أوه ، انت ، أيها الوغد ، انت !» . قام اليّ يضربني ويركلني ، ويجرني من شعري . . ولكن هذا لا يعد شيئاً بالنسبة الى ما حدث بعد ذلك . فقد مزق الثياب التي ارتديها وتركني على ما انا عليه الآن ! كيف استطيع ان اظهر هكذا امام معلمتي ؟ لقد مزق كمل شيء . . فستانى وبلوزتي ايضاً - وكانت

جديدة .ومزق وشاحي عن رأسي . آه ، يا الهي ! ماذا
سيحلّ بي بعد الآن ؟ - وانفجرت تبكي في صوت متعب
مفجوع .

وزمجرت الريح وازدادت لسعاً واصطخاباً . وعادت
اسناني ترقص الى أعلى وأسفل ، فاقتربت رفيقتي تلتصق بي
محتمية من لسع البرودة ، فاستطعت ان ارى الى بريق عينيها
وسط الظلمة المتكاثفة .

- تباً لكم أيها الرجال من اشقياء انزال ! لأتمنى ان
احرقكم جميعاً في فرن ملتهب ، وان امزقكم قطعاً صغيرة لا
تحصى ولا تعد . وان رأيت احدكم يموت بصقت في وجهه ،
ولن ارحمه البتة . تباً لكم من سفلة منحطين ! فأنتم
تتملقون ، وتداهنون ، وترعصون اذنانكم كالكلاب المتذلة ،
فمنعكم نحن الغيبات انفسنا ، واذا كل شيء ينتهي من
احلامنا وآمالنا ، ونصبح لديكم نفاية لا قيمة لها ! وسرعان
ما ترفضوننا باقدامكم وتدوسوننا . . يا لكم من عاطلين
اشقياء !

جعلت تلعننا وتشتمننا كيفما يحلو لها ، ولكني لم
استطع ان اتبين في لعناتها شيئاً من عنف ، او ضغينة ،
او خبث على هؤلاء «العاطلين الاشقياء» . لم تكن نغمة كلامها
تنسجم قط مع موضوع حديثها . فقد كانت هادئة . وكان
سلم صوتها الموسيقي ضعيفاً فقيراً بصورة عجيبة .

وقد أثر بي ذلك تأثيراً يفوق في عنفه تأثير اكثر كتب
التشاؤم بلاغة وقوة اقناع ، وقد قرأت من هذه الكتب عدداً
لا يحصى . . وما برحت اقرؤها حتى يومي هذا . وسبب

ذلك ، كما ترون ، أن نزع رجل يموت هو أكثر طبيعية او
عنفاً من ادقّ ما كتب في وصف الموت وتصويره .

وقد أحسست بالتعاسة والبؤس فعلاً من جراء البرد ،
أكثر مما أحسست في كلمات رفيقتي . فرحت أزمجر في لطف
وأنا ألعن أسناني طحناً .

في تلك اللحظة تقريباً شعرت بساعدين صغيرين يلتفان
حولي ، مسّ أحدهما عنقي ، وارتعى الآخر فوق وجهي .
وتمتم في الوقت ذاته صوت قلق ، لطيف ، حنون ، مستعلماً :
- ما الذي يؤلمك ؟

كدت اعتقد أن الذي طرح السؤال هو انسان آخر غير
ناتاشا التي أعلنت منذ لحظات أن جميع الرجال أوغاد ،
خونة ، لصوص . . وتمنّت إبادتهم عن وجه البسيطة .
ولكنها طفقت هي نفسها تحدثني في عجلة :

- ماذا يؤلمك ؟ قل لي ! أبردان أنت ؟ امتجّدت أنت ؟
آه ، يا لك من رجل تقبّع ملتفّاً بصمتك وسكونك مثل بومة
صغيرة ! كان يجب أن تخبرني أنك بردان . . . تعال . . .
اضطجع على الأرض . . تمدّد جيداً ، وساضطجع أنا . . هنا !
كيف ترى هذا ؟ والآن ، ضع ذراعيك حول جسدي . ضمنني
جيداً ! كيف ترى هذا ؟ سوف تشعر الآن بالدفء من
قريب . . . وعند ذلك اضطجع ظهراً لظهر . . . وستنقضي
الليل سريماً . هل شربت من الخمرة مقداراً كبيراً ؟ لقد
طردوك من عملك ، اليس كذلك ؟ لا بأس عليك !
واستني ، وردّت اليّ شجاعتي .

إني لألعن الآن نفسي ثلاثاً ! كم سخرية بدت لي في ذلك

الحدث الصغير الوحيد ! تصوروا قليلاً ! هذا انا منهمك في ذلك الوقت بالضبط في مصير الانسانية بأسرها ، افكر في تنظيم جديد للهيئة الاجتماعية ، وفي الثورات السياسية ، واقرأ جميع انواع الكتب الحكيمة للغاية التي كان مؤلفوها انفسهم عاجزين عن قياس عمقها بعيد المدى - أقول إنني ، في ذلك الوقت بالذات ، كنت احاول ان اجعل من نفسي «قوة اجتماعية فعالة ذات نفوذ» . وهذه امرأة تدفئني الآن بجسدها ، وهي مخلوق بانس ، مسحوق ، مطارد ، لا تملك في الحياة قيمة او مكانة . ولم افكر انا ابداً في مساعدتها الى ان مدّت لي يد المساعدة ، ولم اكن اعرف في الحقيقة كيف اقدم لها المعونة لو ان فكرة هذه المعونة طرأت لي في بال . آه ، لقد كدت افكر ان كل هذا الذي يحدث لي هو حلم من الاحلام ليس غير ، حلم ممقوت ، ثقيل الوطأة ، لا يطاق . . .

لكن لا ! يستحيل عليّ أن افكر هكذا ، لأن قطرات باردة من المطر تتساقط عليّ ، والمرأة تزداد بي التصاقاً ، ونفسها الحارّ يلفح وجهي لفعاً منعشاً . ولقد كان ذلك حسناً - رغماً عن رائحة الفودكا المنبعثة منه . وكانت الريح تزعج وتعصف ، والمطر يجلد جوانب القارب ، والامواج يتطاير رذاذها من هنا وهناك ، ونحن متعانقان بشدة ، نرتجف من البرد . ذلك كله حقيقة صادقة لا ريب فيها ، وأنا واثق من ان احداً لم يشهد قط حلماً يداني ذلك الواقع في هوله ، ووطائه ، وفظاعته .

راحت ناتاشا تتحدث عن هذا الموضوع ، وذاك ، تتحدث

في لطف وحنان كما المرأة وحدها تعرف ان تتحدث .
وشرعت نار طفيفة تضطرم في بتأثير صوتها وكلماتها
الحلوة ، فاشعر ان شيئاً يذوب في قلبي .

انهمرت الدموع من عينيّ مثل عاصفة من برّدر ، تغسل
عن قلبي الكثير مما فيه من شر ، والكثير مما فيه من غباء
وبلاهة ، والكثير من الحزن والدنس اللذين تمكّنا منه من قبل
تلك الليلة .

واستني ناتاشا وطمانتني بقولها :

- تعال ، تعال ، هذا يكفي ، يا عزيزي ! كفّ عن
ذلك ! هذا يكفي ! سيهب الله لك فرصة أخرى . . .
وسوف تصلح ما مضى ، وتستعيد مكانك السابق ، ويسير
الحال على خير ما يرام .

ما أنفكت تقبّلني . منحنتني من قبلاتها ما لا حصر له ولا
عدّ . قبلات محرقة ملتهبة . . وكل ذلك دون مقابل على
الاطلاق .

تلك هي القبلات الاولى التي خلعتها امرأة عليّ ، وكانت
خير قبلات واطيبها ايضاً ، لان جميع ما تلاها من قبل كلفني
كثيراً حقاً ، ولم اجن منه في الحقيقة شيئاً قط .

- كف عن البكاء يا عجيب ! غداً سوف احل امرك ،
اذا لم تحله انت . . . - كأنني سمعت في الحلم صوتاً
خفيفاً مواسياً .

. . . بقينا مضطجعين حاضنين احداً الآخر حتى مطلع
الفجر .

وحين اطلّ الصباح ، زحفنا من تحت القارب ودلفنا الى

المدينة . . افترقنا على وداد ، ولم نلتق ثانية ابداً . . رغم
اني ظللت طوال نصف عام افتش في كل حفرة وزاوية
ومنعطف عن ناتاشا اللطيفة ، هذه التي قضيت معها تلك
الليلة الخريفية .

فإذا كانت انتقلت الى العالم الآخر - وذلك من حسن
حظها إذن - فليرحمها الله ويسبغ على روحها السلام
والطمأنينة . وإذا كانت لا تزال حية ترزق فأقول ايضاً :
وهب الله روحها السلام والطمأنينة ! وليمتنع وعي سقطتها
عن التسرّب الى روحها ابداً . . لان ذلك عذاب زائد لا ثمرة
فيه إذا كان لا بدّ للحياة ان يعيشها الانسان .

انشودة العقاب

كان البحر العظيم يتنهد كسلان بالقرب من الشاطئ ،
أما في البعد المستحتم في شعاع أزرق شاحب يسكبه القمر
فهو يغفو هادئاً دون حراك . وقد ذاب هنالك ، رخصاً طرياً
مفضضاً ، مع سماء الجنوب الزرقاء الصافية . كان يرتاح
مستغرقاً في نوم هنيء عميق ، وهو يعكس على صفحته
الساكنة نسيجاً شفافاً من سحب مزأبرة جامدة تشف مسن
خلالها زركشة النجمات الذهبية . فإذا السماء تبدو وكأنها
تسيل صوب البحر ، منحنية أكثر فأكثر باستمرار ، متلهفة
على معرفة ما يهمس به هدير أمواجه التي لا تكل أو تعب
وهي تتسلق الشاطئ متناقلة متراخية .

والجبال المكسوة بأشجار لوتها الريح الشمال على صورة
رهيبة ، تنهض قممها في حركة مباغتة نحو الزرقة العميقة
المهجورة التي تعلوها ، وحوافيها الصارمة تستدير وترق
تحت المعطف الفاتر اللين الذي يغطيها — ليل الجنوب
ويداعبها بدفته . .

ان الجبال مستغرقة في التفكير في رصانة ومهابة ووقار ،
وظلال سود تقع منها على صهوات الأمواج الرائعة المخضرة
فتكسوها ، فكأنها تريد خنق الحركة الوحيدة في ذلك الجمود ،
وكتم خفقان المياه الدائب ، وتنهدات الزبد غير المنقطعة ،
وجميع الأصوات التي تعكر السكون العجيب المنتشر في
الأرجاء المحيطة مع الفضة المزرقرة التي تشعها هالة القمر
المختبئ . بعد خلف ذرى الجبال .

وارتفع صوت يتنهد في لحن خفيض خافت :

- الله... ه... ا... كبر !

إنه «نضر رحيم اوغلي» ، الراعي العجوز من أهالي القرم ، وهو شيخ عالي القامة ، أبيض الشعر ، لوَّحته شمس الجنوب . . . شيخ جاف وحكيم في الوقت ذاته .

كنا مضطجعين على الرمل قرب صخرة كثيبية عابسة الطلعة اقتلعت من جبلها الأم ، وتسربلت بالظل واكتست بالطحلب ، من جهة البحر . وكانت الأمواج قد حملت إليها سائر أنواع النباتات البحرية والطحى فراحت الصخرة تبدو ، كأنها تتصل بمضيق من الرمال يفصل البحر عن الجبل . وكان لهيب النار التي سعّرنا نيبير الصخرة من جهة الجبل ، وشعلتها ترتجف ، فتتراكض الظلال على الصخرة العتيقة التي حفرتها شبكة دقيقة من الصدوع .

كنا ، رحيم وأنا ، نشوي حساء من الأسماك التي اصطدنا حديثاً ، نتمتع بمزاج تلوح فيه سائر الأشياء شفاقة تستقبل الروح العظيم ، مَراتية للانطواء على الذات حيث يرفل القلب في كثير من الطهارة والإشراق ، حتى ليبرأ المرء من كل رغبة خلا التفكير والتأمل .

وكان البحر يتدلل على الشاطئ ، والأمواج تهدر في حفيف فائق العذوبة حتى ليقال إنها تسأل السماح لها بورود النار تستدفيء على وهجها . ومن حين لآخر كانت نغمة عالية مرحة ترتفع في ذلك التناسق العام ، إنها موجة ، أكثر جرأة وإقداماً من أخواتها ، تسللت الى مسافة أكثر قرباً منا .

كان رحيم يضطجع ومصدره إلى الرمال ، ورأسه إلى

البحر ، وقد استند على مرفقيه ، واعتمد رأسه بين راحتيه ،
وراح ينظر حالماً إلى الأبعاد المضطربة المختلطة الغامضة ،
وقد انزلت طاقيته المصنوعة من صوف الغنم على نقرته ،
وجعل هواء عليل يهب من ناحية البحر فيلفح جبينه المريض
المحفور بما لا يحصى عـدده من غضون منتظمة . وهو
يستسلم للتفلسف ، دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من
إصغائي إليه ، كمن يخاطب البحر وحده :

— الإنسان الأمين لله يذهب إلى الجنة ، أما الذي لا
يخدم الله أو النبي ؟ لعله هو الذي هناك ، في الزبد . . .
وهذه اللطخات الفضية على صفحة الماء ، لعلها هو أيضاً . . .
من يعلم ؟

ويضيء البحر ذو الانبساط الجبار ، وترتمي هنا وهناك
دفقات من أشعة القمر في إهمال ولامبالاة . وهذا الكوكب
قد انبثق من وراء ذرى الجبيل المزبرة ، وشرع يصب
سائداً أنواره على المياه التي تتهد في رقة للقائه ، عند
الشاطئ والصخرة التي تمتد إلى جانبها . وقلت :

— رحيم ، إرو لي قصة .

فاستفسر رحيم ، دون أن يدير رأسه :

— لِمَ ؟

— هكذا . أنا أحب قصصك .

— رويت لك كل شيء ، وما عدت أعرف شيئاً .

ذلك أنه يحب أن أرجوه في إلحاح . فاصر عليه . . .

وانصاع أخيراً :

— إن شئت رويت لك أغنية .

وأبدي رغبتى في سماع الأغنية القديمة ، فيروح يرويه في
نغمة غنائية رزينة غير موزونة ، وهو يسعى جهده لاحترام
اللعن الأصلي قدر الامكان :

١

«عالياً جداً ، في ذرى القنن ، تسليقت الأفعى ، ورقدت
هنالك في شعب رطب ملتفة على نفسها ، وجعلت تسفد
النظر إلى البحر ملياً .

«عالياً جداً ، في قمة السماء كانت أشعة الشمس
تشع ، والجبال الملتهبة تنفخ حرارتها صوب السماء ،
والأمواج ، عند سفوحها ، تضرب الصخور في عناد .

«وعلى طول الشعب ، في الديجور والرذاذ ، كان سيل
جبار ينطلق لملاقاة البحر والوف الحجارة المزمجرة تتدحرج في
تياره . .

«كان يشق الجبال ، مبيضاً بزبدته ، مكللاً بشعار ناصع
البياض ، قوي البنية ، ثم يتهاوى في البحر مرسلأ هديرأ
غاضبأ .

«وعلى حين غرة ، في ذلك الشعب حيث تكوَّمت الأفعى ،
هوى العقاب من السماء ، وصدره مفتوح ، وريشه يمجّ دماء .
«هوى على الأرض ، مرسلأ صيحة مقتضبة ، وانطلق ،
في غيظه العاجز ، يضرب بصدره الحجر الصلب القاسي .

«وذعرت الأفعى ، وتسليقت هاربة في خفة ومهارة ، لكن
سرعان ما أدركت أن الطير لم يبق في عمره غير لحظتين
أو ثلاث لحظات فحسب .

«اقتربت زاحفة من الطير المحطّم ، وصفرت في عينيه مباشرة :

« - ما بالك ؟ أنت تموت ؟

«فأجاب ، مصعداً زفرة عميقة :

- مؤكد أنني أموت ! لقد عشت بصورة رائعة ! وعرفت ماهية السعادة ! ولقد قاتلت ببسالة وإقدام . ثم إنني رأيت السماء . أنت لسن تستطيعي أبداً ، مثلي ، أن تريها عن قرب . يا لك مسكينة تعيسة !

« - وما الفائدة من السماء ؟ إنها ليست أكثر من مكان فارغ . . كيف أستطيع أن أزحف فيها ؟ أما هنا ، فلكه درّ الأمور . . مهنا الدفء ، والعيش الرغيد الذي يتمناه القلب . «هكذا أجابت الأفعى طير الهواء الطليق ، وهي تتضاحك منه ومن أوهامه الباطلة .

«كانت تفكر هكذا : إذا طرنا أو زحفنا فمعروفة نهايتنا . سترقد في الأرض ونصير جميعاً إلى تراب . .

«وفي تلك الفترة نفّض العقاب الباسل جناحيه فجأة ، وهبّ لحظة منتصباً ، وألقى بنظره على طول الشعب .

«كان الماء النضيب ينزلق فوق الحجر الرمادي ، والهواء خائفاً في الشعب المظلم العابق بالعفونة .

«وجمّع العقاب قواه وزأر ، وقد كسحه الغمّ والألم :

« - أواه ! لو أرتفع مرة أخرى في السماء . . لو أضمتُ

العدوّ ، متخسماً بدمي ، على خاصرتيّ الجريحتين ! أواه ، يا لسعادة القتال التي لا تقدّر !

«وفكرتُ الأفعى : «لا ريب أن الحياة حلوة في السماء حتى

يثن على هذا الغرار !

«واقترحت عندئذ على طير السماء الطليق : «لا عليك إلا أن تجرب نفسك حتى حافة الشعب وأن تلقي بنفسك في هاويته ، فلعل جناحيك يحملانك من جديد ، فتستطيع أن تعيش فترة أخرى .

«ارتعش العقاب ، وندت عنه صيحة مكابرة ، وهب صوب الهاوية ضارباً الصخر اللزج بأظافره المرتجفة .

«أضحى على شفاهها ، فنشر جناحيه ، وتنهَّد ملء صدره ، والتمعت عيناه وقدحتا شرراً . . . ثم هوى . . .

«سقط ، وكأنه الجلمود ، منزلقاً على الصخور ، سريعاً مثلها . وتحطَّم جناحاه ، وثبَّت أرياشه . . .

«أطبقت عليه دوائر السيل ، وكسته بالزبد بعدما غسلت دمه ، وحملته إلى البحر . . .

«كانت الأمواج تصطدم بالصخور في هزيم كئيب . . ثم غابت ، في الفراغ البحري ، جثة الطير إلى الأبد .

٢

«طويلاً راحت الأفعى تمعن تفكيرها ، وهي متمددة في أرض الشعب ، في موت العقاب وهواه الجارف للسماء .

ها هي تحمل أنظارها إلى البعد السحيق ، هذا البعد الذي يداعب النظر بحلم السعادة .

«- ولكن ما الذي كان العقاب الميت ينشده في هذه البيداء المجردة عن الحدود والقاع ؟ فيم يكدر أمثاله

الروح ويعكرون صفو النفس ، وهم يموتون ، بذلك الحب

العنيف للانطلاق صوب السماء والارتقاء الى ذراها ؟ ماذا يرون فيها بهذا الوضوح كله ؟ أنا ، أيضاً ، أستطيع أن أعرف ذلك ، ولا يلزمني إلا الطيران صوب السماء ، ولو قليلاً جداً .

«وما قيل نُفِّد . . .» فيها هي تلتف حلقة واسعة ، وتقفز في الهواء ، فإذا شريط ضيِّق يبرق في أشعة الشمس الزاهية .

«إن الذي ولد ليزحف لا يستطيع إلى الطيران سبيلاً ! . . .» ولما كانت الأفعى قد نسيت هذه الحقيقة سقطت على الأرض الحجرية . لم يقتلها ذلك بل حمل الضحك إلى شفيتها .

«- شبه ! هذا هو إذن سحر الطيران في الفضاء ! هو في السقوط إذن ! يا لتلك الطيور السخيفة ! إنها تجهل الأرض ! تضجر منها ، وتنطلق صوب السماء تفتش فيها عن الحياة في صحراء ملتهبة . وهناك ، عالياً ، ليس ثمة غير الفراغ ، هنالك ، عالياً يوجد النور ، ولكن ليس ثمة غذاء ، وليس ثمة سند لجسد حي . فما معنى هذا الكبرياء إذن ؟ ولمَ تلك الحسرة أيضاً ؟ الاجل اقناع شهواتها الحمقاء ، وإخفاء عجزها أمام أمور الحياة ؟ يا لتلك الطيور السخيفة ! ولكنني لن أخدع بعد الآن بادعاءاتها ، فأنا أعرف ما تعرف ! لقد رأيت السماء ، وحلقت فيها ، وقست قواي بقواها ! وإذا اخترت السقوط فهو لم يقتلني ، ولكنه زادني ثقة . فلتعش إذن بأوهامها تلك التي لا تستطيع محبة الأرض . أنا أعرف ما هو حق ، أما نداءاتها فلست أؤمن بها بمقد

الآن . إني ، وأنا مخلوق الأرض ، ساعيش من هذه الأرض وحدها . .

«وعندئذ التفت متكورة على الحجر الأصم ، معتزة بنفسها الاعتزاز كله .

«كان البحر يتلأأ وهو يسبح في نور غزير ، والامواج الهائلة ترتطم في عنف على الشاطئ المهجور .

«وفي زئير الأسد الذي تبعثه تلك الأمواج ، كانت أنشودة العقاب تتردد في مثل قصف الرعد وهزيمه ، والصخور ترتجف تحت ضربات الماء العنيفة ، والسماء ترتعش من نبرات الأنشودة الهائلة .

المجد لجنون الشجعان !

جنون الشجعان ، هذه هي حكمة الحياة ! إيه أيها العقاب الباسل ، لقد هدرت دمك وأنت تقا تل أعداءك . . ولكن ستأتي ساعة تلمع فيها كل قطرة من دمك الذي يغلي ويفور ، كالشرر في ديجور الحياة ، فتؤجج في العديد من القلوب الجريئة عطشاً مجنوناً للحرية والنور !

لا ريب أنك لقيت المنية . . ولكنك ستميش بالروح في أنشودة المغاوير والأقوياء مثلاً حياً ، ونداء فخوراً إلى الحرية ، إلى النور . .

«المجد لجنون الشجعان !»

خيم السكون على المدى الصدي الناصع البياض ، وراحت الأمواج بالحنان العذبة تغتسل في رمال الشاطئ ، وعيناي مثبتتان في الأفق البحري البعيد . وازدادت حلقات شعاعات

القمر المفضضة عدداً ، وكانت قِدرُنا تغلي في عذوبة ورقة
فائقتين .

وتتسلق موجة لاهية الأرض الرملية وتتلوى عليها ،
وتزحف نحو رأس رحيم وهي تهدر في لطف فيقول رحيم وهو
يلوح لها بيده :

- ايان تذهبين ؟ ارقدي !

فتعود أدراجها ، صاغرة ، إلى البحر . .

لم تثر ظرافة رحيم ، وهو يعير الأمواج روحاً ، أي
وقع باعث على التسلية أو التأثر في نفسي . كان كل ما يحيط
بنا غرابة وحيوية ، وعذوبة وحنان . وكان البحر كثير الصفاء
حتى ليستطيع المرء أن يميز عنفواناً عظيماً ، خفياً ، قوياً ،
متماسكاً ، في نفحة البرودة التي يبعثها نحو الجبال التي لم
تقرس بعد جيداً من حرارة النهار الخائفة . وفي زرقة السماء
القائمة كان تشابك النجمات المذهب يخط شيئاً عظيماً ساحراً
يكدر الروح في انتظار كثير العذوبة لوحي يهبط من العلاء .

وكان كل شيء يغفو ، لكنْ إغفاء خفيفة متوترة . وكان
المرء يخال أن جميع الأشياء ستستيقظ ، في اللحظة التالية ،
وتروح تنشيد لحناً مؤلفاً من أنغام فائقة العذوبة حتى ليستحيل
وصفها . إنها ستبوح بأسرار العالم ، وتجعلها واضحة جلية
للفكر ، ثم تطفئ هذا الفكر كما يطفئ المرء مصباحاً وهمياً ،
وتجرب النفس عالياً في الهاوية الزرقاء حيث تأتي زركشة
النجمات الخائفة لاستقبالها ، وهي تردّد موسيقى الوحشي
الرائعة .

كونوفالوف

وانا اجيل بصري في الصحيفة وقعت على اسم كونوفالوف .
وما اسرع ان لفت انتباهي على الفور . واليكم ما قرأت :
«في الليلة الماضية ، في الزنازة رقم ٣ من السجن
المحلي ، عمد رجل من «موروم» يدعى الكسندر ايفانوفيتش
كونوفالوف ، ويبلغ الأربعين من عمره ، الى الانتحار شنقاً
من فوهة المدخنة . وكان المنتحر قد اعتقل في «بسكوف»
بتهمة التشرد واعيد مع مجموعة من المعتقلين الى مسقط
رأسه . وسلطات السجن تؤكد انه كان رجلاً هادئاً مسالماً
منطوياً على نفسه . وكان انتحاره ، حسب تقرير طبيب
السجن ، بسبب من السوداوية» .

شعرت وانا اقرا هذا الخبر المقتضب ان في مقدوري ان
القي مزيداً من الضوء على الأسباب التي استحدثت هذا الرجل
الهاديء المنطوي على نفسه ان يضع لحياته حداً . كنت
اعرفه . ولربما كان من واجبي ان اتكلم : فقد كان شاباً
رائعاً ، قلّ ان يصادف المرء مثيلاً له في هذا العالم .

. . . كنت في الثامنة عشرة حين التقيت كونوفالوف .
وكنت في ذلك العهد اعمل في مخبز مساعد للخباز . وكان
الخباز جندياً من «الفرقة الموسيقية» ، يعاقر الفودكا باستمرار
ويفسد العجين في غالب الأحيان . فاذا سكر راح يعزف من بين
شفثيه الحاناً او ينقرها بأصابعه على اي شيء يقع تحته
يديه . واذا وبخه صاحب المخبز لافساده الخبز او عدم

تهينته في الصباح ثارت ثائرتة ، وهبّ يشتمه ويذكره انه يتعامل مع «موسيقى» .

كان يصيح ، وقد انتصب شارباه الأحمران وجعلت شفاته الكثيفتان النديتان تترقان في صوت مرتفع :

- أفسدت العجين ! أحرقت القشرة ! الخبز نيء !
فلتذهبن الى جهنم ، أيها الضبيع الأحول ! اتحسبنني جئت الى هذا العالم لأمارس مثل هذا العمل ؟ الى جهنم أنت وعملك ! موسيقيّ أنا . وينبغي ان تستوعب هذا . كانت الأمور تجري أنه اذا سكر عازف الكمان الأوسط ، عزفت أنا على الكمان الأوسط ؛ واذا اعتقل النافخ في المزمارة ، نفخت أنا في المزمارة ، واذا مرض البواق فمن يمكن ان يحلّ محله ؟ أنا ! توم - تارا - توم - توم ! هه ! أيها القروي البائس ! أنا لن أستمّر في العمل !

ويضرب صاحب المخبز - وهو رجل سمين ، مقلقل ، له ساقان قصيرتان منتفختان ، ووجه أنثوي ، وعينان مختلفتا اللون - يضرب الأرض بقدميه الى ان تترقص كرشه ، ويصيح بصوت زاعق :

- يا لص ! يا قاتل ! يا يهوذا بائع المسيح !
ويرفع يديه فوق رأسه وقد نشر أصابعه القصيرة البدينة ، ويصيح بصوت أكثر حدة :

- وماذا اذا شكوتك للشرطة باعتبارك عاصياً ؟
- أنا ، خادم القيصر والوطن ، تشكونني للشرطة ؟
يزمجر الجندي بهذه الكلمات ، وهو يخطو ناحية صاحب المخبز خطوات متباطئة ، مهدداً بقبضتيه . ويتراجع صاحب

المخبز وهو يشخر ويصق في غضب . لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك - فقد كان من المتعذر العثور على خبازين جيدين في تلك المدينة القائمة على الفولغا في فصل الصيف .

كانت مثل هذه المشاهد تجري كل يوم تقريباً . يشرب الجندي ، ويتلف العجين ، ويعزف الأناشيد العسكرية وألحان الفالس ، أو «النمرة» كما يسميها . ويطحن صاحب المخبز أسنانه ، واضطراًّ أنا من جراء ذلك إلى أن أعمل عمل اثنين معاً .

ولكم كان فرحي عظيماً حين حدث المشهد التالي بين صاحب المخبز والجندي .

قال المعلم ، وهو يدلف إلى المخبز مشرق الوجه ، في عينيه ترتسم نظرة انتصار وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :
- حسناً ، أيها الجندي . حسناً ، أيها الجندي ، كوّر شفّتيك واعزف لنا نشيداً !

فقال الجندي في جهمة من حيث يضطجع ، على صندوق العجين ، سكران على عادته :

- ما هذا ؟

فتهلل صاحب المخبز :

- تأهب للخروج على ألحان نشيد عسكري !

استفهم الجندي ، مطوّحاً ساقيه عن حافة الصندوق مستشعراً في الجو ما لا يُحب :

- إلى أين ؟

- حيثما يطيب لك .

فنبج الجندي :

- ما معنى ذلك ؟

- معناه أنني لن أستبقيك بعد الآن . اقبض حسابك

و . . الى الأمام سر ! الى حيث تقودك قدماك !

صحا الجندي ، وهو الذي تعود أن يتنمر على المعلم
لمعرفته أنه لن يستطيع الاستمرار من دونه ، لدى سماعه
هذا النبا ، وادرك جيداً مبلغ الصعوبة في العثور على عمل
آخر نظراً لقلّة معرفته بأمور الصناعة .

قال وقد تناوشه القلق ، وهو يهبّ على قدميه :

- هيا ، أنت تمزح .

- اخرج ، اخرج .

- اخرج أنا ؟

- انقلع .

فقال الجندي ، هازأ رأسه في مرارة :

- انتهى العمل ، اليس كذلك . لقد مصصت دمي -

وانشفت عروقي - وهذا أنت الآن تطردني . براعة منك ،

ايها العنكبوت !

فاضطرب صاحب المخبز مهتاجاً :

- انا عنكبوت ؟

فعالنه الجندي رايه في اقتناع ، وهو يخطو مترنجاً

ناحية الباب :

- أجل ، انت كذلك . عنكبوت مصاصي دماء . هذا ما

انت عليه .

أطلق صاحب المخبـز في أعقابـه ضحكة خبيثة وهو يراقبه خارجاً ، ولمعت عيناه في نشوة .

- جرب الآن أن تجد من يشغلك ! ان احداً لسن يقبلك ولو دون أجر بعدما رويت لهم أنباءك . لن يقبلك أحد على الإطلاق .
فسأله :

- هل وجدت خبازاً جديداً ؟

- الخباز الجديد هو خباز قديم . كان مساعداً لي مرة . يا له من رجل ! يساوي وزنه ذهباً . ولكنه سكير أيضاً ! وله في السكر نزوات . فهو يعمل كالثور ثلاثة أو أربعة شهور ، فلا ينام أو يرتاح أو يسأل عن الأجر . بل هو يعمل ويغني . وغناؤه ينصب في قلبك مباشرة . وحينما يشبع من الغناء فهو يسرف في الشراب !

وزفر صاحب المخبز ، ولوح بيده في يأس :

- وحين يشرع في معاقرة الخمرة لا يوقفه شيء . يعبّ ويعبّ الى أن يمرض أو يفلس . وعندها ، ربما بسبب من الخجل ، ينسلّ الى مكان ما مثل روح الشيطان التي شمت شيئاً من البخور . لكن ، هذا هو آت . هل جئت حقاً ، يا ساشا ؟

فأجاب صوت ثرى عميق من عتبة الباب :

- جئت تماماً .

وقف هنالك رجل طويل عريض الكتفين في حدود الثلاثين من العمر متكئاً على عارضة الباب . كان يرتدي لبوس متشرد نموذجي ، وله وجهه سلافي أصيل ، يلبس

قميصاً قطنياً أحمر اللون ممزقاً وقذراً بصورة لا مثيل لها ،
وسروالاً عريضاً من الخيش ، وينتعل في إحدى قدميه
بقايا «كلوش» مطاطي ، وفي الأخرى فردة حذاء جلدي
بالية . وكان شعره الأشقر مشعثاً اختلطت فيه قطع من
القش . وكانت مثل تلك القطع متوافرة في لحيته الشقراء
أيضاً ، هذه اللحية المنتشرة فوق صدره على شكل مروحة .
وكان وجهه الشاحب المتعب المستطيل مضاء بعينين
زرقاوين بجاوين تطلّ منهما نظرة لطيفة . أما شفاته -
الجميلتان لكن الشاحبتان - فتبتسمان من تحت شاربين
أشقرين . وكانت ابتسامته تبدو وكأنما أراد منها أن
تعتذر قائلة :

«هذا ما أنا عليه . فلا يكوننّ حكمكم علي قاسياً» .

قال المعلم ، وهو يفرك يديه ببعضهما بعضاً ويرسل
نظره في انشداه الى تلك البنية القوية للخباز الجديد الذي
خطا متقدماً دون أن ينطق بحرف ومدّ لي يدأ طويلة ذات
كف عريضة :

- أدخل ، يا ساشا . هذا مساعدك .

تبادلنا التحية ، وجلس هو على دكة ، ومدّ ساقيه ،
وحدّق فيهما ، وخطب صاحب المخبز قائلاً :

- اشتر لي قميصين ، يا فاسيلي سيميونوفيتش ،
وحذاء ، وشيئاً من الكتان للقبعة .

- ستحصل على كل شيء ، فلا ينشغلنّ بالك . ان
لديّ قبعات ، وسأحضر القمصان والسراويل هذا المساء .
وفي هذه الأثناء لتبدأنّ العمل . أعرف مقدار ما أنت عليه

من الروعة ، وليس هنالك ما يدعوك الى التذمر مني . لا أحد يسيء الى كونوفالوف لأنه لا يسيء الى أحد . ان بين جنبي قلباً ، ولو كنت لك معلماً . فقد كنت عاملاً مرة ، وأعرف طعم الفجل الحار . حسناً ، ابقيا معاً ، يا صاحبي ، فانا ذاهب .

وخلّفنا وحدنا .

جلس كونوفالوف هنالك صامتاً ، يجيل انظاره حواليه وعلى وجهه ظل ابتسامة .

كان المخبز في قبو مقنطر السقف ، نوافذه الثلاث أخفض من مستوى الشارع . والضوء فيه شحيح والهواء قليل ، وئمة وفرة من القذارة والرطوبة وغبار الدقيق . والى جانب الجدار ثمة ثلاثة معاجن كبيرة ، أحدها فارغ ، وثانيها للعجين الجاهز ، وثالثها للعجين المتخمّر . وعلى كل منها يترامى خيط خافت من شاحب الضوء من خلال النافذة . واكياس الطحين مرمية على الأرض القذرة الى جانب الفرن الذي احتلّ ثلث المخبز تقريباً . وقطع كبيرة من الأخشاب تحترق في صخب في ذلك الفرن ، وانعكاسات لهيبها تتراقص وترتعش على الجدران الرمادية وتلوح للناظر كأنما تحكي عن شيء ما بأصوات غير مسموعة .

كان ذلك السقف المقنطر الملوّث بالسخام المعلق فوقنا يوقع الكتابة في نفسينا . وكان اختلاط ضوء النهار بالضوء المنطلق من الفرن يكون أضاءة مبهمّة تضني العميون ، في حين تنصبّ من النوافذ أصوات الشارع والغبار

في جدول لا نهاية له . استوعب كونوفالوف هذه الأمور كلها ، وأرسل زفرة عميقة ، وقال في نبرة موحشة :
- أتعلم هنا من قديم ؟

أخبرته . واستسلمنا يحدق أحدا إلى الآخر من تحت حواجبنا المعقودة .

قال :

- انه سجن نظامي . فلنخرج وتقع على الدكة عند البوابة . ما رأيك ؟

وخرجنا إلى البوابة وجلسنا على الدكة .

- في مقدور المرء أن يتنفس هنا . يقتضيني الأمر فترة من الزمن كيما أعتاد على تلك الحفرة . لقد رجعت لتوي من البحر ، وتستطيع أن تحكم بنفسك . كنت أعمل صياداً في بحر قزوين . وعلى حين فجأة وجدت نفسي منقوعاً في حفرة في الأرض !

وابتسم في وجهي ابتسامة حزينة وكفّ عن الكلام ، وهو يتطلع ملياً إلى المارة الذين يجتازوننا . كان ثمة ضوء حزين في عينيه الزرقاويــــن الصافيتين . وكان المساء يقترب ؛ فالشارع يضيح بالأصوات ، والغبار ، والحرارة الخائقة ؛ وظلال الأبنية تزحف على أرض الشارع . جلس كونوفالوف مسنداً ظهره إلى الجدار ، مصالباً ذراعيه فوق صدره ، وأصابعه تلعب بلحيته الحريرية . اختلست نظرة إلى وجهه الشاحب البيضوي وهجست في نفسي : ترى أي إنسان هذا . غير أنني لم أجرؤ أن أبدأ الحديث لأنه رئيسي ، ولأنه أوحى إليّ بالاحترام أيضاً .

كانت جبهته مخططة بثلاثة غضون دقيقة تغتفي بيسن
فترة وأخرى ، فتتنازعني رغبة في معرفة الأمور التي يفكر
فيها هذا الإنسان .

- تعال . فقد أرف الوقت . تعجن أنت العجينة الثانية
وأعمل أنا في الثالثة .

حين وزنا كمية من العجين وخلطنا كمية أخرى جلسنا
نتناول قليلاً من الشاي . دس كونوفالوف يده في عبء
وعالني قائلاً :

- هل تحسن القراءة ؟ اليك . اقرا هذه .

وناولني قطعة من ورق مجمدة ملطخة .

قرأت :

«عزيزي ساشا ،

أحييك وأقبلك عن بعد . أنا وحيدة وتعيسة ولا أقوى
على انتظار ذلك اليوم الذي أرحل فيه معك أو نبدا فيه
العيش معاً . لقد أمرضتني وأضجرتني هذه الحياة
المتعقنة ، ولو أنني أحببتها أول الامر . أنت تعرف لماذا ،
وقد بدأت أنا أيضاً ، بعد أن التقيتك . أرجو أن تكتب لي
سريعاً ، فأنا متلهفة على سماع أخبارك . وداعاً الآن ، لكن
لا وداع فراق ، يا صديق فؤادي الملتحي . لن أوبخك ،
رغم عتبي عليك لأنك خنزير . فقد رحلت دون أن
تودعني ، ورغم فعلتك كنت على الدوام سعيدة معك سعادة
لم أعرفها مع انسان آخر . ولن أنسى ذلك أبداً . الا
تستطيع أن تحاول الافراج عني ، يا ساشا ؟ أخبرتك
الفتيات أنني سأهجرك اذا أفرجت عني . لكن هذا هراء

ومحض افتراء . لو كنت لطيفاً معي لأخلصت لك مثل كلبة
بعد الافراج عني . سهل عليك أن تفعل ذلك ولكنه صعب
علي . حين جئت لرؤيتي بكيت لأنني مرغمة على أن أحيأ مثل
هذه الحياة ، ولكنني لم أخبرك السبب في ذلك . وداعاً ،
المخلصة لك كاييتولينا» .

أخذ كونوفالوف الرسالة منسي وشرع يقلبها في إحدى
يديه تائه الفكر ، وهو يقتل شعر لحيته باليد الأخرى .

- هل تحسن الكتابة ؟

- أجل .

- وهل لديك حبر ؟

- لدي .

- اذن اكتب لها رسالة ، هل تفعل ؟ قد يخطر في بالها

اني نذل - اني نسيت كل شيء عنها . اكتب .

- سأكتب . لكن ، من هي ؟

- مومس . أنظر ، انها تطلب مني الافراج عنها .

وهذا يعني أن أعطي الشرطة وعداً بالزواج منها . وعندها

يردون لها جوازها ، ويأخذون منها بطاقتها ، وتفقد حرة .

أتفهم ؟

في غضون نصف ساعة هيأت لها رسالة مؤثرة .

استوضح كونوفالوف في نفاذ صبر :

- حسناً . اقرأ . كيف هي الرسالة .

واليكم كيف كتبت : «عزيزتي كايبا ،

لا تحسبيني نذلاً لأنني نسيت كل شيء عنك . أنا ما

نسيت شيئاً ، ولكنني أسرفت في الشراب وانفقت كل ما
أملك . غير أنني بدأت العمل من جديد ، وسوف أطلب
من المعلم سلفة في الغداة وأرسلها إلى فيليب فيعمل على
الإفراج عنك . سأرسل ما يكفي لشراء تذكرة لحضورك إلى
هنا . إلى اللقاء في الوقت الراهن .

المخلص ، الكسندر .

قال كونوفالوف ، وهو يحك رأسه :

- هم م م ! لست كاتباً ، كلا لست كاتباً . فليس
في رسالتك شيء من الاحساس ، أو شيء يشير الدموع .
وفضلاً عن ذلك ، سألتك أن تشتمني بالفاظ بذينة ،
وانت لم تفعل ذلك .

- وفيه ينبغي أن أفعل ذلك ؟

- كي تعرف أنني خجلان من نفسي وأني أفهم كيف
عاملتها معاملة سيئة . هذا هو السبب . ورسالتك جافة
فكانها حمص ناشف . أذرف فيها دمعة أو دمتين .

لم يكن الأمر يتطلب أكثر من ذرف دمعة أو دمتين .
ففعلت ذلك بصورة مرضية . وارتاح كونوفالوف . وضع
يده على كتفي ، وقال في عطف : - كل شيء حسن
الآن . شكراً لك . يبدو أنك فتى طيب . سيطيب
لنا العيش معاً .

لم أرَ تب في ذلك ، فطلبت إليه أن يعدني عن
كابيتولينا .

- كابيتولينا ؟ إنها فتية - فتاة صغيرة . من فياتكا .
ابنة أحد التجار . ضلّت سواء السبيل ، وكلما تبادت في

غيثها ازدادات الأمور سوءاً بالنسبة إليها ، وفي آخر المطاف استقرت في بيت للدعارة . حين شاهدتها أول مرة قلت في نفسي : يا الله ! كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ انها طفلة بعد . وصرنا صديقين حميمين . وبكسيت . فقلت : «لا تقلقي ، اصبري ، سأنتشلك من هنا . انتظري فترة من وقت» . وهيات كل شيء ، ولكنني أسرفت في الشراب فجأة ووجدت نفسي في استراخان . ومن بعد في هذا المكان . وأنبأها أحد الشبان بمكاني ، فأرسلت اليّ هذه الرسالة . سألت :

- ماذا تريد أن تفعل ، - اتأخذها زوجا لك ؟
- انا أتزوج ؟ كيف يمكن لسكير أن يتزوج ؟ أوه ، ابدأ . لن أعمل أكثر من الأفراج عنها ، وعندها تكون حرة في الذهاب حيث يروق لها . ستجد لنفسها مكاناً ، وقد يتاح لها أن تسمى امرأة جديرة بالاحترام .
- انها تريد أن تعيش معك .
- هذه نزوة منها . فهنّ جميعاً على هذه الشاكلة ، النساء . أنا أعرفهنّ جيداً . عرفت أصنافاً كثيرة منهنّ . وكانت عندي زوجة تاجر ذات مرة . كنت أعمل سائساً في سيرك حين وقع بصرها عليّ . قالت : «تعال اشتغل عندي سائقاً . وكنت قد كرهت السيرك ، فقبلت . حسنناً ، وبدأت القصة . راحت تلاطفني . وكان لديهم بيت كبير ، وخيول وخدم ، وكل ما يتبع ذلك . كانوا يعيشون كالنبلاء . وكان بعليها قصيراً سميناً يشبه معلمنا ، وكانت هي هيفاء لدنة مثل قطعة ، وحارة . كانت تعانقني وتقبلني في فمي ،

وقبيلاتهما مثل الجمر الملتهب . تجعلني ارتعش من راسي حتى قدمي ، وكان الخوف يملكني بسبب منها . كان يحدث أنها تقبلني وتنشج بقسوة حتى يرتعش كتفاه . فاسأل : «ما بالك ، يا فيرا ؟» فتجيب : «أنت مثل طفل ، يا ساشا ، لا تفهم شيئاً» . كانت امرأة صغيرة عذبة ، وكانت صادقة في قولها ، فأنا في الحقيقة لا أفهم شيئاً . أنا غبي ، وأنا أعرف ذلك . لا أفهم لماذا أفعل ما أفعل ، ولا أفكر كيف أعيش !

كفّ عن الحديث وحدثني في بعينين متسعيتين عامرتين بتعبير نصفه خوف ونصفه دهشة - شعور من القلق ضاعف سيماء الحزن في وجهه الوسيم وزاده جمالاً .

سألت :

- وكيف انتهت قصتك مع زوجة التاجر ؟
- أنت ترى ، فقد كنت أشعريين آونة وأخرى ببؤس قتال أعجز معه عن احتمال الاستمرار في الحياة ، فكانني المخلوق البشري الوحيد في هذا العالم الواسع ، وكأنه ليس ثمة مخلوق حي آخر سواي على وجه البسيطة . وفي مثل هاتيك الأوقات كنت أكره كل شيء ، نفسي والآخرين على حد سواء . وما كنت أبالي لو قنيت الناس عن بكرة أبيهم . لا رغبة أن ذلك مرض في . وهذا ما جعلني أقبل على الخمرة . فذهبت اليها وقلت : «أطلقني سبيلي ، يا فيرا ميخائيلوفنا ، فما عدت أحتمل !» فاستوضحت : «هل اضجرتك ؟» وأطلقت ضحكة قبيحة . قلت : «أنا لم اضجر منك ، بل ضجرت من نفسي» . لم تفهمني في بداية الأمر

فجملت تصرخ وتوبخني . وعندما استوعبت الموضوع اطرقت براسها ، وقالت : «ارحل اذن» . واطلقت العنان لعبراتها . كانت لها عينان سوداوان وشعر اسود ايضاً مجعد . وكانت منحدره من أسرة موظفين لا من أسرة تجار . شعرت بالأسف من أجلها وكرهت نفسي . طبيعي انه كان من الصعب بالنسبة اليها ان تعيش مع مثل ذلك الزوج . فقد كان اشبه بكيس من الطحين . بكت فترة طويلة - فقد اعتادت علي حتى ذلك الحين . كنت عليها عطوفاً : أخذها أحياناً فوق ذراعي وأهدمها كالطفل الصغير . فتغفو ، فأجلس وأروح أرنو اليها . المرء يلوح جميلاً وهو نائم - طيباً وبسيطاً ، يتنفس ويبتسم ولا شيء غير ذلك . وكنا أحياناً نخرج في نزهة حين نعيش في الريف في فصل الصيف . وكانت تحب أن أسوق العربّة مثل الريح . وعندما كنا نصل الى الغابات نربط الحصان الى شجرة ونضطجع على العشب البارد . وتتركني أضع رأسي في حجرها وتسترسل في قراءة احد الكتب على مسمعي . وكنت أصغي الى قراءتها الى ان يدركني النوم . كانت تقرا لي قصصاً ممتعة ، قصصاً شيقة . ولن أنسى واحدة منها أبداً تتحدث عن رجل أخرس يدعى جيراسيم ، وعن كلبه . كان ذلك الأخرس منبوذاً ، مكروهاً من الجميع ، الا من ذلك الكلب . وحين يسخر الناس منه فهو يلجأ الى كلبه . تلك قصة مؤلمة حقاً . كان عبداً ، جيراسيم هذا ، توجهت اليه سيدته مرة قائلة : «يا أخرس اذهب واغرق كلبك ، فهو لا يكفّ عن العواء» . فذهب . أخذ قارباً ، ووضع الكلب فيه ، وجعل

يجذب . كنت أرتجف بشدة حين تصل الى هذا الموضع من القصة . يا الله ، فكر في أنهم يجعلون المرء يقتل الشيء الوحيد الذي يجد فيه سعادته ! ما هو كنه ذلك النظام ؟ تلك كانت قصة رائعة ، قصة من الحياة - وهذا ما يسبغ عليها الروعة . هنالك مثل أولئك الناس : ثمة شيء وحيد هو العالم كله بالنسبة اليهم . خذ هذا الكلب مثلاً . لماذا الكلب ؟ لأن أحداً لا يحبه فان الكلب يحبه ، والمرء لا يستطيع أن يعيش من دون حب مهما يكن شكل هذا الحب - والا ما فائدة الروح الموجودة في جسمه ان لم يكن يعرف الحب بها ؟ قرأت لي قصصاً كثيرة . كانت امرأة صغيرة لطيفة ، وحتى الآن ياخذني الاشفاق عليها . ولولا قسمتي في الحياة ما هجرتها قبل أن تطلب هي الي هجرانها ، او حتى يكتشف زوجها قصتنا . كانت رقيقة ، وهذه السمة كانت الشيء الرئيسي عندها ، ورقتها لم تكن تقتصر باعطاء الهدايا ، بل كانت بقلبها رقيقة . كانت تقبلني وتهب لي نفسها ، مثل أية امرأة أخرى ، وأحياناً يتملكها هدوء رهيب ، وبعدها تنشده من الطيبة التي تغدقها عليك . كانت أحياناً تنفذ الى صميم روحي وتحدثني مثل أم او مربية ، فاشعر حينذاك أنني لا أتجاوز الخامسة من عمري . ورغم هذا كله هجرتها . الكآبة ، وحدها الكآبة ظلت تشدني الى مكان ما . . . فقلت لها «وداعاً ، يا فيرا ميخائيلوفنا ، واصفحي عني» . فقالت «وداعاً ، يا ساشا» . وعندها عمدت تلك المجنونة الى تعرية ذراعي وغرزت أسنانها في لحمي . وكدت اطلق صرخة عالية .

وكادت هي أن تنهش قطعة من ذراعي - وبقيت ثلاثة أسابيع حتى شفيت . وما برحت أحمل آثار تلك العضة . عرى ذراعاً نامية العضلات ، العضلات جميلة التكوين ، ومدها وقد ابتسم ابتسامة لطيفة حزينة . كانت الندبة واضحة قرب مفصل المرفق - نصفاً دائرياً - يكادان يلتقيان في نهايتهما . وهز كونوفالوف المبتسم رأسه وهو ينظر إليهما .

- المرأة المجنونة ! هذا ما أعطتني لذكراها .

سمعت مثل هذه الحكايات من قبل . ان كل شريد تقريباً يحدثك عن «امرأة تاجر» أو «سيدة من النبلاء» كانت له بها علاقة . وكانت هذه السيدة النبيلة أو امرأة التاجر قد اختلقت بأشكال عديدة في آلاف الروايات التي سرُدت عنها الى أن غدت شخصية خيالية في عيني جميع المتشردين ، وشخصية تضم أكثر الصفات الجسدية والنفسية تناقضاً . فإذا كانت اليوم مرحلة خبيثة زرقاء العينين ، فهي في الأسبوع المقبل لطيفة عاطفية سوداء العينين . والعادة ان تروى القصة عنها بصورة تشككية ، وفي كثير من التفاصيل التي تحقّر تلك المرأة .

غير أنني اكتشفت في رواية كونوفالوف نبذة من الصدق ، وكان فيها صفات لم أسمع بمثلا من قبل . وعلى سبيل المثال : قراءة الكتب ، ومقارنته ، وهو الرجل الكبير القوى ، بالطفل الصغير .

وتصورت تلك المرأة اللدنة نائمة بين ذراعيه ، ورأسها يرتاح على صدره العريض . ثمة ما هو جميل فسي

هذه الصورة ، الأمر الذي زاد قناعتني بصدق حديثه . وأخيراً كان هنالك النبرة الحزينة اللطيفة - وهي نبرة خصوصية الى أبعد الحدود - هذه النبرة التي روى بها ذكرياته عن «امراة التاجر» . أبداً لا يتحدث المتشرد الحقيقي عمن النساء أو أي شيء آخر بمثل تلك النبرة . بل على العكس ، فهو يتباهى أنه ليس ثمة في العالم شيء مقدس بالنسبة اليه .

سألني كونوفالوف وفي صوته رنة قلق :

- لِمَ لا تقول شيئاً ، اتحسبني أكذب ؟

كان جالساً على كيس طحين حاملاً قدح الشاي في يده ويمسك لحيته باليد الأخرى في رفق . واخترقتنني عيناه الزرقاوان مستفسرتين ، وبدت الخطوط على جبهته نافرة واضحة .

- صدقني . فيمَ أكذب . أوه ، اعرف اننا نحن الأجلاف نجبُ أن نفزل الحكايا . ولِمَ لا نفعل ذلك . اذا لم يكن في حياة الانسان شيء ثمين فلم لا يختلق لنفسه اسطورة ويسبغ عليها اردان الحقيقة ؟ هذا لا يؤدي أحداً . ويؤدي به الأمر الى أنه يصدق نفسه وهو يرويها . حسناً . . . ذلك ينعش روحه وقلبه . كثيرون من الناس يلجأون الى ذلك . لا مناص لهم منه . ولكن ما رويت لك هو الحقيقة الصادقة - هذا ما حدث تماماً . فهل فيه شيء من الغرابة ؟ امراة لم تعرف في حياتها شيئاً من السرور . فهل تبالي اذا كنت أنا سائق عربية ؟ ذلك عند المرأة سواء - اكنت سائق عربية ، أم نبيلاً ، أم ضابطاً - نحن

جميعاً رجال . وجميعنا خنازير بالنسبة اليها - جميعنا
نبحث عن شيء واحد ، وكل منا يسعى الى الحصول عليه
بأبخس ثمن مستطاع . وكلما كان المرء بسيطاً كان أكبر
ضميئاً من الآخرين . وأنا أكثر البسطاء بساطة . والنساء
دائماً يرينني على هذه الشاكلة - يرين انني لا يمكن ان
اصيبن بأذية أو أسخر بهن . عندما تخطيء المرأة فهي
لا تخاف شيئاً قدر خوفها من الضحك عليها ، والسخرية
بها . والمرأة تملك احساساً بالخجل أكثر مما نملك نحن
الرجال . حين نصيب بغيتنا من اللهو فلا شيء يمنعنا من
الثروة به حتى في الأسواق العامة : ما أروع أن ترى تلك
البلهاء التي اصطدت الليلة الماضية ! أما المرأة فلا تفعل
ذلك . ولا أحد يعتبر انهما جراً . وأقهرهنّ ضللاً يملكن
احساساً بالخجل أكثر مما نحن نملك .

جعلت أفكر وأنا أصغي اليه : أمن المعقول أن تكون
لدى مثل هذا الرجل مثل هذه العواطف الغريبة ؟

وانشدهت أكثر حين استرسل في حديثه ، مشغولاً
بصره اليّ بعينيهِ الصافيتين مثل عيني طفل صغير .

احترق الحطب في الفرن مخلفاً كومة من الجمر المتأجج
تطلق وهجاً وردي اللون على جدار المخبز . . .

كانت النافذة توتر مربعاً من سماء زرقاء فيها نجمتان
اثنتان . احدهما كبيرة تتألق مثل زمردة ، والثانية قريبة
منها باهتة تماماً .

غدوت وكونوفالوف في غضون اسبوع صديقين
حميمين .

قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة ، وهو يربت على كتفي
بيده الضخمة :

- أنت فتى بسيط ، وهذا هو الصنف الذي احب !
كان ماهرا في صنعته ، وينبغي أن ترى كيف يقذف
قطعة من المعجن زنة سبعة بودات وهو يقلبها ، أو كيف
ينحني على المعجن يعجنها ، وذراعا غارقتان حتى المرفقين
في الكتلة المرنة التي تطلق صريحا خافتا وهو يضغط عليها
بأصابعه الفولاذية .

ولم يكن يتاح لي وقت أفرغ فيه الدف الخشبي من
الأرغفة النيئة الى جاروفه الطويل الذراع حتى يلقي به الى
الفرن . وخشيت بادي الأمر أن يراكم الأرغفة قرب بعضها
بعضاً من جراء عجلته ، ولكنه انجز خبز ثلاث دفعات ولم
يخرج أي رغيف «معشور» من أصل مائة وعشرين رغيفاً
(كانت كلها مسمرة منفوشة خفيفة كالريشة) ، حتى تأكد
لدى أنه عامل صناع . كان يحب عمله ، وينغمس فيه الى
أبعد الحدود ، ويتكدر حين لا يحمي الفرن جيداً ، أو يختمر
المعجن ببطء ، يفضب ويلعن صاحب المعجن حين يشتري
طحيناً من صنف ردي ، ويغضب كالأطفال وتنبسسط
أساريه حين تخرج الأرغفة مدورة ناضجة ولها قشرة
رقيقة . وكان يأخذ أحياناً أحسن رغيف عن الجاروف ويقول
ضاحكاً ، وهو ينقله من كف الى كف بسبب من سخونته :
- انظر هذا الشيء الجميل الذي صنعنا معاً ، أنت
وأنا . . .

كان يلذ لي أن أراقب ذلك الطفل العملاق وهو يعمل ،

فقد كان يصب روحه في عمله - وهو شيء ينبغي على كل امرئ أن يفعله ، كائنًا ما كان العمل الذي يأتيه .
سألته ذات يوم :

- ساشا ، يقولون انك تجيد الغناء ؟
- اجيده . ولكنني لا أغني الا لماماً . اشرع في الغناء حين أحزن . واذا اشرع في الغناء يتملكني الحزن . لكن حذار من الكلام في هذا الموضوع ، ولا تنرفزني . وأنت ، الا تغني ؟ الغناء شيء رائع ! لكن لا تبدأه حتى يطيب لي .
وعندها تغني معاً . ما رأيك ؟

أبدت موافقتي على الانتظار . وجعلت اصفر حين يهزني الحنين الى الغناء . وكنت أنسى أحياناً فأروح أهمهم بيني وبين نفسي وأنا أعجن العجين او اخبز الأرغفة . ويرهق كونوفالوف أذنيه مصفياً ، وشفتاه تتحركان ، ثم يذكرني بوعدتي . وبين حين وحين يصرخ في وجهي بنبرة خشنّة :
- اخرس ! كفّ عن العويل !

تناولت يوماً كتاباً من صندوقي واتخذت مكانسي الى النافذة ورحت أقرأ .

كان كونوفالوف يهزم فوق المعجن ، فجعله حفيف الأوراق التي اقلبها فوق رأسه يفتح عينيه :
- عن أي شيء هذا الكتاب بين يديك ؟
كان الكتاب «البودلييوفيون» .
استوضح :

- اقرأ عليّ ، هلا فعلت ؟
شرعت أقرأ في صوت عال من حيث جلست على حافة

النافذة ، وجلس هو على معجن واضعاً رأسه على ركبتيه ملقياً بسمعه اليّ . كنت أحياناً ألقى نظرة من فوق الكتاب فالتقي عينيه ، هاتين العينين اللتين لا تبرحان عالقتين في ذاكرتي الى يومنا هذا - مفتوحتين على سمعتهما ، متوترتين ، عامرتين بانتباه عميق . وكان فمه أيضاً نصف مفتوح ، كاشفاً عن صفين من أسنان بيض متساوية . وكان من المتعة أن ترى الى حاجبيه المرفوعين ، والفضون المتكسرة تخدد جبهته العالية ، وبديه المطوقتين ركبتيه ، وهينته كلها ساكنة متوقفة . هذه الأمور كلها حفزني على اغداق المزيد من الحيوية على قراءتي لقصة بيلا وسيسويكا الحزينة .

هدني الضنى آخر الأمر ، فأغلقت الكتاب .

سألني كونوفالوف في صوت مهموس :

- أهذا كل شيء ؟

- هذا أقل من النصف .

- هل تقرأه لي بأكمله ؟

- اذا رغبت في ذلك .

- آه .

أمسك رأسه بيديه ، وتمايل من جانب الى جانب وهو جالس على المعجن . كان ثمة شيء يريد الاصحاح عنه ، ففتح فمه واغلقه ، نافخاً كالمنفاخ ، ومضيقاً فرجتي عينيه . لم يطف في بالي ان القراءة ستؤثر فيه بمثل هذا المقدار ، ولم أفهم لذلك التأثير معنى .

همس :

- كيف تقرا هذا ! بأصوات مختلفة ، فكان الأشخاص في قيد الحياة ما يزالون ! أبروسكا ! بيلا ! يا لهما من أحققين ! يثيران السخرية . ماذا من بعد ؟ الى أين يذهبان ؟ يايسوع ، هذا كله حقيقي ، وهم أشخاص حقيقيون ، فلاحون حقيقيون صادقون ، أصواتهم حقيقية ، ووجوههم حقيقية ، وكل شيء . اصغ ، يا مكسيم ، حينما نضع الخبز في الفرن تواصل أنت القراءة قليلا !

وضعنا الخبز في الفرن ، واعددنا عجة أخرى ، وقرأت له ساعة ونصف الساعة . وتوقفنا عن القراءة حين نضع الخبز ، فأخرجناه ، ووضعنا أرغفة أخرى ، وعجنا عجة جديدة وخلطنا خميرة أخرى . قمنا بهذا العمل كله بسرعة محومة ، ودون أن يهمس احدا كلمة واحدة . كان كونوفالوف العابس ، بين حين وحين ، يلقي عليّ في وداعة أوامره بكلمات مفردة ، وهو يتعجل انهاء العمل . كان الصباح قد اطلّ حين فرغنا من الكتاب ، وكان لساني يابساً منتفخاً .

وكان كونوفالوف جالساً على كيس من الطحين يشخص اليّ بصره في صمت ، وتعبير غريب يطلّ من عينيه ، ويداه متشبعتان بركبتيه .

سألت :

- أحببت الكتاب ؟

أوما برأسه ، مضيقاً من عينيه وحين تكلم انحدر صوته هامساً من جديد :

- من كتب هذا الكتاب ؟

كانت عيناه طافحتين انشدها لا يمكن للكلمات ان تصفه ، واضاء وجهه فجأة بشعور قوي حار .

أخبرته باسم مؤلف الكتاب .

- يا له من رجل ! لقد وضع الملح على الجرح ، اليس كذلك ؟ انه ليذبّ الذعر في جوانحك ! ويجعل الرعشة تراوح وتفادي في عمودك الفقري . انه يعج بالحياة . ماذا أصاب المؤلف . . . من تأليف هذا الكتاب ؟

- ماذا تقصد . . . ؟

- أفما أعطوه شيئاً . . . وساماً أو شيئاً من هذا القبيل .

استفهمت :

- وفيم يمنحونه وساماً ؟

- حسناً ، هذا كتاب . . . انه اشبه بمحضّر الشرطة : يقرؤه الناس ، ويشرعون في الحديث عنه . كيف هما بيلا وسيسويكا مثلاً . ويشفق الجميع عليهما وهما يعيشان في مثل تلك الظلمة . انها حياة الكلاب . وهكذا ...

- وهكذا ماذا ؟

رمقني كونوفالوف بنظره مرتبكاً ، وأعلن في وداعة :

- ينبغي اتخاذ بعض الاجراءات . فهما مخلوقان بشريان . ينبغي أن يمدّ أحدهم اليهما يد معونة .

حاضرتة طويلاً جواباً عما قال ، لكن ، من دون جدوى ! لم تترك فيه المحاضرة التأثير الذي اليه قصدت . استغرق كونوفالوف في التفكير ، مطرقاً برأسه ،

متمايلاً الى الأمام والخلف ، وشرع يتنهد ، لكن من دون أن يقاطعني . تعبت أخيراً ، فصمت .

رفع رأسه ورنا الىّ في حزن . قال :

- وهكذا لم يعطوه شيئاً .

سألته ، وقد نسيت كل شيء عن المؤلف :

- من ؟

- المؤلف .

لم أعطه جواباً ، وقد ضقت به لأنه يعتبر نفسه من دون ريب غير قادر على حل القضايا الفلسفية .

تناول كونوفالوف الكتاب ، دون أن ينتظر جواباً مني وقلبه في توقير بين يديه ، فتحه وأغلقه ، ووضعـه في مكانه ، وأرسل زفرة .

قال في صوت مهموس :

- يا لها من مشكلة عميقة ! هذا انسان ألف كتاباً . .

ليس أكثر من ورق فيه نقاط صغيرة . . . ألفه و . . . هل مات هذا المؤلف ؟

أجبت :

- أجل .

- مات ، ولكن كتابه هنا ، والناس يقرؤونه . ينظر

اليه المرء بعينه ، وينطق بكلمات مختلفة . ويصفي انسان آخر ويكتشف أنه عاش في وقت من الاوقات من يدعى بيلا ، وسيسويكا ، وابروسكا . ويشعر بالاشفاق عليهم ، رغم أنه لم يرههم ، وانهم ليسوا أكثر . . . أكثر من لا شيء بالنسبة اليه . لعله يمر في الشارع بعشرات من الأحيساء

من أمثالهم في كل يوم ، دون أن يعرف عنهم شيئاً ، ودون أن يكون له بهم أي شأن . . . حتى أنه لا ينتبسه الى وجودهم . ولكنه ما أن يجتمع بهم في كتاب حتى يتفجر قلبه شفقة عليهم . كيف تفسر لي هذا ؟ . . . وهكذا فإن المؤلف مات دون أن يعطى مكافأة ، أليس كذلك ؟ لا شيء !
اطلاقاً ؟

غضبت ، وحدته كيف يكافأ المؤلفون .
رغمنى كونوفالوف بعينين مذعورتين ، وفرقع بشفتيه
معبراً عن أسفه .
زفر قائلاً :

— يا لها من أنظمة !

وأطرق برأسه ، وراح يعض طرف شاربه الأيسر .
أخذت اتحدث عن دور الحانة المشؤوم في حياة الكتاب
الروس ، وأخبرته عن أولئك الكتاب العظام الرائعين
الذين دمرتهم الفودكا التي جعلوا منها السلوى الوحيدة في
حياتهم الشاقة .

استفسر كونوفالوف في همسة مروعة :

— هل يسكر أولئك الناس ؟

قرأت في عينيه الواسعتين الريبة فيما قلت له ،
والخوف على أولئك الناس والشفقة عليهم .

— أيشربون حقاً ؟ يغال لي أنهم يشربون في الشراب
بعد أن يكتبوا كتبهم ، أليس كذلك ؟

تجاهلت ذلك السؤال لأنني لم أجده له علاقة
بالموضوع .

قال كونو فالوف مقرأ :

- بعد ذلك ، من دون ريب . فالكتاب أشبه ما يكونون
بالأسفنج الذي يمتص أحزان الآخرين ، وهم يملكون
عيوناً من نوع خاص . وقلوباً من نوع خاص أيضاً بهذا
الشأن . إذا راحوا يطيلون النظر الى الحياة يغشاهم الحزن .
فيصبونه في كتبهم . ولكن هذا لا ينهي المشكلة ، لأن
قلوبهم تأثرت ، وليس في استطاعتك أن تحرق اللوعة إذا
مستت شفاف قلبك مرة . وهكذا لا يتبقى ثمة غير عمل
واحد . . . أن تفرقها بالفودكا . ولهذا يشربون . ألسنت
على حق أنا ؟

وافقته ، فبدا أن ذلك أمدّه بالشجاعة .

استرسل يقول ، مغرقاً أعمق فأعمق في تفسير نفسية
الكاتب :

- وإذا أردنا الحق فينبغي أن يكافأ أولئك الكتاب ،
أليس كذلك ؟ ذلك أنهم يفهمون أكثر من الآخرين ،
وينصحون الآخرين ما هو خطأ في هذه الحياة . خذني أنا
مثلاً - من أكون ؟ أنا رجل شريد ، سكير ، لا أصلح
لشيء على الإطلاق ، نفاية . وحياتي خالية من أي شعور .
فما فائدة حياتي على هذه الأرض ؟ من يحتاج اليّ إذا جدّ
الجد ؟ لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا بيت ، ولا رغبة عندي في
شيء من ذلك . أنا أعيش على كتابتي الخاصة لا غير ، وليس
من يعرف لماذا . وليس في روحي ما ينير لي السبيل . كيف
أعبر عن ذلك ؟ ليس في روحي شرارة . . ولا قوة على أقل
تقدير . مهما يكن الاسم الذي تسبغه على ذلك فهو غير

موجود ، وهذا كل شيء . هل فهمت ؟ وهكذا فانا أعيش
وأبحث عن ذلك الشيء ، وأتوق اليه ، ولكن ما هو يا ترى ،
لست أدري . . .

أسام بصره اليّ ، ورأسه يرتاح على يده ، ووجهه
يعكس ماهية الأفكار التي تحاول أن تتخذ لنفسها في رأسه
صورة من الصور .

سألته مستطعاً :

- حسناً ، وبعد ؟

- بعد ؟ . . أنا لا أعرف كيف أقول ذلك ، ولكنني
أعتقد أنه إذا ما جاءني أحد أولئك الكتاب وألقى عليّ نظرة ،
فقد يتمكن من أن يشرح لي حياتي ، ألا تظن ذلك ؟

حسبت أنني أستطيع ذلك بنفسي ، وفي الحال شرعت
أشرح ما خيل اليّ أنه صورة واضحة بسيطة . تحدثت عن
الظروف والبيئة ، عن اللامساواة ، عن أولئك الذين كانوا
أسياد الحياة ، وعن أولئك الذين كانوا ضحاياهم .

أصغى كونوفالوف في انتباه . كان يجلس قبالي واضعاً
خده في يده ، وعيناه الزرقاوان الكبيرتان ، المفتوحتان عن
سعة ، المفكرتان ، الذكيتان ، تبدوان وكأنهما تغيما
تدريجياً وراء ستار خفيف ، والفضون على جبهته تزداد
عمقاً . وبدا أنه يتنفس في جهد ، ويبذل قصاراه ليستوعب
كلامي .

أشبع ذلك غروري . رسمت له حياته في حرارة ملتفة ،
وبرهنت أنه غير ملوم فيما حصل له . لقد كان ضحية
للظروف ، مخلوقاً جعلته مساواته للآخرين عن طريق الولادة

شيئاً لا شأن له في الحياة الاجتماعية بسبب سلسلة من
المظالم تمتد لها جذور عميقة في التاريخ . وختمت كلامي
قائلاً :

- ليس هنالك ما تلوم نفسك عليه . . . فأنت
مظلوم . . .

صمت ، وجلس هنالك وقد ثبت عينيه عليّ . وكنت
أرى ابتسامة مشرقة تتولد في أعماقه ، فانتظرت بفارغ
الصبر ما سيردّ به عليّ كلماتي .
انحنى عليّ ضاحكاً في عذوبة ، ووضع يده عليّ كتفي
في حركة نسائية لطيفة .

- أنت تشرح الأمور بلغة سهلة ، يا صاح ! أين
تعلمت هذا كله ؟ من الكتب ؟ لا ريبة أنك قرأت كثيراً .
أواه لو أنني قرأت مثلك ! لكن السبب الرئيسي هو أنك
تهرق حليب العذوبة الانسانية فيما تقول . وأنا لم أسمع
أحداً يتحدث علي غرارك من قبل قط . انه أمر غريب !
فأغلب الناس يلومون الآخرين علي الأخطاء التي يقاسمون
منها ، أما أنت فتلقي اللوم علي الحياة بأسرها ، علي النظام
بأكمله . بناء علي كلامك ينبغي علي المرء ألا يلوم نفسه
علي أي شيء . اذا ولد ليكون متشرداً ، فمتشرداً يجب أن
يكون . وما تقول عن المحكومين شيء جـد غريب : هم
يسرقون لانهم بلا عمل ، ولأنه يجب أن يحصلوا علي طعام .
ما أشد نيلك ! يبدو ان لك قلباً رقيقاً لطيفاً !
قلت :

- رويدك ، اتوافقني ؟ اتحسب ان كلامي صحيح ام غير صحيح ؟

- انت تعرف أفضل مني ان كان صحيحاً ام غير صحيح . انت تعرف القراءة ! اذا اخذنا الآخرين بعين الاعتبار فاحتمن انه صحيح ، اما اذا اخذتني انا . . . فماذا ؟

- انا حالة خاصة . ممن هو المعلوم لانني اعاصر الخبرة ؟ شقيقي بافل لا يشرب . وله مخبز خاص به في بيرم . وانا افوقه مهارة صناعة ، ورغم هذا انا جواب افاق وسكير ، وليس هنالك ما يمكن ان تقول عني اكثر من هذا . ومع هذا ولدتنا ام واحدة ! هو اصغر مني . وهكذا فانت ترى انه لا بد ان يكون في شيء خطأ . يعني انني ولدت ليس كما يجب . انت تقول ان الناس جميعاً متشابهون . اما انا فحالة خاصة . ليس انا فحسب ، فهناك كثيرون مثلي . نحن اناس من نوع خاص - لا يمكن ان نصنف في اي تصنيف . ونحتاج الى حكم خاص . . . قوانين خاصة - قوانين صارمة ، تستأصل شأفتنا عن الأرض لأنه لا فائدة ترجى منا لأي مخلوق كان . نحن لا نفعل أكثر من أن نشغل حيزاً ، ونعترض سبل الآخرين . فمن المعلوم على هذا ؟ وحدنا نحن من يجب ان يوجه اللوم اليه . ذلك أننا لا نملك رغبة في الحياة ، ولا نحب انفسنا . هذا الرجل الضخم ، بعينه الصافيتين مثل عيني طفل ، خصص لنفسه مكاناً بين الناس عديمي الشأن بمثل هذه البساطة مما جعلهم محكومين بالفناء ، وفعل ذلك بابتسامة

تمزق الفؤاد جعلتني أعجز عن النطق . أبداً من قبل لم أعثر على وصف لتكران الذات عند جواب أفاق . واحد من أولئك المعزولين عن كل شيء يحيط بهم بكل كيانه . والذين يعادون كل شيء ، والذين يتشوقون الى أن يجعلوا من كل شيء هدفاً لحقدهم الساخر . الناس الذين التفتيتهم كانوا دائماً يلومون الآخرين ، دائماً يتشكون من كل شيء ، ويصرون على اغلاق عيونهم في وجه الدليل القاطع الذي يناقض شكواهم ويبري ساحتهم . كانوا دائماً يلقون تبعة اخفاقهم على وحشية القدر او شرور الآخرين . . . وكونوفالوف لم يلق اللوم على القدر او يتهم الآخرين . وحده كان ملوماً على فوضى حياته الشخصية ، وكلما حاولت جهدي أن أبرهن له أنه كان «ضحية الظروف والبيئة» اشتدّ اصراره على اقناعي انه السبب الوحيد في مصيره الشقي . . . كان ذلك يداني الحقيقة ، ولكنه اثارني . كان يجد لذة في معاقبة نفسه ، لذة تبرق في عينيه وهو ينادي في صوت رنان :

— كل انسان هو سيد نفسه ، ولا يلامن أحد ان كنت انا وغداً !

ما كنت أندعش لو سمعت رجلاً مثقفاً يتفوه بمثل هذه الكلمات ، لأن جميع ضروب الآلام تتواجد في ذلك التركيب النفسي المعقد المسمى «المثقف» . وكان غريباً ان تسمعه ينطلق من شفتي هذا المتشرد ، وان يكن مثقفاً بين أولئك الأذلاء الجياع العراة انصاف البشر وانصاف الحيوانات الذين تعثر عليهم في الأحياء الفقيرة من مدننا . ولم يكن هنالك

سوى ان نسلّم ان كونوفالوف كان حقاً «حالة خاصة» ،
غير انني لم ارغب في ذلك .

كان في مظهره الخارجي ، حتى أدق التفاصيل ، متشرداً
نموذجياً ، وكلما دققت النظر فيه ازداد اقتناعي انني امام
نموذج يغير الفكرة التي كوّنّت في ذهني عن الناس الذين
كان يجب اعتبارهم ، منذ زمن طويل ، طبقة ، والذين
يستحقون ان نصرف انتباهنا اليهم كطامعين ظالمين اشرار ،
لكن غير بلهاء .

وازداد نقاشنا حدة . صحت :

- اصغ . كيف يستطيع المرء ان ينهض على قدميه اذا
كانت مختلف ضروب القوى السوداء تضغط عليه من كل
حذب وصوب ؟

فقال خصمي في حماسة ، وعيناه تلتهبان :

- ليرسخن قدميه بقوة اكثر !

- يرسخن قدميه على ماذا ؟

- ليعثرن على شيء ويرسخن قدميه عليه !

- لمّ لم تفعل أنت ذلك ؟

- أيها الأبله ! أفما قلت لك ان اللوم يقع على كاهلي !

لم أجد شيئاً أرسخ قدمي عليه ! ظللت أبحث عنه وأتوق
اليه ، غير أنني عجزت عن العثور عليه !

حان الوقت للتفكير في الخبز ، فشرعنا نعمل ، وكل منا
يحاول ان يثبت للأخر صحة وجهات نظره . طبعي اننا لم
نثبت شيئاً ، وحين انتهينا من العمل اضطجعنا متعبين
منفعلين .

مدد كونوفالوف نفسه على الأرض وأغفى سريعاً .
واستلقت أنا على بعض أكياس الطحين ورحت أنظر من عل
إلى هيئته الجبارة الملتحية ، المستلقية أشبه ببطل أسطوري
على حصيرة قريبة من أحد المعاجن . كانت تفوح رائحة خبز
حار ، وعجين حامض ، وأضواء الدنيا تدريجياً ، واطلت من
وراء زجاج النافذة المغطاة بالدقيق سماء رمادية . وصررت
عربة وهي تمر ، ونفخ راع في بوقه يجمع القطيع .

شعر كونوفالوف . وحاولت ، وأنا أراقب صدره العريض
يرتفع وينخفض ، أن أفكر في وسائل سريعة تحوله إلى
معتدي . ولكنني غفوت قبل أن أنجح في ذلك .

نهضنا في الصباح ، وخلطنا الخميرة ، واغتسلنا ،
وجلسنا على المعجن نحتسي الشاي .

استفسر كونوفالوف :

- لديك كتب أخرى ؟

- نعم .

- هل تقرأها لي ؟

- حسناً .

- رائع . أنظر هنا ، سأتابـع العمل طوال شهر ،
وأقبض أجري من المعلم ، وأعطي لك نصفه .

- لماذا ؟

- لنشتري كتباً . اشتري ما يطيب لك ، واشتر لي . . .
فلنقل : كتابين . . . عن الفلاحين . عن أناس من أمثال
بيلا ويسيويكا . على أن يكون في الكتابين شيء من
الإحساس ، وليس مجرد الضحك . بعض الكتب لا تعدو أن

تكون لغواً . خذ مثلاً «بانفيلكا وفيلاتكا» - هراء ، رغم أن هنالك صورة على الغلاف . أو بوشيوخونيون واساطير أخرى . أنا لا أحب هذا الهراء . لم أكن أعرف أن هنالك كتباً مثل كتابك .

- أتريدني أن أقرأ لك شيئاً عن ستينكا رازين ؟

- ستينكا ؟ هل هو جيد ؟

- هو رائع .

- فلنحصل عليه !

وهكذا بدأت أقرأ له «انتفاضة ستيبان رازين» لكوستوماروف . في البداية لم ترق لمستعملي الملتحي هذه الدراسة الموهوبة ، الشبيهة بملحمة شعرية .

استوضح ، وهو يحمل في الكتاب :

- لماذا لا يوجد حوار هنا ؟

وفيما أنا أشرح له ذلك حاول أن يخفسي تناؤبه . وأشعره ذلك بالخجل ، فقال وقد أحسّ بالذنب :

- إمض في قراءتك ! لا تلق إليّ بالآ .

وبمقدار ما كان المؤرخ يرسم ، بريشة الفنان وموهبته ، صورة ستيبان رازين ، ويهب «ذلك الأمير على أحرار الفولغا» من صفحات الكتاب ، كان كونوفالوف يخضع لانبعاث جديد . كان حتى ذلك العین يعاني من الضجر واللامبالاة والنعاس الذي يراوده ، ولكنه شرع ينمو أمامي بصورة تدريجية ودون أن ألحظ ذلك على صورة جديدة تشير الدهشة . وراحت ذراعه ، من حيث هو جالس على معجن قبالتى ، تطوقان ركبتيه ، ويضع فوقهما ذقنه حتى غطت

لحيته ساقيه ، وراح يلتهمني بعينه الملتهبتين المطلتين
من تحت حاجبيه المتجهمين . ولم يبق فيه شيء من آثار تلك
السذاجة الصبيانية التي كان يدهشني بها ، بل إن البساطة ،
والنعومة النسوية المتوافقة مع عينيه الزرقاوين اللطيفتين -
الداكنتين المتقلصتين الآن - اختفت جميعاً . وكان في جسده
شيء مضطرب ، شيء يعاثل الأسد ، غداً من بعد كتلة من
العضلات المتوترة . فتوقفت عن القراءة .

نبر في هدوء ، لكن في مهابة :

- استمر .

- ما بالك ؟

كرّر قائلاً ، وكان في صوته مزيج من الانفعال :

- اقرأ !

تابعت القراءة ، ورحت أرى وأنا أشخص إليه بين فينة
وأخرى أنه يزداد انفعالاً أكثر فأكثر . انبعث منه شيء -
نوع من ضباب حار - استفزني ، بل وأثملني . وأخيراً
وصلت الى الموضوع الذي أسروا فيه ستيان .

صاح كونوفالوف :

- لقد أسروه إذن !

كانت صيحته عامرة بالألم ، والغضب ، والاستياء .
انبثق العرق في جبهته ، واتسعت بصورة غريبة . وثب
عن المعجن وانتصب واقفاً أمامي ، طويسل القامة مرتعش
الأوصال .

قال في صوت عجول ، وهو يضع يده على كتفي :

- انتظر ! كفّ عن القراءة . . . أخبرني بما سيحدث .

كلا ، لا تخبرني . هل سيقتلونه ؟ تابع قراءتك ، يا مكسيم ، عجل !

يمكن أن يظن المرء أن كونوفالوف هو شقيق رازين ، وليس فرولكا . وبدا أن أواصر من الدم لم يبردها مرور ثلاثة قرون تربط هذا المتشرد برازين . كان يعاني بقوى جسده الحي القوي ، وبعاطفة الروح التواقة إلى «شيء ترسخ عليه قدميها» ، يعاني الألم والغضب اللذين عاناها ذلك الثائر المحب للحرية المأسور قبل ثلاثة قرون .

- استرسل في قراءتك بحق المسيح !

استرسلت في قراءتي وقد أثارني الانفعال ، وشعرت بخفقان قلبي ، وشاركت كونوفالوف الآلام التي تعرض ستيبان لها . وسرعان ما وصلنا إلى المكان الذي خضع فيه للتعذيب .

كز كونوفالوف على أسنانه ، وتوهجت عيناه الزرقاوان بالنار . استند على كتفي ، وعيناه عالقتان بصفحة الكتاب . وارتفعت أنفاسه فوق أذني وأطارت شعري فأدخلته في عيني . هزرت رأسي إلى الخلف كيما ادفع شعري عن جبهتي ، فرأى كونوفالوف ذلك ووضع كفه الثقيلة عليه . «في هذه اللحظة كز رازين على أسنانه بقسوة حتى سقطت على الأرض مع دماؤه . . .»

صرخ كونوفالوف ، وهو يختطف الكتاب من بين يدي ويقذف به على الأرض بكل قوته :

- هذا يكفي ! إرمين به إلى الجحيم !

ورمى نفسه وراء الكتاب .
بكى ، ولما كان الدمع يخجله فقد جصل يهدر لإخفاء
نحيبه . أخفى رأسه بين ركبتيه وبكى ، ماسحاً عينيه
بسرواله القطني القدر .
اقتعدت المعجن أمامه ، عاجزاً عن إيجاد الكلمات التي
تعزّيه .

قال كونوفالوف من حيث قبع على الأرض :
- مكسيم ! هذا مخيف ! بيلا . . . سيسويكا . . .
والآن ستيبان . يا للمصير ! فكّر في أن تبصق أسنانك على
هذا الفرار !
وارتعش كيانه بأمره .

صعقه بشكل خاص بصق ستيبان أسنانه ، فظلّ يردد
ذلك بين حين وحين ، وكثفاه ترتعشان في عصبية أن يأتي
على ذكره .
كان رأسانا يضطربان بتأثير صورة التعذيب الإنساني
الوحشية المرسومة أمامنا .

استحشني كونوفالوف ، وهو يلتقط الكتاب ويناولنيه :
- اقرأ لي مرة أخرى ، هلا فعلت ذلك ؟ خذ ، أرني
أين كتبت عن الأسنان ؟

أشرت إلى الموضع فثبتت عينيه على السطور .
- أهذا ما هو مكتوب حقاً : «بصق أسنانه مع دمانه» ؟
الحروف هنا مثلها في أي موضع آخر . يا الله ! لكم آذاه
ذلك من دون ريب ! ما؟ حتى أسنانه . . . وماذا سيكون

بعد ذلك ؟ هل يقتلونه ؟ شكراً لله أنهم سيقتلونه آخر المطاف !

عبر عن هذه الفرحة بحرارة متوترة ، في رضى انعكست صورته في مقلتيه ، ارعشتها هذه المشاركة في العذاب المترجية الموت للمعدب ستيبان .

قضينا بقية ذلك اليوم في غشاوة ضبابية ، لا حديث لنا إلا عن ستيبان مسترجعين حوادث حياته ، والأغنيات التي كتبت عنه ، والعذابات التي تعرض لها . وأنشد كونوفالوف مرتين إحدى الأغنيات بصوته الجهير الثري ، ولكنه قطع تلك الأغنية في منتصفها في تينك المرتين . منذ ذلك اليوم توطدت صداقتنا أكثر وأكثر .

قرأت له «انتفاضة ستيبان رازين» و«تاراس بولبا» و«المساكين» عدة مرات . وتأثر مستمعي كثيراً بقصة «تاراس بولبا» ، ولكن هذا التأثير لم يستطع أن يطفئ على الانطباع العميق الذي خلفه فيه كتاب كوستوماروف . لم يتمكن من فهم ماكار ديفوشكين وفاريا . وجد اللغة التي كتب بها ماكار رسائله تبعث على الضحك ، ووقف موقف التشكك من فاريا .

- انظر وحسب كيف هي تفازل ذلك الشيخ ! يا لمكرها ! - تفازل «فزاعة» مثله . كف عن إضاعة الوقت على هذا الهراء ، يا مكسيم ! فماذا أنت واجد فيه ؟ هو يكتب إليها ، وهي تكتب إليه - فلا يفعلان أكثر من إتلاف

الورق . فليذهبا إلى جهنم ! ليس ثمة ما يثير الضحك ، ولا ما يبعث على الأسى . ففيم كتّيبَ هذا الشيء ؟
قلت له إن ذلك شبيه بقصة أهل بودلييوفتسيين ، فلم يوافقني في الرأي .

- بيلا وسيسويكا . . . ذاك طراز آخر ! هما إنسانان حقيقيان ، يعيشان ويصارعان . أما هذان فمن هما ؟ جلّ ما يفعلان هو كتابة الرسائل . وهذا يضجر ! هما ليسا من البشر ، هما مصنوعان صنعاً . خذ تاراس وستينكا - يا الله ، لو أنهما عاشا معاً أفما كانا يقترفان الأعاجيب ؟ كانا يخلقان في بيلا وسيسويكا حياة جديدة !

لم يكن يحسن فهم الزمن ، ويتراءى له أن جميع أبطاله المفضلين عاشوا في وقت واحد ، فأنان منهم يعيشان في «أوسوليه» ، وواحد مع الأوكرانيين ، والرابع على الفولغا . ووجدت صعوبة في إقناعه أنه لو كان سيسويكا وبيلا أبحرا على الفولغا هبوطاً لما التقيا ستيبان ، ولو كان ستيبان وصل إلى قوازق الدون وانضم إلى الأوكرانيين لما عثر على بولبا هنالك .

خابت آمال كونوفالوف لدن سماعه الحقيقة . رويت له شيئاً عن انتفاضة بوغاتشوف ، راغباً في معرفة نظرتة إليه . فلم يرق له على الإطلاق .

- غشاش قدر ، هذه حقيقته ! اختبأ وراء اسم القيصر لإثارة الناس . . . ما هو عدد الرجال الذين قتلوا بسببه ؟ ستيبان ؟ لقد كان شيئاً مختلفاً ! أما بوغاتشوف فهو حقير لا أكثر . الديك كتب أخيراً شيهة بكتاب ستيبان ؟

إبحث . . . أما ماكار الأبله فأرمله ، فهو لا يثير الاهتمام .
لأحب أن أصغي إليك تتحدث مرة ثانية عن كيف أعدموا
ستيبان . . .

في أيام العطل كنا نذهب ، كونوفالوف وأنا ، إلى المروج
فيما وراء النهر . وكنا نحمل معنا قليلاً من الفودكا والخبز
وكتاباً ، وننتقل في الصباح إلى «الهواء الطلق» كما يسمى
كونوفالوف هاتيك النزعات .

وكان يروق لنا بصورة خاصة أن نزور «معمل الزجاج» .
ذلك كان الاسم الذي أطلق ، لسبب ما ، على بناء ينتصب
في حقل مكشوف غير بعيد عن المدينة . كان مبنياً من
الحجر ، من ثلاثة طوابق ، له سقف منهار ونوافذ محطمة ،
وقبو مشيع بمياه كريهة الرائحة طوال الصيف . كان يشمخ
في الحقل متداعي الجنبات ، رمادياً ضارباً إلى الخضرة ، طلعتة
بالية ، يديم النظر إلى المدينة من المحاجر المظلمة لنوافذه
المشوهة ، أشبه ما يكون بكسيح محتضر طردته المدينة .
وكانت فيضانات الربيع تغسله عاماً بعد عام ، وكان مكسواً
بقشرة عفنة خضراء من السقف حتى أساسه ، فيما بقى
شامخاً ، تحديق به بحيرات من المياه تحميته من زيارات
الشرطة المتكررة . كان ، رغم انهدام سقفه ، يؤمن ملجأ
طيباً لجميع صنوف المتشردين الغامضين .

كان هنالك على الدوام رهط منهم ، ثيابهم مهلهلة ،
انصاف جياع ، خائفون من ضوء الشمس ، يعيشون كالبحر
بين الأطلال . وكنت وكونوفالوف على الدوام ضيفين يرحّب
بنا بينهم ، فقد كنا اثناء مغادرتنا المخبز نحمل مع كل منا

رغيفاً من الخبز الابيض ونشتري نصف غالون من الفودكا وملء صينية كاملة من «الاطعمة الساخنة» - كبدة ، ورثة ، وقلب ، وكرشة . وبروبلين أو ثلاثة روبلات نؤمن لذلك «الشعب الزجاجي» ، كما يسميه كونوفالوف ، وليمة فاخرة . لقاء هذه اللانم كانوا يروون لنا قصصاً امتزجت بها الحقيقة المروعة المثيرة للنفس ، بصورة وهمية خيالية ، بالكذب الساذج الجلي . وكانت كل قصة أشبه بقطعة من مخمرات سوداء (الحقيقة) مغروزة بألوان زاهية (الكذب) . وكانت تلك المخمرات تلسف نفسها حول القلب والدماغ ، وتضغط عليها بأشكالها القاسية المتنوعة . وكان أفراد «الشعب الزجاجي» يجنوننا على طريقتهم . وما أكثر ما كنت أقرأ لهم ، فيعبرونني أسماعهم في انتباه واستغراق .

كنت أذهل للمعرفة العميقة بالحياة التي يديها أولئك الناس الذين قذفت بهم الحياة خارج نطاقها ، فأرهب اذني إلى اقاصيصهم في نهم . وكان كونوفالوف يصغي إليهم بدوره ، ولكنه يفعل ذلك كيما يعترض على وجهات نظرهم الفلسفية ويجرني الى النقاش .

حين راح واحد من تلك المخلوقات ، ثيابيه تكاد أن تكون خيالية وملامح وجهه تعبر عن مزاجيته القائلة إن المرء يفعل حسناً اذا ابتعد عنه ، يروي قصة حياته ودمايره (وقد غدت من دون ريب مقالة للدفاع عن الذات والتبرير الشخصي) ، فقد كان كونوفالوف يبتسم مغرقاً في التفكير ويهز رأسه . وكانوا هم يلحظون ذلك .

ويسأل ذلك الذي سرد وقائع القصة :

- الا تصدقني ، يا ساشا ؟
- أصدقك من دون ريب . ينبغي أن تصدق ما يقوله
المرء ! ولو كنت تعرف أنه يكذب صدقه ، أصغ اليه
وحاول أن تستشف لماذا يكذب . أحياناً تلك الأكاذيب
المرء عن ماهيته أكثر مما تدلك الحقيقة . وما هي الحقيقة
التي يمكن أن نقولها عن حيواتنا ؟ ليس ثمة ما هو أشد
الماً منها ! وهكذا نحن نغطي ذلك برواية الأكاذيب . ألسنت
على صواب ؟

فيوافق محادثته قائلاً :

- أنت على صواب . لكن فيم تهز رأسك ؟
- فيم ؟ لأنك لا تنظر إلى الأمور نظرة صحيحة . أنت
تتحدث كما لو لم تكن أنت نفسك من صنع نفسك ، بل
الشرطة وأناس عابرون من صنعوها . فإين كنت أنت إذن في
هذا الوقت ؟ لماذا لم تقاومهم ؟ نحن دائماً نتشكى من الناس
الآخرين ، ولكننا رجال أيضاً . السنا رجالاً ؟ وهكذا يمكن
أن نكون عرضة للشكوى بدورنا أيضاً إذن . وإذا كان ثمة
من يقف حجر عثرة في سبيلنا ، فقد نكون نحن حجر عثرة في
سبيل أشخاص آخرين ، أليس كذلك ؟ كيف تفسّر هذا
إذن ؟

- يجب أن تبني الحياة بحيث يكون هنالك امكنة رحبة
لجميع الناس ولا يكون أحد حجر عثرة في سبيل سواء ، -
يقولون لكونوفالوف .

ويسأل كونوفالوف متحدياً :

- ومن يبنّيها ؟

ويعجل في الجواب قبل أن يسبقه شخص آخر :
- نحن ! نحن أنفسنا ! لكن كيف نبنيها إذا لم تكن
نعرف كيف نفعل ذلك ؟ إذا لم تكن نعرف كيف نجعل حياتنا
الخاصة جديرة بالالتفات ؟ يبدو أنه ليس هنالك من يمكن
أن نلجأ إليه غير أنفسنا ، أما أنفسنا - حسناً ، فمعروف
ماهية أمثالنا تماماً .

اعترضوا ، وحاولوا أن يجدوا مبرراً لأنفسهم ، فظل هو
يؤكد بإصرار على هذه الناحية : كل امرئ مسؤول عن الحال
التي وصل إليها ، ولا يمكن أن يصبب اللوم على سواء
بالنسبة إلى ما يحقق به من خيبة .

كان من الصعب أن ترحزه عن رأيه ، كما كان من
الصعب أن تقبل موقفه من الناس . فهم قد كانوا من جهة ،
في تصوره ، قادرين تماماً على استصناع حياة يتمتع فيها
الناس بالحرية ، وكانوا من جهة أخرى ضعافاً لا حول لهم
عاجزين عن الإتيان بأي شيء فيما عدا التشكي من بعضهم
بعضاً .

كانت هذه المجادلات تبدأ في الغالب في منتصف النهار ،
وتنتهي عند انتصاف الليل ، فنعود ، كونوفالوف وأنا ، من
«الشعب الزجاجي» في عتمة الليل غارقين في الوحل حتى
ركبنا .

ذات مرة كدنا أن نفرق في مستنقع ، وفي مرة أخرى ألق
الشرطة القبض علينا في إحدى غاراتها ، وامتدنا الليلة في
المخفر مع حوالي عشرين شخصاً من سكان «معمل الزجاج»
الذين أثاروا ريبة رجال الشرطة . لم تكن بنا رغبة في بعض

الأحايين للتفلسف ، فنروح معاً نتوغل في الحقول بعيداً على الضفة الأخرى من النهر إلى أن نبلغ بعض البحيرات الصغيرة العامرة بأسماك صغيرة جاء بها النهر في فترة الفيضانات الربيعية . ولمجرد الاستمتاع بجمال ذلك المشهد فقد كنا نضرم ناراً في الأدغال المحاذية لشاطئ إحدى هذه البحيرات ، ونقرأ أو نتحدث عن الحياة . وكان كونوفالوف يقول أحياناً ، وقد استبدت به نزوة غريبة :

- مكسيم ، دعنا لا نفعل شيئاً إلا التطلع إلى السماء ! فنستلقي على ظهرينا ، ونشخص إلى الغور الأزرق العميق فوقنا . في البداية كنا نسمع حفيف الأوراق وخرخرة المياه . ونستشعر الأرض تحتنا . وبعد ذلك أخذت السماء الزرقاء تشدنا إليها تدريجياً ، فنفقد كل إحساس بالوجود ، ونروح نسبح ، وكأنا رفصنا عن الأرض ، في الرحابة السماوية ونحن في حال من التأمل الروحاني الناعس نخشى أن نكدره بكلمة أو حركة منا .

هكذا كنا نستلقي ساعات بطولها ، ثم نعود إلى العمل نشيطين متجددين روحاً وجسداً .

كان كونوفالوف يحب الطبيعة حباً عميقاً أخرس ، وحيثما يتواجد في الحقول أو على ضفة النهر فهو يستغرق في حال رقيقة وادعة تزيد من شبهه بالطفل . وفي بعض الأحيان يقول وهو يرسل زفرة عميقة ويرنو إلى السماء :

- آه ، هذا ما أتمناه !

وكان في ذلك الهتاف المفرد تأمل وشعور أكثر مما في الصور البلاغية للكثير من الشعراء ، وبخاصة أولئك الذين

تأسرهم الرغبة في أن يظهروا كأناس مرهفي الإحساس أكثر من الافتتان فعلياً بجمال الطبيعة . كان الشعر ، مثله مثل أي شيء آخر ، يفقد بساطته القدسية حين يغدو مجرد حرفة .

... على هذا الفرار انقضى شهران يوماً بعد يوم . تحدثت وكونوفالوف عن أمور كثيرة ، وقرأنا أشياء كثيرة . قرأت له «انتفاضة ستيبان رازين» مرات ومرات حتى صار في مقدوره أن يروي القصة بلغته الخاصة ، صفحة صفحة ، من بدايتها إلى نهايتها . وصار الكتاب عنده أشبه بأسطورة سحرية فتانة عند طفل صغير ينفعل سريعاً . وأطلق أسماء على الأدوات التي يستخدمها في عمله مشتقة من أسماء أبطال الكتاب . وحين سقطت مرة قصعة عن الرف وتحطمت هتف غاضباً :

- عليك اللعنة ، أيها الكاتبن بروزوروفسكي !
وإذا تأخر العجين في النضوج فهو يناديه «فرولكا» ؛
والخميرة أسميت «افكار ستيبان» ؛ في حين كان ستيبان نفسه مرادفاً لكل ما هو فريد ، عظيم ، سيى' الحظ ، خدينه الفشل .

طوال هاتيك الفترة تقريباً لم يرد لكابيتولينا أي ذكر ، وهي التي قرأت رسالتها ورددت عليها في اليوم الذي التقيت كونوفالوف فيه .

أرسل إليها كونوفالوف نقوداً عن طريق فيليب ، وطلب إليه أن يكفلها لدى الشرطة ، إلا أنه لم يأت أي جواب منها أو من فيليب .

وفجأة ذات مساء ، وكنا نهيم العجين لوضعه في الفرن ،
انفتح باب المخبز وانحدر إلينا من عتمة رواقه الرطب صوت
نسوي عميق :

- أستمعكم العذر !

كان الصوت خجولا " مداعبا " في وقت واحد .

استفسرت :

- من تريدین ؟

ترك كونوفالوف الجاروف ينزل على الأرض قرب قدميه
وجعل يشد لحيته في حيرة .

- هل الخباز كونوفالوف يعمل هنا ؟

هذه هي الآن قد وقفت عند الوصييد ، وسقط ضوء
المصباح المعلق على رأسها المشدود بشال صوفي أبيض ،
من بين طياته برز وجه مدور جميل أفطس الأنف ، له
وجنتان مدورتان ترتسم عليهما غمازتان حين تنشق شفاتها
الممتلئتان الحمران عن ابتسامة .

أجبت قائلا :

- إنه يعمل هنا .

هتف كونوفالوف مغتبطا ، وقد ترك الجاروف ووثب
ناحيتهما بخطوات واسعة :

- يعمل هنا ، هنا !

لهشت صارخة :

- ساشا !

تعانقا ، وقد انحنى كونوفالوف انحناء كبيرة .

- كيف حالك ؟ متى وصلت إلى هنا ؟ يا الله ! أنت

طليقة ؟ رائع ! هل ترين ، ماذا قلت لك ؟ أمامك الآن ممر
نظيف ! فامشي عليه في جراءة ودونما خوف من أي شيء !
هذا ما أثر به كونوفالوف في عجلة ، وهو لا يبرح واقفاً
عند الوصيد وذراعااه ملتفتان حول كتفي الفتاة وخصرها .
- ستتابع العمل وحدك اليوم ، يا مكسيم ، في حيسن
اعنى أنا بالسيدة . أين عزمت على الإقامة ، يا كابا ؟
- هنا ، معك .

- هنا ؟ لا تستطيعين الإقامة هنا . نحن نخبر خبراً
هنا ، وفضلاً عن ذلك معلمنا رجل مترمت . ينبغي أن تؤمن
لك مكاناً تاوين اليه الليلة في غير هذا المكان . ربما في
فندق . تعالي !

وخرجوا . وبقيت أخبز الخبز ، ولم أتوقع عودة كونوفالوف
قبيل الصباح . ولكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيته يعود
بعيد ثلاث ساعات . وتفاقت دهشتي حين نظرت إلى وجهه
فألفيته متعباً كثيراً بدلاً من أن يشرق بنور السعادة كما
أمّلت .

استوضحته ، متسائلاً عما أطلع بصديقي في حال لا
تتفق والأحداث الجارية :

- ما الأمر ؟

اجاب في جهمة :

- لا شيء .

وبعدما صمت قليلاً بصق بحدة .

البحث عليه :

- لكن ، بعدما حدث . . .

قال في صوت موهون ، وهو يتمدد على المعجن :

- ما علاقتك بهذا الأمر ؟ على أية حال ، على أية حال . . . على أية حال هي امرأة .

لقيت مشقة كبيرة في الحصول على إيضاح منه ، وقد فعل ذلك أخيراً فعالنني بالكلمات التالية تقريباً :

- امرأة ، أقول لك . ولو لم أكن مغفلاً ملعوناً لما حدث هذا كله . أتفهم ؟ وأنت تظل تلحُ قائلاً إن النساء مخلوقات بشرية أيضاً . لا ريبة أنهن يمشين على أقدامهن الخلفية ، ولا يعضن الأعشاب ، ويعرفن كيف يتحدثن ويضحكن ، ومع هذا فلسن جديرات بنا . لماذا ؟ لست أدري . كل ما أعرف هو أنهن لسن بنا جديرات . وهذا كل شيء . خذ كاييتولينا هذه ، وإليك منوالها في الحياة ، فهي تقول : «أريد أن أعيش معك مثل زوجة لك . أريد أن أتبعك مثل كلبتك» . هل سمعت بمثل هذه الحماقة ؟ وأقول لها : «تعالى ، يا حبيبة القلب ، فأنت تهرفين . احكمي بنفسك - كيف يمكن أن تعيشي معي ؟ أنا أولاً سكتير ، وثانياً لا أملك سقفاً يؤويني ، وثالثاً أنا جواب آفاق لا أستطيع الإقامة في مكان واحد فترة طويلة . . .» وهكذا دواليك ، معطياً أسباباً كثيرة . ولكنها راحت تقول : «لا يهمني انك سكتير لأن جميع العمال يسكرون ، ومع ذلك فلهم زوجات . أما بالنسبة إلى المأوى فعندما تأخذ امرأة تحت جناحك تجد سقفاً يؤويك ، وعندها تكفى عن التطواف هنا وهناك» . وأقول : «كلا ، يا كايا . لا أرى رأيك ، لأنني أعرف أنني لا أصلح لهذا النمط من الحياة ولن أصلح له مطلقاً» . ولكنها

تقول : « اذن سألقي بنفسي الى النهر ! » فاقول : « أيتها الحمقاء الصغيرة ! » وعندها تشتمني : « أيها المشاغب ، أيها المحتال ، تخدعني على هذا الفرار ، أيها القملة الطويلة الساقين ! » وراحت تنقُ وتنقُ حتى جعلتني أتأهب للهرب . وعندها انخرطت تبكي . تبكي وتقرعني : « لماذا تركتني أحضر الى هنا اذا لم تكن تريدني ؟ لماذا تركتني أبرح ذلك المكان ؟ وماذا افعل بنفسي الآن ؟ أيها الأحمق المافون ! » . . . حسنا ، ماذا أفعل معها الآن ؟ .

سألت :

- لماذا اخرجتها من هناك حقاً ؟
- لماذا ؟ أنت إنسان عجيب ! لأنني شعرت بالشفقة عليها ! كل إنسان يشعر بالشفقة على إنسان يراه يغرق في الأوحال . اما بالنسبة إلى ربط نفسي بزواج وما يتبع ذلك - فلن يقعنّ شيء من هذا ابداً . ابداً لن أوافق على شيء من هذا القليل . فأني صنف من اصناف رجال العائلات أنا ؟ لو كنت أستطيع القبول بذلك كنت تزوجت منذ زمن بعيد . يا للسانحات التي أتيت لي ! مع مهر وكل شيء . . . لكن ، كيف أستطيع أن أفعل هذا الشيء إذا كان فوق طاقتي ؟ إنها تبكي طوال الوقت ، وهذا أمر سيئ بكل تأكيد . لكن ، ماذا عليّ أن أعمل ؟ لا أقدر !

وهز رأسه تأكيداً لجملته الحزينة « لا أقدر » ، ونهض عن المعجن ، ونفش لحيته بكلتا يديه ، وهب يندرع أرض المخبز مطروق الرأس ، باصقاً للتعبير عن اشمزازه بين وقت وآخر .

قال ، وفي صوته توسل وارتيباك :
- مكسيم ! لعلك تذهب إليها وتخبرها عن ماهيسة
الأمور ، ما رأيك ؟ فانت فتى طيب . إذهب ! يا أخي !
- وماذا أقول لها ؟
- قل لها الحقيقة بأكملها . قل لها إنني لا أستطيع أن
أفعل ذلك . والأمر ليس بيدي . أو قل لها - قل اني مصاب
بمرض خبيث .
فضحكت :

- ولكن هذا غير صحيح .
- كلا ، ولكنه عذر مقبول ، اليس كذلك ؟ لعنة الله
على ذلك كله ، يا للفوضى ! ماذا تراني أفعل بزوجتي ؟
لوح ذراعيه في حركة يائسة توضح أنه في غير حاجة إلى
زوجة . وعلى الرغم من السخرية التي مازجت أسلوبه في عرض
القضية فقد حملني جانبها المأسوي على التساؤل عما سيحدث
للفتاة . وبقي هو يراوح ويفادي ويتحدث كأنما مع نفسه :
- وأنا لم أعد أحبها - على الإطلاق ! فهي تظل تشدني ،
تمتصني وتبتلعني مثل مستنقع . وتحسب أنها عثرت لنفسها
على زوج . هه ! إنها ليست ذكية ، ولكنها ماهرة .
لا ريبة أن ما ينطق على لسانه هو طبيعة المتشرد
والشعور بالنزوع القوي الى الحرية التي بدت مهددة الآن .
قال متباهياً :

- لكنني لن أقع في شباك مثل هذه الدودة ! فانا سمكة
كبيرة ، وأنا سأجعلها تعرف ، و . . . و . . . لم لا أفعل
ذلك ؟

ووقف في وسط المغبز واستغرق في التفكير ، وابتسامة
تتراقص على شفثيه . وفيما أنا أراقب وجهه الذي انفعـل
حيوية على حين غرة ، حاولت أن أخمن علامَ استقرَّ رأيه .
- مكسيم ! فلنرحلنَّ إلى كوبان ؟!

لم أكن أتوقع منه هذا . كنت أرى في نفسي بعض
المقاصد الأدبية التعليمية التي ركّزتها عليه . رجوت أن
أعلمه القراءة والكتابة ، وأن ألقّنه جميع المعارف التي
حصلت عليها حتى ذلك الحين . وقد وعدني أن يقيم الصيف
هنا ، وهو أمر يخفف من عبء مهمتي ، وهذا هو الآن . . .
قلت في ارتباك :

- انت تعرف !

فهتف فجأة :

- وماذا ينبغي أن أفعل إذن ؟

حاولت أن أفهمه أن مقاصد كاييتولينا لم تكن جديدة
بالصورة التي يخالها ، وأنه ينبغي عليه أن ينتظر ويرى ما
سيحدث .

وبدا أننا لم نضطر إلى الانتظار طويلاً .

كنا جالسين على الأرض أمام الفرن ، وقد أدركنا ظهورنا
للنافذة . وكان الوقت يقارب منتصف الليل ، وقد انقضت
على عودة كونوفالوف ساعة ونصف أو ساعتان . وعلى حين
فجأة رنَّ من ورائنا صدى تحطم زجاج ، وتدرجت على
الأرض حجر كبير . وثبنا في رعب وركضنا إلى النافذة .
زق صوت من الطريق :

- أخطأته ! لم أحسن التصويب . أووووه ، لو أن ...

وزمجر صوت خفيض عميق :

- تعال . تعال . سأصفي الحساب معه فيما بعد !
وتهاوت من النافذة المحطمة ضحكة هستيرية سكرى ،
ضحكة تموج ياساً ، حادة رنانة تحطم الأعصاب .
قال كونوفالوف في حزن :

- إنها هي !

لم استطع أن أميز غير ساقين تنزلقسان في فجوة
النافذة . بقيتا هنالك ، تتأرجحان ، والعقبان يضربان الجدار
القرميدي كأنما تبحثان عن مستقرٍ لهما .

همهم الرجل :

- لنذهب !

- دعني ! لا تشدني ! دعني أنفض ما في نفسي ! وداعاً ،
يا ساشا ! وداعاً . . .

ورنَّ بعد ذلك سباب فاحش .

اقتربت من النافذة كيما أرى كابيتولينا . كانت معنية
الظهر معتمدة على الرصيف ، محاولة رؤية ما في داخل المخبز ،
وشعرها المسترسل يسترخي على صدرها وكتفها . وكان
شالها الأبيض منزلقاً عن رأسها ، وأعلى ثوبها ممزق .
كانت سكرى . تترنح من جانب إلى آخر ، تفوق ، وتشتم ،
وتصرخ بصورة هستيرية ، وترتعش ، ممزقة الثياب ،
متضرجة الوجه ، مبللة بالدموع .

وكان رجل طويل ينحني عليها .

ظلَّ يصيح واضعاً إحدى يديه على كتفها والأخرى على
جدار المنزل :

- تعالي !

- ساشا ! لقد دمرتني ، فاذاكر هذا ! لعنة الله عليك ،
أيها الشيطان الأحمر الرأس ! أتمنى من الله لو أنك لم
تطلّ على الوجود . لقد اعتمدتُ عليك ، فبصقتَ في وجهي .
حسنًا ، لسوف نسوّي حسابنا تمامًا ! أنت تختبئ مني ،
اليس كذلك ؟ أنت خجلان من نفسك ، أيها الوحش الذي وجهه
وجه خنزير ! ساشا . . . حبيبي . . .

قال كونوفالوف في صوت خشن وهو يركع على المعجن
امام النافذة :

- أنا لا اختبئ من أيّ كان ! أنا لا اختبئ . ولا ينبغي
أن تقولني مثل هذا القول . أردت أن اساعدك . وحسبت أنني
فعلت خيرًا . ولكنك أفسدت كل شيء . . .

- ساشا ! هل تستطيع أن تقتلني ؟

- لماذا سكرت ؟ من يعلم ما يمكن أن يحمل الغد ؟

- ساشا ! ساشا ! أغرقني !

فنبهر صوت الرجل :

- كفى ! تعالي !

- أيها البغيض ! لماذا تظاهرت أنك كريم ؟

- ما هذه الضجة ؟ من هؤلاء الناس ؟

بترت صافرة الخفير الليلي ذلك الحديث ، واغرقتة ،
وصممت .

- لماذا وثقت بك ، أيها الابليس ؟

عند النافذة ارتفع نحيب الفتاة .

ارتجفت ركبناها فجأة ، وارتفعتنا سريعاً ، واختفتنا في
الظلمة . وارتفعت أصوات صمّاء وأصداء عراك . . .

أعولت الفتاة في نبرة قانطة :

- لا أريد الذهاب إلى مخفر الشرطة ! سا . . . شه . . . لا !

وتردد وقع أقدام ثقيلة على الرصيف .

صافرات ، وخوار مكتوم ، وعويل . . .

- سا . . . شه . . . لا ! ساشا . . . عزيزي !

بدا كما لو أن إنساناً يتعرض لعذاب وحشي فيما ابتعدت
هذه الأمور كلها في الظلمة ، وخفتت ، وخفتت ، وأخيراً تلاشت
مثل كابوس .

صعقتُ وكونوفالوف لما حدث بصورة سريعة للغاية ،
وجعلنا نحدّق في الظلمة ، عاجزين عن التخلص من العويل ،
والنشيج ، واللعنات ، والزمجرة ، وصيحات الشرطة والانات
المؤلمة ، وفيما أنا أتذكر بعض هاتيك الأصوات لم أقوُ
على تصديق أن ذلك كله حدث فعلاً - فلقد انتهت تلك
المأساة المختصرة ، لكن الثقيلة ، بسرعة مذهلة .

قال كونوفالوف في إيجاز وبساطة ، وهو يصغي من جديد
إلى سكون الليلة المظلمة التي تطلُّ علينا من النافذة في مهابة
هادئة :

- النهاية !

واردف قائلاً بعد صمت قصير بدهشة ، وهو لا يبرح
راكماً على المعجن مسنداً ذراعيه على حافة النافذة :

- تلك الأقوال التي صرفتها بحقي ! لقد وقعتُ بين

يدي الشرطة . سكرى . مع ذلك السكير . كنت اعرف ان الامر لن يطول بها .

وصعد زفرة حرى ، ونهض عن المعجن ، وجلس على كيس طحين ، وامسك راسه بيديه ، وراح يتمايل من جانب إلى آخر .

قال في صوت مهموس :

— قل لي ، يا مكسيم : ماذا حدث ؟ وماذا يجب على أن أفعل ؟

قلت له . قلت : قبل كل شيء يجب ان يفهم المرء ماذا كان يريد ، وأن يرى أين تقوده خطواته قبل أن يخطو الخطوة الأولى . وهو لم يكن يفهم كل هذا ولم يكن يعرف ، ولذلك فهو الملوم على ما وقع . كنت غاضباً عليه . كلمة «تعالى» السكرى ، وعويل كاييتولينا وزمجرتها ، أمور لا تبرح تطن في اذني . فلم أرحم رفيقي . أصغى إلي مطرقاً برأسه . وحين انتهيت ، رفع رأسه فرأيت أنه حائر مذعور .

هتف قائلاً :

— هذا ما حصل إذن ! ماذا سيحدث بعده ؟ كيف اتصرف ؟ ماذا أفعل بها ؟

كان في نبرة كلامه كثير من الصراحة الطفولية والحيرة العاجزة ، في الاعتراف بذنيه أمام هذه الأنسة ، حتى رثيت له في الحال واسفت لأنى خاطبته بمثل تلك القسوة . سألتني في ندم :

— لماذا أحضرتها إلى هنا ؟ اللعنة على ذلك كله ! ماذا

تراها تفكر فيّ الآن ؟ سامضي الى مخفر الشرطة وأبذل جهدي
لإطلاق سراحها . سارها و . . . أفصل المستحيل .
سأخبرها . . . بهذا الشيء أو ذاك . هل أذهب ؟
قلت إنني أرى أن مقابلته أياها لن تجدي نفعاً كثيراً .
ماذا يمكن أن يقول لها ؟ فضلاً عن ذلك فهي سكرى وقد
تكون استسلمت الى النوم .

واصرّ على الذهاب .

- سأذهب . حسناً . على الأقل أنا أتمنى أن أساعدها .
أولئك الناس من هم بالنسبة إليها . سأذهب . وانت تدبّر
الامور هنا . لن أتاخر كثيراً .

وضع قبعته على رأسه وخرج من المخبز ، وقد نسي أن
ينتعل حذاءه المهترىء الذي يزهو به عادة .

أنجزت عملي وغفوت . وحين أبكرت في النهوض والقيت
نظرة كالعادة إلى الزاوية التي ينام فيها كونوفالوف لم أعثر
عليه .

كان الليل قد أسجف حين ظهر - منتفخاً ، أشعث ، على
جبهته خطوط عميقة ، وفي عينيه الزرقاوين ظل أسود . لم
ينظر إليّ ، بل خطا صوب المعاجن ، وتفحص العمسل الذي
أنجزت ، واستلقى على الأرض دون أن ينطق بحرف واحد .
استفسرت :

- هل رأيته ؟

- لهذا السبب ذهبت ، ليس كذلك ؟

- حسناً ، ماذا حدث ؟

- لا شيء .

كان واضحاً انه غير راغب في الحديث . لم أثقل عليه بأسئلتني ، وقد تأكد لي أن مزاجه لن يستمر طويلاً . وطوال اليوم التالي لم يتعد حديثه كلمات مقتضبة يتطلبها عملنا وهو يسير في المخبز مطرق الرأس ، وعيناه غائمتان مثلهما يوم آب اليّ امس . وكأنما انطفأ في داخله شيء ما . اشتغل في بطن وملل ، وقد استغرقت افكاره . وفي الليل ، حين وضعنا آخر وجبة من الخبز في الفرن وخشينا ان نستلقي فحترق ، اتجه إليّ قائلاً :

- اقرأ لي شيئاً عن ستيبان .

شرعت أقرأ عليه وصف تعذيب ستيبان وأعدامه باعتبار انه المقطع الذي أثار انفعالاته أكثر من أي شيء آخر . استلقي متمدداً بظهره على الأرض ، محدقاً دون أن يطرف له جفن في أقواس السقف المغطاة بالسخام . قال في نبرة متماهلة :

- وهكذا قضوا على إنسان . ورغم ذلك كان في الإمكان أن يعيش المرء حينذاك . المحرّر . على أقل تقدير كان هنالك ما يمكن أن تشغل به طاقة حيويتك . أما اليوم فكل شيء ساكن مسالم - مسالم جداً إذا نظرت إليه من الخارج . الكتب والثقافة وكل شيء آخر . لكن المرء يعيش دون أن يقف إلى جانبه أي كائن ، ودون أن يكون هنالك من يرفع شأنه . محظور أن يخطئ ، ولكن اجتناب الخطأ مستحيل . ولذلك ثمة نظام خارجي ، بينما في الداخل فوضى . ولا أحد يستطيع فهم الآخر .

سألته :

- كيف هي الأمور بينك وبين كابيولينا ؟
- فأجاب ، وهو يهتزُ مرتعشاً :
- ماذا ؟ مع كايا ؟ انتهى كل شيء .
- وهزَّ يده في عزم .
- لقد قطعت كل صلة إذن ؟
- لست أنا . هي فعلت ذلك .
- كيف ؟

- بكل بساطة . بقيتُ على ما كانت عليه ولم تقبل أن تتبدل . وهكذا رجعنا إلى ما كنا عليه . سوى أنها لم تعتد على السكر من قبل ، أما الآن فهي تسكر . أخرج أنت الخبز ، فلسوف أنام .

رانت السكينة على المخبز . وأرسل المصباح دخاناً ، وباتت المدخنة تطلق بين حين وآخر قرقرة ، فتقعق قشرة الأرغفة الموضوعة على الرفوف بدورها . وكان الخفراء الليليون يقفون قريباً من نافذتنا يتحدثون ، وثمة صوت آخر ينسرق من النافذة بين حين وآخر - لعلّه هو صوت قرقرة لوحة مخبزنا ، ولعلّه أنين شخص ما .

أخرجت الخبز واضطجعت ، غير أن النوم جافاني فما اغتمضت عيناى ، بل بقيت مستلقياً هنالك أصغى إلى أصوات الليل بعينين نصف مغمضتين . وفجأة لمحت كونوفالوف ينهض دون أن يندب عنه صوت ، ويمضي ناحية الرف ، ويأخذ كتاب كوستوماروف ، ويفتحه ، ويقربه من عينيه . كنت أرى بوضوح وجه الغارق في التفكير ، وراقبته وهو يمرّر إصبعه على السطور المطبوعة ، ويهز رأسه ،

ويقلب الصفحة ، ويتفحصها في عناية ، ثم يشخص إليّ .
كان ثمة شيء غريب ، شيء بالغ الانقباض متسائل في وجهه
الساهم . شخص إلى طويلاً بوجه لم أر مثل نظراته من
قبل قط .

لم استطع تمالك فضولي ، فسألته ماذا يفعل .
اعتذر قائلاً :

- حسبتك نائماً .

اقترب مني ، والكتاب في يده ، وجلس إلى جانبي ، وقال .
متلعثماً :

- انظر . إليك ما أردت أن أسألك . أليس هنالك
كتاب يعلم مبادئ الحياة ؟ يعلمك كيف تتصرف ؟ ما أحب
أن أعرفه هو ما يلي - ما هو الشيء الخطأ ، وما . . . هو
الشيء الصواب . إنها تمرضني هذه التصرفات التي آتيها .
تبدأ صائبة وتنتهي سيئة . خذ قضيتي مع كايا .
وارسل نفسك عميقاً ، وتوسل قائلاً :

- أرجو أن تحاول العثور على مثل هذا الكتاب ، وتقرأه
لي .

وصمت .

- مكسيم ! . . .

- ماذا ؟

- تلك الأقوال التي صرفتها كاييتولينا بحقي !

- ما بها ؟ أرمها من ذهنك . . .

- لا ريبة أن لا وزن لها الآن . لكن ، أخبرني ، هل

تملك الحق في ذلك ؟

ذلك كان سؤالاً دقيقاً ، ولكنني اجبت بالايجاب بعد تفكير قصير .

قال كونوفالوف في جبهة :

- هذا ما يبان لي ايضاً . فهي تملك الحق في ذلك .
وجنح إلى الصمت .

تململ على الحصير المفروش على الأرض ، وهباً على قدميه عدة مرات ، واشعل لفافة ، وجلس قرب النافذة ، ثم اضطجع على الأرض من جديد .

غفوت أخيراً . وحينما استيقظت لم أجده . رجع في العشية . بدا وكأنه مغطى بطبقة كثيفة من الغبار ، وفي عينيه الفائتين تعبير متجمد . ألقى قبعته على الرف ، وزفر ، وجلس إلى جانبي .

- أين كنت ؟

- ذهبت لرؤية كابا .

- إذن ؟

- لقد انتهى كل شيء يا صاح . تماماً مثلما قلت !
قلت محاولاً التسرية عنه :

- لا يستطيع' المرء فيما يبدو شيئاً حيال أمثالها من الناس . . .

وأضفت عدة كلمات عن قوة العادة ، وعن كل ما يتفق وتلك الحادثة . جلس كونوفالوف يحدق في الأرض ، وبقي معتصماً بالصمت حتى انتهت من كلامي .

- آه ، كلا ، أنت على خطأ . ليس هذا من جنود القضية . يبدو انني رجل اشبه المرض . لا نصيب لي في

هذه الدنيا . فانا أزفر سماً . ما أن اقترب من امرئ حتى يتسّم . ولا يمكن أن أحمل للناس غير الشقاء . إذا فكرنا في القضية فالى من تراني حملت سعادة ؟ لا أحد ! وقد عرفت كثيرين من الناس في حياتي . ثمة شيء متعفن في . . .
- هراء ! . .

فأجاب ، وهو يوميء برأسه في قناعة :
- إنها الحقيقة ! . .

حاولت أن أثبت أنه على خطأ . ولكن ما قلت زاده قناعة أكثر بأنه غير أهل للحياة في هذا العالم . . .
لقد أصابه تبدل سريع جذري . صار فاطر الهمة ، شارد الذهن ، قليل الكلام ، منظوياً على نفسه . وفقد اهتمامه بالكتب وأضاع حماسه السابقة للعمل .
وفي أوقات الفراغ جعل يستلقي على الأرض ، ويحرق بثبات في السقف المقنطر . وغارت وجنتاه ، وفقدت عيناه بريقهما الصافي الطفولي .
استوضحته :

- ما بالك ، يا ساشا ؟

فأوضح لي :

- إنها بداية السكر . ما أسرع أن أبدأ أعبء الفودكا . . . جوفي يتخزني فكأنه يذبل . لقد حان الوقت . لولا ما حدث كان يمكن أن أقاوم مدة أطول . حسناً ، هذا ما كان . لكن ، كيف تفسر ذلك - لقد طاف في ذهني أنني اصنع معروفاً مع إنسان ، فإذا الأمور تنعكس تماماً ! نحن في حاجة إلى قواعد تعلمنا كيف نتصرف ، يا صاح . أصبح

ان صياغتها من الصعوبة بمكان ، هذه القواعد ، حتى إن جميع الناس ينصرفون التصرف ذاته ويفهمون بعضهم بعضاً ؟ كيف يتوقع الناس أن يعيشوا في مثل هذا البعد الذي يفصل بين واحداهم والآخر ؟ أفلا يملكون في رؤوسهم ادمغة توضح لهم وجوب اقامة نظام في الحياة ، ويعرف كل منهم ما ينبغي عليه ان يعرف ؟ يا الله !

استغرقته أفكاره عن ضرورة إحداث نظام للحياة فلم يلق انتباهاً الى ما كنت أقول . ولحظت أنه يتعاشاني . ذات يوم ، وفيما هو يسمعي أتحدث عن أفكارى حول إعادة صنع الحياة للمرة المائة احتاج غضباً :

— إخرس . . . فلطالما سمعت منك هذا من قبل . جوهر القضية ليس في الحياة بل في الناس . الناس هم الشيء الأساسي ، أفهم ؟ وهذا كل ما في الأمر . عطفاً على ما تقول ، ينبغي أن يبقى الناس على ما هم عليه حتى تتبدل الأمور . آه ، كلا . بدل «الناس» أولاً ، وارهم كيف يتصرفون ، وعندها يقدو كل شيء واضحاً ولا يقف أحد في وجه الآخر . هذا ما يتعين علينا أن نفعل للناس ، أن نعلمهم سواء السبيل .

اعترضت ، فطاش صوابه وتجهمت طلعتة . قال :

— اتركني وشأني !

خرج مرة في المساء ولم يرجع الى العمل في الليل وفي اليوم التالي . وجاء صاحب المخبز ، وقال في صوت يمازجه قلق ظاهر :

- ساشا سكران ، وهو جالس في «الجدار» . يجب أن
نعثر على خباز آخر . . .

- لعله يعود الى صوابه !

- مستحيل ، فانا أعرفه . . .

ذهبت الى «الجدار» ، وهي حانة اقيمت بمهارة في جدار
حجري . وكانت صفتها المميزة تقوم في خلوها من اي
نافذة ، والضوء فيها يتساقط من فتحة في السقف . لم تكن
في حقيقة الامر اكثر من حفرة مربعة الشكل محفورة في الأرض
ومغطاة بالواح خشبية . كانت تعبق برائحة الأرض ،
والمخوركا ، والفودكا ، وتزدحم على الدوام بأشخاص
يشيرون الريبة ، هم زوارها الدائمون . كانوا يقيمون فيها
أياماً بطولها ، ينتظرون صاحب صنعة أن يأتي ليعاقر الخمرة
كيما يسكروا على حسابه حتى آخر قرش لديه .

كان كونوفالوف جالساً الى منضدة كبيرة في وسط الحانة
وقد تحلقه ستة من السادة في ثياب مهلهلة ممزقة ووجوه
يمكن للمرء أن يقول إنها مستوحاة من إحدى أقاصيص
هوفمان . كانوا يلقون اليه بأسماعهم مأخوذين ، وهم
يشربون البيرة والفودكا ويأكلون شيئاً يشبه قطعاً جافة من
طين . . .

- اشربوا ، يا اخوان ، اشربوا قدر ما تستطيعون .
فانا املك نقوداً وثياباً ما يكفيها على مدى ثلاثة أيام .
لسوف نشرب ذلك كله و . . . إلى جهنم وبئس المصير !
لا اريد أن أعمل هنا بعد الآن ، كما لا أريد أن أعيش هنا
ايضاً .

قال أحدهم ، وكان يشبه جون فالستاف :
- مدينة متعفة .

وأعلن آخر ، وهو يشخص الى السقف متسائلاً :
- العمل ؟ الهذا خلق الإنسان ؟

وشرعوا يضعون جميعاً دفعة واحدة ، مبرهنين
لكون فالوف أنه على حق مبين في أن يسكر ، حتى يأتي على
آخر ما عنده ، بل أنه مجبر على السكر طالما أنه يشرب
معهم بالذات .

جلجل كونوفالوف ، حين وقع بصره عليّ :

- مرحباً ، يا مكسيم ، يا أيها الوسيم . تعال ، يا دودة
الكتب ، أيها المنافق - خذ جرعة ! لقد تعتفى السكر تماماً ،
يا صاح . الى جهنم ! أريد أن أشرب حتى جذور شعري ،
سأشرب حتى لا يبقى عليّ سوى الشعر . هيا ، شاركنا
الشراب ايضاً !

لم يكن السكر عصاف به بعد . ومضت عيناه الزرقاوان
هياجاً ، وراحت لحيته الجميلة التي تغطي صدره مثل مروحة
حريرية تهتز من جراء الارتعاشات العصبية في فكه السفلي .
وكانت ياقة قميصه محلولة ، وقطرات صغيرة من العرق
تتضوأ على جبهته البيضاء ، ويده التي مدت لي قدحاً من
البيرة ترتجف .

قلت ، وقد وضعت يدي على كتفه :

- اتركه ، يا ساشا ، ولنخرج من هنا .
ضحك :

- اتركه ؟ لو قلت هذا قبل عشر سنوات فقد كان

يمكن أن اتركه . أما الآن . . . كلا . . . وماذا تراني أفعل ؟
أنا شاعر بكل شيء ، بأصغر شيء ، بأقل حركة تافهة ،
ولكنني لا أفهم شيئاً ولا أعرف ماذا ينبغي أن أفعل . أقول
لك إنني شاعر بكل شيء ، ولهذا السبب أشرب ، لأنه ليس
لدي شيء آخر أفعله . خذ ، إشرَب !

راقبني ندماؤه في استياء واضح ، وراحت العيون الاثنتي
عشرة تقيسني من فرعي حتى قدمي في عداوة بيئة .
خاف أولئك المساكين أن اذهب بكونوفالوف فأحرمهم
بذلك من الوليمة التي كانوا ينتظرون طوال اسبوع كامل
تقريباً .

- هذا رفيقي ، يا إخوان ، وهو شاب متعلم ، لعنة الله
عليه ! مكسيم ، هل تستطيع أن تقرأ لي عن ستيبان هنا ؟
يا لروعة الكتب الموجودة ، يا إخوان ! عن بيلا . . . ما هو
موضوعه ، يا مكسيم ؟ دماء ودموع ، يا إخوان ، إن بيلا -
هو أنا ، أليس كذلك ، يا مكسيم ؟ وهكذا سيسويكنا .
وحقّ الله . هكذا توضح الأمر لي !

نظر اليّ بعينين مفتوحتين عن آخرهما عامرتين بالخوف ،
وفكه الأسفل يرتجف بصورة غريبة . وأوسع ندماؤه لي
مكاناً الى المائدة في نفرة . فجلست إلى جانب كونوفالوف في
اللحظة التي عبّ فيها قدحاً نصفه بيرة ونصفه الآخر فودكا .
كان واضحاً أنه راغب في إرهاب نفسه بهذا المزيج في
أسرع وقت ممكن . فلم يكذب يجرع القدح حتى تناول قطعة
مما أشبه الطين ولكنه في الحقيقة لحم مسلوق ، وأسام
بصره إليها برهة ، ثم قذف بها إلى جدار الحانة .

أطلق ندماءؤه عواء خفيضاً مثل قطع من ذئاب جائعة .
- أنا نفس ضائعة . لماذا ولدتني أمي الى هذا الوجود ؟
لا احد يدري . . . ظلمة ! وازدحام ! وداعاً ، يا مكسيم ،
إذا لست راعباً عن الشرب معي . لن أعود الى المخبز . والمعلم
مدين لي ببعض النقود . أقبضها وجنني بها . وسأشربها .
أو لا ، خذها واشتر لنفسك كتباً . هل تفعل ذلك ؟ لا
تريد ؟ لا تأخذها . أم لعلك تأخذها ؟ تكون خنزيراً إن لم
تأخذها . إذهب عني . إذهب أقول لك !

والتمعت عيناه بضياء عدواني وهو يسكر .
كان ندماءؤه على أهبة الإستعداد لإلقائي خارجاً من ياقتي ،
فخرجت قبل أن أتيح لهم هذه الفرصة .

بعيد ثلاث ساعات عدت الى «الجدار» . وكان ندماء
كونوفالوف قد زادوا شخصين آخرين . كانوا سكارى جميعاً
- أما هو فأقلهم سكرأ . كان يغني ، وقد ارتفق المنضدة ،
وعيناه عالقتان بالسماء من خلال فتحة السقف . واتخذ
السكارى أوضاعاً مختلفة وهم يصغون إليه ، وبعضهم
يفوق .

وكان لكونوفالوف صوت جهير يتحول في النوبات العالية
إلى صوت رفيع ، شأنه شأن جميع الصناع وهم يغنون .
كان يصب نغماته الحزينة السريعة في نبرات عميقة ، وقد
أسند خده إلى يده ، وأغمض عينيه نصف اغتماضة ،
وحنجرته بارزة الى الأمام . وكانت ثمانية وجوه فارغة
خبلها السكر منصبة عليه ، والأصوات الوحيدة التي تصدر
عن أصحابها لا تزيد عن تمتمة أو فواق . ونشج صوت

كونوفالوف ، وأنّ ، وارتعش في حنان . مما يجرح القلب أن
يرهف المرء سمعه الى ذلك الشاب الرائع ينشد أغنيته
الحزينة .

الروائح الخائقة ، والوجوه السكرانة التي بلبلها العرق ،
ومصباحا الكيروسين الداخنان ، والجدران القنرة المطلية
بالسغام ، والأرض الترايبية ، والظلال الكثيبة - هذه الأشياء
كلها كانت كرهية تنقل على القلب . وبدا كأن وليمة شنيعة
اقامها أولئك الرجال المدفونون احياء في سرداب للموتى ،
وكان أحدهم يغني للمرة الأخيرة مودعاً السماء قبل أن يوارى
الثرى . كانت أغنية صديقي مشبعة بأسى لا رجاء فيه ،
وقنوط هادى ، وحنين لا يقاوم .

بتر أغنيته قائلاً ، وهو يمدّ لي يده :

- مكسيم هنا ؟ أتودّ أن أجعل منك مساعدى ؟ لقد
هيات كل شيء ، يا صاح . جمعت عصابة - وهؤلاء رجالها -
وسوف ينضم إليها آخرون . آوه ، أجل ، سوف تفعل ذلك .
فلن يكون الأمر صعباً . ولسوف ندعو بيلا وسييسويكا ،
ونطعمهما لحمًا وعصيدة كل يوم ، ألن تفعل ذلك ؟ هل يحلو
هذا لك ؟ إحمل معك بعض الكتب . وستقرأ لنا عن ستيبان
والآخرين . آه ، يا صاحبي ، لقد سئمت هذا كله !
سئمته . . . هذا . . . كله !

وأهوى بقبضته على المنضدة بقسوة . قرقت الأقداح
والقناني ، وما أسرع أن ملا ندماؤه ، وقد قوموا ظهورهم ،
الحانة بضوضاء صاخبة .
صاح كونوفالوف :

- اشربوا ، يا إخوان ! اشربوا متاعبكم تغسلوها !
اشربوها عن آخرها !

خرجت ووقفت عند المدخل أصغي إلى حديث كونوفالوف
الثلث . وما أن شرع يفتني من جديد حتى اتخذت سميتي الى
المخبز ، تلاحقني اصدااء الأغنية السكرى التي راحت تزمر
وتنشج زمناً طويلاً في هدأة الليل .
بعيد يومين اثنين اختفى كونوفالوف .

ينبغي أن يولد المرء في مجتمع مثقف كي يجد القدرة على
الحياة فيه عمره كله دون أن يتوق إلى الفرار من التقاليد
المرهقة التي تفرضها الأكاذيب الخداعة الصغيرة التي غدت
عادة ، ومن النزوات السقيمة ، والطائفية ، ورياء ذلك
المجتمع ، وبكلمة واحدة من ثقافة التفاهات التي تنقل على
الإحساس وتفسد العقل . ولقد ولدت أنا وترعرعت خارج
ذلك المجتمع ، وبفضل تلك الظروف المؤاتية لا أستطيع أن
أقبل جرعات كبيرة من الثقافة دون أن أستشعر ضرورة
الإنعتاق من حدوده بين آونة وأخرى ، والتحرر من رهافته
المعقدة الممرضة .

الحياة في الريف مؤسسية موحشة مثل الحياة بين المثقفين .
وأفضل ما تأتيه يومذاك هو التوجه إلى الأحياء القذرة في
المدن ، حيث الحياة ، على الرغم من القذارة المخيمة ، بسيطة
الى أبعد حدود البساطة وصداقة إلى أبعد حدود الصدق . أو
أن تهيم على وجهك في الطرقات وعبر حقول وطنك - وهي
مغامرة تنعش الروح ولا تتطلب أكثر من ساقين قادرتين .

قليل خمس سنوات بدأت مثل تلك المغامرة ، وأوصلتني انطلاقتي على الأرض الروسية المقدسة الى فيودوسيا في نهاية المطاف . في ذلك الحين كانوا قد شرعوا يبنون الحاجز البحري ، فدفعتم بخطواتي في ذلك الإتجاه على رجاء اكتساب قليل من النقود .

رغبت في البداية أن أتأمل مكان البناء مثلما يتأمل المرء لوحة ، فتسلقت هضبة ورميت أبصاري الى البحر الجبّار المترامي إلى لحدود ، وإلى تلك المخلوقات الصغيرة التي تلجمه .

امتدت أمام بصري لوحة واسعة للعمل البشري . فالساحل الصخري كله محفور ، منقر ، مغطى بأكداس من الحجارة والأغصان المقطوعة ، وأركام التراب ، عجلات وكتل خشبية ، وقضبان حديدية ، ومدقات ركائز ، وأدوات ميكانيكية ، والعمال يروحون ويجهثون وسط هذه الأشياء كلها . وقد نسفت إحدى التلال بالديناميت ، وراح الرجال يقطعونها بالمعاول لتمهيد السبيل لمد خط السكة الحديد . والإسمت يخلط في حاويات ضخمة ويصب على شكل أحجار مكعبة بطول ست أقدام أنزلوها في البحر لتشكيل متراس ضد القوة العملاقة للأمواج التي لا تتعب . وكان الناس يبدوون صغاراً أشبه بالديدان على خلفية الهضبة البنية اللون المزقة بأيديهم ، وكالديدان يدبون في الحرارة اللاذعة لشمس الجنوب بين اكوام من الصخور المفتتة واكداس من الأخشاب التي تبرز داكنة وسط سحب من غبار الأحجار . كانت الضوضاء حولهم والسماء اللاهبة البيضاء فوقهم توحيان أنهم يحفرون في الهضبة

لأنفسهم ابتغاء اللجوء إليها من حموة حرارة الشمس وصورة الخراب الكثيبة المحدقة بهم .

وكان الهواء الخانق مشبعاً بزمزمة العمل وضجيجيه : ضربات المعساول على الصخر ، وصرير العجلات الحزين ، والأصداء المكتومة لأصوات المدكات ، وعويل أغنية العمال المسماة «دوبينوشكا» ، وخطى البلطات وهي تقشر جذوع الأخشاب ، والصراخ المتنافر للأشخاص الذين لوحتهم الشمس يشون الحياة في ذلك المشهد .

في أحد الأماكن جعل العمال يقبعون بأصوات عالية وهم يحاولون تحريك صخرة ضخمة ؛ وفي مكان آخر هم يرفعون كتلة ضخمة من الخشب ، ويهتفون في انغام متساوقة :
- واحد ، اثنان . . . إرفع !

وكانت التلة المحفورة بالأخاديد تردد اصداؤهم في رجع مبهم .

على طول القطع المحطمة التي ترسمها الألواح يتحرك موكب بطي من الرجال المنحنين على عربات يدوية محملة بالحجارة ، في حين يأتي من الناحية المقابلة موكب آخر يدفع عربات فارغة ويتحرك في ببطء أكثر جاعلاً دقيقة الراحة تطول الى دقيقتين . وكان حشد متنافر يقف حول المدكة ، ينصب من وسطه صوت صاوح ينشد مغنياً :

يا إخواني الحرّ شديد

يا إخواني والدرب بعيد

آه ، آواه

إدفعه ، آه .

وكانت زمجرة خافتة تدفّ من الرجال الذين يشدون الحبل ، والأسطوانة الحديدية تنزلق سريعاً الى قمة العمود ، ثم تسقط في ضربة صمّاء ، مرسلّة رعدة في المدكة بأسرها . وكان أناس رماديون يحتشدون فوق الأرض بين الهضبة والبحر مألّثين الهواء بالغبار ، والصيحات ، ورائحة العرق الحامضة . وفيما بينهم مشى المعلمون في معاطف قطنية بيضاء لها أزرار نحاسية تلتمع تحت الشمس مثل عيون باردة صفراء .

وكان البحر ينسبط هادئاً حتى الأفق الغائم ، وأمواجه الشفافة تتحطم بسكون على الساحل المضطرب حركة . وبينما هو يلتمع تحت أشعة الشمس يبدو وكأنه يبتسم ابتسامة جوليفر العطوف الذي يعرف أنه ، بمجرد حركة بسيطة ، قادر على تحطيم ثمار عمل الأقرام لو راودته الرغبة في ذلك . كان يرقد هنالك ، يتألق بصورة تبهر البصر - عريض الجنبات ، قوياً ، لطيفاً ، يرسل أنفاساً رطبة الى الساحل وتنعش الناس المرهقين الذين يعملون على الحدّ من حركة أمواجه ، هذه الأمواج التي تلاطف الآونة الساحل المشوّه في ملاطفات ودودة . كان يلوح وكأنه يرني لهؤلاء الناس . لقد تعلم على مدى الدهور أن أولئك الذين يعملون لا يرتكبون بحقه شراً ، فما هم غير عبيد يمثلون دور من يصارع عناصر الطبيعة ، وفي هذا الصراع لا بدّ ان تنقم هذه العناصر منهم . هم لا يأتون أكثر من العمل ، وهم على الدوام يبنون شيئاً ما ، وعرقهم ودمهم هما اسمنت جميع المنشآت على أرضنا . ورغم هذا فهم لا يحصلون على شيء مقابل ذلك ، مع أنهم

يصبون قواهم بأسرها في النزعة الأبدية لإقامة بناء ما ،
النزعة التي اجتاحت العجائب على الأرض ، ولكنها لم تقدم
للرجال سقفاً يحمي رؤوسهم أو ما يكفي من طعام يغذي
أجسادهم . هؤلاء الرجال أنفسهم هم أحد هذه العناصر ،
ولذلك يلوح البحر لطيفاً وغير غاضب من جراء عملهم الذي
لا يشمر لهم نفعاً . تلك الديدان الرمادية الصغيرة التي تنخر
الهضبة أشبه ما تكون بقطرات الماء التي يرزها البحر على
الصخور المنيعه الباردة في نزعته الأبدية الى توسيع تخومه .
وهي اول ما يهلك من جراء الإصطدام . إن جمهرة هذه
القطرات يمتد الى البحر بصلة قرابة ، ولا تختلف عنه في
وجه من الوجوه - فهي قوية ، وهي نزاعة إلى الدمار حين
تمسها أنفاس العاصفة . في الأيام الخوالي كانت للبحر
معرفة بالعبيد الذين بنوا الأهرامات في الصحراء ، وعبيد
كسرى ، ذلك الحاكم الهزاة الذي جلد البحر ثلاثمائة جلدة
عقاباً له على تحطيم جسوره الأشبه بالدمى . العبيد كانوا
دائماً متشابهين ، في كل العصور ، وكانوا دائماً مرؤوسين ،
وكانوا دائماً لا يتغذون بصورة جيدة ، وكانوا دائماً يقومون
بمعجزات عظيمة رائعة ، وأحياناً جعلوا من الذين أجبروهم على
العمل آلهة لهم ، وأحياناً أخرى صبوا عليهم لعناتهم ، وبين
حين وحين رفعوا راية الثورة ضد حكامهم . . .

الأمواج تصعد الى الشاطئ في هدوء حيث الناس
جميعاً يبنون حاجزاً حجرياً ضد حركتها الأبدية ، وفيما هي
تصعد ترسل أغنية حنوناً عن الماضي ، وعن كل شيء وقعت
أبصارها عليه ، جيلاً بعد جيل ، على سواحل هذه الأرض . . .

. . . بين العمال كان ثمة شخوص برونزية نحيلة في
عمائم أو طرايبش حمراء ، ومعاطف قصيرة زرقاء ، وسراويل
قصيرة فضفاضة تضيق عند الركبتين . كان هؤلاء ، فيما
عرفت من بعد ، أتراك من الأناضول . يختلط حديثهم
المضخم بحديث الروسيين من فياتكا الممطوط اللين ،
وبالجمل السريعة القوية لسكان الفولغا وتعابير الأوكرانيين
الناعمة .

كان ثمة مجاعة في روسيا ، واستأقت المجاعة الناس الى
هنا من جميع المناطق تقريباً . وقد شكلوا ، في محاولة منهم
للبقاء مع مواطنيهم ، جماعات صغيرة . أما المتشردون الذين
لا موطن لهم بأشكالهم المستقلة ولباسهم المتميز واسلوبهم في
الحديث فما أسهل تمييزهم عن أولئك الذين ما برحوا تحت
سلطة الأرض ، الذين لن ينسوا الأرض ولكنهم غادروها
فترة من الزمن تحت ضغط الجوع . وكان المتشردون
يتواجدون في كل جماعة - يختلطون سريعاً بالرجال القادمين
من فياتكا وبالأوكرانيين ، وفي كل مكان يعتبرون أنفسهم
وكانهم في بيوتهم . ولكن أغلبيتهم اجتمعوا حول المدكة ،
لأن العمل هنا أسهل منه بالمعاول والعربات اليدوية .

عندما اقتربت من العمال كانوا واقفين وقد أرخوا الحبل
من أيديهم ينتظرون أن يحرر رئيس العمال البكرة من بعض
القنّب الذي «يعوقها» . كان يصخب على البرج الخشبي
الصغير ، وينادي بين وقت وآخر :
- شدوا قليلاً !

وكانوا يشدون الحبل في تباطؤ .

- قفوا ! شدوا مرة أخرى . قفوا ! جربوا مرة أخرى !
كان المغني - وهو شاب غير حليق ، منقط الوجه ، له
طلعة الجندي - يهز كتفيه ، ويرنو الى جانب واحد ،
ويسعل ، ويشرع في الغناء :

«المدكة تدك في الأرض دعامة . . .»

والأبيات التي تعقب ذلك لا يمكن أن تسمح بنشرها
رقابة مهما أغرقت في التساهل . كانت بنت ساعتها فيما
يبدو ، ارتجلها المغني نفسه وأثارت عاصفة من الضحك ردّ
عليها المؤلف بأن راح يقتل شاربيه على غرار الممثل الذي
ألف تصفيق الجمهور .

صاح رئيس العمال غاضباً :

- أليس لديكم ما تفعلوه ؟ تنهقون مثل الحمير !

فأجاب أحد العمال :

- لسوف تنفجر عروقك من الصياح ، يا ميتريتش !

كان الصوت مألوفاً عندي ، وخيل اليّ أنّي رأيت تلك
الطلعة المديدة العريضة الكتفين ، وذلك الوجه البيضوي ،
وتينك العينين الزرقاوين في مكان ما من قبل . أيمكن أن
يكون كونوفالوف ؟ لكن لم تكن لكونوفالوف ندبة تمتد من
صدغه الأيسر حتى قصبة أنفه قاطعة جبهته . وشعر
كونوفالوف افتح لوناً وأقل جعدة . وكونوفالوف لحيّة
حلوة ، في حين أن هذا الشاب حليق الذقن له شارب طويل
يتهدل طرفاه على الطريقة الأوكرانية . ومع هذا كان فيه
شيء مألوف بالنسبة اليّ . انتويت أن استوضحه أين يمكن

ان اقدم التماساً للحصول على عمل ، بيد أننى انتظرت ان ينتهوا من تثبيت الدعامة .

- أو . . . و . . . ف ! أو . . . و . . . ف !

كان العمال يلهثون وهم يتقرفصون ، ويشدون الجبل بقوة ، ثم يقفزون في الهواء وكأنهم يطفرون . وتصرصر المدكة وترتج ، وتمتد أذرع سمراء عامرة بالشعر الى الجبال فوق رؤوس الناس ، وعضلاتها منتفخة في عقد ضخمة ، ومع هذا ظلت المطرقة الحديدية التي تزن أربعين بوداً ترتفع الى مسافات متناقصة عن أقصر حدودها ، وتنهال ضرباتها على المدكة أضعف فأضعف . إن من يشاهد هذا المنظر لا بد أن يحسب أن أولئك الرجال هم من عبدة الأصنام الذين يرفعون ، في ياس وقنوط ، أذرعهم الى إلههم الصامت وينحنون أمامه . وكان الهواء مشبعاً بعرق حار يهب من وجوههم العرقانة القذرة بشعرها الأشعث الملتصق بجبهاتها المنداة ، ومن أعناقهم السم وأكتافهم المرتعشة ، ومن أجسادهم التي لا تسترها غير رقع ممزقة من الثياب من مختلف الأصناف . وقد اختلطت هذه الأجساد لتؤلف كتلة واحدة صلبة من العضلات المتلوية في الهواء الرطب الذي تحركه حرارة الجنوب ، والمشبع بعير العرق .

صاح أحدهم في صوت خشن عميق :

- انتهى الوقت !

ارتخت أيدي العمال ، وسقطت الجبال متهدلة حول المدكة . وتراكم العمال على الأرض يمسحون العرق عس عن وجوههم ، ويستنشقون أنفاساً عميقة من الهواء ، يريحون

ظهورهم ويتحسسون اكتافهم ، ويزكمون الهواء بشرثرتهم
الخفيضة الشبيهة بخير حيوان غاضب .

هتفت منادياً ذلك الرجل الذي وقع اختياري عليه :

- يا صديق !

استدار نحوي متوانياً ، وترك عينيه تنزلقان على وجهي ،
وضيقتهما ، ثم حذق النظر معنئاً .

- كونوفالوف !

دفع رأسي الى الخلف كمن يريد أن يمسك بخناقسي ،
ومن بعد اضاءات وجهه ابتسامة فرحة على حين فجأة :

- رويدك ! مكسيم ! يا لله ! أيها الشاب المجوز !
لقد ضللت سبيلك أنت الآخر ، اليس كذلك ؟ وانضمت
الينا نحن المتشردين ؟ هذا أعود عليك . متى فعلت ذلك ؟
ومن أين قدمت ؟ لسوف نجوب معاً الأرض قاطبة . تلك لم
تكن حياة تناسبنا ، تلك الحياة الأخرى . فما فيها غير الشقاء
وكثرة من المتاعب . وهي طريق الى التفسخ والموت ليس
أكثر ! كنت أجوب الآفاق منذ تركتك . يا للأمكنة التي زرت !
والهواء الذي تنفست ! لكن أنظر الى نفسك ، هذا الهندام
الذي خلعتة عليها . ما كان يمكن لي أن أعرفك . ثياب
جندي ، ووجه طالب . حسناً ، هل يطيب لك العيش على هذا
الفرار ، متنقلاً من مكان الى مكان ؟ لا يخطرن لك في بال
أنني نسيت ستينكا - او تاراس أو بيلا - فانا أذكرهم
جميعاً !

ولكز جنبي بإصبعه ، وربت على كتفي براحة يده

العريضة . وحين عجزت عن أن أردّ عليه بكلمة ، فقد وقفت هنالك وابتسمت وتطلعت في وجه اللطيف الذي تآلق الآن بفرحة اللقاء من جديد . وكنت مسروراً بدوري من رؤيته الى أبعد الحدود . ذكرني ذلك كيف شققت طريقي في الحياة أول مرة ، تلك البداية التي تفضل بما لا يقاس الأيام التي تبتعتها .

في النهاية تدبرت الأمر كيما أسأل صديقي القديم عن سبب تلك الندبة في جبينه والشعر الجعد الخفيف على رأسه . - آه ، هذه الأمور ؟ إليك قصتها . فكرت ورفيقان لي أن نجتاز الحدود إلى رومانيا راغبين في التعرف على ماهية الأمور هناك . فانطلقنا من كاغولا - وهو مكان في بيسارابيا قريب من الحدود . كنا نشق طريقنا - في الليل من دون ريب - في هدوء . وعلى حين فجأة : «قف !» . إنهم حرس الجمارك . لقد اصطدمنا بهم مباشرة . فانطلقنا هاربين ، واستطاع أحدهم أن يضربني على رأسي . لم تكن الضربة قوية ، كلا ، ولكنها ألزمتني الفراش في المستشفى شهراً كاملاً . ولا يخطرني في بالك أن الخفير كان من مواطني بلدي ! أحد شبان موروم ! وسرعان ما أدخلوه المستشفى بعد ذلك - أحد المهربين طعنه في بطنه بسكين . وحين شعرنا بالتحسن استوعبنا الأمور تماماً . يسألني ذلك الجندي : «أنا الذي شجبتك ؟» ، فأقول له : «ينبغي أن تكون أنت ، طالما أنك تعترف به» ، ويقول هو : «أنت على حق ، يجب أن أكون أنا . لكن لا تحقد عليّ . فهذه وظيفتي . حسبنا أنكم تحملون سلماً مهربة . انظر ، لقد أصبت أنا

ايضاً - لقد شقوا لي بطني . لا مناص من ذلك . فالحياة ليست شيئاً سهلاً» . وهكذا غدونا صديقين - وكان فتى رائعاً . يدعى ياشكا مازين . . . أما الشعر الجعد - فهذا الشعر الجعد جاء من الحمى التيفية . لقد أصبت بها . أودعوني السجن في مدينة كيشينيف لمحاولتي التسلل عبر الحدود ، وهناك أصابتنى الحمى التيفية . وتركتني مطروحاً على ظهري زمناً طويلاً ، فحسبت أنني لن أنهض . وكان من المحتمل الا أنهض لولا إحدى الممرضات التي خصتني بعنايتها الدائمة . أعجوبة أنني نجوت . كانت ترعاني مثلما ترعى طفلاً صغيراً ، ولا أعرف لماذا . لم اكن أعني شيئاً بالنسبة إليها . كنت اخطبها قائلاً : «كفى ، يا ماريا بتروفنا . ينجلني أن أراك تتعبين من أجلي» . وكانت تضحك لقولتي . كان لها قلب طيب . وأحياناً كانت تقرأ لي أشياء من أجل خلاص روحي . سألتها مرة : «الا تجددين شيئاً آخر تقرئينه لي ؟ . . . شيئاً مختلفاً؟» . فأحضرت كتاباً عن بحار انكليزي تحطمت سفينته في جزيرة مهجورة ، وأقام عليها حياته . كان كتاباً رائعاً ! جننت به ! ورغبت كثيراً لو إني أشاركه الحياة في تلسك الجزيرة . يا لها من حياة ! الجزيرة ، والبحر ، والسماء ، وأنت وحيد ، ولديك كل ما تحتاج إليه ، وحر كالصفرور ! والتقى بأحد المتوحشين فعاش معه . لو كنت أنا لأغرقته ذلك الهجين ، فما حاجتي إليه ؟ كنت أقضى حياتي سعيداً . هل قرأت ذلك الكتاب ؟

- لكن أخبرني كيف خرجت من السجن ؟

- أخلوا سبيلي . عقدوا محكمة ، ووجدوني بريئاً ،

فاخلوا سبيلي . أمر بسيط . لكن انتبه ، انا لن اعمل
مزيداً هذا النهار ، فالى جهنم العمل ! فلقد تقرحت يداي بما
فيه الكفاية . ولدي ثلاثة روبلات ، وسأحصل على أربعين
كوبيكاً لقاء هذا الصباح . هذا ليس سيئاً ، اليس كذلك ؟
فتعال وامض النهار معنا ، فنحن لا نعيش في ثكنات ، بل
على الهضبة غير بعيد من هنا . عثرنا على ثقب مريح جداً
للسكن . نتقاسمه أنا وفتى آخر . ولكنه مريض . . . أصابته
حمى . انتظرني هنا ريثما أذهب الى رئيس العمال ، ولن
يطول غيابي دقيقة واحدة !

نهض خفيفاً ، وابتعد في ذات الوقت الذي أمسك فيه
العمال بحبال المدكة للمشروع فى العمل من جديد . وبقيت
جالساً هنالك أراقب الضوضاء الصاخبة حولي والبحر الساكن
الأزرق المخضر .

سار شبح كونوفالسوف الطويل بين حشد الناس ،
والعربات ، وأكوام الحجارة ، وأكداس الأخشاب . سار
قدماً ، هازأ ذراعيه ، مرتدياً قميصاً قطنياً أزرق اللون
قصيراً وضيقاً بالنسبة إليه ، وسروالاً من الخيش وحذاء
ثقيلاً . وبين حين وحين يلقي نظرة الى الخلف ويلوح لي
بيديه . وجدت انه غداً جديداً عليّ ، جبروتي القوة ، ملتمح
الوجه بشراً ، مملوءاً ثقة هادئة بالنفس . وكان العمل يجرى
على قدم وساق حوله : الأخشاب تقطع ، والحجارة تتفتت ،
والعربات تصرصر بصوت راعب ، وسحب الغبار تهبّ في
الهواء ، وشيء ينسحق على الأرض ، والناس يخورون ،
ويتصايحون ، ويشتمون ، ويغنون في أصوات يمازجها

الأنين . وابتعد شبح صديقي الوسيم بخطوات ثابتة وتراى لوحة حادة متناقضة مع ذلك الضجيج من الأصوات والحركات فكانه جواب عن أحجية كونفالف .

بعيد ساعتين كنت وإياه مستلقيين في «الثقب الملائم جداً للسكن» . كان ملائماً حقاً . قبل فترة من الزمن اقتطع صخر من الجبل فخلّف كهفاً مربع الشكل يمكن أن يقيم فيه أربعة أشخاص في راحة مطلقة . ولكنه كان منخفضاً ، وثمة جلمود ضخّم معلق فوق مدخله ، والسبيل الوحيد للدخول إليه هو أن يزحف المرء على معدته . وكان عمقه سبعم أقدام ، ولم تكن ثمة ضرورة للدخول فيه ، وهو أمر يعتبر مجازفة خطيرة ، إذ أن الجلمود قد يهوى في أية لحظة ويدفننا في الكهف أحياء . خشية من ذلك أضجعنا أنفسنا على النحو التالي : دفعنا سيقاننا وجسدينا في الثقب حيث البرودة شديدة ، وأبقينا رأسينا خارجاً حتى إذا سقط الجلمود فلا يحطم غير جمجمتيّنا .

كان المتشرد المريض قد زحف الى الشمس واستلقى قريباً منا . وكنا نسمع أسنانه تصطك كلما عصفت به نوبة من القشعريرة . كان أوكرانيا طويل القامة نحيل العود من بولتافا على ما قال لي في سهوم .

تدحرج على الأرض محاولاً أن يلف نفسه في جلباب رمادي مصنوع من مزق . وكان يكثر من الشتائم واللعنات حين تذهب جهوده سدى ، ولكنه لا يتخلّى عن جهوده أو إطلاق لعناته . وكانت له عينان سوداوان صغيرتان تضيقان على الدوام فكانه يطيل التحديق الى شيء ما .

لست الشمس مؤخرة رأسينا دون رحمة . وأخذ
كونوفالوف معطفي العسكري وجعل منه ما يشبه خيمة بعد
ما نشره على عدد من العصي غرزها في الأرض . ودفتت مسن
البعد أصداء العمل الجارية عند الخليج الذي لم تكن انظارنا
تصل إليه . على الساحل الى يميننا تنتصب بيوت بيضاء
تبث على الضجر تشكل بلدة ، وعن يسارنا وإلى الأمام منا
البحر المنبسط في البعد إلى لا حدود ، حيث اختلطت بصورة
مدهشة ألوان ناعمة تبهج العين والروح بفتنتها المذهلة
المنطلقة من ظلالها في سديم ناعم أسطوري .
وفيما كونوفالوف يراقب تلك الألوان زحفت على ملامحه
ابتسامة هينة ، فالتفت إلى "قائلاً" :

- حين تغرب الشمس نضرم ناراً ونرشف الشاي .
لدينا بعض الخبز واللحم . أتريد بطيخاً ؟
أخرج بقدمه بطيخة من إحدى الحفر ، وتناول سكيناً
من جيبه وقال ، وهو يقطع البطيخة :

- كلما وجدت نفسي الى جانب البحر اتساءل فيم لا
يقيم ههنا غير قلة من الناس ؟ كانوا يكونون أكثر طيبة
بالنسبة اليه لأن البحر جد . . . جد لطيف . وهو يتيح لك
أن تفكر افكاراً طيبة . حسناً ، أخبرني ماذا كنت تفعل في
هذه السنوات القليلة الأخيرة .

بدأت أقص عليه . في المنتأى كان البحر منصيفاً
بالأرجوان والذهب ، وسحب وردية وبنفسجية تنهض لملاقاة
الشمس . وبدأ أن جبلاً تجللت قممها بالثلج توردها أشعة
الشمس المتطفلة تبرز من البحر .

قال كونوفالوف في قناعة تامة حين قصصت عليه —
أخباري :

— كان عبثاً أنك عشت في المدن ، يا مكسيم . ماذا
شدك إليها ؟ حياة عفنة . لا هواء ، ولا رحابة ، ولا شيء
مما يحتاج الإنسان . الناس ؟ ثمة ناس في كل مكان . الكتب ؟
يكفي ما قرأت منها ! القراءتها أنت ولدت ؟ الكتب هراء .
اشتر لنفسك واحداً ، وضعه في كيسك ، وانطلق . أتريد
الذهاب إلى طشقند برفقتي ؟ أو إلى سمرقند ، أو أي مكان
آخر ؟ سنقيم هنا فترة ، ومن بعد نرحل إلى أمور . هل
توافق ؟ عزمتم على الذهاب إلى كل مكان — هذا هو الشيء
الوحيد الذي سأتيه . وعندها تشاهد على الدوام شيئاً
جديداً . ولا تضيع وقتك في التفكير . إمش قدماً والريح
تهب في وجهك وتنفض كل القذارات من روحك . كن حراً
خفيف الحركة . ليس من يقيم نفسه عليك معلماً . إذا جعت
توقفت وعملت لقاء خمسين كوبيكاً ، وإذا لم يكن هنالك عمل
استعط كسرة من خبز — ولسوف تحصل عليها دائماً . على
أقل تقدير تشاهد شيئاً من هذا العالم . شيئاً من روعته .
هل تنضم إليّ ؟

انزلت الشمس عن الأفق . وازدادت السحب دكنة ،
مثلها مثل البحر ، وغدا الجو رطباً . وهنا وهناك لمعست
نجوم ، وسكن ضجيج العمل في الخليج ، لكن أصدااء الأصوات
ظلت تتردد بين الفينة والأخرى خافتة مثل التنهيدات . وكانت
الريح تحمل إلى آذاننا خرخرة الأمواج الكثيبة وهي تفسسل
الساحل .

تكاثفت الظلمة سريعاً ، وصار شبح الأوكراني ، وكان واضحاً قبل خمس دقائق ، كتلة مبهمّة غير متميِّزة .

قال ، وهو يسعل :

- ماذا لو أشعلنا ناراً ؟

- سأفعل ذلك .

جمع كونوفالوف كومة من الأغصان وأشعل فيها عود ثقاب . وبدأت السنة حادة من اللهب تلتق الخشب المصمغ الأصفر . وارتفع شريط دخان في هواء الليل المشبع برطوبة البحر وطراوته . وتعاطمت السكينة فكان الحياة تهرب منا ، وأصواتها تتلاشى في الظلمة . وتفرقت الغيوم وشمت النجوم متألقة في السماء الزرقاء الداكنة ، وظهرت على سطح البحر المخملي أضواء قوارب الصيد وانعكاسات النجوم . وازهرت النار أمامنا مثل وردة كبيرة حمراء مصفرة . حين علق كونوفالوف غلاية الشاي فوقها شبك ركبتيه بذراعيه وحدق في اللهب وقد استغرقت الأفكار . وزحف الأوكراني مقترباً مثل حرباء ضخمة .

- الناس يبنون المدن والبيوت ، ويزدحمون حشوداً ، ويوسخون الأرض ، ويختنقون ، ويعترضون سبل بعضهم بعضاً . . . يا لجحيم هذه الحياة ! وهي الحياة الوحيدة - التي نعيشها . . .

قال الأوكراني ، وهو يهز رأسه :

- همهم ! لو نحصل على جلد خروف وبيت دافئ لأيام الشتاء ، حينذاك يمكن القول أننا نعيش مثل الأمراء . . .

وضيق إحدى عينيه في وجه كونوفالوف ، وأطلق ضحكة قصيرة .

اعلن كونوفالوف موافقاً :

— أجل . الشتاء فصل لعين . والمدن ضرورية حقاً في الشتاء ، وليس هنالك من ينكر ذلك . ورغم هذا فليس هنالك من مبرر لبناء المدن الكبيرة . لماذا يعيش الناس كالمقطعان حين تكون الأمور صعبة بالنسبة إلى شخصين أو ثلاثة أشخاص كيما يعيشوا سوياً ؟ هذا ما إليه قصدت . حين تفكر في ذلك ، تجد أن الإنسان لا يعثر على مكان مناسب يعيش فيه — لا في المدينة ولا في أي مكان . لكن يحسن ألا تشغل بالك بهذه الأمور . فأنت عاجز حيالها ، لا تفعل أكثر من تمزيق نفسك . . .

كنت أعتقد أن حياة كونوفالوف كجواب آفاق قد بدّلت ، وأن أنفاس الحرية التي كان يتنفسها خلال السنوات القليلة الأخيرة أتاحت له أن يتخلص من تلك الكلابات من الشقاء التي انغرزت في قلبه في الأيام الأولى لصداقتنا . ولكنني تبينت من نبرته في جملته الأخيرة أنه لا يبرح ذلك الرجل الذي عرفت ، الرجل الذي «يبحث عن شيء يدعم به قدميه على الأرض» . كان جسده المتين ، الذي أطل على الوجود يحمل في جنباته قلباً عطوفاً مما يرثي له ، لا يزال مهدوداً من جراء صعدا الحيرة ، سمّ الحياة المتفكرة . كان هنالك عدد لا بأس به من أمثال هؤلاء الناس «المولعين بالتفكير» في روسيا ، وكانوا جميعاً أكثر تعاسة من الآخرين ، لأن أعباء أفكارهم يزيدونها عمى عقولهم ثقلاً ووقراً . نظرت

الى صاحبي في اسي" ، فأوضح في تماسة وكأنه يؤيد فكرتي :
- ما أكثر ما كنت أفكر في كيف عشنا معاً ، أنت وأنا ،
يا مكسيم ، وفي . . . في كل ما وقع لنا حينذاك . يا للامكان
التي زرتها ، والاشياء التي رايتها ! . . ومع هذا لم أجد
مكاناً مريحاً لي على هذه البسيطة . لم استطع ان أعثر على
مكان لنفسى !

قال الأوكراني في برودة ، وهو يرفع الغلاية عن النار
وقد جعل الماء فيها يغلي :

- هذا هو نصيبك لأنك ولست بهذا العنق الذي لا
يلائمه أي نير .

فردّ كونوفالوف عليه :

- قل لي لماذا لا أقوى على الاستقرار ؟ لماذا يعيش
أغلب الناس حياة طبيعية بما فيه الكفاية ، ويمارسون
أعمالاً ، ويتخذون نساء وينجبون أطفالاً وكل ما يتبع
ذلك ؟ . . وهم دائماً راغبون في صنع هذا الشيء أو ذاك ؟
بينما أنا لا أستطيع ذلك . مجرد اني لا أستطيع ذلك .
فلماذا لا أستطيعه ؟ احس بالملل ! لماذا ؟

فأوضح الأوكراني مشدوها :

- يا لنحيبك هذا ! لكان النحيب يجعل الأمور أكثر
سهولة !

فقال كونوفالوف متأسياً :

- أنت محق .

قال الرواقي شاعراً بجدارته ، وهو يوالي صراعه مع
الحمى :

— ما أقلّ ما أتكلّم ، ولكنني أعرف كيف أتكلّم دائماً .
سعل ، وتعلّمل في مكانه ، وبصق في النار غاضباً . كان
كل شيء حولنا أصمّ تخفيه ستائر الظلمة الكثيفة . وكانت
السماء بدورها مظلمة ، والقمر ، لم يطل بعد . وكنا نشعر
بالبحر أكثر من رؤيتنا له من شدة الظلام . بدا وكأن ضباباً
أسود خيم على الأرض . وانطفأت النار .
اقترح الأوكراني :
— فلنلجأ الى النوم .

زحفنا الى «الثقب» تاركين رؤوسنا خارجاً . واعتصمنا
بالصمت . استلقي كونوفالوف دون أن يأتي حركة فكانه
تحجر . وجعل الأوكراني يتقلب من جانب الى آخر وأسنانه
تصطك . أبقيت عينيّ زمناً طويلاً مثبتتين في وهج النار
المنطفئة . كانت الجمرات أول الأمر كبيرة متألقة ، ثم صغرت
وتغطت بالرماد الذي ابتلعها سريعاً . ولم يبق من النار بعد
ذلك أكثر من أنفاسها الدافئة . راقبتها ، وهمست في
نفسي :

«هذا شأننا جميعاً . لكن اواه ! آه لو توجهنا متألقين
لحظة واحدة !»

بعد ثلاثة أيام ارتحلت عن كونوفالوف . وذهبت الى
كوبان . لم يرغب في مرافقتي . افترقنا واثقين من أننا
سنلتقي مرة أخرى .
ولكننا لم نلتق مرة أخرى . . .

مالفا

كان البحر يضحك .

يهيَّجه ويشيره النسيم الخفَّاق القانظ ، وتضطرم فيه موجبات طفيفة تنعكس عليها شعاعات الشمس في لمعان يخطف الأبصار ، فيهشُّ للسماء الفسيحة بآلاف من الابتسامات الفضية الصافية . وهذا الفضاء المديد ، المترامي الاطراف بين البحر والسماء يرنُّ بأصوات رشرشات الأمواج الفرحة وهي تتكافح وتتدافع ، واحدة تلو أخرى ، متكسرة على شاطئ لسان رملي قليل الانحدار . وكانت شرشرة الأمواج والتماعات الشمس المنعكسة على آلاف تموجات البحر المتواثبة ، مندغمة جميعاً في حركة دائمة تفيض مرحاً وحياءً وجوراً . كانت الشمس سعيدة لاشراقها ، والبحر ضاحكاً سعيداً لانه يردُّ ضوء الشمس الطافح بشراً وغبطة . وهذه الريح تداعب صدر البحر الحريري في عذوبة ، وامُّ الحرارة والنور تضرم الدفء في أحشائه بحواجبهما المحرقة اللاهبة ، فيتنهَّد في وسن وفتور متأثراً من هذه الملاطفات الحنون ، فيروح يشبع الهواء العارِ باريج مالح . وهذه الأمواج الخضراء تنكسر على الشاطئ الرملي الأصفر ، فتزركشه بزبد أبيض يذوب ويضمحل على الرمل الملفوح المتأجج في حفيف رقيق دون أن يخسر شيئاً من برودته ورطوبته .

كان اللسان الرملي الطويل الضيق يبدو مثل برج هائل سامق سقط من الشاطئ إلى صدر البحر ، ورأسه المسنون ينغرز في المدى الفسيح للماء المتلألئ المتراقص ، قاعدته

تضيق في الضباب البعيد الخائق الذي يخفي اليابسة حيث تتوالب زفرة كريهة غريبة مع تنفسات الرياح فتفسد الجو فوق منبسط هذا العَيْلَم النقي ، وتحت قبة السماء الزرقاء اللامعة .

وكانت شباك للصيد منصوبة على الشاطئ الرمل المفروش بحراشف السمك ، معلقة بأعمدة خشبية موتدة في الرمل ، تلقي خيالات عليه تشبه نسيج العنكبوت . وهناك عدة قوارب كبيرة ، وآخر صغير ، تنتظم في صف واحد ، فتبدو الأمواج ، وهي تتراكم فوق الشاطئ ، كأنها تدعوها لتنضم إليها . وتبعثرت على الرمل ، متفرقة متباعدة مشوشة ، عدة خطاطيف سمك ، ومجاذيف ، وسلسل ، وبراميل . يقوم بينها جميعاً كوخ من أغصان مقطعة من شجر الصفصاف وقشرة شجرة الزيزفون وحصائر خشنة . وعلّق بالقرب من مدخل الكوخ زوج أحذية من اللباد - اتجهت نعله إلى السماء - على عصا متعددة الأغصان مشدبة . وفوق هذا التيه المضطرب المختلط ارتفع صار طويل ربطت في رأسه قطعة من قماش أحمر تخفق بها الريح وتلهو .

وكان يضطجع ، في ظل أحد القوارب ، فاسيلي ليغوستيف ، حارس في اللسان الرمل - وهو نقطة أمامية للمصايد العائدة لشخص يدعى غريبينشيكوف . كان فاسيلي مضطجماً على معدته وقد أسند ذقنه إلى راحتي يديه ، يشخص إلى البحر البعيد ، إلى قطعة من اليابسة فيه لا يقصها البصر . كانت عيناه مثبتتين في بقعة صغيرة سوداء في عرض البحر ، يراقبها ببغطة عظيمة وهي تزداد حجماً كلما اقتربت منه .

وتبسّم ابتسامة رضى واقتناع ، وهو يضيق عينيه
ليقيهما التماح أشعة قرص الشمس المتأججة الباحمة تعكسها
صفحة المياه . ها هي ذي مالفا قادمة !

لسوف تأتي ، وتضحك ، ويرتعش صدرها في إغواء
وافقتان . ولسوف تعانقه بذراعيها المفتولتين البضيتين
الناعميتين ، وتحويه بقبلة ، ثم تروح تحدثه بصوت مرنّ
تجفل نوارس البحر له ، عما يجري هنالك على الشاطئ .
ولسوف يطبخان معاً حساء السمك الفاخر ، وينهلان الفودكا ،
ويرتميان على الرمل يتسامران ويدلّل كل منهما صاحبه .
ومن بعد ، عندما يبسط خيال المساء رداءه ، يضعفان
الغلاية على النار المتأثرة ، ويجرعان الشاي مع بارانكا*
لذيذة . وبعد ذلك كله يمضيان إلى النوم . . .

كان ذلك يحدث كل يوم أحد ، وكل يوم عطلة . انه
يصحبها على مألوف العادة في الصباح الباكر الى اليايسة ،
ويعبران البحر الذي يغطّ في سبات عميق عند شفق الفجر
النديّ ، وتقعدهم غارقة في غفوة خفيفة في مؤخرة القارب .
اما هو فيروح يرنو اليها وهو يجذف دون كلل أو إعياء .
لكم تبدو مضحكة وقتئذ . مضحكة ومستحبة في آن واحد ،
مثلا في ذلك مثل قطة لا ينقصها الطعام أبداً . ولربما تترك
مقعدها وتلجأ إلى قعر القارب فتنتطوي هنالك على نفسها
وتجنح الى النوم سريعاً . وما أكثر ما كانت تفعل ذلك . . .
ذلك النهار كان خائفاً فأحمد حتى حركة النوارس .

* بارانكا - خبزة من القمح بشكل حلقة . الفاشر .

فتبكت جماعة منها بالأرض الرملية في صف واحد وقد نشرت
أجنحتها وفتحت مناقيرها . وتأرجحت جماعة أخرى في كسل
وتراخ على ثبج اعالي الأمواج دون أن تحدث صوتاً ، منقطعة
عن ضراوة نشاطها الممهود .

وصورٌ لفاسيلي أن شخصاً آخر يقعد إلى جانب مالفا
في القارب . ترى ، هل عاد سيريوجكا إلى مغازلتها من
جديد ؟ وتقلب فاسيلي في ثقل على الرمل ، ثم جلس
واستكف وراح يرمق اليم ، والقلق يعتصر قلبه ، يحاول
أن يكشف هوية ذلك الجاثم في القارب . وكانت هي جالسة
في مؤخرة القارب توجه دفته . أما الرجل ، وكان يقوم
بعملية التجذيف ، فلم يكن سيريوجكا . فهو لم يالف
التجذيف أبداً . ثم إن مالفا لم توجه الدفة إن كان سيريوجكا
بصحبتها .

صاح فاسيلي في نفاد صبر :

— هاي !

فاهتزت النوارس على الرمل وقد أجفلتها الصيحة ،
وتجمدت متنبهة متحفزة .

وردٌ عليه صوت مالفا المرن آتياً من القارب :

— ه . . . ا . . . ي !

— من يصحبك ؟

فدفَّ الجواب ضحكة عالية .

غمغم فاسيلي ، وهو يسبُّ في وليجة نفسه ، ويبصق :

— يا للشيطانة !

كان يتمنى حتى الموت أن يكتنه شخصية ذلك الذي

يرافقها . لفء دخينة من التبغ ، وحدء بصره إلى قفا ذلك
الرجل وظهره . كان يستطيع أن يسمع صوت رشاش الماء
الصداح عندما تصطدم المجاذيف به ، بينا الرمل ينسحق
تحت قدميه العاريتين .

صاح حينما ميّز الابتسامة الغريبة غير المألوفة
المرتسمة على وجه مالفا الجميل :

- من يصحبك ؟

فأجابت ، وهي تضحك :

- انتظر ، وسترى !

أدار المجذّف وجهه ناحية الشاطئ* ، وشحن فاسيلي
نظره وهو يضحك بدوره . قطّب الحارس وجهه ، وهو يحاول
تكوين هوية ذلك الغريب الذي بدا وجهه اليقاً .

أمرت مالفا :

- جذّف بقوة !

دفعت ضربة المجذافين وكذا الموجة القارب ورمت به
على الشاطئ* الرمي حتى نصفه الامامي ، حيث سكن مائلاً
على احد جانبيه ، بينما ارتدت الموجة المتواثبة متقهقرة
صوب البحر . قفز المجذّف من القارب ، وهتف :

- مرحباً ، يا ابتاه !

صاح الأب بصوت مكتوم ذهولاً اكثر منه فرحة :

- ياكوف ؟ بُني* !

تعاثقا ، وقبّل كل منهما الآخر مرات ثلاثاً على الشفاه
والخدود . كانت سيماء فاسيلي مزيجاً من الدهشة والسرور
والارتباك .

- لقد احدثت البصر واحداثت . . . وشعرت بضيق في قلبي . . . وتساءلت ملتاعاً عما حدث . إذن ، هذا أنت ! من كان ينتظر ذلك ؟ ظننتك بادی الامر سيریوجکا ، ثم ادركت خطئ ظني . وإذا بك أنت !

وبينا فاسيلي يتكلم راح يمشط لحيته بإحدى يديه ، ويلوح بالأخرى في الهواء دون انقطاع . كان يتمنى حتى الموت أن يرى مالفاً . ولكن ولده يرنو إلى وجهه في إمعان ، وعيناه المبتسمتان اللامعتان تسطعان بشكل أزعجه وأقلق باله . وكان شعور الاضطراب الذي اعتراه في حضرة عشيقته يشوّه ذينك الرضى والاعتزاز اللذين يملكان نفسه الآن وهو يجد له ابناً في مثل هذه الروعة .

وهكذا وقف امام ياكوف ، ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى ، ويطلق عليه وابلاً من أسئلة متلاحقة لا ينتظر عنها جواباً . كل شيء في رأسه تبلبل واضطرب . وازدادت حاله سوءاً وهو يسمع صوت مالفاً يخاطبه ساخراً :

- كف عن الوقوف والرقص فرحاً ! انطلق به إلى الكوخ ، وقدم له شيئاً يأكله . . .

استدار إليها ، فإذا ابتسامة سخرية تلعب على شفثتها . لم يَرَ لها من قبل مثل هذه الابتسامة . كان جسدها - مفتولاً ناعماً طرياً كما هو عليه دائماً - يبدو له متغيراً نوعاً ما ، بل بالحري غريباً تماماً . ونقلت عينيها الخضراوين من الأب إلى الابن ، وهي تقرش بزرات البطيخ بأسنانها البيضاء الصغيرة . وشرع ياكوف ، وهو يبتسم ، ينظر تارة إلى أبيه وتارة إليها .

جنح الثلاثة إلى الصمت لحظات لم يعرف فاسيلي خلالها
معنى للارتياح .

قطع الصمت على حين غرة قائلاً ، وهو يخطو متعجلاً
في اتجاه الكوخ :

- نعم ، حالاً ! لا تبقيا في الشمس هنا . اذهبا
واستريحا ريثما استقي قليلاً من الماء وسنطبخ
حساء السمك الفاخر سادعوك إليه يا ياكوف . أنت لم تدق
مثله من قبل قط ! سأرجع بعد برهة قصيرة . . .
وتناول قدراً عن الأرض قرب الكوخ ، وأسرع ناحية
الشباك في نشاط ، ثم اختفى بين طياتها العديدة رمادية
اللون .

وزرقت مالفا وياكوف في اتجاه الكوخ .
ألقت نظرة جانبية إلى بنية ياكوف المتينة وقالت :
- هذا أنت هنا ، يا فتاي الطيب ! لقد حملتك إلى
أبيك .

أدار وجهه بلحية مجمدة صغيرة بنية اللون ناحيتها
وابجاب تلمع عيناه :

- بلى ، لقد وصلنا . . . يا للمكان الظريف ! والبحر ،
كم هو كبير !

- نعم . إنه بحر واسع . . . حسناً ، اشأخ والدك
كثيراً ؟

- كلا ، ليس كثيراً . توقعت أن أجده أكثر شبهاً .
فإذا رأسه يخلو إلا من شعيرات قليلة بيضاء . . . لكم
يبدو قوي البنية !

- كم مضى من الزمن دون أن تلقاه ؟
- قرابة خمس سنوات ، فيما اظنّ . . . منذ غادر البيت . كنت قد بلغت السابعة عشرة . . .
ودخلا الكوخ . كان جوّه خائفاً ، والحصائر الخشنة الملقاة على الأرض تعبق برائحة السمك المملح . وجلسا . . .
ياكوف على جذع شجرة غليظة ، ومالفا على كومة من الأكياس ، يقوم بينهما برميل مقطوع إلى النصف فأصبحت عاليته تستعمل خواناً للطعام . جلسا يرمقان بعضيهما في صمت وسكون .

قالت مالفا ، مدثثة حرمة الصمت :
- أنت تريد العمل هنا اذن ، أليس كذلك ؟
- ربما . . . لست أدري . . . أودّ ذلك إن كان إليه سبيل . . .

أكدت له ، وهي تجسّث بعينيها الخضراوين المضيقتين ونظرتها ملأى بالمعاني والاسرار :

- ستجد هنا العمل الذي تبغي !
مسح ياكوف ، دون أن ينظر إلى المرأة ، العرق المتحدّر على وجهه ، بكمّ قميصه .
ضحكت مالفا فجأة :

- أعتقد أن أمك حملتلك تحياتها لأبيك ، وربما حملتلك توصيات ايضاً !
راماها ياكوف بلمحة جافة ، وقطّب وجهه ، وجمجم في جفوة :

- أكيد . فيم تسألين ؟
- أوه ، لمجرد السؤال فحسب !

لم ترق له الضحكة إطلاقاً - كانت تموج سخرية
وخبثاً . . . استدار عن صاحبه ، وجعل يتذكر التوصيات
التي حملته إليها أمه . . . شيعته حتى حدود القرية ،
استندت هنالك إلى سور من الأغصان وقالت في عجلة ،
وعيناها تظرفان :

- أخبره ، يا ياشا * . . . محبة بالمسيح ، قل له :
ابتاه ! إن أمي وحيدة . . . وحيدة منذ خمس سنوات ! قل
له إنها كبرت ! قل له ، محبة بالله ، يا ياشا العزيز !
ستصبح أمك عجوزاً في وقت قريب . . . وهي وحيدة . . .
تشتغل ولا ترى شيئاً آخر غير الشغل . أخبره بذلك ، محبة
بالمسيح !

وانثالت تبكي في هدوء ، وقد اخفت وجهها بمنزرها .
لم يحسّ ياكوف الأسف من أجلها وقتئذ ، ولكنه
يحسّه الآن . . . رفع إلى مالفا بصره ، وعبس .
قال فاسيلي ، وقد دلف إلى الكوخ يحمل سمكة في إحدى
يديه ، وسكيناً في الأخرى :

- حسناً ، هانذا رجعت !

كان قد تخلص من حيرته ، وخبأها في أعماق أعماق
صدره ، فراح يطمح ببصره إلى الاثنين في هدوء . ولكن
حركاته أصبحت متعجلة بشكل غير مألوف له . قال :
- سامضي لأوقد النار ، ومن ثمة أعود ونتسار*
طويلاً . . . اليس كذلك ، يا ياكوف ؟

* ياشا - اسم التديل من ياكوف . الناشر .

وغادر الكوخ ثانية .

تابعت مالفا قرش البزرات ، رانية إلى ياكوف في هدوء
وعدم كلفة . ولكنه ظلّ ، رغم تشوّقه إلى أن ينهلها
بعينيه ، ناحياً بصره عنها . اربكه الصمت ، فقال :

- أوه ، تركت كيسى في القارب . سأتى به !

نهض على مهلّ وأسرع خارج الكوخ . ورجع فاسيل
مسرّعاً ، ومال على مالفا ، وقال بسرعة وفي نفمة غاضبة :

- فيم جئت برفقتك ؟ ماذا أقول له عنك ؟ من تكونين
بالنسبة إليّ ؟

فردت في حدة :

- لقد جئت ، وهذا كل ما في الأمر !

- آه ، أنت . . . أيتها الطائشة ! ماذا عليّ أن أعمل
الآن ؟ ألقى بالحقيقة في وجهه ؟ ألقى بها كاملة من غير
نقصان ؟ إن لي زوجة في البيت هي أمه ! . . . أفلا تفهمين
معنى هذا ؟

فسألت مالفا وقد ضيقت عينيها الخضراوين في ازدراء :
- ماذا يهمني من ذلك كله ؟ أظنني أخافه ؟ أو أخافك
أنت ؟ لكم تبدو مضحكاً وانت تقفز أمامه ! أكاد لا أستطيع
أن أمتنع عن الضحك !

- قد يبدو لك ذلك مضحكاً ! ولكن ، ماذا عساني
أصنع ؟

- كان ينبغي أن تفكر في ذلك من قبل !

- وكيف لي أن أعرف أن البحر سيلفظه إلى هذا
الشاطئ كما حدث فعلاً ؟ لم يكن ذلك في حساباني !

أعلن لهما صدى خطوات على الرمل عن اقتراب ياكوف ،
فامسكا عن الحديث . كان يحمل حقيبة خفيفة رمى بها في
إحدى الزوايا ، وهو يشخص في غضب إلى المرأة من طرفي
عينيه .

وتابعت مالفيا قرش البزرات في لذة .
كان فاسيلي يجلس على جذع الشجرة ، يحك ركبتيه
براحتي يديه ، حين قال مبتسماً :

- حسناً ، هذا أنت هنا ! وما الذي أغراك على المجيء ؟
- أوه ! حدث ذلك من دون قصد . . . لقد كتبنا
اليك . . .

- متى ؟ لم استلم أية رسالة ؟
- صحيح ؟ ولكننا كتبنا على أية حال . . .
فقال فاسيلي في نغمة قانطة :
- لربما ضاعت الرسالة ! أخذها الشيطان ! ما رأيك ،
إيه ؟ إنها لا تضيع إلا عندما يكون المرء في حاجة ماسية
إليها !

فاستفهم ياكوف ، وقد نظر إلى والده في كثير من
الحز :
- لم يبلغك إذن ما جرى في البيت ؟
- وكيف يتساح لي أن أعرف ما دمت لم استلم
رسالتكم ؟ !

فأخبره ياكوف أن حسانهم مات ؛ وأن جميع ما لديهم
من حب مخزون نفذ في أوائل شهر شباط ؛ وأنه لم يستطع
أن يجد عملاً ؛ وأن العشب المجفف نفذ أيضاً فاشرفت

البقرة على الهلاك ؛ وأنهم تدبروا أمرهم على صورة ما حتى
نيسان ؛ ويومذاك قرروا أن عليه ، هو ياكوف ، أن يلحق
بوالده بعد حراثة الأرض ، فيظلّ إلى جانبه طوال ثلاثة
أشهر يكسب خلالها بعض المال ؛ وعندها كتب إليه يعلمه
بذلك القرار ، ومن ثم باعوا ثلاثة من الغنم ، واشتروا
العشب المجفف والحبوب وما هو ذا قد جاء !

فعلّق فاسيلي على ذلك قائلا :

- إذن ، هذا ما حصل ! هيم . . . ولكن . . . كيف
ذلك ؟ لقد أرسلت بعض المال ، ألم أفعل ؟

- ولم يكن كثيراً ، اليس كذلك ؟ أجرينا عدة
إصلاحات في المنزل . . . كما تزوجت ماريّا ، وكلّفنا ذلك
مبلغاً منه . . . ثم ابتعنا آلة للفلاحة . . . وأنت . . . لقد
مضى عليك خمس سنوات غائباً عنا !

- نه . . . م ! هذا صحيح . . . ح ! أقلت إن المال لم
يكف ؟ إن القدر تغلي ! . . .

وقفز مسرعاً خارج الكوخ .

جلس فاسيلي القرفصاء قبالة النار التي تغلي القدر
عليها ؛ ومسح رغبة الحساء ورمى بها في النار . كان غارقاً
في لجة من التفكير العميق ، فلم تؤثر فيه الأخبار التي حملها
ولده إليه كثيراً ، بل استغرت فيه بالأحرى شعوراً بالعداوة
للزوجة والابن معاً . أتوّل المزرعة إلى الخراب رغم المال
الكثير الذي أرسله إليهم خلال السنوات الخمس الأخيرة ؟
لولا وجود مالفّا لأطلعته على شيء مما يدور في باله الآن .
كيف تكون له الجرأة الكافية لمغادرة البيت دون إذن والده ،

ولا يكون له من الحكمة ما يكفيه للعناية بالمزرعة بترو ؟
وهذه المزرعة التي لم يك فاسيلي يفكر فيها الا نادراً جداً
خلال حياته الخاضعة الحرة هنا قد وثبت الآن ، وعلى حين
بغته ، إلى فكره وبدت له حفرة ليس لها غور أو قاع ،
ظلاً يلقي بدراهمه فيها دون جدوى طوال السنوات الخمس
المنصرمة ، ورآها شيئاً لا ضرورة له في حياته ، ولا فائدة
منه على الاطلاق بالنسبة إليه . حرّك ما في القدر بملعقة ،
وتأوه .

بدا اللهب الصغير الأصفر الذي تبعثه النار شاحباً
ضئيلاً في لمعان ضوء الشمس . وهبّت أكاليل من الدخان
الأزرق الشفاف تمتدّ من النار حتى البحر لاستقبال ما يرتطم
بالشاطئ من رشاش الأمواج . وفيما هو يراقب الدخان
شرع يفكر بمرارة في الانقلاب السيئ الذي ستؤول إليه حياته
الآن . ستقيّد حريته من دون ريب ، فلا بدّ أن ياكوف قد
ادرك من هي مالفا . . .

كانت مالفا قابضة في الكوخ ، توزع الاضطراب في قلب
الشباب بعينيهما المبتسمتين أبدأ ، المفصحتين عن العبث
والاغواء .

قالت على حين بغته ، محدقة بحدّة في وجه ياكوف :
- اعتقد أنك خلّفت «جبيبة قلب» هناك ، في
القرية . . .

فاجاب مرغماً نفسه على ذلك :

- لربما !

سألت مالفا في صوت متوان :

- أهي جميلة ؟

فما جزم ياكوف بحرف .

- لمَ لا تعجب ؟ أهي أجمل مني طلعة ؟

رفع عينيه دون إرادة منه ، وصعد النظر في وجه المرأة ، فإذا هي غامضة لون الخدين المستديرين ، ثغرها رتل ، وشفتاها مكتنزتان نديتان مرتجفان تنفلقان عن ابتسامة مرحة هازئة . كان قميصها القطني القرنفلي اللون يلائمها تماماً ، ويظهر تقاطيع كتفها المملوءتين ، وصدرها اللين الناهد . لكنه لم يحب عينها الخضراوين ، الضاحكتين ، اللتين ضيقتهما بخبث . فندت عنه تنهيدة عميقة .

قال ، فإذا رنة توسل واستعطاف ترافق صوته رغم أنه أرادها رنة احتداد وقوة :

- فيم تتحدثين هكذا ؟

أجابت ضاحكة :

- كيف تريدني أن أتحدث ؟

- وتضحكين ؟ لمَ ؟

- أنا اضحك منك !

فاستفهم ياكوف غاضباً ، وقد خفض عينيه مرة أخرى مرتبكاً بنظراتها :

- لمَ ؟ ماذا فعلت لك ؟

فما أجابت .

خمن ياكوف صلتها بأبيه ، الأمر الذي عاقبه عن التحدث إليها بحرية تامة . ولم يدهشه اكتشافه . فلقد

بلغه أن الرجال الذين يعملون بعيداً عن دورهم يقضون وقتاً ممتعاً مثلنذذين بالحب . وأدرك أن رجلاً قوي الصحة عاطفياً مثل أبيه لا بد أن تصعب الحياة عليه دون امرأة هذه الفترة الطويلة من الزمن . فشعر بالضيق والارتباك في حضرة هذه الأنثى الخوذة ، وفي حضرة والده أيضاً . فانتقل تفكيره إلى أمه - تلك المرأة المتعبة المتدمرة التي تعمل مثل أمة هناك ، في قريتهم ، دون أن تعرف للراحة طعماً

أعلن فاسيلي ، وقد ظهر في الكوخ :

- حساء السمك جاهز ! هاتي الملاعق ، يا مالفا !

أسف ؟ ياكوف النظر إلى والده ، وفكر في نفسه :

«لا بد أنها تأتي كثيراً إلى هذا المكان ، ما دامت تعرف أين تحفظ الملاعق !»

جاءت مالفا بالملاعق ، وأعلنت أنها تريد أن تغسلها ، وأنها ستأتي بزجاجة الفودكا التي تركت في القارب .

راقبها الأب والابن معاً وهي تغادر الكوخ ، وجنحاً إلى الصمت بعد أن فأت عن بصرهما ، ثم استفسر فاسيلي بعد برهة وجيزة :

- كيف التقيتها ؟

- ذهبت إلى المكتب أسأل عنك ، وكانت هناك . . . فقالت لي : فيم تقطع تلك المسافة على الشاطئ على قدميك ؟ فلنركب قارباً . أنا الأخرى ماضية إليه . وهكذا اتينا . . .

- آ . . . ! لطالما فكرت في نفسي وتساءلت : ترى ، كيف أصبح ياكوف الآن ؟
- تطلع الابن في وجه أبيه ، وهو يبتسم ابتسامة لطيفة ردت إلى فاسيلي فيضاً من شجاعة ، فقال :
- إنها ليست قبيحة ، ما رأيك ؟ إيه ؟
- فجمجم ياكوف في غموض ، وهو يطرف بعينه :
- لا بأس بها ، على أية حال .
- فقال فاسيلي ملو*حاً بيديه :
- ما عسى أن يصنع الرجل ، يا أخي ؟ لقد تحملت وحدتي بصبر بادي الأمر . . . ولكنني لم أستطع ذلك طويلاً ! إنها عادة . . . فانا رجل متزوج ! وخلاف ذلك ، فهي ترفاً ثيابي ، وتقوم ببعض الأعمال الأخرى . . . وعموما . . . أنت لا تستطيع من المرأة خلاصاً أكثر من عدم استطاعتك الهرب من الموت !
- اختتم كلامه في صراحة ، فردَّ ياكوف عليه :
- وما علاقتي بالأمر ؟ ذلك يخصك وحدك . ليس لي أن أحكم عليك .
- واسرَّ في نفسه : «لن تقنعني أن امرأة لعوباً مثلها ترضى البقاء معك لترفاً لك سروالك» .
- قال فاسيلي :
- ومع ذلك ، فانا في الخامسة والأربعين فقط . . .
- وانا لا اصرف الكثير عليها . هي ليست زوجتي . . .
- فوافق ياكوف :
- أكيد ، هي ليست زوجتك .

وعاد يسره في نفسه : «ولكنها تبتلع ما في جيوبك على أية حال ، وأنا أراهن على ذلك !»

رجعت مالفا تحمل زجاجة الفودكا وحزمة من البارانكا ، فجلسوا يلتهمون الحساء دون أن يتفوهوا بحرف ، يمصون عظام السمك في صوت مرنان ، ثم يرمون بها على الرمل قريباً من الباب .

أكل ياكوف كثيراً وفي شهية عظيمة . ويبدو أن مالفا اغتبطت بذلك فأشرق وجهها بابتسامة عذبة وهي تراقبه ينفخ خديه اللذين صمدهما الشمس ، ويحرك بسرعة شفتيه الغليظتين النديتين . أما فاسيلي فأكل قليلاً ، وإن جرب أن يوحى لهما أن ذهبنه ينصب على طعامه وحده . لجأ إلى ذلك كيما يستطيع ، ودون انقطاع ودون أن ينتبه ابنه أو مالفا إلى ذلك ، أن يفكر في سلوكه تجاههما .

كانت صيحات النوارس الضارية تبتتر موسيقى الأمواج الناعمة ، وقد خفت الحرارة ، فراح مجرى من الهواء البارد المنعش المشبع برائحة البحر يندفع داخل الكوخ من وقت لآخر .

وثقلت عينا ياكوف بعد أن طعم هنيناً ، وتجرع قدرأ من الفودكا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غباء ، فراح يفوق ويتثاءب ، وينظر إلى مالفا بطريقة جعلت فاسيلي يخاطبه قائلاً :

— يا شاشا العزيز ، يا بني ، امض واضطجع قليلاً . خذ قسطاً من راحة . وسنوقظك حينما نهي الشاي .

فوافق ياكوف ، وقد تجوّر سريعاً على كومة من الأكياس :

- نعم . . . هذا ما سأفعل . ولكن ، الى أين انتمما ذاهبان ؟ ها ، ها ، ها !

غادر فاسيلي الكوخ متعجلاً ، مرتبكاً من ضحك ولده . وزمت مالفا شفيتها ، وقطبت حاجبيها ، وقالت جواباً عن سؤال ياكوف :

- المكان الذي سنقصده لا يهمك ! من أنت ؟ لست غير صبي ! . . أنت لا تفقه شيئاً من هذه الأمور بعد . . . فقال ياكوف في صوت طنان ، ومالفا تخرج من الكوخ :
- انا صبي ؟ حسناً ! انتظري . . . سأريك ! اتظنين أنك ذكية ؟

ظلّ يغمغم برهة كلاماً لا معنى له . رثق النوم في عينيه ، فاستسلم له وقد أغمعت وجهه المتوهج ابتسامة رضى ثملة .

غرز فاسيلي ثلاثة قضبان في الأرض ، ووصل ما بين رؤوسها ، ونشر بعض الأكياس الخشنة عليها ، واسترخى في ظلها وقد وضع ذراعيه تحت رأسه ورفع بصره إلى السماء . وعندما جلست مالفا على الرمال بالقرب منه التفت إليها ، فرأت على وجهه أمارات الغيظ والسخط .
استوضحت ضاحكة :

- ما الأمر ؟ ألم يسعدك لقاء ولدك ؟
فهدد فاسيلي بصوت نكد :

- ما هو ذا . . . يضحك مني . . . وأنت السبب في ذلك !

سألت في انشداه ممزوج سخرية :

- أوه ، والسبب أنا ؟

- ألا تعتقدين ؟

- ايها المسكين ! ماذا تريدني أن أفعل بعد الآن ؟
أقلع عن المجيء لرؤيتك ؟ حسناً ، لن أجيء !
فقال لانما :

- يا شيطانة ! إيه ! أنت وإياه سواه ! هو يسخر مني ، وكذلك تفعلين أنت . . . وأنت وهو أقرب البشر إليَّ !
علام تضحكان مني ، أيها الشيطانان ؟
واستدار عن مالفا ، واعتصم بالصمت .

تشبثت مالفا بركبتها ، وأخذت تؤرجع جسدها في هدوء ، وألقت نظرتها الخضراء على البحر الفرح المتلألئ ،
وابتسمت ابتسامة المرأة المنتصرة الواثقة من جمالها .
لاح على البعد قارب شراعي يتوانب على أعراف الماء ،
وينزلق مثل طير ضخم أخرق رمادي الجناحين . كان بعيداً
عن الشاطئ ، يتقهقر باستمرار إلى حيث ينفخس البحر
والسماء في زرقة لامتناهية .

- ما بالك لا تتكلمين ؟

- أفكر .

- تفكرين في ماذا ؟

فأجابت ، وقد رفعت حاجبيها :

- أوه ، لا شيء على اليقين .

واضافت بعد لحظة :

- ولدك شاب رائع حقاً !

فاستوضحها ، والغيرة تنهشه :

- ما شأنك به ؟

- هذا يهمني . . .

فحدجها بنظرة فيها غضب وارتياح ، ونبر :

- حذار ! إياك والجنون ! فأنا إنسان هادئ ، ولكن

الويل لك اذا اثرت تأثيرتي !

وضمّ قبضتيه ، و اضاف من بين أسنانه المطبقة :

- كان في نيتك شيء حينما وصلت إلى هنا هذا

الصباح . . . لست أدري ما هو بعد . . . ولكن ، إياك !

لن أكون رحيماً يوم أكتشفه . . . وابتسامتك هذه . . .

وكل شيء آخر . . . أنا أعرف كيف أسوس جنسك ، فلا

تقلقي !

فقالت مالفا في نفمة لا حسّ فيها ، دون أن ترفع عينيها

إليه :

- لا تحاولنّ إرهابي ، يا فاسيا . . .

- إذن ، فلا تلعبى بالنار . . .

- ولا تتوعّدني أنت !

فجأ ، وقد ثارت حمياه :

- ساخر بنكّ ضرباً مبرحاً إن جرّبت التلاعب عليّ . . .

استدارت إليه ، وادقّت النظر بفضول في وجهه النائر ،

ونبرت :

- ماذا ؟ أنت تضربني ؟

- ومن تحسبين نفسك ؟ دوقه ؟ نعم ، سأضربك . . .
فسألته في هدوء :

- ومن تحسبني - زوجتك ؟

وأضافت باقناع ، دون أن تنتظر منه جواباً :

- إذا كنت معتاداً أن تضرب زوجتك دون سبب ،
افتحسب أن في مقدورك أن تعاملني على المنوال ذاته ؟
إعلم ، أذن ، أنك على ضلال . سيده نفسي أنا ، ولا أخشى
أحدًا ، ولكنك أنت - أنت خائف من ولدك ! كان من العار
أن ترقص أمامه هذا الصباح ! ومع ذلك تجرؤ على التهديد
بضربي !

وهزّت رأسها في احتقار ، وأخلدت إلى الصمت .
فاخذت لهجتها الباردة وكلمات احتقارها غصبة فاسيلي ، فهو
لم يرها من قبل قط بمثل ما هي عليه الآن من جمال حلو
أخاذ . نبر :

- هيا ، أفرغي جرابك . . .

كان ناعماً عليها ، ومع هذا لم يستطع غير الإعجاب
بها ، والإقرار بفتنتها .

واندفعت مألفا تقول :

- سأخبرك شيئاً آخر ! أنت تدعي أمام سير يوجكا أنك
كالخبز بالنسبة إليّ ، فلسست استطيع الحياة بدونك !
ولكنك مخطئ . . . لعلّي لا أحبك أنت ، ولعلّي لا آتسي
لرؤيتك أنت ، وإنما لرؤية هذه البقعة من الأرض . . .
قالت هذا ، وحركت يدها حركة واسعة أمامها ،
وأضافت :

- ولعلني اتعشق هذا المكان لأنه قفر مهجور . ليس فيه غير الماء والسماء ، خال من قوم يشيرون الاشتمزاز في نفسي والنفور في روحي . وجودك هنا لا شأن له . . . الأمر سيان عندي . . . كأنني أدفع مقابل وجودي هنا . . . ولو كان سير يوجبك يقيم هنا لجئت إليه أيضاً . . . أه ، لو لم يك ههنا إنسان على الإطلاق ! . . . مللتكم جميعاً ! . . . وجمالي يمكنني من الحصول على رجل أيّان كنت ، ومن انتقاء الرجل الذي أريد . . .

فح^٢ فاسيلي غاضباً ، وقد قبض فجأة على عنقها :

- هكذا إذن ؟ اتلك هي فكرتك ؟

هزها في عنف ، فلم تبد مقاومة رغم ازرقاق وجهها واحمرار عينيها . اكتفت بوضع يديها على يدي فاسيلي المطبقتين على عنقها ، وراحت تحملق في وجهه بشبات . قال في صوت أبح^٣ ، وحنق شديد يملك عليه حواسه :

- أهذا هو جنسك ؟ كتبت الأمر حتى الآن ، أيتها الدنسة . . . تعانقينني . . . تداعبينني . . . ساريك !

لوى رأسها وصفعها مرتين ، مشفياً غليله ، بجمع قوته ، بقبضة يده على رقبتها . كان يفتبط اعظم اغتباط وهو يحس قبضته تحتك^٤ بعنقها الناعم .

همهم منتصراً ، وهو يدفعها عنه :

- إليك هذه ، أيتها الأفعى !

غاصت في الرمل دون أن تثن أو تتأوه أبداً ، وتمددت حيث سقطت على ظهرها ، ساكنة ، صامتة ، شعثناء الشعر ،

متوردة الوجه جميلة . . . ومضت عيناها الخضراوان ، مسن
تحت أهدابهما ، بكراهية باردة نحوه . ولكنه ، وهو
يتنفس ، هائجا تحت وطأة إحساسه الشهيق بالرضى لأنه
فجّر غضبه ، لم ينتبهه إلى نظرتها . وعندما رفع بصره
إليها ، مزهوا مرة أخرى ، افتـرّ ثغرها عن ابتسامة ،
وارتجفت شفتاها الممتلئتان ، والتمعت عيناها ، وبرزت
غمازتان على وجهها . فشدّ إليها بصره مشدوها ، وصاح
وهو يشدّ على ذراعها بقوة :

— ما هذا ، أيتها الشيطانة ؟

فقالت مألفا همسا :

— فاسكا * ، أنت من ضربني ؟

— من دون ريب . من غيري ؟

قال هذا غير فاهم مقصدها ، ورنّا إليها محتاراً لا يدري
ما يفعل . يضربها ثانية ؟ ولكن غضبته جنحت إلى هدوء ،
فلم يعد يتصور أن يرفع يده عليها مرة أخرى .
همست مألفا مرة أخرى :

— هذا يعني أنك تعبني ، اليس كذلك ؟

فبعثت تلك الهمسة دفقة حارة في جسده . نبر بصوت

عابس :

— حسناً ، يبدو أنك لمّا تنالي نصف ما تستحقين

بعد !

* فاسكا — إسم التصغير من فاسيلي فيه شيء من الاحتقار .

- حسبتُ أنك لم تعد تحبني . . . قلست في نفسي :
إنه سيطرمني دون ريب بعد أن جاء ولده اليه . . .
وأطلقت ضحكة غريبة رنَّ صداها عالياً جداً .
تمتم فاسيلي ، وهو يضحك رغمًا عنه :
- أيتها الحمقاء الصغيرة ! من هو ولدي ؟ ليس هو
الذي يفرض عليَّ تصرفاتي !
وشعر بالخجل من نفسه ، وبالأسف من أجلها . فاضاف
في صوت صارم وقد تذكر كلماتها :
- ليس لولدي دخل في هذا . . . إذا ضربتك فهي
خطيئتك وحدك . كان ينبغي ألا تغيظيني !
فقلت ، وهي تحتك بكتفه :
- ولكنني فعلت ذلك عن عمد - لأختبرك !
- تختبريني ؟ فيم ذلك ؟ حسنًا ، لقد عرفت الآن !
فقلت بثقة ، وقد اغمضت عينيها نصف إغماضة :
- لا تبال ! أنا لم اغضب منك . ضربتني لأنك تحبني ؟
حسنًا ، سأعوض لك ذلك . . .
وخفضت صوتها ، وارشقت النظر بثبات في عينيها ،
وقالت :
- أوه ، كيف سأعوض ذلك !
اعتبر فاسيلي ذلك وعداً منها ، وعداً جميلاً ، يشير في
نفسه فرحاً لذيذاً .
سأل باسمًا :
- كيف ؟ كيف ستعوضين ذلك ؟
فاجابت في هدوء ، وشفتاها ترتجفان :

- انتظر ، وسترى . . .
فضمها ضمة عاشق ولهان ، وهتف :
- آه ، أيتها المحبوبة الحلوة !
وأضاف بعد لحظة :

- هل تعرفين ؟ لقد اضحييت أعزَّ عليّ مذ ضربتك .
صدقاً ! وأنا أشعر الآن أننا من صلب دم ولحم واحد !
حوّمت النوارس فوق رأسيهما ، وراحت أنفاس النسيم
المندفة من البحر تلاطفهما حاملة معها زبد الأمواج حتى
قدميهما ، وضحكات البحر ترنّ دون انقطاع أو فتور . . .
تنفس فاسيلي الصعداء وقال ، وهو يداعب المرأة
الملتصقة به بحنان :

- نعم ، هذه هي حال الأشياء ! لكم تبدو غريبة جميع
هذه الترتيبات في الوجود ! كل شيء أثير محبوب ! أنت لا
تفهمين شيئاً . . . لكنني ، أحياناً ، أفكر في الحياة
فتخيفني ! بخاصة في الليل . . . عندما لا أستطيع النوم . . .
أنظر ، فأرى رقعة البحر أمامي ، وفسحة السماء فوق
رأسي ، وكل ما حولي مُعتمٌ بظلمة سوداء تجعلني ارتعش
هلعاً . . . وأنا وحيد ! فأتصور نفسي صغيراً ، صغيراً
جداً . . . والأرض ترتجف تحت قدمي ، وليس من مخلوق
سواي . . . حينئذ ، أتمنى أن تكوني معي . . . فيكون
كلانا معاً على الأقل . . .

استرخت مألها صامطة على ركبتيه وأغمضت عينيها .
فانحنى عليها فاسيلي بوجهه الخشن - لكن اللطيف - الذي
لوّخته الشمس والرياح ، ودغدغت لحيته فاتحة اللون

الرمادية المريضة عنقها . فلم تتحرك المرأة ، غير أن صدرها راح يعلو وينخفض بهدوء وانتظام ، وعينا فاسيلي تنتقلان آنآ إلى البحر تستقران على ذلك الصدر الذي يصاقبه . وقبّلها في شفّتيها ببطء ، وبصوت عال ، ورفّ شفّتيه كمن يلتهم حساء حاراً طافحاً بالسمن .

مرت ساعات ثلاث على تلك الحال . وأطلقت الشمس ، ومالت تفوق شيتاً فشيئاً في لجة اليم ، فجمجم فاسيلي في صوت كئيب :

- سأذهب وأهيب الغلاية للشاي . . . سيستيقظ ضيفنا سريعاً !

تنحّت مالفا عن طريقه في كسل مثل قطعة مدللة . فأرغم نفسه على النهوض ، والتقمه الكوخ .

راقبته المرأة من خلال أهدابها المرفوعة قليلاً ، وتنهدت مثلما يتنهد المرء وقتما يزيح عن كاهله حملاً آده ثقله .

بعيد قليل كان الثلاثة حول النار يشربون الشاي . صبغت الشمس المتضيفة البحر بألوان منعشة بهية ، وكانت الأمواج الخضراء تبرق بألوان اللؤلؤ والأرجوان .

وبدا فاسيلي يسأل ولده عن حوادث قريتهم وهو يحتسي شايبه من قدح خزفي أبيض ، ثم يجيب عنها بنفسه بما يتذكره منها . وأرهفت مالفا أذنيها تصيخ السمع إلى حوارهما غير المتعجل دون أن تشارك فيه .

سأل فاسيلي :

- إذن ، لم يزل الرجال يتعاطون الأمور هناك ؟

- نعم ، لكن في شيء من العناء ، وكيفما اتفق . . .
- نحن ، عبيد الأرض ، لا نسأل كثيراً . اليس كذلك ؟
- سقف يحمي رؤوسنا ، وما يكفيننا من خبز ، وقدرح من الفودكا في الأعياد . . . ولكننا لا نحصل حتى على هذا القليل . . . اتحسبني كنت اغادر البيت لو كنت أستطيع ان أرتزق في القرية ؟ انا في القرية سيد نفسي ، ند للانداد . ولكن ، من انا هنا ؟ . . . خادم ! . . .
- ولكنك تنال أكثر من كفايتك من الطعام هنا . وكذلك عملك أسهل كثيراً . . .
- كلا ! لا أعترف بذلك ! إن العمل شاق جداً في بعض الأحيان حتى لتؤلمك عظام جسدك كلها . ثم أنك تعمل هنا لسيد آخر . ولكنك هناك ، في بيتك ، تعمل لنفسك . . .
- فأفحمه ياكوف بقوله الواصل :
- ولكنك تكسب أكثر .
- وافق فاسيلي في أعماق قلبه على ما يقول ولده : فالعمل والحياة في القرية ، أفسى من هنا بكثير . ولكنه لم يرغب ، لسبب ما ، في ان يفهم ولده ذلك ، فأجاب في احتداد :
- هل أحصيت ما نربح من مال هنا ؟ فالحياة ، في البيت ، في القرية ، يا صغيري . . .
- فقاطعه مالفاً ضاحكة :
- تشبه القبر ، مظلمة محشورة موحشة . . . وخاصة بالنسبة إلينا ، نحن النساء . . . لا شيء غير الدموع .
- أجاب فاسيلي ، وقد وتثر نظره إليها عابساً :
- انها متشابهة ، بالنسبة اليكن ، في كل مكان . . .

كما إن النور متشابه أيضاً . أن هنالك شمسا واحدة تشرق في كل ناحية !

فهتفت متحمسة :

- مخطيء أنت ! يجب عليّ ، في القرية ، أن أتزوج شئت ذلك أم أبيت . والمرأة المتزوجة هناك أمةٌ للأبد : تحصد ، وتفزل ، وتعنى بالماشية ، وتنجب أطفالاً . . . وماذا ترك لها ؟ لنفسها ؟ لا شيء غير لعنات زوجها ولطماته . . .

فقاطعتها فاسيلي :

- ليست الحياة كلها لطمات .

فتابعت مألفا ، متجاهلة مقاطعته لها :

- ولكنني ، هنا ، لا أخسرُ أحداً . أنا حرة كطائر النورس . أستطيع أن أخلق أيا من شئت ومتى رغبت ، ولا أحد يستطيع أن يعترض سبيلي ، ولا أحد يستطيع أن يلمسني ! . . .

فاستوضح فاسيلي باسمي ، يذكرها بما حصل في ضحوة النهار :

- وإذا لمسك أحدهم ؟

- إذا لمسني . . . أعرض له ذلك !

اجابت مألفا بهدوء وغاز النور من عينيها ، فضحك فاسيلي متغاضياً :

- إيه . . . أنت قطة ماهرة ، ولكنك ضعيفة ! أنت امرأة وتحدثين كالنساء . . . الرجل ، في البيت ، في القرية ،

في حاجة إلى امرأه تكون جزءاً من حياته . . . ولكنها ، هنا ، تعيش ليلهم بها . . .

وأضاف بعد لحظة من صمت :

- ويأثم معها !

وتوقفاً عن الحديث .

نبر ياكوف ، وهو يتنهد كئيها :

- يبدو البحر وكان لا نهاية له !

شخصوا ، ثلاثتهم ، صامتين إلى انبساط حوض الماء المتراكم أمامهم ؛ في حين هتف ياكوف ، وقد بسط ذراعيه بأقصى ما يستطيع :

- ليتنا كان يابسة ! أرضاً سوداء ! وليتنا نستطيع ان نزرعها كلها !

- أوه ، هذا ما تحب ان يكون عليه !

قال فاسيلي ضاحكاً بلطف ، وقد أطلق بصره إلى ولده ، مستصوباً قوله ، بينما اشرق وجهه الأخير بالرغبة التي تمنّاها . لقد سرّه كثيراً ان يسمع إلى ولده يتحدث بمثل ذلك الحب للأرض ، فلعله يناديه عما قريب وبالبحر فيعود ادراجه ثانية إلى القرية ، بعيداً عن هذه الحياة الحرة وعما يحيطه هنا من إغراء . وساعتئذ يبقى هو ، فاسيلي ، وحيداً مع مالفيا ، ويرجع كل شيء إلى ما كان عليه في السابق . . .

- ما أروع كلماتك ، يا ياكوف ! هذا ما يريدونه الفلاحون ! الفلاح قوي على الأرض ، وطالما أنه جبار عليها فهو يعيش . ومتى خرج منها خسر كل شيء . . . الفلاح الذي

لا ارض له كالشجرة التي لا جذور لها ، قد تكون مفيدة
لشيء ما ولكنها لن تعمّر طويلاً - فهي ستتعفن ! وهي
تفسد ، بالاضافة إلى ذلك ، جمال الغابة وروعتها . . .
فتلوح عريانة لا ثياب لها . وذلك منظر بانس لا جدال فيه !
إن ما قلت صحيح ، يا ياكوف .

فتح البحر احضانه للشمس المطفلة عازفاً لها ترحاجاً
وتحية موسيقى أمواجه الفرحة التي تلونها خيوط الشمس
الراحلة بألوان بهية زاهية حلوة . ان الشمس ، منبع النور
السني ومبدعة الحياة ، تودع العيّلم وزينه بالألوان البراقة
لكي يوقظ ، بعيداً جداً عن هؤلاء الثلاثة الذين يراقبونها ،
يوقظ الأرض الغافية الوسنى بحواجب مبهجة من الشروق
المتألق .

قال فاسيلي مخاطباً مالفأ :

- يا إلهي ، لأشعر بقلبي يذوب عندما أرى الشمس
تودع الأرض في طريقها إلى فراشها الليلي .
فلم تعر مالفأ جواباً .

ابتسمت عينا ياكوف الزرقاوان ، وهما تستشفان البحر
حتى الأفق البعيد . وهكذا قضوا وقتاً طويلاً ، جلوساً ،
يشخصون متأملين إلى حيث فنيت آخر لحظات النهار
المودع ، تتألق أمامهم جمرات النار ، واللبليل وراءهم ينشر
أخيلته الغبراء فتحيط بهم وتسبغ على الرمال الصفراء لوناً
أسود من حنك الغراب . واختفت النوارس ، وغرق كل ما
يحيط بهم في رداء من السكينة ، وأمسى في شبه غيبوبة
رقيقة . . . حتى الأمواج السريعة بدت تتسابق إلى الشاطئ

الرملي . وهي أقلّ مرحاً وضجة وهديراً منها طوال
النهار . . .

قالت مالفا على غير انتظار :

- فيم بقائي ههنا ؟ آن وقت الذهاب .

فارتعد فاسيلي ، وجعلَ إلى ولده ، وتأنف :

- فيم العجلة ؟

ثم أضاف :

- انتظري حتى يستفيق القمر . . .

- ولم أنتظري ؟ لست خائفة . وليست هي المرة الأولى

التي أذهب فيها وحيدة من هنا وقد أسجف الليل !

أطال ياكوف النظر إلى والده ، وضيق عينيه يخفي

ابتسامة ساخرة ، ثم تطلع إلى مالفا . تفرّست فيه فأربكته
وأذهلته .

قال فاسيلي ، وقد شعر بالحزن والسخط :

- حسناً ، اذهبي !

نهضت مالفا ، وأقراتهما المساء ، وخطت بتؤدة على

الشاطئ . تدرج الموج حتى قدميها وكأنه يداعبها . وفي

السماء كانت النجوم - زهورها الذهبية - تتلألأ وتبرق

بنعومة . وبهت لون قميصها الزاهي في عجسة الليل ، وهي

تبتعد شيئاً فشيئاً عن فاسيلي وولده اللذين يتأثرانها
بنظرهما .

شرعت تغني في صوت عالي النبرة :

يا ليلةَ الشعرِ ردِّي حبيبَ القلبِ
يغفو على صدري يُنشِدُ لحنَ الحبِّ .

وخيلٌ إلى فاسيلي أنها استأنت في السير ، وقفت
تنتظر . بصق غاضباً ، وفكّر في نفسه : «إنها تفعل ذلك
عمداً لتغيظني ، تلك الشيطانة الماكرة !»
وقال ياكوف باسمًا :

— يا للدعشة ! بدأت تغني !
كانت تظهر لهما ، عن بعد ، أشبه برقعة صغيرة من
وميض رمادي اللون .
وسبح غناؤها فوق البحر مرة ثانية :

يلهو بنهديًا . . . والليلُ اشواقُ
لا تكتمني شيئاً فنحن عشاقُ

هتف ياكوف ، وقد عدّل وضعه إلى مصدر تلك الكلمات
الفاتنة :

— أسمع ؟
فبلغه صوت فاسيلي الجاد يستفسر :
— إذن ، لم تستطع أن ترعى المزرعة ؟
حملق ياكوف في وجه أبيه بعينين مرتبكتين حائرتين ،
وعاد قابلاً في مكانه السابق . لم يحمل إليهما ضجيج الأمواج
غير شظايا متناثرة من تلك الأغنية الطائشة :

أنا . . أنا . . وحدي لم أستطع نوماً
فابقَ على وحدي بربكَ اليَوْمَ

أعلن فاسيلي في صوت مكتئب ، وهو يتململ على الرمال :
- الجوُّ حار ! حار بالرغم من هجوم الليل ! يا لها من
منطقة ملعونة !

فأجاب ياكوف في صوت متلجلج ، وهو يشيح وجهه عن
أبيه :

- إنها الرمال ، فقد احتفظت بحرارة النهار القائل . . .
واستفسر الآب بحدة :

- هي ، أنت ! ماذا يضحكك ؟

سأل الابن في براءة :

- أنا ؟ ما عسى أن يضحكني ؟

- حقاً ، فليس ما يدعو إلى ذلك !

وجنحاً إلى الصمت .

طرق سمعهما ، علاوة عن صخب الأمواج ، أصوات
مختلفة أشبه ما تكون بتنهدات ، أو نداء متوسل حنون .

مرّ أسبوعان .

وجاء يوم الأحد مرة أخرى . ومرة أخرى كان فاسيلي
ليفوستيف مرتباً على الرمال إلى جانب كوخه يكوي البحر
بميينه منتظراً أوبة مألفا .

كان البحر المهجور يضحك ، وهو يلعب انعكاسات
الشمس ويمرح وإياها ، بينما تثب دفقات صاخبة من الأمواج
تتسلق الرمل ، فترشّه برذاذها ، ثم تنهزم حتى البحر
لتغرق فيه . وقد ظلّ كل شيء على حاله ، تماماً مثلما كان

عليه منذ اسبوعين ، سوى أن فاسيلي في المرة السابقة
انتظر عشيقته في ثقة هادئة ، أما اليوم فهو يترقب قدومها
وقد فرغ صبره وجش قلبه . هي لم تجي' الأحد الماضي -
فلا بد من مجيئها اليوم ! وهذا ما لا يخالجه فيه أدنى ريب .
إنه يكاد يموت تحرقاً إلى لقيائها . لن يتطفل ياكوف هذا
النهار ، فقد جاء قبل يومين يأخذ الشبكة بصحبة عدد من
الصيادين ، وقال إنه سيؤم' المدينة نهار الأحد ليبتاع
بعض القمصان . لقد عثر على عمل كصياد بأجر يبلغ خمسة
عشر روبلاً في الشهر ، وقد خرج للصيد مرات عديدة حتى
الآن كفرد من افراد فرقة الصيادين فراح يبدو مرحاً ومتحمساً
تعقب رائحته - كما مثاله من الصيادين - بالملح والسلك ،
كما اتسخت ثيابه كالآخرين ايضاً وتمزقت في أكثر
اجزائها . تنهّد فاسيلي ، وهو يفكّر في ولده ، وأسر'
لنفسه : «وددت أن يحتفظ بروحه النقية . . . وإلا
يفسد . . . ولربما يرفض عندئذ أن يرجع إلى البيت . . .
وفي مثل هذه الحال يجب عليّ أن أذهب . . .»

كان البحر مهجوراً إلا من النوارس . وبين فترة وأخرى
تظهر لطخات صغيرة سوداء على طول أرض الشاطئ الضيق
الذي يعزل البحر عن السماء ، تتحرك هناك ثم تختفي . ولم
يَبْدُ أي قارب على مرمى النظر ، مع أن شعاعات الشمس
تضرب البحر عمودياً تقريباً . كانت العادة أن تأتي مالفيا
مبكرة .

كان نورسان يتقاتلان في الجوّ بضراوة وشراسة ،
فيتطاير ريشهما في الهواء ، ويدخل صياحهما المتوحش الحاد

نغمًا ناشزاً على صدى الأمواج الضاحك الرنان المتواصل الذي
يمتزج في توافق رائع منسجم مع السكون الوقور المهيمن على
السواء الفسيحة . فيتردد على مدى البحر الواسع كتلاعبات
خيوط الشمس المبتهجة النشوى . ويسقط النورسان معاً
نحو الماء ، وهما متماسكان بمنقاريهما ، فإذا بلغاه انفلتا ،
وهما يصيحان آلاماً وغضباً ، وانطلقا ثانية إلى الفضاء الحر
يتطاردان . . . وأصدقاؤهما - سرب كامل من الطيور -
يصيد الأسماك في شره وجشع فيتدهور ، غافلاً عن صراع
صديقيه ، في المياه الخضراء الشفافة التي لا ترتاح ولا
تقتر .

وظل البحر خالياً قفراً ، لا تظهر على سطحه عند
الشاطئ البعيد تلك البقعة السوداء المألوفة . . .

كح فاسيلي في صوت مرتفع :

- ان تجيشي ؟ حسناً ، لا تجيشي . ماذا تظنين ؟

وبصق بازدرء في اتجاه الشاطئ . فضحك البحر .

تحسحس فاسيلي للقيام ، ونهض ودخل كوخه ، وفي
نيتة تهيئة الغداء . ولكنه لم يحس رغبة في ذلك ، فكر
راجعاً إلى حيث كان واضطجع هناك .

همهم في دخيلته ، وقد ارغم نفسه على التفكير في
سير يوجكا :

- لو يجيء سير يوجكا على الأقل ! لكم هو ساخر ذلك
الشباب ! إنه جدوة شر ، يهزأ من سائر الناس دون تمييز أو
تفريق . إنه رجل خصم ، وهو دوماً مستعد لغرض غمار
معركة ما ، قوى كالثور ، وعلى شيء من الثقافة أيضاً . كما

انه جاب الافاق كثيراً . . . وعلته انه سكير . . . ولكن
المرء لا يشعر بالملل وهو مع سير يوجكا . . . هو زيسر
نساء ، وهبته قلوبهن ، يعبث بهن ، كما يشاء ويهوى .
ومع انه لم يمض عليه طويل وقت هنا ، فهن يتراكضن
خلفه . ومالفا وحدها ظلت بعيدة عنه . . . لن تجيئي . يا
لها من امرأة حرون ! لربما نقيمت علي لأنني ضربتها ؟ لكن ،
أهذا جديد عليها ؟ لا ريب أن الآخرين كانوا يضربونها -
واي ضرب ! أفلا يجب علي أن افعل ذلك بدوري ؟

وهكذا ، شرع يفكر في ابنه لحظية ، وفي سير يوجكا
أخرى ، وفي مالفا أكثر الأحيان ، وهو يتململ مضطرباً على
الرمال ينتظر . ونما قلقه تدريجياً وانقلب ، دون أن يلحظ
هذا ، إلى أفكار شك وريبة حاول باستمرار أن يشتتها .
ظل ينتظر حتى هبوط المساء ، يرفض الاعتراف لنفسه
بتلك الوسواس . فينهض مرة ، ويتمشى غدوة ورواحاً على
الرمال ، ليعود فيضطجع ثانية . واخذت الظلمة تنشر برقعها
الحالك على منبسط البحر ، وهو لا يبرح يرنو إلى الافق البعيد
يترقب مجيء القارب .

ولم تحضر مالفا ذلك النهار .

وراح ، وهو يستعد للنوم ، يلعن حظه السيئ الذي
يعوقه عن الذهاب إلى اليابسة . ظل يعمل فكره ، فيصوّر
له بين الفترة والفترة ، وهو غاف ، أنه يسمع صوت
تجذيف بعيد ، فيقفز واقفاً ، ويهرع خارج الكوخ ، ويستكشف
براحتي يديه ، ويشخص إلى العباب الأسود الهائج
المضطرب . كان لهبان من النار يحترقان بعيداً ، على

الشاطيء ، عند مباني المسمكة . ولكن البحر لا يزال خالياً .
زمزم متوعداً :

— حسناً ، أيتها الشيطانة !
واستدار ، وغطَّ في النوم .

واليكم ما حدث في المسمكة ذلك النهار :

استفاق ياكوف مبكراً ، والشمس لم تكد تخرج من خدر
الافق ، ونسيم عليل يرخم في قلب البحر . فانهدر إليه وفي
نيته غسل وجهه ، فرأى مالفاً على الشاطيء الرملي .
كانت تجلس في مؤخرة قارب للصيد رسماً على الشاطيء ،
تسرح شعرها البليل ، وقد دلت قدميها العاريتين من فوق
حافته ، فتوقف برهة يحملق فيها في ولّه وشغف .
كان قميصها القطني ، المنحسر عن صدرها الناهد ،
منزلقاً عن كتفها ، فبدت تلك الكتف الرخصة بيضاء اللون
شديدة الإغراء .

والأمواج تضرب جدار القارب بلطف وتأن ، فترتفع مالفاً فوق
البحر تارة وتارة تغوص بحيث يلمس الماء قدميها العاريتين .
صاح ياكوف :

— تستحمين ؟

أدارت وجهها إليه ، ورمته بنظرة خاطفة . أجابت ، وهي
تسرح شعرها :

— نعم . . . فيم استيقظت باكراً ؟

— لقد استيقظت قبلي . . .

— وهل يجب أن تعذو حدوي ؟

فما أجاب . قالت :

- إن أردت أن تحذو حذوي ، فلا ريبة أنك تواجه مصاعب !

فرداً ياكوف ، وهو يبتسم :

- أوه ، إنها لمرعبة !

جلس القرفصاء على الأرض وشرع يفتسل .

جمع بعض الماء في راحتيه ، ورش به وجهه متأوهاً
مغتبظاً ببرودته . ثم سأل ياكوف ، بعد ما نشف وجهه
ويديه بذيل قميصه :

- لم تحاولين اخافتي على الدوام ؟

- ولم تشخص على الدوام إلي ؟

لم يعتقد ياكوف انها تسترعى اهتمامه اكثر من نساء
المسمكة الاخريات ، ولكنه الاونة اندفع في الكلام على حين
غرة ، فقال :

- تبدين مغرية ، فلا استطيع ان احوّل ناظري عنك !

فحّت ، وهي تصوّب إليه نظرة مرح ودهاء :

- لو سمع والدك عن أعمالك لفصل عنقك عن جسدك !

ضحك ياكوف وتسلق القارب .

لم يفهم ما قصدته مالفيا بقولة «أعمالك» ، ولكنها ما
دامت قد قالتها ، فذلك يعني انه قد حملق فيها اكثر من
اللازم . وبدأ يشعر بالرضى والمرح .

سار على حافة القارب متجهاً اليها وقال :

- وماذا عن والدي ؟ هل ابتاعك ، أم ماذا ؟

جلس الى جانبها وشرع نظره ينحدر فوق كتفها العارية ،

وصدرها الناهد نصف المكشوف ، وجسدها بأسره -
جسدها الناعم الطري القوي ، العابق برائحة البحر .
هتف مستحسناً بعد أن تفحصها بانتباه :
- أنت كالقشطة !

فاجابت في اقتضاب دون أن تنظر إليه ، ودون أن
تصلح من وضع ثيابها المغرية :
- لكنها ليست لمائدتك !
فتنهذ ياكوف .

كان البحر يضطجع أمامهما مترامي الأطراف تحسنت
شعاعات شمس الصباح ، وأمواج صغيرة ساحرة تحملها إلى
قلب الوجود نفحات حنون عذبة من النسيم العاطر تضرب
هيكل القارب برقة فائقة . وبعيداً في عرض البحر اسودَّ
اللسان الرملي فبدا كندبة على صدره الحريري . وتجاه ساحة
السماء الزرقاء الناعمة ينتصب صاري اللسان كخط رفيع
اسود ، وقطعة القماش الحمراء في قمته تخفق بها الريح .
قالت مالفا ، دون أن تنظر إلى ياكوف :

- نعم ، يا فتاي ! قد أكون مغرية ، ولكنني لست
لك . . . ولم يشترني أحد ، ولست خاضعة لوالدك أيضاً .
فانا أعيش على طريقتي الخاصة . . . لكن ، إياك ان تفكر
فيّ ، لأنني لا أودّ ان أقف سداً بينك وبين ابيك فاسيلي ،
وانا لا أريد ان أثير خصاماً او مشاجرة . . . اتفهمني ؟
فاستوضح ياكوف في حيرة :

- لم تخبريني بذلك ؟ فانا لم المسك . هل لمستك ؟
- لن تجرؤ على ذلك !

كان في صوتها رنة استهزاء اذ كنت كبيراء ياكوف
لسبيين : كونه ذكراً ، وكونه إنساناً . وتملكه شعور خبيث
شرير ، فالتصمت عيناه .

هتف ، وهو يقترب منها :

- اوه ، لن أجرؤ ، ما ؟

- كلا ! لن تجرؤ !

- نفرض انني فعلت ؟

- جرّب !

- وماذا يحدث ؟

- سأصفعك على رقبتك بحيث تطير وتهوي في الماء .

- هيا ، افعلني إذن !

- حاول ، والمسنني !

ثبتت عينيه المحترقتين فيها ، ثم لف ذراعيه القويتين
فجأة حول عطفها وضمها إليه في عنف . فارتج جسمها
القوي الحار في جسده تياراً من النار متاجعاً لافحاً ، واحس
غصة في حلقه كما لو كان يُخنق .

لهث :

- ها أنت ذي ! هيا ! اضربيني ! قلت إنك ستفعلين !

فقالته بهدوء ، وهي تحاول أن تحرر نفسها من بين

ذراعيه المرتجفتين :

- إليك عني ! دعني اذهب ، يا ياشكا !

- ولكنك قلت إنك ستصفعينني على رقبتني ، ما ؟

- دعني اذهب ! والا ندمت على ذلك !

- لا تحاولي إخافتي ! اواه ! ما أحيلاك !

وضمها إليه في عنف أكثر ، وضغط شفثيه الغليظتين على خدها المورّد . فضحكت في خبث ، وامسكت ذراعيه بشدة ، واندفعت فجأة إلى الأمام بحركة قوية من جسدها . فانقلبا ، متعانقين ، فوق حافة القارب ، وغطسا في الماء الذي تطاير في قوة وصخب ، ثم اختفيا سريعا وسط بحيرة من رغوة وزبد . وظهر رأس ياكوف فوق لجة المياه بعد قليل ، وشعره يقطر ماء ، والرعب يعلو وجهه العبوس . ثم برزت مالفا بالقرب منه .

شرع ياكوف يزمر ويصيح ، وهو يلوح بيديه يائساً ، وينثر الماء حوله ، بينما راحت مالفا تضحك بشهية وتسبح حواليه ، تقذف وجهه بالماء المالح وتغطس في اليمّ متجنبة ضربات ذراعيه العريضتين .

زمر ياكوف ، وهو ينفخ الماء من أنفه وفمه :

— أيتها الشيطانة ! سأغرق . . . هذا يكفي . . . محبة بالله . . . سأغرق . . . آه ! الماء أمرٌ من . . . أنا . . . أغرق . . . ق !

تركته مالفا وسبحت إلى الشاطئ ، وهي تضرب الماء باليدين مثل رجل . وعندما بلغته تسلّقت القارب في خفة ومهارة ، ووقفت عند مؤخرته ضاحكة ، وقد أُنعت بصرها إلى ياكوف يسبح في الماء متعجلاً محاولاً الوصول إليها . والتصقت ثيابها المبللة بجسدها ، فاستبانَت أعضاؤها الجميلة من الكتفين حتى الركبتين .

بلغ ياكوف القارب أخيراً ، وتمسك بحافته باحدى

يديه ، وتطلع في نهم إلى تلك المرأة شبه العارية التي تسخر منه في مرج .

قالت ، بين قهقهاتها :

- تعال ! أخرج من الماء ، ايها الخزير البحري !
وجئت على ركبتيها ، ومدت له يدها ، وتمسكت بالأخرى بجانب القارب . وتعلق ياكوف بيدها ، وقال متهيجا :

- والآن ، احترزي ! سأردّها لك تفطيسة حلوة !
قال هذا ، وكان ينهض في الماء حتى كتفيه ، وشدها بعنف نحوه . فانقضت الأمواج فوق رأسه ، واصطدمت بهيكل القارب ، ثم تناثر رشاشها على وجهها . فعبست وضحكت وزعقت على غير انتظار ، وقفزت في ملء الماء مفقدة ياكوف توازنه بصدمة جسدها .

راحا يلعبان في الماء الأخضر مرة ثانية كسمكتين كبيرتين ، يرشان بعضيهما ، ويزعقان ، يغطسان ، وينفخان .

وضحكت الشمس وهي تراقبهما يلعبان ! وضحك زجاج نوافذ أبنية المسمكة ايضاً وهو يردّ شعاعاتها ؛ وطفى الماء وقرقر وهو يصطدم بأذرعهما القوية ؛ وارتعدت النوارس من هذين المخلوقين المتطفلين يتعاركان في الماء ويصخبان ، فراحت تدور وهي تزعق بصراخهما الحاد فوق رأسيهما اللذين يختفيان بين آونة وأخرى تحت الاثناج المتلاحقة المتدفقة . . .

رجعا أخيراً ، متعبين لاهثين لكثرة ما ازدردا من مياه ، إلى الشاطئ ، وجلسا تحت الشمس يستريحان .

قال ياكوف ، وقد بصق وتفضن وجهه عابساً :
- تفو ! هذا الماء نفاية كريهة ! فلا عجب أن يكون
كثيراً !

فقالت مالفاً ضاحكة ، وهي تعصر الماء من شعرها :
- ثمة نفايات كثيرة من جميع الأنواع في العالم تعافها
النفوس ! خذ الشبان مثلاً . . . يا لله ، ما أكثرهم !
كان شعرها فاحم اللون ، كثيفاً متموجاً رغم قصره .
وافترت نقر ياكوف عن بسمة خبيثة ، ولكز مالفاً
بمرفقه ، ونبر :

- لهذا السبب اذن اخترت عجوزاً !
- العجوز افضل من الفتى في بعض الأحيان !
- إن كان الأب جيداً فالابن أجود !
- حقا ؟ من أين تعلمت مثل هذا الفغار ؟
- ما أكثر ما أخبرني البنات في قريتنا أنني لست
قليل الخبرة أبداً !

- وماذا تعرف البنات ؟ اسألني أنا !
- ولكن ، ألسنت بنتاً أيضاً ؟
حدقت إليه برهة ، بينما ضحك في دهاء . واتخذت
مظهر الجدة فجأة ، وقالت في نفمة ثلاثم مظهرها :
- كنت بنتاً ووضعت طفلاً ذات مرة !
فانفجر ياكوف في ضحكة عالية ، وصاح :
- متاع ملوث إذن . . . ما ؟
فجمجمت مفتاظة ، وقد نات عنه :
- لا تكن أحمق !

ارتبك ياكوف ، وضم شفتيه ، ولم يقل شيئاً .
ظلا صامتين حوالي نصف ساعة ، متمددين في الشمس
لتجفيف ثيابهما .

أفاق الصيادون من هجوعهم في العنابر الطويلة الوسخة
ذات السقوف قليلة الانحدار . ومن بعيد بدوا جميعاً
متشابهين ، ممزقي الثياب ، حفاة ، شعث الشعور . . .
كانت أصواتهم الغليظة الجافة تتطاير حتى الشاطئ ، تعلو
بينها أصوات خافتة تبعثها مطرقة تنهال ضرباً على قعر برميل
فارغ ، فتتردد أصدائها مثل قرع طبل كبير . وكانت
امراتان تتساجران بأصوات صارخة ، وكلب ينبع .
قال ياكوف :

- لقد استيقظوا ! أريد أن أذهب إلى البلدة هذا
الصباح . . . ولكن هذا أنا هنا ، اضيغ الوقت
بصحبتك . . .

فأجابت مالفا بين جد وهزل :
- أنباتك أنك ستأسف كثيراً إن حدوث حدوي .
فاستوضح ياكوف مبتسماً حائراً :
- لم تخيفيني دائماً ؟
- سجدل ما أقول : ما إن يسمع والدك عن هذه . . .
فاستشاط غضب ياكوف لدى ذكر والده مرة ثانية وقال
بنبرة غليظة :

- وما شأن والدي ؟ لنفرض أنه سمع ؟ فلم أعمد
طفلاً . . . هو يظن نفسه السيد الأمر ، ولكنه لا يستطيع
أن يفرض على إرادته هنا . . . فلنسنا في بيتنا في

القرية . . . وانا لست اعمى . . . بل أستطيع ان أرى انه ليس قديسا . . . وهو يفعل هنا ما يحلو له . . . إذن ، فليكنف عن التدخل في أموري . . .

نظرت مالفا في وجهه هازئة ، وسالت بلهجة فضولية :
- لا يتدخل في أمورك ؟ لم ، ماذا تنوى أن تفعل ؟
فسأل ، وهو ينفخ خديه ، ويبرز صدره كمن يرفع عبئا ثقيلا :
- أنا ؟ ماذا أنوى ان أفعل ؟ أستطيع فعل الكثير !

الهواء الجديد نفث عني غبار القرية كله . صدقيني !
فقالت مالفا ساخرة :
- إنها نتائج سريعة !

- سأخبرك شيئا ! أراهن اني سأربحك من والدي !
- متأكد ؟

- أتحسبيني خائفا ؟
- أولست خائفا ؟
فاندفع ياكوف يقول محرّضا متهيجا :

- انظري هنا ! إياك واغاظتني . . . وإلا . . .
سأ . . .

فاستفهمت مالفا في برودة :
- ماذا ؟
فاجاب ياكوف :

- لا شيء !
استدار عنها ولم ينبس بحرف . ولكنه بدا شهما واثقا من نفسه .

قالت :

- انت فتي مشاكس ! اللوكيسل هنا جرو صغير اسود اللون . هل رأيته ؟ يشبهك تماماً ! ينبج ويتوعّد عندما تكون عنه بعيداً . فإذا اقتربت منه هرب من دربك ، وقد لفّ ذنبه !

فهتف ياكوف غاضباً :

- حسناً ! انتظري . سأريك من أية طينة جُبلتُ أنا ! فضحكت مالفا في وجهه .

دنا منهما على مهل رجل وافي القامة ، صلب العود ، ذو وجه قائم تتوّجه مجموعة كثيفة من الشعر الاشعث الأحمر الناري ، يمشي في خطوات متبخرّة وقد تمزّق قميصه القطني الأحمر المجرّد عن أي حزام على ظهره حتى الياقة ، ولفّ الرجل الكمين حتى كتفيه لوقايتهما من السقوط . كان سرواله عبارة عن مجموعة من شقوق مختلفة الأشكال والأحجام ، وقدماه حافيتين ، ووجهه مكتنزاً بالنمش ، وعيناه الزرقاوان الواسعتان تتضوّان في كبرياء ، وأنفه العريض الافطس يسبغ عليه مظهر صفاقة طائشة .

توقف بعد أن إقترّب منهما ، ورقع جسده العاري تلمع في الشمس من خلال شقوق ثيابه التي لا حصر لها . وتنشق الهواء بصوت مرتفع ، وتطلع إليها مستظلماً ، وأتلع وجهاً هائلاً ، وقال :

- اشتفّ سيريوجكا البارحة جرعة أو جرعتين ، فاضحت جيبه اليوم كسلة لا قاع لها . . . اعطيانى عشرين كوبيكاً ، وثقا أنني لن اردھا اليكما . . .

فضحك ياكوف من قلبه لسماع حديثه السفیه . بينما
رمقت مالفا طلعتة الممزقة وتيسمت .
- اعطيني اياها ، أيهما الشيطانان ! سأزوجكما
بعشرين كوبيكاً ! فهل ترغبان في ذلك ؟
قال ياكوف ضاحكاً :
- أيها البهلول ! أكاهن أنت ؟
- يا ابله ! عملت انا بواباً لدى كاهن في
اوغليش . . . هات عشرين كوبيكاً !
فقال ياكوف :
- لست راغباً في الزواج !
فثار سيريوجكا ، وهو يتلمّظ بشفتيه الجافتين
المتشققتين :
- لا يهمّ ناولني المال . . . فلن اخبر والدك أنك كنت
تلهو بفاكهته وتذوقها . . .
- لن يصدقك ، ولو اطلعتة على ذلك . . .
- بل سيفعل ، إن انا اخبرته ! وحينئذ سيجلدك !
افتر ثغر ياكوف عن ابتسامة هازقة :
- لست خائفاً !
فقال سيريوجكا بهدوء ، وهو يضيق عينيه :
- في مثل هذه الحال أضربك بنفسي !
تحسّر ياكوف على العشرين كوبيكاً . ولكن الصيادين
كانوا اخبروه من قبل أن من الأفضل الرضوخ لطلب
سيريوجكا تجنباً لمشاجرته . فهو لا يطلب كثيراً ، ولكنه
ان لم يعط ما طلب فلا بدّ أن يؤذي فريسته اثناء العمل ،

أو يشبعها ضرباً بلا أدنى سبب . وعندما تذكر هذا وضع
يده في جيبه يصعد تنهيداته .

قال سيريوخا مشجعاً ، وهو يرتمي على الأرض بالقرب
منه :

- هذا صحيح ! القِ اليّ السمع على الدوام فتصير
رجلاً حكيماً !

وتابع حديثه مخاطباً مالفا :

- وانت ؟ هل تتزوجيني قريباً ؟ قرري ! فليس في
نيتي الانتظار طويلاً .

أجابت مالفا :

- لست أكثر من حزمة من قماش ممزق . . . إمض
ورقق ثغرات ثيابك أوّل الأمر ، وبعدها نتحدث في مثل هذا
الموضوع !

فحملق سيريوخا في شقوق ثيابه في شيء من الادانة ،
ومزّ رأسه ، وقال :

- يحسن جداً لو وهبت لي تنورة مما لديك .

فقالت مالفا ضاحكة :

- ماذا ؟

- نعم ! أنا أعني ذلك ! لا بدّ أنك تملكين تنورة
عتيقة لا حاجة بك اليها .

فنصحت له قائلة :

- اشتر لنفسك سروالاً جديداً .

- كلا ! أفضل أن أشتري بشفته خمرة . . .

فقال ياكوف ضاحكاً ، وهو يمسك بيده العشريين
كوبيكاً :

- أحقاً تفضل ذلك ؟

- نعم ، لم لا ؟ أخبرني أحد القساوسة أن على المرء
أن يعنى بنفسه لا بجسده ، ونفسي تتطلب شيئاً من
الفودكا ، وليس سروالاً جديداً . أعطني المال ! . .
وسامضي فأبتاع قليلاً من الخمرة الآن . . . وسأخبر والدك
بكل شيء على أية حال .

فأجاب ياكوف ، وهو يحرك يده :

- أخبره !

وطرف إلى مالفا بوقاحة ، ولكزها بمرفقه .

لاحظ سيريوچكا ذلك . بصق ، وقال متوعداً :

- ولن أنسى تلك الجلدة التي وعدتك بها . فسأضربك
بعنف عندما أجد وقتاً مناسباً !

فسأل ياكوف ، وقد بدا عليه شيء من اضطراب :

- وفيم ذلك ؟

- هذا شأنى . . .

وخاطب مالفا :

- حسناً ! هل تتزوجينني سريعاً ؟

فأجابت بجدة :

- قل لي ماذا سنفعل عندما نتزوج ؟ وكيف سنعيش ؟
وحينذاك أفكر في الأمر ملياً .

فرمق سيريوچكا البحر بنظرة ، وضيق عينيه ، وتلمظ
بشفتيه ، وقال :

- لن نفعل شيئاً . سنستمتع بوقت جميل .
- ومن أين نحصل على الأكل ؟
- فهتف سيريو جكا ، وهو يموج ذراعه في فتور :
- آيه ! أنت تجادلين كالعجوز أمي . . . لماذا ؟
- وآين ؟ وكيف ؟ من أين لي أن أعرف ؟ سامضي الآن
- أستقي الخمرة . . .
- نهض وغادرهما . . . راقبته مالفا يبتعد ، بابتسامه
- غريبة تلعب على شفثيها . في حين حدجه ياكوف بنظرة عدا .
- وعندما ابتعد سيريو جكا عن مدى السمع ، قال :
- عربيد وقح ، أليس كذلك ؟ لو كان هذا الزير يعيش
- في قريتنا للجموه سريعاً . . . وسيجلدونه جلدة طيبة ،
- ويضعون حداً للأعبيه وخذعه . ولكنهم يخافونه في هذا
- المكان . . .
- فنظرت مالفا إليه ، وهممت من بين أسنانها
- المنقبضة :
- أيها الجرو الصغير ! أنت لا تفهم قيمته !
- وماذا ينبغى أن أفهم ؟ إن حزمة من أمثاله لا
- تساوي أكثر من خمسة كوبيكات ، ويجب أن تحوي هذه
- الحزمة مئة منهم على أقل تقدير .
- هتفت مالفا بهزه :
- أحقاً تقول ؟ هذه قيمتك انست . . . ولكنه . . .
- ولكنه زار أمكنة عديدة ، وشاهد بلاداً عديدة . وهو لا
- يخاف أحداً ! . . .
- فاعترض ياكوف متفاخراً :

- أخائف أنا من احد ؟

صمتت مالفا وراحت تراقب باهتمام الأمواج المائسة في دلال وغنچ على الشاطئ تحرك القارب الثقيل . وطفسق الصاري يتمايل من جهة إلى أخرى ، ومؤخرة القارب تعلو وتنخفض ، وهي ترد الماء في ترجيع عالي الصوت ، كما لو ان القارب يود لو ينفصل عن الشاطئ ، ويفوص في البحر الحر العريض ، غاضباً مكشراً من ذلك الجبل الذي يشبهه في مكانه .

سألت مالفا :

- حسناً ، لِمَ لا تذهب ؟

فاستوضح مجيباً :

- إلى أين ؟

- قلت إنك تريد الذهاب إلى البلدة . . .

- لن أذهب !

- إذن ، امض إلى أبيك .

- وأنت ؟

- أنا ؟

- أوتذهبين حقاً ؟

- كلا ! . .

- لن أذهب إذن .

سألت هي بهدوء :

- أوتريد أن تظلّ معلقاً برقبتي النهار بطوله ؟

فنهض وأجاب في كبرياء ، وهو يبتعد حانقاً :

- أوه ، نعم ! لكانني إليك في حاجة ماسة !

كان منطناً حين قال أنه في غنى عنها . فهو يجد الأشياء كتيبة دونها . إن شعوراً غريباً قد استفاق في داخله منذ حديثه معها : شعوراً مبهماً يتبرّم به ، ويحتجّ ضد والده ، لم يجربه في اليوم السابق ابداً ، وكذلك لم يجربه في الصباح الباكر في ذلك اليوم ، قبل أن يلتقي مالفاً وبدأ له الآن أن والده ينتصب كالحاجز في وجهه ، بالرغم من أنه بعيد جداً في البحر ، في تلك البقعة الجرداء من الأرض التي تكاد العين تلاحظها ثم وضع له أن مالفاً خائفة من أبيه ولو لم تك خائفة لاختلقت الأمور بينهما .

شرد قرب ابنية المسمكة يرنو إلى الأشخاص المبعثرين فيها . كان سير يوجكا يجلس على برميل مقلوب في ظل الكوخ يعزف على البالالا يكا * ويغني ، وهو يكشف عن أنيابه بصورة مضحكة :

آه ، يا سيدي الشرطي ،
كن لطيفاً معي وخذني إلى المحطة
فقد كنت في وليمة خمرة . . .

كان قد احتفّ به عشرون شخصاً أو يزيد ، جميعهم مثله في أسمال باليسة يعبقون - كأي إنسان آخر في تلك الناحية - برائحة السمك المملح وملح البارود . وكان أربع نساء ، بشعاع قذرات ، يجلسن على الرمل يحسنين الشاي بعد أن يصيبته من غلاية واسعة من التناك . في حين راح

* آلة موسيقية شعبية روسية . الناشر .

أحدهم ، وكان ثملاً رغم أن الصباح بعد في أوله ، يزحف على الأرض محاولاً أن ينهض على قدميه ليسقط من جديد . وفي مكان ما امرأة تزق وتعلو ، وانغام «أرمونيكا» تالف تطرق السمع من بعيد ، وحراشف السمك تلمع في كل مكان . عند الظهيرة ، وقع ياكوف على بقعة ظليلة بين مجموعة من براميل فارغة ، فاضطجع هنالك واستسلم للنوم حتى هبوط المساء . وبعدها استيقظ راح يجول ثانية حول أبنية الصيد ، يراوده شعور غامض بأن شيئاً ما يجرّه إلى ناحية ما .

التقى أخيراً مالفا ، بعد ساعة أو ساعتين من التجوال ، متجوّرة على الأرض في ظل شجرة صفصاف فتية ، في مكان جدّ ناء عن أبنية الصيد . كانت متمددة على جنبها ، تحمل كتاباً ممزّقاً . وابتسمت عندما أبصرته يقترب منها . جلس قربها ، وقال :

- إذن ، هذا هو المكان الذي اخترت الجلوس فيه ؟ فسألت في لهجة تدلّ على ثققتها من أنه فتش طويلاً عنها :

- أفتشت عني طويلاً ؟

- أنا لم أفتش عنك أبداً !

أجاب ياكوف ولكنه أدرك في الحال أنها على حق إذ هو فتش عنها فعلاً فهزّ رأسه في حيرة وذهول .

- أtestطيع القراءة ؟

- نعم . . . ولكن ليس بصورة حسنة . لقد نسيت

ذلك . . .

- وأنا لا أقرأ بشكل حسن أيضاً . . . اكننت تذهب إلى المدرسة ؟
- نعم ، إلى مدرسة القرية .
- أما أنا فقد علّمت نفسي .
- حقاً ؟
- نعم . . . عملت خادماً لدى محام في أسترخان ، فعلمني ولده القراءة .
- إذن لم تعلّمى نفسك !
- فحدثته ، وسألت :
- أتريد أن تقرأ بعض الكتب ؟
- أنا ؟ كلا ! . . . ولمَ ذلك ؟
- أنا أحب القراءة . انظر . لقد سألت زوج الوكيل أن تعيرني هذا الكتاب . وهذه أنا أقرأه . . .
- وعمّ يتحدث ؟
- يتحدث عن القديس الكسي .
- راحت تقص عليه ، في صوت عميق يوحي بالتأمل ، كيف أن شاباً من عائلة ثرية مشهورة غادر منزل أبويه متخلياً عن جميع بهارج الحياة ، ثم رجع أخيراً معدماً يرتدي الأسمال البالية الممزقة ، وعاش بين الكلاب في ساحة دار أبويه دون أن يكشف عن هويته حتى يوم وفاته .
- وسألت مالفا في صوت مخفوض بعد أن انتهت القصة :
- لمَ فعل ذلك ؟
- فأجاب في نبرة لامبالية :
- من يدري ؟

كانت كنبان الرمل التي جمعتها الريح والأمواج
الصاخبة ، تحيق بهما . وتسلسل ناحيتهما ضجيج غامض مكتوم
آت من بعيد - أصوات تنبعث من أبنية الصيد . كانت
الشمس قد غربت فصيفت الرمال بلون وردي . والأوراق
المبعثرة على أغصان شجرة الصنصاف غير الكثيفة ، تضطرب
واهنة في النسيم الخفيف الذي يهب من جهة البحر . وكانت
مالفا صامتة لكن ترهف السمع بانتباه إلى شيء ما .
سألها ياكوف فجأة :

- لم لم تذهبي إلى هناك ، إلى اللسان الرملي ،
اليوم ؟

- وما شأنك في ذلك ؟

فرمقتها في نهم من طرف عينه ، وهو يفكر كيف يوبح بما
يصبر إلى الاعتراف به .
قالت متفكرة :

- عندما أكون وحيدة ، يحدق بي السكون ، أميل إلى
البكاء . . . أو الغناء . ولكنني لا أعرف أغنية جيدة . وأنا
أخجل من ذرف الدموع . . .

بلغ صوتها مسمعي ياكوف خافتاً حنوناً . ولكن ما قالت
لم يلمس من شغاف قلبه وترأ ، بل أدت رغبته فيها
وحسب .

قال في صوت مخفوض ، وهو يتقرب منها ، دون أن يمد
بصره إليها أبداً :

- والآن ، أصفي إليّ ، واسمعي ما سأحدثك به . . .
فأنا شاب . . .

فقاطعته مألفا قائلة في حماسة مستفيضة ، وهي تهز
رأسها :

- واحمق ، وأكثر من أحمق !

هتف ياكوف بزعل :

- حسناً ، لنفرض أنني أحمق ! هل تتطلب هذه الأشياء
من المرء ذكاء ؟ حسناً ، قل لي إنني أحمق ! ولكن اسمعي ما
أردت أن أحدثك به . اتجيين . . .

- كلا ، لا أحب !

- ماذا ؟

- لا شيء . . .

فقال ياكوف ، وقد أمسك بكتفيها في لطف :

- كفى ، لا تتغابي ! حاولي أن تفهمي . . .

فنبرت في ضراوة ، وهي تدفع يديه عنها :

- امضي من هنا ، يا ياشكا ! إليك عني !

هبط على قدميه ، وتطلع يمنة ويسرة .

- حسناً ، طالما أن الأمر كذلك لن آسف على شيء

مطلقاً . الأرض تفيض بأمثالك حول هذا المكان . . . أو

تظنين أنت أفضل من الأخريات ؟

فنهضت ، ونفضت الرمال عن ثوبها ، وقالت في فتور :

- يا لك من جرو صغير !

مشيا جنباً إلى جنب حتى أبنية الصيد . سارا متمهلين

لأن أقدامهما تغوص في الرمال . كان ياكوف يطلب بفضافة

كي تدعّن لرغبته ؛ ولكنها ضحكت منه في برودة ، ولذعته

بكلمات قاسية .

توقف ياكوف بغتة على مبعدة قريبة من الأكواخ ؛
وأمسك مالفا من كتفها قائلاً :
- أنت تتعمدين تأجيج رغبتى ! . . اليس كذلك ؟
لماذا تفعلين هذا ؟ اياك أن تفعليه !
فأجابت ، وقد تخلصت منه وخطت مبعدة :
- قلت لك دعنى وشأنى !
أطلّ عليهما سيريوجكا من وراء زاوية احد الأكواخ .
وخطا في اتجاههما ، وهزّ رأسه الاشعث الناري ، وقال
بنغمة مرعبة :
- كنتما تنتزهان ، ها ؟ حسناً !
فصاحت مالفا ، وقد استشاطت غضباً :
- اذهبوا إلى الجحيم ، جميعاً !
وقف ياكوف قبالة سيريوجكا يصعد فيه النظر بعبوس .
كانت تفصل بينهما مسافة تقارب عشر خطوات .
وقابل سيريوجكا ياكوف بمثل نظرتة . وظلاً على هذا
الغرار قرابة دقيقة مثل كبشين يستعدان للهجوم ؛ ومن بعد
افترقا في سكون ، ومضى كل منهما في جهة مختلفة .
كان البحر قد اسجى ، تضيئسه ومضات ارجوانية من
اشعة الشمس الراحلة . واصوات مكتومة تنطلق من ابنية
الصيد . وعلاوة على ذلك يطرق السمع ضجيج امرأة سكرى
تردّد في هوس اغنية لا معنى لها :

تارارا تارارا
يا امرأة سكرى

تارارا تارارا يا امرأة حيرى .

كانت كلمات تلك الأغنية الكريهة ، تنسل كالديدان في
أبنية الصيد المشبعة برائحة ملح البارود والسكك البالي ،
فتفسد موسيقى الامواج العذبة .

كان البحر البعيد وسمان مستكنًا في نور الفجر الحنون
يتأمل الغيوم اللؤلؤية . وعلى اللسان الرملي صيادون
ناعسون منهمكون في حمل عُدَّة العمل إلى قارب للصيد .
وهذه كومة رمادية من الشباك تزحف على الرمل إلى
القارب ، حيث مُدَّت مطوية في قاعه .

وهذا سيريو جكا حاسر الرأس ، نصف عريان كعادته ،
يقف في مؤخرة القسارب يسأل الصيادين الاسراع بصوته
الأجش الثمل ، والرياح الرخاء تتلاعب بأسماله وتجعّد شعره
المشربّ باللون الناري القاني .

صاح أحدهم :

- فاسيلي ! أين المجاذيف الخضر ؟

كان فاسيلي عبوساً مثل يوم خريفى مكفهر ، يكوّم
الشبكة في القارب ، وسيريو جكا يرمق ظهره المنحني وهو
يلعن شفّتيه - إشارة إلى رغبته في أن يجرع شيئاً من الخمرة
يطرد بها الصداق بعد ثمل الامس .

سأل :

- أليك شيء من فودكا ؟

فاجاب فاسيلي عابسا :

- نعم .

- إذن ، لن ابهر في هذه الحال . سأبقى هنا على الأرض الجافة .

وصاح احدهم عن الشاطئ :

- نحن مستعدون !

فامر سير يوجكا :

- ابهروا !

وقفز من القارب ، وتوجه إلى الرجال قائلا :

- اذهبوا انتم ، وسأتحلف انا هنا . اعملوا على نشر الشبكة على مدى كاف ، واحذروا أن تنعقد . فإذا نشرتموها بانتظام لا تكن العقد كثيرة !

ودفع القارب إلى الماء ، فتسلقه الصيادون ، وحملوا مجاذيفهم وثبتوها في أماكنها ورفعوها ينتظرون الأوامر بالانطلاق .

- واحد !

ارتطمت المجاذيف بالماء بضربة واحدة ، وانطلق القارب إلى فسحة البحر العريض وقد أضاءه نور الفجر المشعشع .

- اثنان !

أصدر القائد من وراء الدفة أمره ، فارتفعت المجاذيف وضربت على جانبي القارب كمخالب سلحفاة عظيمة .

- واحد ! اثنان !

لم يبق عند النهاية الجافة للشبكة المربوطة إلى الشاطئ

غير خمسة رجال بينهم سيريو جكا وفاسيلي . وارتقى أحد
الرجال على الأرض ، وقال :

- ساغفو قليلاً . . .

فحذا حذوه آخران ، فإذا ثلاثة أجسام تتلفح الأسماك
البالية القذرة تتجعد وتنكمش منطرحه على الرمال .

استوضح فاسيلي سيريو جكا ، وقد مشيا ناحية الكوخ :

- كيف لم تحضر نهار الأحد ؟

- لم أقدر . . .

- لم ؟ هل كنت سكران ؟

فأجاب سيريو جكا في فتور :

- لا ! بل كنت اراقب ولدك ، وكذلك زوجة ابيه .

شعر فاسيلي بابتسامة ملتوية :

- لقد وجدت لنفسك عملاً رائعاً ، ما ؟ أهـما طفلان

صغيران ؟

- هما شر من ذلك . . . أحدهما أحق . . . والثانية

قديسة . . .

فسأل فاسيلي ، وعيناه تلمعان شرراً :

- ماذا ؟ مالفا قديسة ؟ أهـي كذلك منذ زمن طويل ؟

- روحها لا تتفق وجسدها ، يا أخي . . .

- إن لها روحاً آئمة !

فاشرع سيريو جكا نظراته إلى فاسيلي من طرفي عينيه ،
ونفخ في ازدراء :

- آئمة ! ما ؟ أنت . . . أنت ، ريفي بليد ! انت لا

تفقه شيئاً . . . وكل ما ترغبه في المرأة أن تكون ممثلة

التدبين . . . وانت لا تعير أدنى اهتمام لشخصيتها
أبدأ . . . ولكن أفضل ما في المرأة هو شخصيتها . . .
فالمرأة التي لا شخصية لها كالخبز الذي لا ملح فيه .
أيمن ان تعزف على البالايكا الحائناً جميلة إن كانت دون
أوتار ؟ مغفل !

سخر فاسيلي :

- هيه ، يا للحديث العذب ! يبدو أنك شربت كثيراً
بالامس !

كاد يموت تشوئقاً لسؤال سيريوچكا اين التقى ياكوف
ومالفا ، وماذا كانا يفعلان ، ولكنه خجلان من ذلك الخجل
كله .

سكب قدحاً من الفودكا حين ضمّه الكوخ ، وقدمه إلى
سيريوچكا ، آملاً أن تثمله تلك الجرعة في الحال وتحلّ
عقدة لسانه ، فيخبره قصة الاثنين من تلقاء نفسه .

اشتفّ سيريوچكا القدح ونحنح ، وجلس متألق الوجه
قرب باب الكوخ ، وتناهب وتمطّى ثم قال :

- هذه الجرعة اشبه بازدراد النار !

فهتف فاسيلي ، وقد حيّرتة تلك السرعة التي جرع
سيريوچكا بها قدح الفودكا :

- ما أخفك في الشرب !

فأجاب الصعلوك ، وهو يهزّ رأسه الاحمر ويمسح
شاربيه المبتلين براحة يده وكانت لهجته تشبه لهجة
الواعظ :

- بلى ، خفيف الشرب سريع ، بلى ، اننا اشرب

بسرعة ، يا أخي ! فانا أعمل كل شيء بسرعة دون مبالغة
او تسويف على الاطلاق . شعاري على الدوام هو : سير
باستقامة ابداً ! وليس مكان الوصول موضع بحث مطلقاً !
إن علينا جميعاً أن نسلك الطريق ذاتها . من غبار إلى غبار
آخر . . . وانت لا تستطيع أن تنجو من ذلك . . .
فاستفهم فاسيلي ، وهو يقود الحديث في تحفظ وحذر
إلى الموضوع الذي يشغله :

- كنت تريد أن ترحل إلى القوقاز ، اليس كذلك ؟
- سأرحل حينما أشعر بحاجة إلى الذهاب . فإذا راودتني
رغبة ما فلن أتأخر - بل أحققها مباشرة ! فانا إما أن أحقق
ما ابتغيه ، او احطم رأسي على احد هذه الصخور . . . كل
ذلك واضح جداً وبسيط للغاية !
- ولا أبسط منه ابداً ! يبدو أنك تعيش دون أن
تستعمل رأسك . . .

فحدج سيويوجكا فاسيلي بعينين ساخرتين ، وقال :
- أنت تحسب نفسك ذكياً ، اليس كذلك ؟ كم مرة
جلدوك في مركز الشرطة ؟

فرمى فاسيلي سيويوجكا بمثل نظرتة ، ولم يفه بحرف .
فأعاد السكير القول متفاخراً :

- ما أحسن أن يدفع الشرطي بالعقل إلى رأسك من
الخلف ! إيه ، أنت ! ماذا تفعل برأسك ؟ وإلى أين تظنه
يقودك ؟ وماذا تستطيع أن تكتشف به ؟ ألسنت على حق ؟
ولكنني اندفع في الحياة دون مشورة رأسي ، ولست اهتم بما

يجري بعد ذلك مطلقاً ! أنا أراهن أنني أستطيع أن اذهب إلى
أبعد مما تستطيع أنت . . .

فأجاب فاسيلي ضاحكاً :

- نعم ، أصدق أنك تفعل ! تستطيع أن تمضي بعيداً
جداً حتى سيبيريا . . .

ففرق سيروجكا في فقهة عالية .

إن الفودكا ، خلافاً لما كان فاسيلي يرجو ويأمل ، لم
تؤثر في سيروجكا أدنى تأثير . فحمي وطمس غضبه وغلت
مراجله . إنه يستطيع أن يدعو إلى قدح آخر ، ولكنه يخاف
على الفودكا . وهو لن يستطيع ، من جهة أخرى ، أن يستنبط
شيئاً ما دام سيروجكا صاحباً يقظان بعد . . . ولكن السكير
تطرق إلى الموضوع من تلقاء نفسه .
استفسر يقول :

- كيف لم تسأل عن مالفا ؟

فأجاب فاسيلي بعدم اكتراث ، وإن كان يرتجف في واقع
الامر بتأثير نوع من التوتر النفسي :

- وما يدفعني إلى ذلك ؟

- إنها لم تحضر إليك الأحد الماضي ، اليس كذلك ؟ لم
لا تسأل عما فعلت في هذه الأيام الأخيرة ؟ أنت غيور عليها .
الست أنا على حق ، أيها الشيطان المعجوز ! ؟

فهمهم فاسيلي ، وهو يحرك يده حركة استهزاء :

- هنالك الكثيرات مثلها !

قلده سيروجكا بصوت ساخر :

- كثيرات مثلها ؟ إيه ! أيها الجلف القروي !

انت لا تستطيع أن تميز بين العسل والقطران .
فقال فاسيلي هازناً :

- لماذا تنفخ في النار وتزيد لها حطباً ؟ أجبت إلى هنا
لتعمل عمل عود الثقاب ؟ تأخرت كثيراً إذن ! أم أنك جئت
خاطباً جامعاً رأسين إلى وسادة واحدة !

نظر سيويوجكا إليه في صمت لحظة من زمن ، وقال في
اقتناع وهو يضع يده على كتف فاسيلي :

- أنا أدري أنها تعيش معك . ولست أ تدخل بينكما ، فلا
حاجة لي إلى ذلك . . . ولكن ياشكا الآن ، وهو ولدك ، يحوم
حولها . فانه الأمر سريعاً معه . هل تسمع ما أقول ؟ فإذا
لم تفعل أنت - فعلت أنا . . . فانت رجل طيب . . . غير
أنك غليظ القلب ككتلة من خشب . . . وأنا لا أ تدخل
في الأمر . . . وإنما أريد لك أن تتذكر هذا !

وأجاب فاسيلي في صوت كالح :

- هذا ظنك إذن ؟ أنت تلاحقها بدورك ، إيه ؟
- بدوري ؟ ! لو كنت أرغب في ذلك لمضيت إليها منذ
أمد بعيد ، وكنت كنتستكم جميعاً من طريقي . . . لكن ،
إلى أين اذهب معها ؟

استوضح فاسيلي بأرتياب :

- لماذا اذن تدس أنفك في الموضوع ؟
فأذهل السؤال البسيط سيويوجكا فالتقم فاسيلي
بعينين مفتوحتين ، وضحك طويلاً ، وقال :
- وفيم أدس أنفي ؟ الشيطان وحده يدري ! . . .

ولكن ، يا لها من امرأة ! إنها فلفل وبهار ! وأنا أحبها ! بل
لعلّي أنا آسف من أجلها . . .

رفع إليه فاسيلي بصره مرتاباً ، ولكن قلبه حدثه أن
سيريو جكا صادق فيما يذهب إليه . قال :

- لو كانت عذراء لم تمسسها يد لأستطعت أن أفهم
أسفك من أجلها . وبما أنها . . . فإن ذلك يبدو لي
غريباً !

ظلّ سيريو جكا معتصماً بصمته ، يراقب قارب الصيد
يبتعد في عرض البحر وهو يرسم دائرة عريضة ليأخذ اتجاه
الشاطئ . واتسعت عيناه وفاضت صراحة وإخلاصاً ، وعلت
وجهه سيماء البساطة واللطف .

لانت حدة فاسيلي ، وهو يحملق فيه :

- نعم ، أنت على حق ! فهي امرأة رائعة . . . ولكنها
لعوب قليلاً . . . أما ياشكها فساؤدبه ، ذلك الجرو
الصغير !

وقال سيريو جكا :

- أنا لا أحبه . . .

فكرّ فاسيلي من خلال أسنانه المنطبقة ، وهو يمشط
لحيته :

- أنت تقول إنه يتودّد إليها ؟

فقال سيريو جكا مؤكداً :

- سيحول بينك وبينها . صدقني !

وتفجرت شعاعات الشمس المستيقظة فوق الأفق كمروحة
مفتوحة وردية اللون ، ووصلت إلى سمعهما ، علاوة على صوت

الأمواج ، صبيحة خفيفة من القارب البعيد في صدر البحر :
- ه ي ! هيا جرّوه !

أمر سير يوجكا :

- انهضوا ، أيها الشبان ! هيا ! إلى الشبكة !

بعد وقت قليل اخذ جميعهم يسحبون جزءاً من الشبكة .
وكان حبل طويل مشدود ، مرن كالوتر ، يمتد من الماء حتى
الشاطئ ، والصيادون يربطون به أحبالهم للجر ، ينحنون
ويلهثون وهم يجرونه إلى اليابسة .

في أثناء ذلك كان قارب الصيد يتوالب فوق الأمواج
بخفة ، وهو يسحب طرف الشبكة الآخر في اتجاه الشاطئ .
ونفضت الشمس ، ، لامعة بهية ، فوق البحر العباب .
التمس فاسيلي من سير يوجكا :

- إذا رأيت ياكوف فأخبره أن يزورني في الغداة .
- حسناً !

وانزلت القارب على الشاطئ ، وراح الصيادون ، وهم
يقفزون منه ، يتخاطفون الجزء الخاص بكل منهم من الشبكة
ويجرونها . وشرعت الشرذمتان تتقاربان شيئاً فشيئاً ، في
حين أخذت غمّازات الشبكة تشكل ، وهي تهتز ارتفاعاً
وانخفاضاً مع الماء ، نصف دائرة تامة غير منقوصة .

في ساعة متأخرة من ذلك اليوم ، والصيادون في
المسمكة قد انهوا تناول عشاءهم ، تربعت مالفيا ، متعبة
غارقة في التفكير ، على قارب تالف مقلوب وقد مدّت بصرها

إلى البحر الملتف بالدجى . ومن بعيد كان ضوء يلتصع عرفت فيه مالفا النار التي أحيها فاسيلي . كان الضوء ، مثل نفس وحيدة تائهة في عرض اليم المظلم ، يتأجج آونة ويستكن آونة أخرى ، وكأنه ينازع سكرات الموت . أحسّت مالفا بالكآبة وهي تراقب تلك البقعة الحمراء ضائعة في القفر ، تخفق بضالة وسط اندفاعات الأمواج الدائمة . وفجأة صافح سمعها صوت سير يوجكا يرن وراءها :

- لم أنت جالسة ههنا ؟

فاجابت ، دون ان تلتفت إليه :

- وما شأنك أنت ؟

- إن لي شأنًا في ذلك !

جنى إلى الصمت ، وراح يرمقها من قمته حتى أخمصها . لفءً لفافة ، أشعلها ، واقتعد قبة القارب المقلوب .

قال بعد برهة ، في لهجة توددية :

- أنت امرأة مضحكة ! فأنت مرة تختبئين من أحد الناس ، ثم تتعلقين برقبته مرة أخرى .

فقال في نبرة لامبالية :

- أنا غير متعلقة برقبتك ، ها ؟

- كلا ، ليس برقبتي ، بل برقبة ياشكا .

- أغيثور أنت ؟

- هيم . . . فلنتحدث صراحة ، ومن أعمق أعماق القلب ، إيه ؟

اقترح سير يوجكا ذلك ، وهو ينقر على كتف مالفا . كانت

تجلس مجانية له ، فلم يستطع أن يرى تعابير وجهها حين
قالت في قسوة :

- حسناً !

- هل أهملت فاسيلي ؟

- لست أدري .

وأضافت بعد برهة قصيرة :

- فيم تسأل ؟

- لمجرد السؤال لا غير . . .

- أنا ناقمة عليه .

- لم ؟

- ضربني .

- صحيح ؟ ماذا ، هو ؟ وسمحت له ان يفعل ؟ أوه ،

أوه !

ذهل سيريو جكا ، فشنخس إليها بنظرة جانبية ، وتمطّق
بشفتيه ساخراً ، فقالت في حمية :

- لم أكن أدعه يفعل لولا رغبتي في ذلك .

- لمَ لم تمنعيه آنذاك ؟

- ما شئت أن أفعل .

فقال ساخراً ، وهو ينفخ دخان لفافته ناحيتها :

- هذا يعني أنك غارقة في حب ذلك القط العجوز حتى

ذؤابة رأسك . وذلك يدهشني ، فلم أكن أظنّ أنك واحدة
من ذلك النوع . . .

فاجابت في صوت لامبال ، وهي تلوح بيدها لتطرد
الدخان عنها :

- أنا لا أحبُّ احداً منكم !
- هذا كذب .
- وفيهم أكذب ؟
- استطاع سيريو جكا ان يكتشف في نعمة صوتها انها صديقة حقا . فاستفسر في صوت ثاقب :
- لو لم تحببه لما سمحت له بضربك ؟
- وكيف أعرف ؟ لم تضايقني ؟
- قال سيريو جكا وهو يهز رأسه :
- غريبة !
- وغرقا في الصمت زمناً طويلاً .
- هجمت جيوش الظلمة ، وراحت السحب ترمي خيالاتها الواسعة على البحر وهي تخبُّ الهوينى على طول السماء ، والأمواج تفرقر .
- كان الضوء الذي تبعثه النار التي أوقدها فاسيلي في اللسان الرملي قد انطفأ ، غير أن مالفا ظلت تشخص إلى تلك الناحية ، وسيريو جكا يرنو إليها . قال :
- اخبريني ، اتعرفين ماذا تريدين ؟
- فأجابت في صوت مخفوض مخفوض ، وهي تطلق تنهيدة عميقة :
- لو كنت أدري حسب !
- فقال مؤكداً :
- إذن لا تدريين ؟ هذا سيي* ! أنا دائماً أعرف ما أريد !
- وأضاف ، وقد سيطرت الكتابة على صوته :

- والمصيبة انني ما اقدر ما اريد شيئاً !

فقال مالفاً مفكرة :

- انا دائماً اريد شيئاً ما . ولكن ، ما هو ؟ لست ادري . احسّ أحياناً انني اودّ اركب قارباً وأمضي في البحر . . . بعيداً ، بعيداً كيلا أرى أحداً بعد الآن . وأحياناً أحسّ انني اودّ أن أعبت برؤوس سائر الرجال ، وأجعلهم يدورون كالخدروف حولي ، وأتطلع إليهم وأغرق في الضحك . وأحياناً أحسّ بالأسف من أجلهم جميعاً ، ومن أجلي أكثر منه من أجلهم . وأحياناً اودّ أن أقتلهم جميعاً ، ثم أقتل نفسي . . . وأحياناً أحسّ الحزن ، وأحياناً السعادة . . . ولكن جميع من يحيطون بي يبدوون لي بليدين ، خاملين ، يشبهون كتلاً قلّدت من خشب صلب .

فوافق سيريو جكا :

- أنت على حق ، فالناس تافهون . لقد نظرت إليك أكثر من مرة ، وقلت في نفسي : لا أنت سمكة ، ولا قطة ، ولا دجاجة . . . ومع ذلك لك طابع خاص . . . فانت لا تشبهين الأخريات .

فقال ضاحكة :

- وشكراً لله على ذلك على الأقل !

ارتفع القمر الأضحيان فوق كثنان الرمال عن يسارهما وأراق نوره الفضي على البحر . وطفق يسبح في تماهل ، كبيراً وديماً ، على طول قبة السماء الزرقاء ، فشجبت أضواء النجوم اللامعة واختفت في ضوئه الساحر .

ابتسمت مالفاً ، وقالت :

- اتدري هذا ؟ افكر أحياناً كم يضحك ان أشعل النار ليلاً في أحد هذه الأكواخ . أية ضجة تنشأ عن ذلك اذن !
فقال سيريو جكا مشدوهاً :
- هذا صحيح !
وربت على كتفها فجأة ، واضاف قائلاً :
- اتدريين ماذا ؟ سأعلمك لعبة محيرة ، وسنلعبها معاً .
اتحبين ذلك ؟
فقالت ، وهي تحترق فضولاً :
- طبعاً !
- لقد ألهمت ناراً في قلب ياشكا ، اليس كذلك ؟
فاجابت مقهقهة :
- إنه يشتعل كاللاتون !
- أطلقه في وجه أبيه ! سيكون ذلك مضحكة وربي . . .
وسيجملان بعضهما على بعض مثل ديين . . . فتكيدين الشيخ قليلاً ، والشباب قليلاً . . . ثم تضعهما أحدهما في وجه الآخر . ما رأيك ، إيه ؟
استدارت ، ورنّت متروية إلى وجهه المرح الأحمر الباسم .
كان يبدو ، وقد أضاءه القمر ، أقلّ نمشاً مما هو عليه في اشعة الشمس الملتهبة آن النهار ، لا يحمل أثراً للحقد ، بل لا يحمل شيئاً غير ابتسامة طيبة خبيثة نوعاً ما .
سألته مألفاً في تشكك :
- وماذا يدفحك إلى بغضهما ؟
- أنا ؟ . . . اوه ، إن فاسيلي إنسان لا بأس به . وهو شخص طيب . ولكن ياشكا . . . شرير . انني أبغض جميع

الفلاحين . . . إنهم خبناء ! فهم يتظاهرون بالفقر والحاجة ،
ويأخذون الخبز ، وكل ما يُعطى لهم ! لديهم الزمستفو * ،
والزمستفو تقدم لهم كل شيء . . . إن لديهم مزارعهم ،
وأرضهم ، وماشيتهم . . . ولقد خدمت مرة سائق عربية لدى
طبيب زمستفو ، ورأيت الكثير منهم . . . ومن ثم كنت قد
تشردت مدة طويلة . كنت أذهب أحياناً إلى إحدى القرى ،
والتمس قطعة من الخبز ، فيشنّ الجميع عليّ هجوماً من
كل حذب وصوب . . . من أنت ؟ ما عملك ؟ أين جوازك ؟ . .
ضربوني مرات عديدة . . . مرة لأنهم كانوا يعتبرونني
سارق خيول ، ومرة أخرى بدون ذنب على الإطلاق . . . وحدث
أنهم اعتقلوني وحبسوني . . . وهم يشكون دائماً ، ويدّعون
الفاقة . ولكنهم يعرفون كيف يعيشون ! ولديهم على الدوام ما
يعتمدون عليه - الأرض ! فهل يستطيع أن أقف بوجههم ؟
قاطعته مالفا سائلة بعد أن اصغت إلى كلامه بانتباه :

- ألسنت من الفلاحين ؟

فأجاب ببعض خيلاء :

- كلا ! أنا مدني . مواطن من أوغليش .

فاخبرته مالفا في نبرة متأملة :

- وأنا من باغليش .

وتابع سير يوجكا :

- ليس لي من يدافع عني ! ولكن الفلاحين . . . هم

يستطيعون العيش ، أولئك الشياطين ! إن لديهم الزمستفو ،

وأشياء كثيرة أخرى تماثلها !

* إجهة الإدارة الداعية في الأرياف . الناشر .

فاستفسرت مالفا :

- وما هو الزمستفو ؟

- ما هو الزمستفو ؟ وحده الشيطان يدري ! لقد
أسسوها للفلاحين ، وهي أدارتهم . . . لكن ، فليمضوا
وإياها إلى الجحيم . . . ولنعد إلى شأننا - هل ترتبين تلك
النكتة الصغيرة ؟ إنها لن تسبب ضرراً ما . بل سيتشاجران
ليس غير ! . . لقد ضربك فاسيلي . ألم يفعل ؟ حسناً ،
فلينتقم لك ولده !

فقال مالفا باسمه :

- إنها فكرة جيدة !

- تأملي فقط . اليس مشهداً بديعاً أن تشاهدي
شخصين آخرين يحطمان أضلاعهما بسببك ؟ وذلك كله لمجرد
كلمة واحدة منك ! تهزين لسانك مرة او مرتين . . .
ويتشاجران مثل المطرقة والسندان !

وانطلق سيريو جكا يشرح لمالفا طويلاً ، وفي حمية عظيمة
- وهو يتحدث بين الهزل والجد - جاذبية الدور الذي
ستلعبه . قال في الختام :

- آه ، لو كنتُ فقط امرأة حسنة الطلعة ! إذن كنتُ

أثير ما لا يحصى من المشاكل في هذا العالم !

ووضع يديه على رأسه وشدهما بقوة واغلق عينيه وجنح
إلى الصمت .

كان القمر ممتطياً قبة السماء عندما افترقا . وازداد ،
بعد افتراقهما ، جمال الليل وسكونه . ولم يبق هناك سوى
البحر الوقور غير المحدود ، الذي صبغه القمر باللون الفضي

والسمااء الزرقاء المتلألئة بالنجمات . وكانت هنالك أيضاً
كشبان الرمال وأدغال الصفصاف منتشرة بينها ، وعمارتان
طويلتان قذرتا الجدران تبدوان على الرمال كنعشين كبيرين
خشني الصنع . بيد ان ذلك كله بدا حقيراً ، زهيداً ، تافهاً ،
إذا قورن بالبحر العظيم . وكانت هنالك النجوم أيضاً ، تراقب
هذا كله بضوء خافت باهت .

كان الأب والابن جالسين أحدهما قبالة الآخر في الكوخ ،
ينهلان جرعات من الفودكا . وقد أحضر الابن الخمرة على أمل
إسباغ شيء من المتعة على زيارته لأبيه ، واستدراراً للعطف
في فؤاده . فقد أخبره سيريوخكا ان والده
ناقم عليه بسبب مالفيا . . . وأنه هدد بضربها حتى
الموت . . . وأن مالفيا تعلم ذلك . . . ولهذا لم تمنحه
نفسها . . . كما أخبره سيريوخكا هازئاً :
- وسينتقم من الاعيبك ، ويشد لك أذنيك حتى تزيدا
عن الارشين * طولاً . فيحسن بك ألا تعرض نفسك
لأنظاره أبداً !

استغزت سخرية هذا الشاب الأحمر شعره الشنيعة في
صدر ياكوف ، غضبة لاهبة ضد والده . كان تردد مالفيا يتوج
ذلك كله : كيف كانت تنظر إليه في كآبة مرة ، وفي اشتياق
مرة أخرى ، مما هيئ في النار والرغبة في امتلاكها ، فاضحي
من المؤلم ان يتحمل أوارها أكثر من ذلك . . .
وهكذا شرع يرى والده ، وهو في زيارته ، عقبة في

* مقياس طول روسي قديم يسوى ٧١ سنتيمتراً . الناشر .

سبيله ، عقبة لا يستطيع أن يقفز من فوقها ، ولا أن يدور حولها . لكن الخوف من أبيه لم يراود نفسه مطلقاً ، فجلس قبالة ينظر في جراحة إلى عينيهِ الخبيثتين العابستين كمن يقول :

- تجاسر والْمَسْنِي !

كانا قد نهلا جرعتين من الشراب ، ومع هذا لم يتفوها بحرف واحد ، سوى ملحوظة أو ملحوظتين عابرتين عن أمور تتعلق بحياة المسمكة . جلسا يواجه كل منهما الآخر ، في عرض البحر ، يكدسان الغضب في قلوبهما ، والنقمة ضد بعضيهما ، وكلاهما يعرف أن هذا الغضب سيفور سريعاً فيسلبهما معاً .

كانت الحصائر الخشنة التي تغطي سقف الكوخ تخشخش في الريح ، وقطع القشرة تقرع بعضها بعضاً ، والخرقة الحمراء المعلقة في قمة الصاري تخفق وتلهو محدثة ضجة مرتفعة مرتجة . . . وكانت هذه الأصوات جميعها خافتة تمتزج وتشبه أصواتاً هامسة ، نائية ، متنافرة ، تترجى باستحياء شيئاً ما .

سأل فاسيلي في صوت قاس :

- ألا يبرح سيريو جكا سكران ؟

فاجاب ياكوف ، وهو يصبُّ مزيداً من الفودكا :

- نعم ، فهو يسكر كل ليلة .

- سيجره ذلك إلى الموت . . . تلك هي إذن الحياة

الحرّة . . . لا خوف فيها ! لسوف تؤول بدورك إلى مثل هذه الحال . . .

فردّ ياكوف في جفوة :

- كلا ، لن يقع ذلك !

تابع فاسيلي مقطب حاجبيه :

- لن يقع ذلك ؟ أنا أعرف ما أقول . . . كم من الوقت

مضى عليك هنا ؟ هذا هو الشهر الثالث . لقد آن وقت

أوبتك إلى البيت . أتحمل معك كثيراً من المال ؟

التقط قدحه غاضباً ، وقذف بالفودكا في جوفه . وجمع

لحيته في راحة يده ، وشدها بعزم حتى انحني رأسه معها .

قال ياكوف في نبرة معقولة :

- أنا لم أستطع أن أدّخر كثيراً منه في هذه المدة

القصيرة التي قضيتُ هنا .

- إذا كان الأمر على هذا الفرار فمعناه ألا مبرّر لبقائك

هنا بعد الآن . فارجع إلى البيت ، إلى القرية !

ابتسم ياكوف ولم يقل شيئاً .

سأل فاسيلي حانقاً ، وقد أهاجته برودة ولده :

- ما معنى تكشيرك هذا ؟ وكيف تجرؤ على الضحك

عندما يتحدث والدك إليك ؟ حذار ! لقد شرعت باستعمال

حريرتك باكراً جداً ! لسوف أجمعك سريعاً . . .

فصبّ ياكوف مزيداً من الخمرة واشتفّته . استفزّه تبيكيت

والده فغلي غضبه وثار . ولكنه تمالك نفسه ، وحاول ألا

يبوح بما يجول في خاطره ليتجنّب تسعير ثورة أبيه .

والحقيقة أنه كان خائفاً بعض الخوف من حدة والده ، وحتى

من قسوته ، وكلتاها ارتسمتا في عينيه بوضوح تام .

فاستشباط فاسيلي غيظا وقد لحظ أن ولده يصب
الفودكا لنفسه من دونه . قال :

— أمرك أبوك أن ترجع إلى البيت ، ولكنك تضحك منه ،
ايه ؟ اقبض ما تبقى لك من أجر نهار السبت و . . . امض
إلى البيت سريعا ! أنسمع ما أقول ؟

فأجاب ياكوف في حزم ، وهو يهز رأسه متشبثا برأيه :
— لن أمضي !

زمجر فاسيلي :

— ماذا ؟ !

ووضع يديه على البرميل ، ونهض عن مقعده ، وقال :

— مع من تعتقد أنك تتحدث ؟ أكلب أنت فتنيج في وجه
أبيك ؟ أنسيت ما تستطيع أن أفعل بك ؟ أنسيت ؟

ارتجفت شفتاه ، وارتعشت تقاطيع وجهه ، وانبثق
العرق من صدغيه . فأجابه ياكوف في صوت مخفوض ، دون
أن يلتفت إليه :

— أنا لم انس شيئا . لكن أتذكر أنت كل شيء ؟ يحسن
أن تسأل نفسك .

— تجسرن على تعليمي ! سأحطبك كالجرو الصغير . . .

راغ ياكوف من ذراع والده التي رفعها فوق رأسه ،
وجمجم من بين أسنانه المنطبقة :

— لا تتجاسر وتلمسني . . . فانت لست في البيت ،
في القرية !

— اخرس ! فانا والدك ايان كنتا !

همهم ياكوف ، وهو يضحك في وجهه والده وقد نهض بدوره في بطة عن مقعده :

- انت لا تستطيع أن تجرني إلى مركز الشرطة هنا !
فليس من مركز في هذه الناحية .

وانتصب فاسيلي ، وقد احمرَّت عيناه ، ومال رأسه إلى الأمام ، وانطبقت قبضتاه بعنف ، ينفخ أنفاساً حارة مشبعة ببخر الفودكا في وجه ولده . وارتدَّ ياكوف إلى الوراء ، وراح ، وقد خفض جبينه ، يراقب كل حركة من حركات أبيه بانتباه زائد ، مستعداً ليصدَّ أية ضربة . . . كان مظهره هادئاً ، ولكن عرقاً حاراً ينبجس من كل مسام جسده ، وكان البرميل الذي جعلاً منه خواناً يقوم بينهما .

سال فاسيلي في صوت أجشٍّ ، وهو يقوِّس ظهره كقطعة تستعد للوثب :

- أتقول إنني لا أستطيع أن أجرك !

- الجميع يتساوون هنا . . . فأنت أجير ، وكذلك أنا .
- كذا ؟

- ماذا تظنُّ ؟ ما معنى جنونك المفاجئ ضدي ؟ أعتقد اني جاهل ؟ انت الذي بدأت الأمر . . .

زمجر فاسيلي ، ولوَّح ذراعه برشاقة لم يستطع ياكوف ان يتملَّص منها . اصابته الضربة في رأسه ، فترنَّح وكشر عن انيابه في وجه والده الغضبان .

حذَّره ، وقد جمع قبضتيه ، بينا فاسيلي يرفع ذراعه ثانية :

- كن حذراً !

- ساعلمك أنت كيف تكون حذراً !

- قف ، اقول لك !

- آها . . . تتوعد والدك ! والدك ! والدك !

اكتنفهما الكوخ الصغير ، وشوش حركاتهما ، فتعثرا
بأكياس الملح الفارغة ، والبرميل المقلوب ، وجذع الشجرة .
تقهقر ياكوف ببطء امام والده ، صاداً الضربات
بقبضتيه ، صاحب الوجه ، ينضح عرقاً ، وقد كرز على
أسنانه ، وتأججت عيناه مثل عيني الذئب . ووثب الأب
يتبعه ، وهو يضرب بقبضتيه دون وعي في ثورته العمياء .
وبدا فجأة اشعث الهندام بشكل غريب ، يشبه خنزيراً برياً
متوحشاً خشن الشعر .

قال ياكوف في صوت هاديّ ينذر بالشرّ ، وهو يمرق من
باب الكوخ إلى الفضاء :

- كفّ عن ذلك ، فهذا يكفي ! قف !

فشرع والده يزجر عالياً وهو يلاحقه ، ولكن ضرباته
لم تكن تقع إلا على قبضتي ولده .

شاكس ياكوف أباه ، بعد ما تبين له أنه أكثر خفسة
منه :

- يالك من مجنون ! يالك من مجنون !

- انتظر ! . . . انتظر وحسب . . .

قفز ياكوف جانباً ، وهول يعدو في اتجاه البحر .
ركض فاسيلي وراءه ، وقد خفض رأسه ومدّ ذراعيه ،
ولكنه تعثر بشيء ما فوق على الأرض . نهض سريعاً على
ركبتيه ، وجلس على الرمل معتمداً عليه بيديه . كان مضطجع

القوى بُعِيدَ ذلك العراك ، فراح يعوي بكآبة من شعور
محرق يطلب النار ولم يرتو ، ومن احساس حاد بالضعف لا
حيلة فيه .

صاح في صوت مبجوح ماذا رقبته حيث مضى ياكوف بعدما
بصق زبد الجنون عن شفثيه المرتجفتين :
- فلتكن ملعوناً !

استند ياكوف إلى قارب ، وأخذ يراقب والده بانتباه
وهو يحك رأسه المتألم ، وقد تمزق كم قميصه وظلّ
معلقاً بخيط واحد ، وتمزقت الياقة بدورها فراح صدره
الابيض المتصبب عرقاً يلمع في الشمس كما لو دهن بالشحم .
وعندئذ تملكه الهزه من آييه . كان يحسب دوماً أنه أقوى
منه ، فإذا هو يجده الآن قابلاً على الرمل ، أشعث ، في حالة
يرثى لها ، يتهدّده بقبضته من بعيد . ابتسم ابتسامته
المتضعة الخبيثة ، ابتسامة رجل قوي وهو يتفرّس آخر واهناً
ضعيفاً .

- لتكن ملعوناً ! . . . لتكن ملعوناً إلى الأبد !
وظلق فاسيلي يبعث بلعناته في صوت مرتفع جعل ياكوف
يرنو - رغم إرادته - ناحية البحر ، إلى ابنية الصيد ، وكأنه
خائف من ان يسمع أحد سكانها صيحات الضعف هذه .
لم يكن هنالك غير الأمواج والشمس ، فبصق وقال :
- هيا تابع صياحك ! من تظنّ أنك تجرح ! أنت لا
تجرح إلا نفسك فحسب ، ولا أحد سواك . . . ومادام هذا
قد جرى بيننا ، فسأخبرك رأيي صراحة . . .
زمجر فاسيلي :

- اطبق شفتيك ! تنحّ عن بصري ! إمض من هنا !
فقال ياكوف ، وعيناه مثبتتان في والده ، يراقب كل حركة
يأتي بها :

- لست راغباً في العودة إلى القرية . . . سأبقي هنا
الشتاء بطوله . . . فهذا المكان يروق لي . وأنا لم أجنّ بعد
حتى أعود . . . فالحياة رخيّة هنا . . . في المنزل يمكنك أن
تعاملني كما يحلو لك ، أما هنا . . . فانظر !

أعلن هذا ، وضمّ قبضتيه ، ولوّح لوالده بهما ،
وضحك . لم تك قهقهته شديدة الارتفاع وإن كانت كافية
لتجعل فاسيلي يهبّ على قدميه مرة ثانية ، مجنوناً من الغضب ،
ويلتقط مجذافاً ويعدو نحو ولده وهو يصيح في صوت أجش :
- والدك ؟ أتفعل هذا لوالدك ؟ سأقتلك . . .

حينما بلغ القارب يعميه الغضب ، كان ياكوف قد نأى
عنه كثيراً ، يركض وكمّه المعزق يرفرف خلفه في الهواء
الطلق .

رمى فاسيلي المجذاف وراءه ، ولكنه لم يمتد غير مسافة
يسيرة ، ثم سقط الشيخ على الأرض منهكاً مرة أخرى .
واستند على جانب القارب بصدرة وجعل يخدش الخشب
بجنون ، وهو يشخص إلى ولده . فصاح هذا الأخير من بعيد :
- يجب أن تخبّل من نفسك ! لقد نضج شعرك الأبيض
تماماً ، ومع ذلك يملكك الجنون بهذا الشكل من أجل
امراة ! إيه ، بخ لك ! ولكنني لن أرجع إلى القرية . . .
أرجع أنت . . . فليس لديك ما تعمل في هذا المكان . . .
فطفي صوت الأب على صوت الابن ، وهو يصيح :

- ياشكا ، اخرس ! ياشكا ، سأقتلك ! أخرج من هنا !
فتمشى ياكوف الهوينا .

راقبه والده يغادر المكان بعينين كئيبتين توحسان
باختلال عقله . وبدأ له قصيراً فكان قدميه تفرقان في
الرمال . . . لقد غرق حتى وسطه . . . حتى كنفه . . . حتى
عنقه . . . لقد اختفى ! وبعد لحظة وجيزة ، وفي مكان يبعد
قليلاً عن النقطة التي تلاشى فيها ، عاد رأسه فظهر ثانية . . .
ثم كنفاه . . . ثم جسده . . . ولكنه أصغر من قبل . . .
استدار ، وتطلع ناحية فاسيلي ، وصرخ بشيء ما .
زعق فاسيلي مجيباً :

- لعنة الله عليك ! لعنة الله عليك ! لعنة الله عليك !
فلوَح ولده بيده اشمزازاً ونفوراً ، واستدار وتابع
السير ، و . . . مرة ثانية اختفى وراء كتبان الرمال .
زئّر فاسيلي بعينه ، مدة طويلة ، إلى الجهة التي
اختفى فيها ولده ، حتى رده إلى وعيه ما أثاره وضع جسده
المربك المستند إلى القارب من ألم في ظهره . فنهض منهكاً ،
وتأرجح من الألم الذي يعصر كل عضو من أعضائه . وجد
حزامه قد التف تحت أبطيه ، فحلّه بأصابعه المخدرة ، وأدناه
من عينيه ، ثم رمى به على الرمل ، ومضى في اتجاه الكوخ .
توقف في الطريق أمام حفرة صغيرة في الرمل ، وتذكر
أنه وقع في هذا المكان . لولا وقوعه على الأرض لاستطاع
اللاحاق بولده .

كان الكوخ في حال يرثى لها من التشويش والبلبله .
اجال فاسيلي بصره باحثاً عن زجاجة الفودكا حتى عثر عليها

مرمية بين الأكياس فالتقطها . كانت سدادتها مشدودة بحيث لم يذهب شيء من الفودكا هدراً . إنتزع فاسيلي السدادة في ببطء ، ووضع فم القنينة على شفتيه يريد ان يجرع ما فيها ، ولكن القنينة اصطدمت بأسنانه ، وانثالت الفودكا من فمه على لحيته وصدره .

ضجت رأسه برنين غريب ، فحقق قلبه بشدة ، وآلمه ظهره بشكل لا يطاق .

قال فاسيلي بصوت عال :

- لقد اصبحت عجوزاً .

وجلس على الرمل عند مدخل الكوخ .

وكان البحر يتسع أمامه ، والامواج تضحك ، صاحبة لاهية ، كماداتها ابداً .

حدّق فاسيلي طويلاً إلى المياه ، وتذكر كلمات ولده الجشعة :

- ليته كان يابسة ! أرضاً سوداء ! وليتنا نستطيع ان نزرعها كلها !

وطغى شعور مؤلم مرّ على هذا الفلاح ، فحكّ صدره بقسوة وتطلّع حوله ، وصعد تنهيدة عميقة . انحنى رأسه كثيراً وتقوّس ظهره كأنه يحمل حملاً أثعبه ثقله . ارتعش حلقومه باضطراب وكأنه يختنق . وسعل بقسوة لينظف حلقومه ، ثم رسم اشارة الصليب ، وصعد ببصره نحو السماء فهبطت عليه مجموعة من الأفكار الحزينة .

... من أجل امرأة ساقطة هجر زوجته ، تلك التي عاش

معها شريفاً أكثر من خمسة عشر عاماً . . . فعاقبه الله
بتمرّد ولده . فالحق معك ، يا إلهي !

لقد هزا به ولده ومزق له قلبه . . . انه يستاهل
الموت على تكديره نفس والده بمثل تلك القسوة ! ولاي
سبب ؟ من أجل امرأة ساقطة تعيش في الخطيئة ! . . يا
لفداحة خطيئته ، هو الشيخ العجوز ، إذ ينسى زوجه وولده
ويعاشر تلك المرأة . . .

وهكذا ذكره الرب ، في غضبه المقدس ، بواجبه . وطعن
قلبه بواسطة ابنه منزلاً به عقاباً عادلاً . . . والحق معك ،
يا إلهي !

رسم فاسيلي إشارة الصليب ، وهو متكوّر على نفسه
فوق الرمل ، وطرف بعينه ، ونفض عن أهدابه الدموع التي
تكاد تعميه .

وغرقت الشمس في البحر ، وراحت حواجبها ارجوانية
اللون تذبل ببطء ، وهوّت ريح ناعمة تعجّ من البعد الصامت
وجه الفلاح المندى بالدمع ، وهو ما يبرز جالساً في مكانه ،
منهمكاً في أفكاره عن التوبة حتى ارتمى نالماً .

أبحر ياكوف ، بعد يومين من مشاجرتـه مع أبيه ،
يصحبه عدد من الصيادين في عائمة تجرها الباهرة إلى بقعة
تنأى عن أبنية الصيد حوالي ثلاثين فرسخاً لصيد الزجر .
ورجع وحيداً بعد خمسة أيام إلى أبنية الصيد في قارب شراعي
صغير يتزوّد بعض المؤونة ، فوصل ظهراً حين كان الصيادون

يستريحون بعد الغداء . كان الجو حاراً على نحو لا يطاق ،
والرمل الساخن يحرق الأقدام ، وحراشف السمك وعظامها
تخز كالابر . واخذ ياكوف طريقه إلى الاكواخ في حذر ، وهو
يلعن نفسه لأنه لم يلبس حذاء . كان يحس بالكلس ،
فيتوانى عن أن يعود إلى القارب في طلب حذائه . أضف إلى
ذلك جوعه الشديد وشوقه لرؤية مالفا .

ما أكثر ما فكّر فيها في الايام المملسة التي قضاها في
البحر ! وهو يتساءل الآن : أترامسا لقيت أباه ؟ وكيف
عاملها ؟ لربما ضربها ! ولن يكون ذلك بالامر السيئ - بل
سيخلصها من بعض خيلائها ! فهي في حالها الراهنة ، كثيرة
الزهو والسلطة . . .

كانت ابنية الصيد هادئة مهجورة ، ونوافذ الاكواخ
مفتوحة على مصاريعها ، وتلك الصناديق الخشبية الواسعة
تبدو كأنها تلهث من شدة الحرارة . وكان طفل رضيع يصرخ
في مكتب الوكيل المختبئ بين الأكواخ بكل ما وهب له الله
من قوة ، وأصوات خافتة تتناهى إلى السمع خلف مجموعة
من البراميل .

خطا ياكوف ببسالة جهة الأصوات ، فقد خيّل إليه أن
صوت مالفا صافح أذنيه . وعندما بلغها وتطلع إلى ورائها
ارتدّ بسرعة ، كاسر الوجه مقطبه ، وتوقف .

كان يجلس خلف البراميل ، تحت ظلالها ، سيريوجكا
الأحمر الشعر مضطجعاً على ظهره وقد وضع يديه تحت
رأسه . وعن أحد جانبيه والده ، وعن الجانب الآخر مالفا .
قال في نفسه ، وهو يفكر في أبيه :

«ماذا يفعل في هذا المكان ؟ هل تخلّف عن عمله الهادئ ليكون هنا أكثر قرباً من مالفيا فيبعدني عنها ؟ أوه ، يا للجحيم ! ماذا لو بلغ أُمّي أخبار سلوكه هنا ! أذهب إليهم أم لا ؟»

وسمع سيريو جكا يقول :

- حسناً ! ستفادرنّا إذن ، اليس كذلك ؟ حسناً ،

امض وانبش الأرض . . .

فطرف ياكوف بعينه فرحاً .

أعلن فاسيلي :

- نعم ، سأذهب . . .

فخطا ياكوف عندئذ في جسارة ، وقال مبتهج النفس :

- تحياتي إلى الجماعة !

التهمة والده بنظرة سريعة ، واستدار عنه . ولم تتحدث

مالفيا أو تحرك هدباً ، ولكن سيريو جكا هز ساقه ، وقال

في صوت عميق واطلى :

- هه ! لقد رجع ولدنا المحبوب ياشكا من الأراضي

النائية !

وتابع بنغمة صوته المعتادة :

- إنه يستأهل أن يسلمح ويستعمل جلده طبلًا كجلد

الماعز .

فضحكت مالفيا في عذوبة .

قال ياكوف ، وهو يقتد الرمل :

- الجو حار !

فرمقه فاسيلي مرة أخرى ، وقال :

- كنت أنتظرک ، یا یاکوف .
- أدرك یاکوف أن صوته أكثر هدوءاً من قبل ، وبدأ وجهه قد تغير . أعلن :
- عدت أحمل بعض الزاد . . .
- وسأل سیریوجکا أن يعطيه قليلاً من التبغ ليدخن لفافة . فقال هذا ، دون أن أن تتحرك فيه عضلة واحدة :
- لن تحصل مني على شيء من تبغ ، أيها الاحمق !
- وقال فاسيلي متأثراً ، وهو يرسم عدة إشارات على الرمل بإصبعه :
- سأعود إلى البيت ، یا یاکوف .
- فاجاب یاکوف ، وهو ينظر ببراءة إلى والده :
- اهذا صحيح ؟
- وأنت ؟ . . . هل ستبقى هنا ؟
- أجل ، سابقى . . . فصل البيت لا يتحملنا معاً .
- حسناً . لا أريد أن أعترض . إفعل ما يحلو لك ، فأنت لم تعد صغيراً ! ولكن تذكر هذا - انني لا احتمل الكثير . لربما بقيت حياً . . . ولكنني لست على ثقة من قدرتي على العمل . . . فلقد فقدت عادة الأرض . . . وهكذا لا تنس . . . أنك تركت أمّاً في البيت .
- كان يجد صعوبة في الحديث ، فتبدو كلماته كأنها تلتصق بأسنانه ، وهو يمشط لحيته بيد مرتجفة .
- حلقت مألماً ببصرها إليه ، وأغمض سیریوجکا إحدى عينيه ، وحملق بقسوة بالأخرى - وكانت مستديرة بجاء -

في وجهه ياكوف . وكان هذا يغلي فرحاً . وكيلا يخونه ذلك
الفرح قبح صامتاً وهو يشخص إلى قدميه .

قال فاسيلي :

- إذن ، لا تنسَ والدتك . . . وتذكر أنك ولدها
الوحيد .

فقال ياكوف منكشئاً :

- لا حاجة لإخباري بهذا ، فأنا أعرفه !

نبر والده ، وهو يرمقه في شك :

- حسناً ، مادمت تعرفه ! وكل مما أقول لك - لا
تنسَ !

وتنهذ فاسيلي بعمق . وخيم السكون عليهم بعض
الوقت . وإذا مالفا تقول :

- سيدقُ الجرس قريباً داعياً للعمل . . .

فأجاب فاسيلي ، وقد نهض واقفاً وحذا حذوه الثلاثة
الآخرون :

- حسناً ، أنا ذاهب ! الوداع ، يا سيرجي ! إذا عبرت
يوماً نهر الفولغا فلا تنسَ أن تزورني هناك . . . قضاء
سمبيرسك ، قرية مازلو ، ناحية نيكولو ليكوفسكايا . . .
- حسناً !

قال سيريوچكا هذا ، وهو يهزُ يد فاسيلي وقد رفعها
بلطف في يده القوية المفروشة بالشعر الأحمر ، ثم بسم في
وجهه الحزين جاد الملامح .

شرح فاسيلي قائلاً :

- أن ليكوفو-نيكولسكوى بلدة كبيرة . . . وهي

مشهورة بما فيه الكفاية ، ونحن نعيش على بعد حوالي أربعة فراسخ منه .

- حسناً ، حسناً . . . سأعمد إلى زيارتك إن مرت 'بتلك الطريق . . .
- وداعاً !

- وداعاً ، أيها الشيخ العزيز !
فقال فاسيلي في صوت مختنق ، ودون ان يتطلع إلى مالفا :

- وداعاً ، يا مالفا !
فمسحت بتروٴ شفتيها بكم قميصها ، ثم وضعت يديها البيضاوين على كتفي فاسيلي بسكون وهدوء ، وقبلتـه برزاة ثلاثة مرات على خديه وشفتيه . كان فاسيلي مرتبكاً ، يغمغم بشيء ما في صوت متقطع ، فأحنى ياكوف رأسه يخفي ابتسامة ساخرة ، بينما حدج سيريوخا السماء بعينيـه ، وتشاءب برقة . قال :

- لسوف يكون المسير شاقاً في مثل هذه الحرارة .
- أوه ، ذلك أمر تافه . . . حسناً ، الوداع ، يا ياكوف !

- الوداع !
وقفا متقابلين دون ان يفهما ما يفعلان . ايقظت هذه الكلمة المحزنة «الوداع» ، وقد ترددت بكثرة وعلى وتيرة واحدة خلال تلك الثواني ، في قلب ياكوف شعوراً بالحنان تجاه والده . ولكنه لم يعرف كيف يعبر عنه . هل يعانقه مثلما فعلت مالفا ، أم يصافحه مثلما فعل سيريوخا ؟ وآذى

فاسيلي ذلك التردد الذي بدا في موقف ولده وتقاسيسم وجهه ، ولما يزل يحس شيئاً مماثل الخجل من ياكوف . ولقد أثارت هذا الشعور ذكرى الحادثة في اللسان الرملي وضاعفته قبلات مالفا .

قال أخيراً :

- وهكذا . . . لا تنسَ أمك !

فقال ياكوف ، وهو يبتسم ابتسامة ودوداً :

- حسناً ، حسناً ! لا تقلق . . . سأفعل ما ينبغي

فعله !

وهز رأسه .

- حسناً . . . هذا كل شيء ! وداعاً ! فليمنحكم الله كل

خير . . . اذكرني بخير . . . أوه . . . يا سييريوجكا !

لقد دفنت الغلاية في الرمل ، تحت مؤخرة القارب الأخضر .

فاستفسر ياكوف في عجلة :

- وما حاجته إلى الغلاية ؟

فردَّ فاسيلي :

- لقد استلم عملي . . . هناك ، في اللسان الرملي !

شخص ياكوف إلى سييريوجكا ، وحملق في مالفا ، وحنى

رأسه يخفي لمعان الفرع في عينيه .

- حسناً ، الوداع ، أيها الاخوان ! انا ذاهب !

وانحنى فاسيلي ، ثم مضى . فتبعته مالفا . قالت :

- سأرافقك قليلاً . . .

وارتمى سييريوجكا على الرمال ، وأمسك قدم ياكوف ،

تماماً عندما أراد هذا الأخير أن يحبو وراء مالفا :

- هيه ! إلى أين ؟
صاح ياكوف ، محاولاً تخليص قدمه :
- انتظر ! دعني أذهب !
لكن سيريو جكا أمسك قدمه الأخرى ، وقال :
- اجلس قربي لحظة ! . . .
- هيه ، كفاك تمثل دور الأحق !
- أنا لا أمثل دور الأحق . . . ولكن ، اجلس ، أنت !
جلس ياكوف ، وسأل من خلال أسنانه المنطبقة :
- ماذا تريد ؟
- انتظر واصمت لحظة ! دعني أفكر ، وعندئذ أخبرك .
حدج سيريو جكا ياكوف بعينيه المتصلقتين متوعداً ،
فأذعن ياكوف لمشيئته . . .
سارت مالفيا وفاسيلي ، في صمت ، برهة وجيزة . كانت
ترمي وجهه بنظرات جانبية ، وعيناها تبرقان بشكل غريب .
وقطب فاسيلي وجهه وظلّ صامتاً . كانت أقدامهما تفرق في
الرمال وهما يسيران ببطء شديد .
- فاسيا ! *
- ماذا ؟
التفت نحوها ، ونحى بصره عنها سريعاً .
قالت في صوت هادئ ساكن :
- لقد جعلتك تتشاجر مع ياشكا عن قصد . . . فأنتما
تستطيعان الحياة هنا دون شجار .

* اسم التذييل من فاسيلي . الناشر .

فسالها ، بعد لحظة صمت وجيزة :

- فيمَ فعلت ذلك ؟

- لست أدري . . . هكذا كان !

وهزت كتفيها ، وضحكت ضحكة قصيرة .

همهم موبخاً في صوت غاضب :

- آه منك !

فظلت صامتة .

- انك ستتلفين ولدي ، ستتلفينه تماماً ! آه ، انت

شيطانة ، شيطانة ! وانت لا تعرفين خوفاً من الله ! وليس

لديك أثر للخجل ! ماذا تفعلين ؟

فاستوضحت ، وكان في صوتها شيء من الضجر والقلق

يصعب أن تميز حقيقته على الضبط :

- ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

فصاح ، وقد احسّ بالغضب الشديد يفعم قلبه ضدها :

- ماذا عليك أن تفعلي ؟ آه ، أنت !

أراد أن يضربها من صميم قلبه ، أن يرميها عنسـد

قدميه ، ويدوسها على الرمال ، ويرفسها على صدرها ووجهها

بحذائه الثقيل . وجمع قبضتيه ، واستدار الى الوراء .

كان يستطيع أن يرى ، قرب البراميل ، هيئتي ياكوف

وسير يوجكا يتطلعان في اتجاهه .

- امضي عني ، امضي عني ! قبل احطك أنت يا . . .

وكحّ بالكلمات البذيئة في وجهها . كانت عيناه

محمرتين ، ولحيته ترتعش ، ويداه ممتدتين - رغم إرادته

- ناحية شعرها المتسرب من تحت منديلها .
ومع ذلك شخصت اليه بهدوء بعينها الخضراوين .
- يجب أن أقتلك ، أيتها الفاجرة ! انتظري . . .
ستتالين ما هو مقدّر لك ! . . . سيلوي أحدهم رقبتك دون
شك يوماً من الايام !
ابتسمت ، ولم تقل شيئاً .
تنهدت عميقاً ، وقالت في جفوة :
- حسناً ، هذا يكفي ! . . . وداعاً !
استدارت على عقبيها بعدة ، وكرّرت راجعة .
زمر فاسيلي خلفها ، ووطن اسنانه في عنف . ولكن
مالفا مشيت وهي تحاول أن تخطو فوق آثار خطوات فاسيلي
الواضحة العميقة على الرمال ، وكلما نجحت في ذلك محتها
بقدمها في عناية . وهكذا تدرجت ، على مهل ، حتى بلغت
البراميل حيث حياها سيريو جكا مستطلعاً :
- حسناً . ودّعته إذن ؟
فهزت رأسها إيجاباً ، وجلست بالقرب منه . اسفّ
ياكوف النظر إليها وابتسم بحنان ، محرّكاً شفّتيه كما لو كان
يهمس شيئاً لا يسمعه أحد سواه .
استعلم سيريو جكا ثانية ، مستشهداً بكلمات تلك
الاغنية القديمة :
- والآن ، بعد أن ودّعته ، فأنت تحسين بالأسف
لفراقه ، ها ؟
فسألت مالفا بدلاً من الجواب ، وهي تهز رأسها جهة
البحر :

- متى ستفادرننا إلى اللسان الرمي ؟
 - هذا المساء .
 - سأذهب معك . . .
 - تذهبين معي ؟ عظيم ! هذا ما أودُّ !
 وقال ياكوف مؤكداً :
 - وسأذهب أنا الآخر !
 فسأل سيريو جكا ، وقد ضيق عينيه :
 - ومن دعاك ؟
 ارتفعت قرعة أحد الأجراس تدعو الرجال إلى متابعة
 العمل . وكانت الضربات تتتابع بسرعة ، ثم تموت بعيداً في
 طي الأمواج الفرحة .
 قال ياكوف ، وهو يشخص إلى مالفا يتحدث :
 - هي ستفعل !
 فقالت مشدوهة : - أنا ؟ وما حاجتي إليك ؟
 أعلن سيريو جكا بفظاظة وهباً واقفاً :
 - دعنا نتحدث صراحة ، يا ياشكا ! إن رحمت
 تزعجها . . . فسأجعلك طحيناً ! وإن لمستها بأصبعك . . .
 سأقتلك مثلما أقتل الذبابة ! ضربة واحدة على الرأس -
 وتمسي في عالم آخر ! ذلك أمر بسيط بالنسبة إليّ !
 وكان وجهه ، وكل جسده ، ويداه العقدتان الممتدتان
 إلى حلق ياكوف ، كان ذلك كله شهادة مقنعة على أن القتل
 أمر بسيط بالنسبة إليه .
 خطا ياكوف خطوة إلى الوراء ، وهدر في صوت مخنوق :
 - انتظر لحظة ! لمَ ، هي نفسها . . .

- يكفي ! من تحسب نفسك ؟ ليس لديك لحم ضأن
تاكل ، أيها الكلب ! كسب ممتناً أن حصلت على عظمة
تقرضها . . . حسناً ، فيمَ تعلق ؟
نظر ياكوف إلى مالفا . كانت عيناها الخضراوان تضحكان
في وجهه ضحكة خبيثة ، محتقرة ، ساخرة . . . وضغطت
نفسها على جنب سيريوجكا في مزيد من تودد بحيث انبجس
العرق من جسد ياكوف كله .

ابتعدا عنه يسيران جنباً إلى جنب . وحين قطعاً مسافة
يسيرة ضحكاً معاً في صوت عال . فغرز ياكوف قدمه اليمنى
في الرمل عميقاً ، ووقف متوتراً ، يتنفس في ثقل وقساوة .
ومن بعيد ، فوق الرمال الصفراء المهجورة المتموجة ،
كانت هيئة شخص صغيرة ، سوداء اللون ، تتحرك . عن
يمينه يلتصق الخضمّ المرح القوى في الشمس ، وعن يساره
تنتصب حتى الأفق الرمال الفسيحة ، مهجورة ، موحشة ،
مقفرة ، مضجرة .

أطال ياكوف النظر إلى تلك الهيئة الوحيدة ، وطرف
بعينيه المليئتين بالاذى والخبل ، وحك بشدة صدره بكلتا
يديه . . .

بدأت ابنية الصيد تدوى بالنشاط والحركة .

وبلغ ياكوف صوت مالفا يتدحرج رناناً رائعاً :

- من اخذ سكّيني ؟

وكانت الأمواج ترشرش بصخب ، والشمس تلتهب ،
والبحر يضحك . . .

عام ١٨٩٧

ستة وعشرون رجلا وفتاة واحدة

بروح القصيدة

كنا ستة وعشرين رجلاً ، ستة وعشرين آلة حية ،
متراكمين في حفرة دكناء من سرداب أسود نعجن العجين منذ
طلعة الفجر حتى اغماضة عين المساء ، نصنع خبزاً وكعكاً .
وكانت نوافذ سردابنا تواجه فضاء منخفضاً محصناً بقطع من
القرميد أحال الطين لونها الى الخضرة . وكانت النوافذ مغلقة
من الخارج بشبكة حديد لا ينفذ إلينا شعاع واحد من
الشمس عبر ألواح الزجاج المغطاة بالدقيق والطحين . وقد
سورّ معلنا النوافذ كيلا يجد شيء من خبزه سبيلاً الى
أيدي الفقراء والمستعطين ، أو إلى رفاقنا العاطلين عن
العمل ، المتضورين جوعاً وسفهاً - كان معلنا يسمينا
عصابة من المتشردين المحتالين ، وينفحننا لطعام الغداء
بنفايات منتنة دبّ فيها الفساد عوضاً عن اللحم . . .

كانت الحياة خائفة مزدحمة في ذلك الجب الجائم تحسّت
سقف منخفض مفروش بالهباب وشباك العناكب . . . كانت
الحياة قاسية مقرفة بين تلك الحوائط السميكة الملوّنة ببقع
متسخة ولطخ من العفونة اللزجة . . . وكنا نهب من رقادنا
في الخامسة صباحاً ، مثقلين بنقص الراحة والنوم ، فلا تدق
الساعة السادسة حتى نجلس الى طاولة واسعة ، مكتئبين
فاتري الهمة والنشاط ، لنصنع الفطائر الهشة من عجيين
هياء رفاقنا أثناء رقادنا . وهكذا تقضي النهار بطوله ،

منذ البكور حتى الساعة العاشرة ليلاً ، وقد جلس بعضنا الى الطاولة يمعنون العجين اللدن ، وهم يؤرجحون أجسادهم ليزودوا عن أنفسهم الخـدر وفقدان الحس ، بينما يخلط الآخرون الدقيق والماء دون انقطاع . . . وطوال النهار ، تخرخر المياه وهي تغلي بكآبة وحسرة في القدر حيث تطبخ الفطائر ، فيما مجرفة الخباز تقعقع بحق ورشاقة على احجار الفرن ، وهو يقذف دون هوادة قطعاً لزجة من العجين على القرميد الحار . ومنذ البكسور حتى الليل تحترق الاخشاب وتتأثر في احدى جوانب الفرن ، بينما تأجج اللهب المورد يترجرج على جدران المخبز مرفراً فكأنه يكشف في وجوهنا ساخراً منا . . . وكان الفرن الكبير يشبه رأساً يشعاً لوحش وهمي انبثق من تحت الأرض ، تنقد اشداقه الفاغرة أفواهاها بنيران مشتعلة نافخة تنفس لهباً لامعاً وهاجاً يلفحنا ويحرقنا ، فيما الوحش الدميم يراقب عناءنا المستديم من خلال فتحتين غائرتين للهواء ترتبعان فوق جبهته . إن هاتين الثغرتين اشبه ما تكونان بعينيْن - عينيْن قاسيتين لا تتأثران أو تحسان ، عيني حيوان غريب تحملقان فينسا بتقطيية قاتمة لا تتغير ، فكأنهما متعبتان باطالة النظر إلى عبيد ارقاء لا ينتظر صدور شيء انساني عنهم ، فهما تحتقرانهم بازدراء الحكمة البارد . . .

وينقضي يوم ، ويطل يوم آخر وسط ما تحمل اقدامنا من دفقات التراب والاوساخ من الساحة الخارجية . ونعجن العجين في جوٍّ ذلك السرداب الحار العابق المخبث ، ونصنع الفطائر المرشوشة بعرقنا ، ونحقد على عملنا بضغينة

وكرامية وحشيتين ، فلا ناكل قط شيئاً مما تصنع أيدينا ،
مفضلين خبز الجاودار الأسود على الفطائر ناصعة البياض .
كنا نجلس الى مائدة طويلة نواجه بعضنا بعضاً - تسعة
رجال امام تسعة رجال - تعمل أيدينا وأصابعنا بصورة آلية
طوال ساعات لا نهاية لها ، وقد اعتدنا عملنا هذا فلم نعد
نراقب حركاتنا أو نلقي بالاً اليها . وقد ألفنا بعضنا
كثيراً ، حتى ليعرف كل منا جميع ما يرتسم على وجه رفاقه
من تفضنات وأخاديد . ولم يكن هنالك ما نتحدث عنه -
لقد اعتدنا على ذلك ايضاً - فنحن نقبع صامتين طوال الوقت
لا تنض شفاهنا بحرف واحد - اللهم الا اذا شرعنا نترامي
بالشتائم . فتمة اشيء دائماً يمكن للمرء ان يشتم الآخر
بسببها ، خاصة اذا كان هذا الآخر رفيقاً له . . . لكننا نادرا
ما كنا نتشاتم - أيلام الإنسان إن كان نصف ميت ، إن كان
يعائل صورة حجرية ، إن كانت جميع حواسه كلّت من وطأة
الكد والعناء المتراكمين على ظهره ؟ إنما الصمت مخيف مكروه
بالنسبة الى اولئك الذين قالوا كل ما في جعبتهم من اقوال .
أما بالنسبة الى القوم الذين لم يتفوهوا بعد بكلماتهم ،
فالصمت امر بسيط ميسور . . . وكنا نطلق حناجرنا بالفناء
أحياناً ، فتبدأ اغانينا عادة على هذا المنوال : يصعد أحدا
فجأة ، اثناء العمل ، زفرة حرة مثل حصان تعطمت قواه ،
وينطلق ينشد في لطف إحدى تلك الأغنيات الطويلة التي
يخفف إيقاعها العنون الأسوان من الحمل الثقيل الجاثم على
قلب المغني . كان أحد الرجال يغني ، فيما زهف نحن
اسماعنا في صمت الى تلك الاغنية الوحيدة التي لا تلبث ان

تتلاشى تحت سقف ذلك السرداب الجائر وتموت ، مثل لهيب
ذاوٍ ترسله نيران مخيم في سهب فسيح في ليلة خريفية
منداة تتعلق فيها السماء الرمادية وكأنها سقف من رصاص
فوق الارض المنبسطة . ومن ثم ينضم مغن آخر إلى المنشد
الاول ، بحيث يسبح صوتان يترنمان بكآبة ورقة في جو تلك
الحرارة الخائقة لزربتنا المزدحمة . وعلى غير انتظار تشترك
عدة اصوات ، في وقت واحد ، بترديد الاغنية وانشادها -
فتهب مجلجلة كالـمـوج ، وتزداد قوة وارتفاعاً ، وتلوح
كأنها تحطم الجدران الثقيلة الرطبة المسورة سجننا
الحجري . . .

إن الستة والعشرين يغنون جميعاً ، فإذا اصوات مرتفعة
قد انسجمت بطول المران تملأ المعمل ، والاعنية تتلاطم في
السرداب باحثة عن مجال لها ، وتتكرس على الجدران الحجرية ،
تنث وتنتحب ، وتحز في القلب بألم موخن لطيف ، فاتحة
جروحاً قديمة مندملة ، موقظة العذاب المنطوي في
النفوس . . . ويصعد المغنون تنهيدات عميقة ثقيلة ،
ويتوقف أحدهم عن الغناء فجأة ، ويقعد يصغي زمناً طويلاً
الى رفاقه يترنمون ، ومن ثم يشترك صوته من جديد في
الجوقة العامة . وقد يصيح أحدهم ، مغموم الصدر : «أواه .
أواه .» ، وهو يغني مغمض العينين ، ولعله يرى عندئذ
تيار الصوت الجارف العريض وكأنه درب تقود الى المنتأى ،
درب واسعة الجنبات تضيئها الشمس البراقصة ، ويرى
نفسه ، هو بالذات ، يسير عليها . . .
إن اللهب الواهر في القرن ما زال يترجرج ويرفرف ،

ومعرفة الخباز ما انفكت تقعقع على القرميد ، والمياه في القدر ما فتئت تبقببق وتخرخر ، وأضواء النار على الجدار ما برحت تخفق في ضحكة صامتة . . . ونحن نفني ، بكلمات عن صنع غيرنا ، ذلك الألم الكثيب في نفوسنا ، والحزن القارض لرجال أحياء محرومين من الشمس ، حزن العبيد . وهكذا كنا نعيش ستة وعشرين رجلاً ، في سرداب بيت حجري كبير ، وكانت حياتنا شاقة شديدة القسوة حتى يغال لنا ان الطوايق الثلاثة للبيت بكاملها على اكتافنا . . .

وكان ثمة شيء آخر ، بالإضافة الى اغنياتنا ، نحبّه ونلاطفه وتهتز إليه أفئدتنا ، شيء ربما كان يملأ مكان الشمس بالنسبة إلينا . ففي الطابق الثاني من بيتنا معمل للتطريز كانت بين فتيات العاملات تانيا الحاملة بربيعها السادس عشر ، ولقد كانت خادمة مهفهفة . . . وفي كل صباح يروح وجه فتي زهري اللون ذو عينيّن زرقاوين مرحتين ينضغط على زجاج النافذة الصغيرة المفتوحة في باب معملنا المؤدي إلى الممر ، ويرن صوت حلو نفوم ينادينا :

- أيها المساجين . أعطوني بعض الفطائر !

عندئذ ندير رؤوسنا ، جميعاً ، صوب ذلك الصوت النقي ، ونرنو في لطف وغبطة الى وجه الفتاة الطاهر المبتسم لنا في حلاوة بالغة . كنا نحب رؤية ذلك الأنف المضغوط على الزجاج ، والاسنان البيض الصغيرة تلمع من تحت الشفتين الورديتين المنفرجتين عن ابتسامة عذبة . وكنا نتدافع لنفتح لها الباب ، نرحم بعضنا بعضاً . وهنالـك

نلقاها ، جذابة مشرقة ، رافعة منظرها ، تقف أمامنا ورأسها الصغير محني قليلاً ، ووجهها الوسيم مطوّق كله بابتسامات ودودة حلوة . وكانت جديلة كثيفة طويلة من شعر عسجدي اللون تتدل من فوق كتفها على صدرها . وكنا ، نحن الرجال القذرين الجاهلين البشعيين نتطلع إليها ونترنى - كانت العتبة ترتفع أربع درجات عن الأرض - نتطلع إليها ونترنى برؤوس مرتفعة ، ونتمنى لها صباحاً سعيداً . كانت كلمات تحيتنا خاصة بها ، مخلوقة من أجلها فقط . وكان صدى أصواتنا يرنّ أرخم وأرق ، ونكاتنا تتردد اشرق وابهج ونحن نتحدث إليها . كان كل شيء نحفظ به لها خاصاً بها ، فالخباز يسحب من الفرن مجرفة عامرة بالفطائر الناشفة داكنة اللون ، ثم يصبها بمهارة في منظرها .

كنا نحذرهما قائلين :

- انتبهى ألا يراك المعلم !

فتضحك في خبث ، وتصيح فرحانة جدلى :

- الوداع ، أيها المساجين !

ثم تغتفي في طرفة عين كالفأرة الصغيرة . . .

وهذا كل شيء . . .

ونظل مدة طويلة نتحدث عنها بعدما تغادرتنا - فنقول ذات الأشياء التي تفوهنا بها في اليوم السابق وما قبله ، لأننا ، ولأنها ، ولأن كل شيء حوالينا باق على عهده كالיום السابق وما قبله . . . ما أقسى وآلم أن يعيش المرء وكل ما يحفّ به باق على حاله لا يتغير ، فإذا لم يقتل هذا الروح فيه فإن الألم الذي يبثه جمود الأشياء المحيطة به وثباتها

يتفاهم بمقدار ما تطول حياته . . . كنا نتحدث دائماً عن النساء بطريقة تجعلنا في بعض الأحيان نشعر بالاشمئزاز والقرف من نفوسنا ، ومن حديثنا اللفظ المخل . ولا يبعث هذا على الدهشة لأن النساء اللواتي نعرفهن لا يستأهلن أبداً ان نتحدث عنهن بطريقة أخرى . لكننا لم نسمع لشفاهنا أن تقول عن تانيا كلمة رديئة قط . بل لم يجسر أحداً على لمسها بيده أبداً . وهي لم تسمع منا مرة نكتة خليعة . وربما كان ذلك لأنها لا تبقى عندنا طويلاً - كانت تنطلق من أمام نظرتنا مثل نجمة تسقط من السماوات وتلاشي . . . او ربما كان ذلك لأنها صغيرة رائحة الجمال ، وكل شيء جميل يوحي بالاحترام ، حتى لعصابة من الرجال الافظاظ الشرسين . ثم اننا كنا ، رغم العمل الشاق الذي يحيلنا الى ثيران بكاء ، مخلوقات بشرية ، فلسنا نستطيع الحياة ، مثلنا مثل سائر المخلوقات البشرية ، دون هدف لعبادتنا . ولم يك ثمة إنسان أروع منها فيما يحيط بنا ، كما لم يك ثمة إنسان يعيرنا اهتماماً نحن الذين نعيش في السرداب - بالرغم من وجود عشرات من المستأجرين في البيت فوقنا . وأخيراً - وربما في المحل الأول - كنا نعتبرها شيئاً يخصنا ، شيئاً ، يدين بوجوده لفظائنا فقط . وقد نذرنا على انفسنا أن نقدم لها فطائر ساخنة ، الأمر الذي أضحي تضحيتنا اليومية للمعبود ، يكاد أن يقارب عبادة مقدسة ، فيضاعف من حبنا لها يوماً بعد يوم . وكنا نقدم لتانيا ، بالإضافة الى الفطائر ، كمية كبيرة من النصائح - ان تلبس ثياباً داكنة . ألا تركض بسرعة وهي تصعد

السلام . الا تحمل حزمًا ثقيلة من الحطب . وكانت تصفي الى نصائحننا وابتسامة عذبة تلهو على شفيتها ، وتندفع عنا ضاحكة دون ان تعمل بنصائحننا . إلا أننا لم نكن نغضب - كنا نكتفي بأن نظهر لها قلقنا عليها وحبنا لها .

وكانت تسألنا ، غالباً ، ان ننجز لها بعض الأعمال . فتطلب منا ، مثلاً ، ان نفتح لها باباً حروناً في القبو لم يلن لها ، او تقطع لها بعض الحطب ، فنفعل هذه الأشياء ، واشياء أخرى عديدة تطلبها منا ، بغبطة وسرور ، بل بشيء من الفخر الخاص أيضاً .

ولكن عندما طلب أحدنا منها ان ترتق له قميصه الوحيد ، نفخت في وجهه بازدراء واستخفاف ، وقالت :

- هذا لا يهمني ، ولن افعل لك ذلك !

وتلذذنا بضحكة طويلة ممتعة على حساب ذلك الشاب الأحق ، ولم نطلب منها بعد ذلك القيام بأي عمل لنا . كنا نحبه ، وفي هذا القول كل شيء . . . المرء يود دائماً ان يحتر هذا الشخص او ذاك في حبه ، وأن يكن ذلك جائراً ظالماً أحياناً ، او مذلاً في أحيان أخرى . وقد يسم حبه حياة مخلوق حي ، لانه لا يحترم ، وهو يحب ، موضوع حبه وهيامه . كان علينا ان نحب تانيا ونهيم بها ، اذ لم يكن ثمة مخلوق غيرها نستطيع ان نحبه ونهيم به .

ومن حين لآخر كان أحدنا يبدأ الحديث على هذا الفرار :

- ما المغزى من إثارة مثل هذه الضوضاء بسبب تلك

الفتاة ؟ ما الذي يلفت الأنظار فيها ؟

وما أسرع أن نطبق على ذلك المتكلم ونرغمه على الصمت في خشونه وقسوة - يجب أن نملك شيئاً نحب . ولقد وجدناه ، واحبيناه ، وذلك الذي احببنا ، نحن الستة والعشرين ، كان يجب أن يكون راسخاً لكل منا ، فهو قدس الاقداس في نظرنا ، وكل من يعارضنا في هذا الأمر عدو لدود لنا . لربما كنا نحب ما ليس في الحقيقة حسناً إلا أن ثمة ستة وعشرين منا على أية حال ، ولهذا نريد موضوع عبادتنا أن يظل طاهراً مقدساً في عيون الآخرين .

لم يكن حبنا أقل ثقلاً من الحق . . . ولربما كان هذا هو السبب في أن بعض العنيدين يدّعون أن حققنا ادعى الى الزهو من حبنا . . . إنما ، لماذا لا يتحاشون جانبنا إذا كان ادعاؤهم صادقاً ؟

كان معلمنا يملك ، بالاضافة الى مخبز الفطائر هذا ، مخبزاً للارغفة يقع في البيت ذاته ، لا يفصله عن حفرتنا سوى جدار واحد . وكان خبازو الارغفة ، وهم أربعة اشخاص ، يترفعون علينا ، ويعتبرون عملهم انظف من عملنا ، ويعتبرون انفسهم ، بناء على ذلك ، اناساً أفضل منا . لم يزوروا مخبزنا ابداً ، بل كانوا يستقبلوننا ياهاتات مزرية حيثما اجتمعوا بنا في الساحة . ولم نك ، نحن الآخرين ، نزورهم أو نطل عليهم - فقد حرّم المعلم أمثال هذه الزيارات خشية أن نسرق القطايف . لم نك نحب خبازي الارغفة لاننا كنا نحسدكم - فصلهم أسهل من عملنا ، وهم يتناولون أجراً أفضل ، وينالون طعاماً أحسن ، ويعيشون في دكان مهواة

فسيحة الجوانب ، وهم جميعاً ممتلئو الصحة كثيرو النظافة ،
وبالتالي مقوتون شنيعون . . . وكنا ، في الطرف الآخر ،
صفر الوجوه كثيراً . ثلاثة منا مصابون بالزهري ، وآخرون
بالجرب ، واحداً كسيح بالروماتيزم المزمن . كانوا يرتدون في
أيام الأعياد والراحة الأسبوعية ثياباً نظيفة ، واحذية عالية
تزقزق وتصر لدى كل خطوة . وكان اثنان منهم يملكان
آلتي ارمونيكا ، فيخرجون جميعاً لنزهة في الحديقة العامة ،
في حين نتلفع نحن بأسمال قفزة ، ونلف أقدامنا بخروق من
الخيش أو أحذية مصنوعة من ليف النباتات ، فلا يسمع لنا
الشرطي بالدخول الى الحديقة . قولوا الآن ، اكنا نستطيع ان
نحب خبازي الارغفة ؟

وتسربت إلينا ، ذات يوم ، أنباء تفيد ان القيم على
المخبز بدأ يشرب بنت الكرم ، وأن المعلم فصله وعين
آخر محله ، وان القيم الجديد جندي سابق يتجول في صديرية
من الساتان ، ويحمل ساعة ذهبية السلسلة . وقد دفعنا
الفضول إلى إلقاء نظرة خاطفة على ذلك الغندور ، فثمة الواحد
تلو الآخر يركض الى الساحة بين الفينة والفينة على أمل ان
يصادفه ويجتمع به .

لكنه قدم إلى دكاننا بنفسه . دفع الباب بقدمه ووقف
على وصيده ، مبتسماً ، وخاطبنا قائلاً :

- مرحباً . كيف حالكم ، أيها الصبية ؟ الله يساعدكم !
واندفع الهواء الجليدي عبر الباب في سحابة داخنة راحت
تدوّم حول قدميه ، وهو واقف على العتبة يتطلع إلينا من
أعلى ، تلمع أسنانه الصفر الكبيرة تحت شاربيه الأشقرين

الجميلين . كانت صديريته لا نظير لها حقاً - زرقاء اللون ، مطرزة بالزهور ، تبرق وتشع ، أزوارها مصنوعة من الحجر الأحمر . وكانت السلسلة موجودة أيضاً . . .
ولقد كان شاباً أنيقاً ، ذلك الجندي ، طويل العود ، قوي البنية ، له وجنتان متضرجتان وعينان بجّاوان مشرقتان تنحدر منهما نظرة حلوة محببة ، نظرة نقية حنون . وكان يعتمر بقبعة من القماش بيضاء متينة ، ويطل من تحت منزره النقي الصافي راسان مديبان لحذاء عصري فاخر لماع الجلد . رجاه قيّم مخبّزنا بلطف وأدب أن يغلق الباب . فاذعن في بطاء ، وشرع يستفسر منا عن المعلم ، فترامينا بعضنا على بعض ، نخبره أن المعلم بخيل ، مسّاك ، غشاش ، لثيم ، وجّلد بالاضافة - اخبرناه بكل شيء يمكن أن يروى عن المعلم مما يستحيل كتابته هنا . فاصفى الجندي إلينا ، ورعّص شاربيه ، ورمانا بتلك النظرة اللطيفة الصافية .
قال ، على حين فجأة :

- لديكم في الجوار كثير من الفتيات . . .
فضحك فريق منا في أدب ، ورقّت وجوه بعضنا ، وروى احدنا للجندي أن ثمة تسعاً منهن في الجوار .
واستأنف الجندي كلامه ، فسأل غامزاً بعينه :

- هل استفدتم منهن ؟
فضحكنا ، من جديد ، ضحكة مقهورة حائرة . . . كثيرون منا كانوا يودون أن يتبحجوا امام الجندي بفراهة ليست من نصيبهم ، فلم يستطيعوا أن يفلحوا في ذلك . لم يكن أحد منا يستطيع ذلك . وأقر بعضهم أخيراً ، في صوت هاديّ متردد :

- اه ، لا حول لنا في ذلك . . .

فقال الجندي في اقتناع ، معنًا فينا النظر :
- آه ، بل ، انكم لبعيدون عن ذلك كثيراً . . . ليس
لديكم الشخصية . . . الصورة الموافقة . . . أنتم لا تعرفون
الطلعة . إن الطلعة هي الشيء الوحيد الذي تعبدن النساء
في الرجل . اعط المرأة جسداً قياسياً . . . وكل شيء يجب
أن يكون هكذا . ثم أنها تحب بالطبع شيئاً من القوة
العضلية . . . تحب الذراع أن تكون ذراعاً ، وثمة بضاعة
ههنا .

واخرج الجندي يده اليمنى من جيبه ، وكم قميصه مطوي
حتى مرفقيه ، ورفعها اماناً لرؤيتها . . . كانت له ذراع
بيضاء قوية مفروشة بشعر ذهبي مشع .

- الساق ، الصدر ، كل شيء يجب أن يكون متيناً
قوياً . . . ومن ثم يجب على المرأة أن يعني بهندامه . . .
فتكون هيئته متقنة . . . والآن ، ان النساء يتساقطن
أمامي . انتبهوا ، فانا لا أناديهن ولا اغويهن بل هن يتعلقن
برقبتي ، وبالجملة ايضاً . . .

جلس على كيس من الطحين ، وأمضى فترة طويلة يروي
لنا كيف تحبه النساء وكيف يعاملهن بجسارة واقدام . ثم
انصرف . ولم يكد الباب يلفظه وينغلق من خلفه مصرعاً
حتى قعدنا جميعاً تخيم علينا سكينه طويلة وصمت مطبق ،
نفكر فيه ونتروى فيما روى لنا من اقاويص . ومن ثم تحدث
الجميع فجأة وفي وقت واحد ، فوضح لنا انه راق في اعيننا .
مثل ذلك الفتى البسيط اللطيف ، وكيف دخل علينا ، وكيف
جلس ، وماذا قال . . . لم يصدق أحد لرؤيتنا قط ، أو

حدثنا إنسان بمثل ما هو حدثنا ، بطريقة أخوية محبة . . .
شرعنا نتحدث عنه ، وعن نجاحاته المتوقعة في المستقبل مع
الخياطات اللواتي كنّ ، بعد أن يشاهدننا في الساحة ، يهرعن
بعيداً عنا وقد ضفطن على شفاههن ازدراء ، أو ينطلقن
ناحيتنا باستقامة فكاننا لسنا نقف مطلقاً في دربهن . وكنا
نعجب بهن فقط ، ونحن نراهن في الساحة أو يمررن أمام
نوافذنا ، يلبسن في الشتاء قبعات صغيرة جميلة ومعاطف
من الفرو ، ويغطين رؤوسهن في الصيف بقبعات مزينة
بالأزاهير ويحملن مظلات براقة مختلفة الألوان . . . وكنا
نتحدث عن أولئك الفتيات فيما بيننا بطريقة تجعلهن ، لو
سمعنا ، مجنونات خجلاً وعاراً .

قال الخباز القيم بغتة في نفمة جزع وقلق :

- آمل ألا . . . يفسد الصغيرة تانيا .

فاصبنا جميعاً بالبهكم من ذلك البيان . لقد نسينا تانيا
نوعاً ما - ليظهر أن هذا الجندي محاها بصورته الكبيرة
الأنيقة . ومن ثم انفجر نقاش صاحب . قال بعضهم إن تانيا
لن تهتم به ، فيما أكد آخرون أنها لن تقوى على مقاومة فتنة
الجندي ، واقترح غيرهم أن نحطم عظام ذلك الفتى إن اتفق
وحاول مغازلة تانيا . وأخيراً عزم الجميع على مراقبة ذلك
الجندي وتانيا ، وتحذير الفتاة منه . . . وهذا ما وضع حداً
لتلك المناقشة الصاخبة .

* * *

مر قرابة شهر واحد . . .

كان الجندي يخبز القطايف ، ويخرج مع الخياطات ،

ويتردد لرؤيتنا بين حين وحين ، دون أن يأتي على ذكر انتصاراته - كل ما كان يفعل هو أن يقتل شاربيه ويتلمّظ . وظلت تانيا تعجّب كل صباح تطلب الفطائر ، مغتبطة أبداً ، حلوة رقيقة .

حاولنا طرق موضوع الجندي معها - فشرعت تلقيه بالدمية الجاحظة عيناها ، وعدة أسماء اخسرى تبث على السخريّة والهزء ، مما أراح عقولنا وطماننا . كنا فخورين بفتاتنا الصغيرة ونحن نرى الخياطات يتعلّقن بالجندي ، فيما موقف تانيا منه أرث حماستنا جميعاً ، فأصبحنا تحت تأثيرها ونفوذها نبدي له مواقف الاحتقار والازدراء . واحبينها أكثر من قبل ، وطفقنا نحبيها كل صباح بسرور أعظم ولطف أكثر . وذات يوم جاءنا الجندي مخموراً بعض الشيء ، فجلس وراح يضحك . ولما استفسرنا منه عن السبب قال :

- لقد تشاجر اثنتان منهن من اجلي . . . ليبدأ وجروشا . . . كان يجب أن تروا ما فعلتا ببعضهما بعضاً . قتال حقيقي . ها ! ها ! أمسكت إحداهما بشعر الأخرى ، وراحت تجرها على الأرض حتى الممر ، ثم ترامت فوقها . . . ها ، ها ، ها ! لقد هرشت كل منهما وجه الأخرى ومزقت ثيابها . . . اليس هذا مضحكاً ؟ والآن ، لم لا يستطيع النساء أن يقاتلن بنزاهة ؟ لم يخمشن وجوه بعضهن ، إيه ؟

اقتعد دكة قريبة ، يلوح لنا نظيفاً ، سليم البنية ، بشوشاً ، يضحك بدون انقطاع . جنحنا الى الصمت ولم نقل شيئاً . لقد بدا مقبلاً في اعيننا ، لسبب ما ، هذه المرة .

- فيم أنا شيطان محفلوظ مع الفتيات ؟ عجيب ! يكفي لي ان اغمز بعيني فقط ، فاذا كل شيء يتحقق .

رفع يديه البضاوين المفروشتين بالشعر المصقول ، ثم أسقطهما على ركبتيه في لطمة مفرقة . وراح يراقبنا بنظرة دهشة مسرورة ، وكأنه مذهول هو نفسه لانتصاره دوماً في قضايا الجنس اللطيف . وكانت سحنته المتوردة الريانة تبرق بانسراج متأنق مغرور ، وهو يعاود تمرير لسانه على شفثيه بلا هوادة .

ورمى خبازنا القيم مجرفته في الفرن بغضب ، وقال فجأة في نغمة تهكمية :

- ليس من الروعة في شيء ان تجندل أشجار التوت الصغيرة - بودي أن اعرف ماذا تصنع بشجرة صنوبر .
فسأل الجندي :

- إيه ؟ ماذا ؟ هل تخاطبني ؟

- نعم ، أخاطبك . . .

- ماذا قلت ؟

- لا شيء . . . إنس ذلك . . .

- هيا ، استرسل . ما الأمر ؟ ماذا تعني - بشجرة صنوبر ؟

فأضربَ قيمنا ولم يفه بحرف . . . بل راحت مجرفته تتحرك بخفة في الفرن ، يدفع فيه الفطائر المطبوخة ، ويخرج الناضج منها ويرميها بصخب وضجيج على الأرض حيث يتربع أطفال ويسلكونها بخيطان من الليف . بدا كأنه نسبي

الجندي ، لكن هذا الأخير تهيج بغتة ، فهب على قدميه
وهروا إلى الفرن ، معرضاً نفسه لخطر وشيك قد يناله إذا
أصابته في صدره يد المجرفة المتحركة بخفة تشنجية في الهواء .
- آه ، أنظر ههنا - من كنت تعني ؟ تلك إهانة . . .
كيف ، ليس ثمة فتاة تستطيع صدي ومقاومتي . ليس في
قلبي أثر للخوف . وهأتذا تلمح بأشياء ضدي . . .
وفي الواقع لاح أنه مستاء غاضب الغضب كله . لمن
الواضح أن المنيع الوحيد لاحترام الذات عنده إنما هو
قدرته على إغواء النساء ولربما كانت تلك القدرة الصفة
الحية التي يستطيع التبعج بها ، والشيء الوحيد الذي يبعث
فيه الشعور بأنه مخلوق حي .

ثمة بعض البشر لا تحمل لهم الحياة أفضل أو أرقى من
علة النفس أو الجسد . فيتعشقونها طوال الحياة ، إذ هي
ينبوع الحياة الوحيد بالنسبة اليهم . وبينما هم يقاسون منها
ويتعذبون ، يتغذون منها ويطعمون . إنهم يشكون أمرها
للناس ، فيستجلبون بذلك اهتمام جيرانهم وعنايتهم . وهم
يحصلون ضريبة من عطف البشر عليهم ، وهذا هو الشيء
الوحيد الذي يملكون في الحياة . جردهم من تلك العلة ،
داوهم منها ، يصيروا تعساء أشقياء تماماً ، لانهم سيخسرون
المقومات الوحيدة في حياتهم ، ويصيرون قشوراً فارغة . وقد
تكون حياة الرجل فقيرة معدمة أحياناً فيضطر رغماً عنه
للتعلق بعلة ما ويبني نجاحه على أسس منها . ويمكن القول
إن البشر ينصبون على الشر بدافع من الملل ليس غير . . .
وقد لسع الجندي حتى الصميم ، فحمل على خبازنا زاعقاً :

- كلا ، أخبرني ، من هي ؟
- فقال الخباز ، وقد استدار اليه بصورة مباغتة :
- هل أخبرك ؟
- حسناً ؟
- هل تعرف تانيا ؟
- حسناً ؟
- حسناً . هيا اذن . أرنا ماذا يمكنك أن تفعل . . .
- أنا ؟
- نعم ، أنت .
- هي ؟ أسهل من البصاق !
- لسوف نرى !
- لسوف ترى ! ها ! ها !
- كيف ، إنها ست . . .
- ذلك لن يستغرق شهراً !
- إنك لمغرور ، يا عسكري . اليس كذلك ؟
- أسبوعان . لسوف أريك . من تعني ؟ تانيا ؟ تفو !
- أخرج ، فأنت تعوقني عن عملي .
- أسبوعان ، وتتم الخدعة . آه ، أنت ! . . .
- اخرج . ألم تسمع ؟
- وانفجر الخباز في ثورة من غضب فلوّح بمجرفته .
- وترامى الجندي الى الخلف مشدوهاً ، ثم رنا إلينا جميعاً فترة
- من الوقت في صمت ، وجمجم مكشراً :
- حسناً .
- واسرع خارجاً . . .

ظللنا بصمتنا معتصمين طوال تلك المناقشة . كان اهتمامنا محصوراً بذلك الحوار . لكن لم يكد الجندي يخرج حتى انفجرنا جميعاً في حديث صاحب مرتفع النبرة .
صاح أحدها في وجه الخباز :

- لقد أطلقت شرارة قضية سيئة ، يا بافل !

فغمغم الخباز :

- اعتن بعملك !

ادركنا ان ذلك الجندي تحفز بكل كيانه ، وان تانيا أصبحت بالتالي في خطر شديد . ومع ذلك ، فيما نحن نستوعب هذا ، كنا فريسة فضول متوتر مرتعش يريد أن يعرف نتيجة ذلك الأمر . هل ستصمد تانيا أمام الجندي ؟ كنا جميعاً نردد هذا الاعتقاد .

- تانيا ؟ لسوف تقاوم . ولن تكون فريسة سهلة !
كنا مشتاقين بصورة فظيعة لامتحان معبودتنا ، فنحاول بلهفة أن نقنع بعضنا بعضاً أن صنمنا صنم وفي" سيخرج من هذه المباراة منتصراً . وانتهينا الى التساؤل ما اذا كنا حرضنا الجندي بصورة كافية ، خائفين أن ينسى الرهان فنضطر إلى إثارة غروره مرة أخرى . ومنذ ذلك الحين دخل حياتنا اهتمام جديد مثير ، شيء لم نعهده من قبل مطلقاً .
ورحنا نتحاور في الأمر طوال أيام ، فيلوح كأننا ازددنا ذكاء جميعاً . فنحن نتكلم بصورة أفضل وأكثر منا قبلاً . كان يبدو أننا نلعب مع الشيطان لعبة ما ، وتانيا هي الضمان من جانبنا . وعندما بلغنا ، بواسطة خبازي الارغفة ، أن الجندي شرع «يرصد تانيا» ارتفع صياحنا حتى طبقة عالية

جداً ، فيما أصبحت الحياة بالنسبة إلينا تجربة مدهشة رائعة حتى لم نعد نلاحظ كيف استفاد المعلم من عواطفنا المهمة فألقى على كواهلنا عملاً إضافياً بزيادة العجين اليومي حتى أربعة عشر بوداً * كان يبدو أننا لا نكلّ عن العمل ، فاسم تانيا يتردد على شفاهنا طوال النهار ، ونحن ننتظر زيارتها الصباحية بنفاد صبر غير مألوف . وكان يهدد إلينا أحياناً أنها ستكون تانيا أخرى عندما تدخل لزيارتنا ، تانيا غير التي عرفناها دائماً .

لكننا لم نحدثها ، على أية حال ، عن ذلك الرهان ، ولم نطرح عليها أبداً سؤالاً ما ، بل كنا نعاملها بذات الطريقة اللطيفة المحببة . لكن شيئاً جديداً تسلسل إلى موقفنا منها ، شيئاً غريباً عن مشاعرنا السابقة نحو تانيا - وكان هذا العنصر الجديد فضولاً حاداً وبارداً مثل شفرة الفولاذ . . .

وفي ذات يوم ، قال لنا الخباز وهو يشرع في العمل :
- يا شباب . لقد آذن الوقت هذا النهار .

كنا عارفين بذلك ، جميعاً من دون حاجة لتذكيرنا .
ورغم هذا جفلنا جميعاً . واقترح الخباز :

- راقبوها . . . فستأتي بعد لحظات !
فعقب أحدها في نفخة أسف :

- ما حدث قد لا تلتقطه العين !

وثارت مناقشة صاخبة من جديد . في هذا اليوم ،

* بود - قياس وزن قديم يساوي ١٦,٣٨ كيلوغراماً .
الناشر .

اخيراً ، سنعرف مقدار نظافة الوعاء الذي وضعنا فيه جميع الثروات التي نملكها . في ذلك الصباح أدركنا فجأة للمرة الاولى أننا نقامر بمبالغ عظيمة ، وان امتحان صنمنا ربما دمره بصورة نهائية بالنسبة اليها . لقد التقت اسماعنا ، طوال تلك الأيام ، ان الجندي يلاحق تانيا بشراسة وعناد ، لكننا لم نستوضحها ، لسبب ما ، عن موقفها تجاهه ، فيما هي لم تبرح تتابع زياراتها المنتظمة لنا كل صباح طلباً لفطائرها ، وهي نفسها لم تتبدل . وسرعان ما بلغنا صوتها في ذلك اليوم ايضاً :

- ايها المساجين ! لقد جئت . . .

وبادرننا نفصح لها سبيل الدخول ، وعندما ولجت المكان استقبلناها في صمت وسكون مطبقين ، على غير عادتنا ، ورحنا نحملق بقسوة فيها ، لا ندري ما تقول لها ، وماذا نسألها . وقفنا أمامها في جمع أخرس متبسّل ، فدهشت بوضوح لهذا الاستقبال غير المألوف . وعلى غير انتظار ، ابصرناها تشحب وتصفّر ، رانية اليها بقلق ، متململة بلا هوادة . ومن ثم سالتنا بصوت مخنوق :

- لِمَ تبدون هكذا جدّ . . . غريبين ؟

فألقي الخباز بهذا السؤال في نغمة متجهمة ، وقد غرز في وجهها عينيّن ثاقبتين :

- وماذا عنك ؟

- ماذا عني ؟

- لا شيء . . .

- اذن ، أعطوني الفطائر ، بسرعة . . .

لم تتعجلنا ابدأ من قبل .
فعاد الخباز يقول من غير أن يضطرب ، وعيناه لا تبرحان
محملقتين في وجهها :

- ثمة متسع من الوقت !
فاستدارت سريعاً ، وغابت عبر الباب . . .
التقط الخباز مجرفته ، مستديراً الى الفرن ، وقال في
هدوء :

- حسناً ، لقد ثبت الأمر . فعلها ذلك الجندي . . .
ذلك الخبيث ! . . .

تراجعا بتناقل الى الطاولة مثل قطيع من الغنم يتناكب
ويتزاحم ، فقعدها والصمت مطبق عليهما بكلكله ، ثم شرعنا
نعمل ببلادة وجمود .

أعلن احدهما فجأة :

- لربما لم . . .

فصاح الخباز :

- أطبق شفتيك . انتهينا من هذا !

كنا نعرف فيه رجلاً ذكياً ، اكثرتنا ذكاء على الإطلاق .
ولقد فهمنا من صيحته تلك انه مؤمن بانتصار الجندي ...
فاحسسنا التعاسة والقلق . . .

وعندما دقت الساعة الثانية عشرة - وقت الغداء - قدم
الجندي الينا . كان ، مثله ابدأ ، نظيفاً مهندياً يتطالع في
عيوننا باستقامة كما يفعل دائماً . شعرنا بالاضطراب يقعدنا
عن التطلع اليه . . .

قال ، وهو يشخر متكبراً :

- حسناً ، يا سادتي الأعزاء ، اتريدون أن أريكم ماذا يستطيع جندي أن يفعل ؟ امضوا الى الممر واسترقوا النظر من الخصاص . . . أفهمتموني ؟

مضينا الى الممر ، وتزاحمنا فوق بعضنا ، نضغط وجوهنا على الشقوق المفتوحة في الحائط الخشبي المطل على الساحة . ولم ننتظر طويلاً . . . سرعان ما قدمت تانيا الى الساحة بخطوات عجل ونظرات قلقة ، وهي تقفز فوق حفر من الثلج الذائب والطين ، لتختفي عبر باب القبو . عندئذ نهض الجندي وتقدم وهو يصفر بشفتيه ، ثم دلف الى القبو بدوره ، يرعص شاربيه ويداه مغروزان في جيبيه .

كانت السماء ترسل شأبيب الغيث ، فترى قطرات المطر تساقط في البرك المتفضنة من وقع وطأتها عليها . كان يوماً رمادياً رطباً ، يوماً قارساً حقاً . وكان الثلج لا يزال يترأخي على الأسطحة - بينا توضع على الأرض بقع سود من الطين تناثرت هنا وهناك . . . وكان الثلج ، على الأسطحة أيضاً ، مغطى بفروة سمراء من الوسخ . ان الانتظار في ذلك الممر بارد لا يطاق . . .

كان الجندي أول من خرج من القبو . راح يسير الهوينا عبر الساحة ، يرعص شاربيه ويداه لا تبرحان في جيبيه - انه كما عهدناه دائماً .

ومن ثم خرجت تانيا . . . وعيناها . . . عيناها تشمان فرحاً وسعادة ، وشفتاها تفتران عن ابتسامة عذبة . كانت تسير كما لو في حلم ، وهي تتأرجح في مشية متهرعة غير ثابتة . . .

كان ذلك أقصى من أن نتحمل . فهرولنا جميعاً ، دفعة واحدة ، الى الباب ؛ وانطلقنا الى الساحة ، ورحنا نصف ونزقق لها في لفظ قوي حاد وحشي .

أوجس قلبها فرعاً عندما لمحتنا ، فوقفت جامدة كتمثال ، وقدمها غارقتان في بركة قدرة . تحاوشنا عليها ، ورحنا نمطرها اللعنات في طرب حقود وفي تيار من التجديف والقبح المخجل .

فعلنا ذلك على مهل ، وبهدوء تام ، مدركين أن ليس ثمة درباً للفرار من تلك الدائرة التي طوقناها بها ، واننا نستطيع الهزء بها بملء قلوبنا . لم نضربها . كانت تقف بيننا ، تدير رأسها من جهة الى جهة ، مصغية الى شتائمنا واهاناتنا . ولقد رميناها بأعنف ما فينا من قسوة ، بأعنف ما فينا من شراسة ، بركام ما تجمع في قلوبنا من سخط وسخ مسموم .

فرغ وجهها من الحياة ، واتسعت عيناها الزرقاوان اللتان كانتا تلوحان مفعمتين سروراً وسعادة قبل لحظة واحدة ، وامسى تنفسها لاهثاً ، وأضحت شفاتها ترتعشان وترتجفان .

وكنا نحن ، وقد حاصرناها ، نصب جام نقمنا عليها - أفلم تسرقنا وتنهبنا ؟ كانت نخسنا ، وقد صرفنا عليها أئمن عواطفنا ، ومع أن أفضل تلك العواطف لم تك سوى صدقات شحاذ معدم ، فقد كنا ستة وعشرين وكانت واحدة ، ولم يك ثمة ألم مبرح يخطر في بالنا يجدر بذنبها ! اواه ، لكم أهنائها ! . . . ولم تنبس بحرف ، بل أخذت بكل بساطة

تخلق فينا بنظرة رعب واضح ، وقشعريرة مديدة تهز
جسدها مزاً . . .

قهقهنا ، ونبحنا ، وزمجرنا . . . وشاركنا بعض
الناس . . . وقد نتش أحداً كم قميص تانيا . . .

تومجت عينها فجأة ، ورفعت يدها في ايماء بطيئة
لتصلح من وضع شعرها ، وقالت بصوت عالي الجرس ،
لكن هادئ النبرة ، في ملء وجوهنا تماماً :
- آه ، أيها المساجين التعساء ! . . .

وهجت علينا باستقامة وكأننا لم نكن هناك ، كأننا لم
نقف في دربها . وفي الحقيقة أن ذلك هو السبب في أن أحداً
لم يجروء على اعتراض سبيلها .

بعدما تخلصت من دائرتنا أضافت في صوت مرتفع
النبرة ، من غير أن تلتفت إلينا ، وفي نغمة تطفح سخريّة
وكبرياء :

- آه ، يا قطيعاً نجساً من الخنازير . . . يا
وحوشاً . . .

وسارت باستقامة فخورة بجمالها .

بقينا واقفين وسط الساحة ، في ملء الطين ، تحت
المطر والسماء الرمادية الغالية من الشمس . . .

ورجعنا أدراجنا بتناقض الى سردابنا الحجري الرطب .
وظلت الشمس ، كعهدنا في الأزمان الخوالي ، لا تنحدر إلينا
من خلال النافذة ، في حين انقطعت تانيا عن المجيء . . .

فى اميركا

مدينة الشيطان الاصفر

. . . فوق الأرض والمحيط يتدلى ضباب ممزوج جيداً
بالدخان ، وغيث ناعم بطيء ينهر فوق الأبنية القائمة
المنبثة في أرجاء المدينة ، ولا يوفر المياه الموحلة للمكلا .
والمهاجرون يتراصون على جانب السفينة يحملون في
صمت بأعين متسائلة تطفح بالأمال والمخاوف ، بالخشية
والفرح .

سالت فتاة بولونية بصوت خافت ، وهي تحدق
مشدوهة في تمثال الحرية :

- من هذا ؟

فأجاب أحد الحاضرين :

- إله اميركي . . .

إن الشبح الضخم للمرأة البرونزية قد اكتسى بالزنجار
من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ومحاها البارد ينظّر
من خلال الضباب إلى بيداء المحيط ، فكان البرونز يترقب
من الشمس أن تبعث النور في عينيه الميتتين . ولم يسك
هنالك غير قليل من الأرض تحت قدمي «الحرية» التي تبدو
وكانها تنبثق من أعماق أعماق المحيط على قاعدة من أمواج

متحجرة . وكانت ذراعها المرتفعة عالياً جداً فوق المحيط
وصواري السفن تضفي على وقفها شيئاً كثيراً من عظمة
وجمال متكبر . وكان يبدو أن المشعل الذي تطبق عليه
بيدها على وشك التأجج كل لحظة ، وأنه سيطرد عما قريب
هذا الدخان الرمادي ، ويغمر كل ما يحيط به بضياء عظيم
البهاء واللمعان .

وكانت بواخر جبارة من الحديد ، أشبه ما تكون
بالبسة العصور السابقة للتاريخ ، تنزلق على مياه المحيط
فيما حول تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي ينهض عليها
التمثال ، وقوارب بخارية كثيرة تراوح وتغادي ، سريعة مثل
كلاب البحر المتضورة جوعاً ، والصفارات التي تزمجر بصورة
غاضبة تذكر بأصوات المعالقة الذين ورد ذكرهم في
الأقاصيص والأساطير ، وصفير حاد يتردد محملاً بالفضب
والهقد ، ومراسي السفن تهبط وتصعد في ضوضاء من
السلاسل الفولاذية تصم الأذان ، وأمواج المحيط تتلاطم
عنيفة شديدة قاسية .

كل ما يحف بك يعدو ، ويستحث الخطوات ، ويهتز
بعنف وشدة ، ومراوح السفن وإطاراتها تصفق الماء بغربات
متسارعة ، والمياه مفروشة بزبد أصفر خددته غضون كثيرة
عميقة .

ويلوح أن كل شيء - الحديد ، والحجر ، والماء ،
والخشب - يحتج بعنف ضد حياة خالية من الشمس مجردة
من الأغاني والسعادة ، مقيدة في عبودية عمل قاس يرهق
ويضني . كل شيء يئن ، ويزمجر ، ويصر بأسناننه ،

خاضعاً مستكيناً لارادة قوة خفية معادية للإنسان . وقوة محتجة عن البصر ، باردة شريفة ، تعمل في كل مكان على صدر المياه الذي يحرقه الحديد ويمزقه ، وتدسه لطخ البترول وتوسخه ، وتفسده قطع النجارة ، وفئات الخشب والقش ، وبقايا الطعام المتفسخة المتعفنة . هذه القوة هي التي تدفع ، مهيبة منتظمة أبداً ، كل هذه الآلة الجبارة الضخمة التي لا تزيد البواخر والأرصعة عن أن تكون أجزاء تافهة منها ، ولا يعدو الإنسان أن يكون مفصلاً عديم الأهمية فيها ، نقطة غير منظورة في تيه هذه الزينة القذرة والشيطانية من الحديد والخشب ، قطرة ضائعة في اختلاط السفن والقوارب والنقلات التي لا تحصى ولا تعد .

وهذا حيوان ذو قائمتين ، مسود بالهباب والزيت ، مذخور من الضوضاء المرعبة مذهول بها ، مأخوذ في قبضة رقص هذه المادة الجامدة المعرأة من كل حياة ومرهق تحت وطأتها ، يتطلع إلى على نحو غريب ، وقد وضع يديه في جيبي سرواله . وجهه ملطخ بطبقة كثيفة من الشحم الوسخ وفي محياه لا تلمع عينا الإنسان الحي ، بل بياض الأسنان ليس غير .

المركب يتقدم في بطن عظيم بين حشد السفن والبواخر الأخرى . وجوه المهاجرين اتخذت لوناً رمادياً خاصاً مميزاً ، وعلتها سيماء البلادة والبلاهة : إن شيئاً من ملامح قطيع الغنم يكسو أعين الجميع على حدٍ سواء ، فيقفون هناك على

السطح بكما لا ينطقون بينت شفة ، يشخصون إلى الضباب الكثيف في صمت مطبق .

إن شيئاً يتجاوز حدود التصور يولد في هذا الضباب وينمو باضطراب ، طافحاً بزئير مدوّ أصمّ ، مرسلًا نحو القادمين أنفاساً تفهة ثقيلة ، متقدماً لاستقبالهم بضوضاء صاخبة يميّز المرء فيها شيئاً كثير الكآبة عظيم القبح في وقت واحد . .

إنها المدينة ، إنها نيويورك . . . هذه منازل يعد كلٌّ منها عشرين طابقاً وثيفاً تنهض على الشاطئ ، ناطحات للسحاب خرساء قاتمة مظلمة . ههنا الابنية المربعة ، المجردة عن كل أثر للجمال ، المسطحة والملقاة هناك كتلة واحدة ضخمة ، تصعد في الفضاء وتتطاول ، مضجرة كثيبة ، يعرض كل منها غرور ارتفاعه المتكبر المتصلّف ، وصورته المشوهة القبيحة . والنوافذ جرداء من الأزاهير ، والمرء لا يبصر للأطفال فيها أثراً .

إن المدينة تبدو عن بعد أشبه ما تكون بفك عملاق ، أسود الأسنان متنافرها في الأبعاد ، تصعد نحو السماء سحباً من دخان كثيف ، لاهثة مثل رجل شره سمين بدين حتى درجة بهيمة .

ويخال للمرء ، حين يدلف إلى المدينة ، أنه يسقط في معدة مصنوعة من حجر وحديد ، معدة التهمت ملايين من البشر ، وهي تعمل الآن على طحنهم وتمثلهم .

وهذه الطرق حلقوم جشع تنزلق الأقدام على بلاطه ، تتيه فيه على غير هدى أو تنهاوى في أعماقه تلك اللقم

الحالكة التي تتغذى هذه المدينة بها . وإنك لتحسُّ في كل مكان ، الى الاعلى منك ، وإلى الأسفل ، وفيما يحدق بك ، الحديد الذي يحيا ويمجر في احتفالات انتصاراته الصاخبة . إن الحديد ، وقد استدعته قوة الذهب إلى الحياة وبعثت النشاط في اوصاله ، يحيط الإنسان بشبكته العنكبوتية ، ويصمّ سمعه ، ويمتصّ دمه ودماغه معاً ، ويلتهم عضلاته وأعصابه جميعاً ، ويستند على الحجر الأبكم كيما يكبر ويكبر دون انقطاع ، ويمدّ دوماً حلقات سلسله على نطاق أوسع فأوسع ابداً .

والقاطرات تزحف أشبه بديدان ضخمة الجثة ، تجرُّ وراءها الشاحنات والحافلات ، وزمارات السيارات تهدر فكانها الاوز المسمن ، والكهرباء تزجر بأغنيتها الكثيفة المملة ؛ أما الهواء الخائق - هذه الاسفنجية الندية - فمشرب بالفساد صدى يخور . . . إنه يشغل على هذه المدينة القدرة ، وقد دثّسه دخان المعامل وأفسده ، ويظل جامداً لا حراك به هناك ، عالياً ، بين الجدران المرتفعة المغطاة بالهباب .

إن تماثيل قائمة تنتصب في الساحات والحدائق الصغيرة ، حيث أوراق الأشجار المغبرة تتدلى ميتة لا حياة فيها ممن الأغصان الجامدة . إن وجوهها متوجة بطبقة سميكة ممن الشمع ، وعيونها التي كانت تلتهب فيما مضى حباً للوطن امتلات الآن بابخرة المدينة ودخانها . إن هؤلاء البشر ممن

البرونز لا يحيون . . . إنك لتقول عنهم ، وقد ضاعوا في شبكة ناطحات السحاب ، إنهم أقزام يستظلون الخيال الأسود الذي تلقيه الجدران العالية . لقد ضلوا الطريق في تيه الجنون الذي يحيط بهم ، فهم ينظرون في آسى ، جامدين في أمكنتهم ، نصف عميان ، مرهقي الفؤاد حزناً وغمماً ، إلى اضطراب الناس المحموم عند أقدامهم . ويمر الناس - صفاراً سوداً مذعورين - أمام هذه التماثيل وهم يخبون ، فلا يوجد بينهم من يديسر انظاره صوب محيا هؤلاء الأبطال . . . إن طناطل الراسمال المخيفة قد بددت من الأذهان ذكرى صنّاع الحرية .

ويبدو أن رجال البرونز يرزحون ، جميعاً ، تحت وطأة ذات الفكرة المضنية :

«أهذه هي الحياة التي أردت أن أخلقها؟»

الحياة المحمومة تغلي من حولهم وتفور مثل حساء مرفوع على النار ، والبشر الصغار يركضون ، ويدومون ويتلاشون في هذا الغليان ، فكانهم حبيبات من السميد السابح في الحساء الغالي ، أو قطع نجارة ضائعة في البحر الخضم العظيم . . . إن المدينة تزمجر وتبتلعهم ، الواحد تلو الآخر ، في حلقتها الذي لا يرتوي له غليل .

لقد ترك بعض الأبطال أيديهم تتدلى إلى جانب أعطافهم ، ولكن الآخرين منهم رفعوها فوق رؤوس الناس ، وكانهم يحذرونهم :

- قفوا ! هذه ليست الحياة ، بل هذا جنون ليس غير !
إنهم جميعاً زائدون في تيه حياة الشوارع ، وليس أحد

منهم في مكانه في هذه الزمجرة الوحشية من الطمع الجشع ،
في هذا السجن الضيق من الأهواء المفجعة والمحنة من
الحجر ، والزجاج ، والحديد . .

ولسوف يهبطون جميعاً ، ذات ليلة ، عن قواعدهم ،
ويذهبون في الشوارع بخطوات المهائمين الثقيلة ، يحملون
كأبة عزلتهم ووحدهم إلى الخارج من هذه المدينة ، نحو
الحقول حيث القمر يتألق ، وحيث الهواء عذب وهادئ .
وعندما يعمل إنسان طوال حياته في سبيل وطنه فهو يستحق
أن يترك في هدوء بعد مماته .

إن أناساً يحثون الخطى على الأرصفة ، يذهبون ويغدون
في جميع الاتجاهات ، تبذلهم المسام العميقة للجدران
الحجرية . إن زمجرة الحديد الظافرة ، وعواء الكهرباء الثاقب ،
وضوضاء أعمال بناء شبكة جديدة من المعدن ، وتعمير
جدران جديدة من الحجارة ، إن هذا كله يخلق أصوات
الناس ويكتمها مثلما تغطي العاصفة التي تهب على المحيط
صيحات الطيور .

إن وجوه الناس هادئة جامدة ! يبعث ذلك على الاعتقاد
أن أحداً منهم لا يدرك بؤس كينونته عبداً للحياة ، وطعاماً
للمدنية الشيطانية . إنهم يظنون ، في شفهم بأنفسهم ،
أنهم سادة مصائرهم ، فتعكس عيونهم أحياناً الشعور
باستقلالهم ، دون أن يخطر لهم قط فيما يبدو أن ذلك إن
هو إلا استقلال الفأس في يد النجار ، أو استقلال المطرقة في

يد الحداد ، أو استغلال الأجرة في يد البناء الخفي الذي يبنى لهم جميعاً ، وعلى شفثيه ابتسامة خبيثة ، سجناً واحداً مترامي الأبعاد يضيق بهم على الرغم من ذلك ولا يتسع لهم جميعاً . أنت تلقى كثيراً من الوجوه الطافحة طاقة ، ولكن ما تلحظه فيها بصورة خاصة هي الأسنان بالأحرى من أي شيء آخر . إن حرية النفس لا تلمع في أعين البشر أبداً ، بحيث أن تلك العزيمة المجردة عن الحرية تذكر بالبريق البارد الذي يندد عن موسى لم تسنح الفرصة لفلّ شفرتها . إنها حرية الآلات العمياء بين يدي الشيطان الأصفر . . . الذهب ! هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مدينة شيطانية حتى هذه الدرجة ! إن البشر لم يبدوا لي قط ، حتى الآن ، بأنسين مستعبدين حتى هذه الدرجة البعيدة . كما أنني لم أجدهم أيضاً ، في الوقت ذاته ، في أي مكان آخر ، راضين عن أنفسهم بهذه الصورة المبكية المضحكة معاً ، كما هم عليه في هذه المعدة الشرهة القنطرة ، معدة مخلوق أكل جعله النهم أبله ، وأحمق ، فهو يلتهم الأدمغة والأعصاب دون كلل ، مرسلًا أثناء ذلك زمجرة وحشية لا تصدر إلا عن الحيوانات الكاسرة وحدها . . .

والحديث عن البشر هنا يؤلمني ويرعبني . . .
 إن حافلة «المetro الهوائي» تنطلق ، زمجرة عاوية ، على الخطوط الحديدية بين جدران منازل شارع ضيق ، على ارتفاع ثلاثة طوابق محاطة بصورة متشابهة بقضبان الشرفات

والسلام الحديدية ، والنوافذ مفتوحة على مصاريحها يستطيع المرء ان يشاهد في جميعها تقريباً أشكالاً بشرية انصرف بعض اصحابها الى العمل ، يخططون شيئاً أو يحضون ويعدون ، منحنية رؤوسهم فوق مكاتبهم ، بينما جلس آخرون الى النوافذ بكل بساطة وهدهو ، واستندوا بجذوعهم الى قضبانها الحديدية ، وراحوا يشخصون الى الحافلات التي تمر من امامهم في كل لحظة متسارعة متلاحقة . إن الشيوخ والشبان والأطفال يعتصمون جميعاً بغرس متشابيه ، ويحتفظون بذات الهدوء الرتيب . لقد اعتادوا على هذه الانطلاقات المجردة عن كل غاية . اعتادوا ان يفكروا ان تلك هي الغاية بالضبط ، فانت لا تجد في عيونهم لا الغضب ضد سيطرة الحديد ، ولا الحقد على انتصاره .

ويزعزع مرور هذه الحافلات السريع جذران الدور ، ويرسل الانتفاض في صدور النساء ورؤوس الرجال على حد سواء ، كما ان أجساد الأطفال الملتصقة بشباك الشرفات ترتجف هي الأخرى آلفة هذه الحياة البشعة كشمي طبيعي محتوم لا مناص منه . إن الفكر لا يستطيع ان يحيك نسيجه الجريء الرائع ، والأحلام الطافحة حياة واقداً لا تتمكن من أن تولد الى الوجود في هذه الادمغة المزعزعة باستمرار لا يعرف معنى للراحة أو سبيلاً اليها .

وهذه عجوز ترتدي ثوباً مزقاً ، قدراً ، مفكوك الأزرار ، يلوح محياها طوال ثانية قصيرة ، وإذا الهواء المتعفن المسموم - وقد تملكه الرعب وسيطر عليه - يفسح المكان للحافلات المتلاحقة ، ويندفع في دعر في هاوية النوافذ

فيلعب بشعر العجوز ويطايره مثل جناحي عصفور رمادي
يختلج ، فتسرع المرأة وتغلق عينيها المطفأتين الرصاصيتين
وتختفي . .

ويستطيع المرء أن يلمح ، في داخل الغرف العكرة
المضطربة ، قضبان الأسرّة الحديدية المغطاة بالأسمال ، وما
يتفسّخ على الموائد من آنية قدرة تغيب فيها بقايا الأطعمة
الرخيصة . أن المرء ليودّ أن يرى في النوافذ ورداً ، أو
إنساناً يمسك كتاباً بين يديه ويقرا . لكن الجدران تعدو ،
يغال لك أنها تذوب في مثل لمع البصر ، بينما يأتي موجها
القدر لملاقاتك من الجانب الآخر ، وفي خضمّ التيار السريع
يهوّم الناس الصامتون وقد انهكهم الارهاق .

إن يريقاً كاسفاً يندّ عن جمجمة صلعاء ومضى خلف
زجاج نافذة مغبّرة . . هذا هو يتأرجح ، في حركة رتيبة ،
فوق لست أدري أية آلة يعمل عليها . . وهذه فتاة رشيقة
القد ، حمراء الشعر ، تقتعد نافذتها تحيك جورباً صوفياً .
إن عينيها الغامقتين تعدان ما فيه من عرى ، وإذا موجة من
الهواء تدفعها الى داخل الغرفة دفعاً ، ولكنها لا تحيد بعينيها
عن العمل الذي انصرفت اليه بكلّيتها ، ولا تصلح من وضع
نوبها السابع في الفضاء . وهذان صبيان في الخامسة من
عمرهما اتخذا مكانهما على إحدى الشرفات وراحا يبنيان بيتاً
بقطع صغيرة من الخشب ، ما أسرع ما يتزعزع ، ويتهاوى ،
فيسرع الصغيران ، ويلتقطان بأيديهما الصغيرة جداً قطع
الخشب كيلا تسقط في الطريق من خلال فرجات شباك
الشرفة ، دون أن يتطلعا ، هما الأخران ، الى ما عكّر عليهما

صفو المهمة التي أنجزها . ان بعض الوجوه الأخرى تتبلّج أيضاً باستمرار في النوافذ ، كيما تعود فتختفي بعد لحظات أشبه بأنقاض شيء كبير جداً ، لكنه انسحق وانطحن وصار هباءً منثوراً .

إن الهواء ، وقد طرده سباق الحافلات المجنون ، يموج ثياب الناس وشعرهم ، ويصفعهم في وجوههم بأمواج متوالية ساخنة خائقة ، ويدفعهم ويزحمهم ، ويملا آذانهم بالسف ضجيج وضجيج ، ويذرُّ في عيونهم غباراً دقيقاً حادّ اللذع ، يعميهم ويصم سمعهم بعواء طويل لا ينقطع .

إن هذا العواء الوحشي ، هذا النباح القاسي ، هذه الزمجرة المخوفة ، هذا الارتجاج الدائم لحجارة الجدران ، هذا الرنين المذعور لزجاج النوافذ ، هذا كله سيضايق الإنسان الحي الذي يفكر ويعمل ذهنه ، ويخلق في دماغه أحلاماً وصوراً ولوحات جميلة رائعة ، الإنسان الحي الذي يصنع رغبات خاصة به ويصهرها ، الذي يحسّ عذاباً قلقلًا يضنيه ويشغل عليه ، الذي يريد ويفكر وينتظر . ولسوف يتمرد هذا الانسان ويشور ، فينطلق الى الخارج ويحطم هذا الفحش المقيت : «المترو الهوائي» . سوف يُسكّت - هو سيّد الحياة - زمجرة الحديد الوقعة وعويلها . . إن الحياة جعلت من أجل الانسان ، ويجب أن يتلاشى من الوجود كل ما يمنع هذا الانسان من الحياة ، أو يعترض عليه سبيل الوجود .

إن البشر الذين يقطنون دور مدينة الشيطان الأصفر يتحملون ، بكل هدوء وصبر ، كل ما يمسخ الانسان ويفتك به !

وفي الأسفل ، تحت شبكة «المترو الهوائي» الحديدية المتعاقبة ، في غبار الطريق وأقذاره ، أطفال يلعبون في صمت وهدهد . في صمت ! إنهم يصحكون ويصيحون مثل سائر أطفال العالم تماماً ، ولكن أصواتهم تفرق وتضيع في الضوضاء غير المنقطعة التي تسيطر عليها وتخمدتها ، مثلما تفرق قطرات المطر في البحر العظيم . إنك تقول ، إذا رأيتهم ، إنهم ورود نثرته يد وحشية قاسية من نوافذ الدور في أطياف الطريق حيث تتشرب أجسادهم روائح المدينة الدهنية ، فتشحب وجوههم ويعلوها الاصفرار الشديد ، ويسري السم في دمائهم ، وتشور أعصابهم مهتاجة بالنداء المشؤوم الذي يصدر عن المعدن الصدى ، والعواء البربري المتوحش الذي يندد عن تلك البروق المستعبدة .

ويستأهل المرء : «هل يستطيع هؤلاء الأطفال ان يصبحوا رجالاً سليمين ، جريئين ، ذوي عزة ؟» ولكنه لا يسمع ، كجواب عن تساؤله ، إلا الصرير الحاد ، ورنين الضحكات الغدّة ، والصفير الحائق . . .

إن القاطرات تعدو أمام «الحي الشرقي» ، حي الفقراء ، حفرة قذارات المدينة وأوساخها . ههنا الطرقات أخاديد عميقة تقود الناس الى مكان مسا في أعماق المدينة حيث ينتظرهم - فيما يتصور المرء - ثقب جبار لا يسير غوره ، حيث رجل او قيدر كبيرة ينتهي الجميع الى السقوط فيها ، حيث يسلقون ليُستخرج الذهب منهم ، كما أن الطرقات ههنا تعجّ بالاطفال .

أنا أعرف الفقر معرفة وثيقة ، ومحياء الأخضر الشاحب

المتعظم مألوف لديّ كثيراً . لقد شاهدت ، في كل مكان ، عينيه اللتين كدرهما الجوع وألهبتهما الشهوة الكلبة ، عينيه المحتالتين الحقودتين ، أو الخاضعتين في اتضاع وتذل ، واللاإنسانيتين دوماً على أية حال . ولكن يؤس الحي الشرقي يتجاوز في الهول ، كل ما شاهدت حتى الآن .

إن الأطفال ، في هذه الطرقات المنتفخة بالناس مثلما تنتفخ الأكياس بالحبوب ، ينبشون في المزابل وينقبون على حافة الأرصفة ، ويستخرجون منها خضاراً نصف متعفنة يلتهمونها بعنفها على الفور ، غارقين في احضان الهواء الخانق من حولهم ، المشبع بغبار حاد قارص شديد اللذع .

وعندما يعثرون على كسرة من خبز عفن آسن ينشب الشجار فيما بينهم ، فيتقاتلون ، وقد ملك عليهم مشاعرهم ، ويرتدون بعضهم على بعض مثل كلاب شرسة مفترسة أرمضها السغب . انهم يغطون الشوارع ويتدفقون فيها قطعاناً جائعة ، حتى لتقول إنهم أوز شره تبعثر في كل مكان وتفرّق . إنهم ينقبون على الدوام ، في الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً ، بل بعد ذلك أيضاً ، في تلك العفونة ، جرائيم بالنسبة للشقاء ، وتوبيخاً حياً موجهاً الى طمع الأغنياء المستعبدين للشيطان الأصفر .

وفي زوايا الشوارع الوسخة تنتصب أنواع من الأفران أو المحارق يغلي فيها شيء ما ، ويصعد البخار مدوياً في الهواء من أنبوب رقيق ينتهي بصفارة حادة ، فيتغلب لحن هذا الصفير الحاد الثاقب على سائر أصوات الشوارع الأخرى ، ويمتد الى ما لا نهاية ، فكأنه خيط متجمد بياضه يعمسي

الأبصار ويغشيتها ، ويلتف حول عنقك ويلقي الاضطراب في افكارك ، ويشير النعمة في صدرك ويدفعك الى حيث لا تدري ، ويهتز دون أن يتوقف ثانية واحدة في رائحة العفونة التي تلتهم الهواء ، يهتز ساخرا ، وهو يثقب في وحشية هذه الحياة التي تسيل في الوحل والطين .

إن الوسخ هو عنصر كل شيء ههنا ، يتسرب في كل مكان ، ويتغلغل في جدران المنازل وفي زجاج النوافذ ، في ثياب الناس وفي مسام جلودهم ، في أدمغتهم ورغباتهم وافكارهم على حد سواء .

وتلك الثقوب السود للأبواب ، على طول هذه الشوارع تثير في الذهن فكرة جروح متقيحة مفتوحة في جحر الجدران ، ويخيل الى المرء ، عندما يرى درجات السلام الوسخة ، والمفروشة بالأقذار ، أن كل شيء في الداخل قد تفسخ ، وأن القيح يسيل منه مدراراً غزيراً ، مثلما يسيل من أحشاء جثة متعفنة ، وأن البشر يبدون كالديدان .

هذه امرأة وافيسة القامصة ، بجاء العينين القاتمتين الكبيرتين ، تقف قرب أحد الأبواب وبين ذراعيها طفل صغير . إن ثوبها مفتوح عند الصدر ، وتديها المزرقين يتدليان متهدلين شاحبين ، مثل كيس نقود طويل رخو . أما الطفل فيبكي ، ويخمش بأصابعه جسد أمه الطري المتضوّر جوعاً ، ويضربه بمحياء ، ويسحق شفثيه عليه ، ويلجأ الى السكوت فترة وجيزة ، ثم يعاود البكاء بصوت أشد ارتفاعاً من ذي قبل ، وهو يضرب الصدر الأمومي بيديه وقدميه . . . ولكن

الأم تظل واقفة في جمود ، وكأنها قدّدت من حجر صلد ، عيناها المدوّرتان كعينسي اليوم تشخصان بشبات وعناد الى نقطة واحدة لا تتبدل . . هذه النظرة لا تستطيع أن ترى شيئاً إلا ويكون خبزاً . . إن المرأة تضمّ شفّتيها بعنف وإحكام ، وتننفس من أنفها ، فيرتجف خيشوماها عندما تستنشق الهواء الكثيف ، المحمّل بروائح الطريق الكريهة النتنة . هذا الكائن الانساني إنما يعيش بذكرى الغذاء الذي ابتلعه في العشية ، ويحلم بكسرة الخبز التي ربما يأكلها في يوم من الأيام . . وإن الطفل ليصبح ويزعق ، وهو يحرك جسده الصغير الأصفر في اختلاجات شديدة ، ولكنها لا تسمع صياحه ، ولا تحسّ ضربات قدميه أيضاً . .

وهذا شيخ باسق القامة نازل القد ، رأسه أشبه ما يكون برأس الطير الجارح ، وشعره الأشيب مبعثر في الهواء تلعب الريح به وتلهو ، واجفانه الحمر تطرف على عينيه المريضتين ، ينقب بعناية فائقة في كومة من الأقدار ويستخرج قطعاً صغيرة من الفحم ، ويستدير في ارتباك - وكأنه ذنب ساغب - كلما اقترب بعض الناس منه ، ويروح يتمتم بشيء ما من بين شفّتيه المنطبقتين .

وذاك فتى في مقتبل العمر ، شاحب الوجه كثيراً ، هزيل الجسد حتى الدرجة القصوى ، يستند الى أحد أعمدة المصاييح ، يتطلع الى الطريق بعينه الرماديتين ، ويهزّ رأسه المجمعّد من حين لآخر . إن يديه غارقتان عميقاً في جيبي سرواله حيث تتحرك الأصابع في عصبية ونزق شديدين .

إن الإنسان واقف تحت الأبصار في هذه الشوارع ، يستطيع المرء أن يسمع صوته الحائق ، الحقود ، المفعم بحب الثأر والانتقام . وهنا يبدو الإنسان بوجهه المتضور جوعاً ، الطافح هياجاً قلقاً وعذاباً مضنياً . من الواضح أن الناس يحسّون ، ومن الظاهر أنهم يفكرون أيضاً . إنهم يدبون ديبب النمسل في أحوال حفر الطريق ، يحتك بعضهم ببعض الآخر مثل الأقدار الجارية في جدول من المياه العكرة ، يدوم بهم الجوع الذي لا يرحم ، ويفاقم من رغبتهم الحادة في أن يطعموا أي شيء في متناول اليد .

هؤلاء الناس قد قبعوا في انتظار بعض الغذاء ، يحملون بالسعادة التي سيجنون فيما إذا أكلوا حتى الإحساس بالشبع والاكفاء ، ويبتلعون الهواء المفعم بالسموم ، وفي أعماق نفوسهم المظلمة الحالكة تولد أفكار شديدة السميّة ، وعواطف خداعة مأكرة ، ورغبات خبيثة مجرمة .

إنهم يلوحون كالجراثيم الممرضة في معدة المدينة . وسوف يأتي اليوم الذي يسمونها فيه بذلك السموم التي تنفجهم هذه المدينة بها اليوم بكرم وسخاء .

إن الفتى الواقف قرب المصباح ، المستند اليه ، يهز رأسه من حين لآخر ، واسنانه الساغبة منطبقة بعنف شديد . ليضوّر لي أنني أخمّن ما يفكر فيه هذا الفتى وما يتوق اليه بكل ذرات نفسه : أن تكون له ذراعان جبارتان وأجنحة قوية في ظهره . . . هذا ما يريده فيما اعتقد ، وهو يريد ذلك كي يستطيع ذات يوم أن يرتفع فوق المدينة ، وأن يفرس ذراعيه فيها مثل رافعتين من فولاذ ، وأن يطحن

كل شيء ويحيله كتلة من الأقدار والهباء المنثور : الأجر
واللآلى ، الذهب وأجساد العبيد ، الزجاج وأصحاب
الملايين ، الوسخ والبشر البلهاء ، المعابد والاشجار المسومة
بالطين ، وناطحات السحاب السخيفة أيضاً ، كل الأشياء على
حدّ سواء ، المدينة بأسرها دون استثناء شيء منها ، وأن
يجعل من ذلك كله كومة واحدة ، عجينة واحدة ، خليطاً من
الوحل ومن دماء البشر ، تيهاً حقيراً وفوضى يختلط حابلها
بنابلها . . إن هذه الرغبة الرهيبة لأمر طبيعي في دماغ هذا
الشاب ، مثل خراج على جسد إنسان مدنف . فحيث يتراكم
عمل العبيد يضيق المكان بكل فكرة حرة وخلاقة ، بل لا
يمكن أن يزدهر هناك إلا أفكار الخراب والدمار من دون
سواها ، ازهاير الانتقام السامة ، واحتجاج الحيوان المهتاج .
وذلك أمر يسير على الإدراك لأن القوم الذين يشوهون النفس
الانسانية لا يستطيعون أن ينتظروا أية محبة أو شفقة من
قبل الإنسان .

إن الانسان يملك الحق في النار ، وهؤلاء القوم بالذات
هم الذين يهبون له هذا الحق !

النهار ينطفئ في سماء عكرة مغطاة بالهباب ، والأبنية
الضخمة تصبح أثقل وأشد كآبة أيضاً ، وبعض النيران
تشتعل هنا وهناك في أحشائها الكالحة ، وتومض مثل عيون
صفر في وجوه حيوانات غريبة لا مناص لها من أن تسهر
طوال الليل على الخيرات الجامدة المجردة عن الحياة ، الموضوعه
في جوف هذه القبور المنتنة .

ولقد ختم الناس نهارهم دون أن يفكروا في فائدة

عملهم ، او فيما إذا كانوا هم أنفسهم في ادنى حاجة إلى هذا العمل . وهؤلاء هم يستحثون خطاهم طلباً للنوم وسعياً وراء الراحة . إن أمواجاً قاتمة من الأجساد البشرية تجتاح الأرصفة وتغمرها ، والرؤوس جميعاً مغطاة بذات القبعات الصفراء المتشابهة ، وسائر الأدمغة - إن العيون تتحدث عن ذلك - قد اغفت منذ الآن واستسلمت للرقاد . لقد انتهى العمل ، ولم يبق هناك ما يفكرون فيه ، لأنهم جميعاً لا يعملون فكرهم إلا من أجل صاحب العمل وحده ، ولا تراودهم أفكار خاصة بهم أبداً . إذا كان هناك عمل فلسوف يكون هناك خبز وتكون افراح حياة رخيصة قليلة التكاليف ، وفيما عدا ذلك فإن إنسان مدينة الشيطان الأصفر لا يجد ما يرغب فيه ويتوق إليه البتة .

وهؤلاء الناس يسعون إلى فراشهم ، الى جانب زوجاتهم ، إلى جانب أزواجهم . . وفي أثناء الليل الجائم بين جوانب الغرف ، حيث يختنقون بوطاة الهواء الثقيل ، يطفح العرق منهم وتغمر اللزوجة سائر أعضائهم - سوف يتبادلون القبلات كيما يولد ، من أجل المدينة ، غذاء جديد طازج يسد جوعها الذي لا يشبع . . .

إنهم يسировون ولا يندء ضحك عنهم ، ولا يتردد لهم حديث يشوبه المرح ، ولا ترى لهم ابتسامات تشع وتضيء ! السيارات تنقنق دون انقطاع ، والسيارات تفرقع في الهواء دون هواده ، والخطوط الكهربائية تدوي بأغنياتها المهيبة دون أن تعرف للراحة معنى ، والقاطرات تجري في

ضوضاء وصخب دائبين . ومما لا ريبة فيه ان الموسيقى
تعزف في مكان ما .

وهؤلاء باعة الصحف الصغار تبعُ أصواتهم بالهتاف
المستمر اعلانا عما عندهم من صحف ، بينا يمتزج لحن
بغيفض صادر عن أرغن بربري بصيحة ثاقبة تدفُ من مكان
ما في هذا العناق نصف المفجع ونصف المضحك معاً ، والذي
يضمُ القاتل وبهلول السراقات . إن الناس الصغار يتحركون
دون إرادة مثل حجارة تتدحرج من أعالي الجبل .

وتشتعل الأضواء الصفر متزايدة العدد أكثر فأكثر ،
وتتراقص كلمات متأثرة على الجدران ، تتحدث عن البجة ،
وعن الويسكي ، وعن الصابون ، وعن موسى جديدة للحلاقة ،
وعن القبعات ، ولغائف التبغ ، والمسارح ، في حين لا تتناقص
أبداً زمجرة الحديد الذي يتدفق دوماً ، على طول الشوارع ،
تحت الدفع النهم للذهب الأصفر ؛ لا بل إن هذا العواء غير
المنقطع لأبعد مغزى الآن ، بعد ان أخذت الأنوار تشعّ في
كل حذب وصوب ، فهو يكتسب معنى جديداً ، وقوة أشدّ
وطأة أيضاً .

إن نور الذهب السائل ، هذا النور الذي يعمي الأبصار ،
يسيل من جدران البيوت ، ومن اللافئات ، ومن نوافذ
المطاعم . . إنه يهتزّ ، في وقاحة وشماعة ، ظافراً في كل
مكان . . . إنه يجرح الأعين ويشوّء الوجوه ببريقه
المتجمد ، وتراقصه الماكر يفضح الرغبة الحادة في ابتزاز
بقايا أجور الناس من جيوبهم ، فهو يجمع ومضائيه إلى
بعضها ليجعل منها كلمات من النار تدعو - خرساء صامتة -

العمال نحو ملذات رخيصة بخسة الثمن ، وهي تعرض عليهم
أموراً ملائمة تتناسب وأذواقهم . .

إنها لرهيبة حقاً كمية النور في هذه المدينة ! ويجد
المرء ذلك جميلاً للوهلة الأولى ، لأنسه يرسل الغبطة في
القلب إذ يشيره . إن النار ، لعنصر حر ، ابنة الشمس
المتكبرة ، عندما تنتشر وتزدهر رائحة غزيرة ، فإن أزاهيرها
تغفق وتحيا أجمل من سائر أزاهير الأرض طراً . إنها تظهر
الحياة . إنها تستطيع أن تفني كل ما هو عتيق ، ميت ، قدر .
ولكن عندما يرى المرء ، في هذه المدينة ، إلى النور
سجيناً في بلور شفاف ، فهو يدرك أنها - مثلها مثل كل
شيء آخر - قد أخضعت هنا للعبودية أيضاً . إنها تخدم
الذهب ، ولا تخدم إلا الذهب وحده . إنها بعيدة ، في عداوة
ونفور ، عن البشر ، نائية كثيراً .

إن النار ، مثل كل شيء آخر - مثل الحديد والحجر
والخشب - تتآمر هي الأخرى على الإنسان . إنها تعميه ، إنها
تدعوه :

- تعال إلى هنا !

كي تضيف في التو واللحظة :

- أعط مالك ! . .

ويلبي الناس ندائها ، فيشترون بضاعة سيئة الصنع لا
حاجة بهم إليها ، ويتطلعون إلى مشاهد تعمي بصائرهم
وقلوبهم .

ويراود المرء شعور بأن كتلة كبيرة من الذهب تدور ،
في مكان ما في مركز المدينة ، بسرعة مخيفة ، وهي ترسل

نباحاً مقيتاً يعبر عن لذتها وسرورها . إنها تنشر عبر الشوارع غباراً دقيقاً يسعى الناس طوال النهار ، في شره ، كي يطبقوا على حباته ويستولوا عليها . ولكن كرة الذهب ، حينما يهبط المساء ، تأخذ في الدوران في اتجاه معاكس ، وتثير إعصاراً من النار لا حرارة فيه يمتصُّ البشر كي يسترد منهم غبار الذهب الذي جمعه أثناء النهار . وإنهم ليردون دوماً أكثر ممّا أخذوا ، فإذا كرة الذهب ، في الغداة ، قد ازدادت حجماً وغدا دورانها أكثر سرعة أيضاً ، والصياح الظافر الذي يطلقه الحديد - عبداً - أعنف وأشدّ ارتفاعاً ، وصخب سائر القوى التي استعبدها أكثر إرهاباً وضجيجاً .

وتروح كرة الذهب ، وقد ازدادت نهماً وقوة عنها في العشية ، تمتصُّ دم البشر ودماغهم ، كي يستحيل هذا الدماغ وذلك الدم - إذا حلّ المساء ثانية - معدناً أصفر متجمداً . إن كرة الذهب هي قلب المدينة وخفقانها هو ينبوع الحياة ، وتضخمها هو معنى الحياة .

ولذا فإن الناس يقضون أياماً طويلة مديدة وهم يحفرون الأرض ويخدونها ، ويصهرون الحديد ويجمدونه ، ويبنون المنازل ويشيدونها ، يتنفسون دخان المعامل ويزفرونه ، ويمتصون بكل مساهمهم قذارة هواء مريض يعجّ بالسموم : هكذا يبيعون جسدكم الجميل .

وذلك سحر بغيض يخدر فكر البشر ، ويجعل منهم آلات ضائعة في يد الشيطان الأصفر ، المعدن الذي يستنزف منه الذهب دون كلل ، يستنزف منه لحمه ودمه جميعاً .

إن الليل يأتي من بيداء المحيط ، ينفخ على المدينة
أنفاسه المالحة الندية ، فتخرقه الأنوار الباردة بآلاف من
الخطوط ، وهو يتقدم باستمرار ويلفّ مشفقاً بشاعة
المنازل وعار الشوارع الضيقة باردية قاتمة ، مغطياً أسما
البؤس القدرة يخفيها عن الأبصار . وإلى الأمام منه يبدو
ذلك العواء المتوحش الصادر عن الجشع المجنون فيمزق
سكونه ويعكّر هدوءه في قسوة شديدة . ولكن الليل يتابع
مسيره فيطفيء ببهاء عظيم البريق الوقح الذي يندّ عن
النار المستعبدة ، ويخلق بيده العذبة قروح المدينة المتقيحة
ويواسيها .

ولكنه حينما يتغلغل في تيه الطرقات تعجز أنفاسه
الندية عن التغلب على أبخرة المدينة الفاسدة وبعثرتها . إن
الليل يحثكُ بحجر الجدران الذي ادفاته الشمس ، ويزحف
على صفيح السطوح الصدى ، وفوق طين الشوارع اللزج ،
ويتشرب الأغبرة السامة وابتلع الروائح المتصاعدة من كل
مكان ، ومن ثم يستقرّ ، وقد سقطت أجنحته ، جامداً معدوم
القوى على سطوح المنازل وفي حفر الطرقات ؛ لم يبق منه
سوى الدياجير فحسب ، أما نداءه فقد تلاشى بعدما امتصّه
الحجر والحديد والخشب وراثت البشر المتدربة . إن الليل قد
خلا من كل سكون ، وتجرّد عن كل شاعرية .

وهذه المدينة تنام في جوّ خانق محموم ، وهي تزمجر مثل
حيوان ضخم . لقد التهمت كثيراً من الغذاء أثناء النهار ، فهي
تحسّ الحرّ الآن ، وتستشعر الضيق ، وترى أحلاماً ثقيلة
ردية .

وتنطفئ* الأنوار وهي تنتفض . لقد تحققت مهمتها البائسة في تحريض الناس وخدمة الاعلان . وهذه المنازل تبتلع البشر ، بعضهم في إثر بعض ، في احشائها الحجرية القاسية . إن رجلاً هزيراً وافي القامة ، محدوب الظهر ، يقف في زاوية من الشوارع : هذا هو يدير رأسه ببطء ذات اليمين وذات اليسار ، وترسل عيناه الكدرتان نظرة ضجرة عن يمين أولاً ، ثم عن شمال . إلى أين يذهب ؟ الشوارع كلها متشابهة ، والدور تتراشق النظر بذات اللامبالاة وذات الجمود من غشاوات نوافذها البيض الشاحبة .

ويطبق حنين خائق على عنقك بيده الدافئة ، ويعوق تنفسك ، ويسد عليك مجاري الهواء . إلى الأعلى من السطوح تركد السحابة الشفافة المتشكلة من الأبخرة النهارية المتصاعدة من المدينة البائسة الملعونة . ومن خلال هذه الأبخرة ، في أعالي السماء ، التي لا تطل ، يتراقص نور النجوم الشاحبة في سكون .

ويخلع الرجل قبعته ، ويرفع رأسه ، ويتطلع الى فوق . إن ارتفاع المنازل في هذه المدينة يبعد السماء عن الأرض أكثر من أي مكان آخر . وإن النجوم لصغيرة وحيدة . ويتردد عن بعد صوت بوق نحاسي مذعور فتنفض ساقا الرجل الطويلتان بصورة غريبة ، ثم يتوغل في إحدى الطرقات . إنه يتقدم في ببطء وتمهل ، مطرق الرأس ، وهو يؤرجح ذراعيه كثيراً . لقد تقدم الليل ، وراحت الشوارع تقفر أكثر فأكثر ، وأشباح بشرية صغيرة ، منعزلة ، تمحي في الظلمات فكانها ذبابات صغيرة . وفي زوايا الشوارع

ينتصب رجال الشرطة جامدين في ثيابهم الرمادية ، وأيديهم ممسكة بالهراوات . . . إنهم يمضغون التبغ ، وهم يحركون فكوكهم في بطة شديد .

ويعمرّ الرجل أمامهم ، من أمام أعمدة الهاتف ، من أمام جمهرة من الأبواب السود التي ترسم ، في جدران المنازل ، حلوقها المغفورة على هيئة مربعات واسعة . وتزمجر قاطرة كهربائية عن بعد وتعوي ، بينما يروح الليل يحتضر ، مخنوقاً في أقفاص الطرقات العتيقة . . إن الليل قد مات .

وذلك الرجل يتقدم بخطوات موقعة ، ويتأرجح جسده الطويل المنحني إلى سائر الجهات . إن في هيئته شيئاً يفكر ، شيئاً ينمّ عن العزم ، بالرغم من بعض التردد فيه . لعله لص سارق !

جميل أن يرى المرء إنساناً يحسّ الحياة في شبك المدينة السود !

إن التوافد المفتوحة تعبق برائحة خائقة من العرق البشري .

وهناك أصوات صمّاء ، غير مفهومة ، تتحرك ناعسة في الظلمات الخائقة ، المحملة بالعذاب والقلق .

لقد رقدت مدينة الشيطان الأصفر المظلمة واستغرقت في نوم يقطعه الهذيان .

انشودة نذير العاصفة •

الرياح فوق منبسط المحيط الواسع تجمّع سحب
العاصفة ، وفي المدى المترامي بين السحب والمحيط هبّ
نذير العاصفة يحوّم أشبه بشعاع من وميض أسود .

آونة يداعب الموج بجناحيه ، وأخرى ينطلق مثل
السهم ، يشقّ السحب صائحاً في احتداد وقوة ، فيما السحب
تكشف عن خفة وطرب في بحّات الطائر الشجاعة .

في تلك البحّات كان يرنّ صدى التوق إلى العاصفة ! . .
كان يتقد لهيب عاطفته ، وأجيج غضبه ، وثقته بالنصر .
وطفت طيور النورس تننّ من الخوف - تننّ وهي
تتلاطم فوق المياه ، وتروح تخبئ خوفها في أعماق المحيط
السوداء .

وكانت طيور الغوّاص تنوح هي الأخرى ، فهي لا تفقه
معنى للطرب الطاغى المتدفق في معنى النضال . وأزيز الرعد
يفصمها رعباً .

وكانت طيور البطريق الخرقاء تربض بين شعاب الجبال ،
في حين لم يكن يقتحم السماء بفخارٍ غيرُ نذير العاصفة ،
حوّمًا فوق المحيط على ذرى المياه المفضضة !

وشرعت سحب العاصفة تزداد اقتراباً من المياه ، وتتفاقم
سواداً ، فيما الأمواج المغنية تتسامق في شوقها إلى العاصفة
المقبلة .

* يقصد الكاتب به طائر النوء الذي يرمز عنده الى بشير
الثورة . الناشر .

وضرب الرعد ضربته ، فهبَّت المياه تتعارك مع الرياح
في ضراوة ، فتضئها الرياح إلى صدرها في عنف في عناق
مستमित ، ومن بعدُ تطوَّح الأمواج الزمردية فتخطمها على
الصخور .

إن نذير العاصفة يحوِّم ويصيح أشبه بشعاعة من وميض
أسود ، شاقاً عباب سحب العاصفة مثل السهم ، باتراً
تجمعات المياه . . .

انه يندفع مثل الشيطان ، مثل شيطان العاصفة الأسود ،
ضاحكاً ناشجاً . . . إنه يضحك من سحب العاصفة ، وينشج
من فرط سروره !

إن هذا الشيطان الحكيم يسمع منذ زمن في غضب الرعد
تعب هذا الرعد ، تفعه الثقة من أن السحب لن تحجب وجه
الشمس ، لن تحجب وجه الشمس !

وتزمجر الرياح . . . وتتخطم الرعود . . .

وتنتشر أومضة البرق عبر سحب العاصفة فوق منبسط
المحيط الواسع ، فيما اندفاعات اللهب تقع أسيرة بين يدي
المياه فتطفي أوارها ، وتتلوى الانعكاسات الحلزونية منطفئة
هي الأخرى في الأعماق .

- العاصفة ! العاصفة سرعان ما تنفجر !

إن نذير العاصفة الشجاع يحوِّم بفخار بين وميض
البروق ، فوق المحيط المزمجر الغاضب ، وصدى صراخه
يرن متهللاً مثل نبوءة الانتصار . . .

- ألا فلتنفجرن العاصفة بملء غضبتها وزئيرها ! . .

١٩٠١

المحتويات

٣	مقدمة
٢١	ماكار تشودرا
٤٣	رفيقي في الطريق
٩٦	الجد ارخيبي وليونكا
١٣٤	العجوز ايزرغيل
١٧٠	تشيلكاش
٢٢٧	مرة ، في الخريف
٢٤٢	انشودة العقاب
٢٥١	كونوفالوف
٣٣٦	مالفا
٤٣١	سنة وعشرون رجلا وفتاة واحدة
٤٥٥	في أميركا . مدينة الشيطان الاصفر
٤٧٩	انشودة نذير العاصفة

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا
تفضلتم وايدتكم لها ملاحظاتكم حول ترجمة
الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتكم
لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي يولفار ، ١٧
موسكو - الاتحاد السوفييتي

مؤلفات مكسيم غوركي المختارة
بسته مجلدات تحتوى على الكتب التالية :

المجلد ١ - طفولتى

المجلد ٢ - بين الناس . جامعياتى

المجلد ٣ - قصص (عام ١٨٩٢ - عام
١٩١٢)

المجلد ٤ - قصص (عام ١٩١٢ - عام
١٩٢٦)

المجلد ٥ - الام

المجلد ٦ - مسرحيات

تفتتح المؤلفات بمقدمة عن مكسيم

غوركى كتبها الكاتب الاعلامى البارز

ومؤرخ الادب والفن ، اول مفوض

سوفييتى للثقافة ، الاماديبى اناطولى

لونا تشارسكى (١٨٧٥ - ١٩٢٣) .

